

الجزء الحادي عشر

سورة التوبة آية ٩٣
إلى سورة هود آية ٥

عدد الفوائد: ٣٠٨

يقول الشيخ محمد البشير الإبراهيمي:

«إن العالم في عذاب، وعندكم كنز الرحمة.
وإن العالم في احتراب، وعندكم منبع السلم.
وإن العالم في غمة الشك، وعندكم مشرق اليقين.
فهل يجمل بكم أن تعطّلوه، فلا تنتفعوا به ولا تنفعوا؟!
أحيوا قرآنكم تحيوا به، حقّقوه يتحقّق وجودكم به،
أفيضوا من أسرارهم على سرائركم، ومن آدابهم على نفوسكم،
ومن حُكمهم على عقولكم، تكونوا أطباء، ويكن بكم دواء».

آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ١-٣٦٥

الجزء الحادي عشر
سورة التوبة آية ٩٣
إلى سورة هود آية ٥

﴿وَسَيَرَىٰ اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ٩٤]:

اطلاع الله على الضمائر كاطلاعه على الظواهر، فأى عقل في الاستخفاء منه؟!

﴿سَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ﴾ [التوبة: ٩٥]:

إخبار بالمستقبل! بما سيلقى به المنافقون المسلمين قبل وقوعه، وبعد رجوع المسلمين من الغزو.

﴿إِنَّهُمْ رَجَسٌ﴾ [التوبة: ٩٥]:

قال الرازي: «خبث باطنهم رجس روحاني، فكما يجب الاحتراز عن الأرجاس الجسمانية، فوجوب الاحتراز عن الأرجاس الروحانية أولى، خوفاً من سريانها إلى الإنسان، وحذراً من أن يميل طبع الإنسان إلى تلك الأعمال».

﴿تَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦]:

المنافق مستعد للحلف كاذباً ليُرضي الخلق، أما حكم الله فيه فأخر اهتماماته.

﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢]:

إذا لم تستطع التخلص من السيئات، فزاحمها بكثرة الحسنات، وستغلب الكثرة القلة: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾.

اجعل من نياتك عند الشروع في طاعاتك أن تمحو بها آثار سيئاتك.

﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]:

شرع الله الصدقة من أجلك أنت قبل الفقير.

﴿صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣]:

كان بعض المتصدقين يضع الصدقة في يده، ثم يدعو الفقير لتناولها من يده، لتكون يد الفقير هي العليا، ويد المنفق هي السفلى!

﴿حُذِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣]:

التوبة المالية!! إذا ابتليت بذنب وأردت أن تتطهر منه، فاستعن عليه بالصدقة.

﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾

[التوبة: ١٠٤]:

قال ابن كثير: «هذا تهيج إلى التوبة والصدقة اللتين كل منهما يحط الذنوب ويمحقتها».

﴿فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ﴾ [التوبة: ١٠٥]:

كل طاعاتك يراها الله، فلا تشرك معه فيها غيره؟!

﴿وَأَخْرُوتَ مُزْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦]:

استمرت غزوة تبوك خمسين يوماً، واستمرت مقاطعة المسلمين للصحابة الثلاثة الذين تخلفوا بغير عذر -حتى يقضي الله في أمرهم- خمسين يوماً كذلك؛ تأديباً لهم على ضرورة امتثال أمر الله، وليكون هذا التأديب على مرأى ومسمع من المجتمع، ليأخذ الجميع العبرة من هذا التأديب.

﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا﴾ [التوبة: ١٠٧]:

اتخذ النفاق في العهد النبوي أشكالا لا يتصور أن يتسلل إليها النفاق، وهي بناء المسجد، فكيف بعهدنا اليوم؟! الحذر أولى.

﴿فِيهِ رِجَالٌ مُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ [التوبة: ١٠٨]:

إذا أردت أن تطهر قلبك وتزكي روحك، فاعتكف في مسجد، واذكر الله تعالى فيه.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَنَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَنَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩]:

صاحب الباطل سرعان ما تزل قدمه نحو النار؛ لأنه ينجرف إلى سلسلة سيئات لا ينفك منها حتى تدخله فيها، وعلى رأس أهل الباطل: المنافقون.

﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ١٠٩]:

قلما تاب ظالم، وقلما ردَّ المظالم، والسبب أن الله عاقبه على ظلمه بحرمانه من الهداية.

﴿لَا يَزَالُ بُنْيَنُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة: ١١٠]:

بنوا مسجد الضرار، فما زال شكهم، بل تزايد نفاقهم حتى بعد هدم مسجدهم، فبعض معاصيك تنال من إيمانك، وتزيد من أسباب نفاقك.

جعل نفس البنيان ريبة لكونه سبباً لحصول الريبة، فلما أمر النبي ﷺ بتخريب ما بنوا ازداد بغضهم له، وارتياهم في نبوته، فارتفع إيمانهم، وازداد نفاقهم.

﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠]:

لا نجاة للمنافق مما انحدر إليه إلا أن يتوب توبة صادقة، يتقطع منها قلبه ندمًا وأسفًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ [التوبة: ١١١]:

ماذا تساوي نفوسنا المعيبة - وإن طهرت - حتى يشتريها الله منا بهذا الثمن؛ لذا قال الحسن البصري: «بايعهم والله فأغلى ثمنهم».

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾

٢٧/١٤

[التوبة: ١١١]:

قال محمد بن الحنفية يحثك على تزكية النفس بالعمل الصالح: «إن الله عز وجل جعل الجنة ثمنًا لأنفسكم، فلا تبيعوها بغيرها».

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١]:

٢٧/١٥

أنت لا تملك نفسك، ولا يحق لك التصرف فيها دون إذن مالِكها، فإنما يتصرف في ما اشتراه منك وبعته له، وأعطاك في المقابل الجنة، أرَجَعْتَ في بيعتك؟! أم أنك لم تبع وزهدت في الجنة من الأساس؟! وإذا بعت.. أيجسن لمن باع شيئًا أن يغضب على المشتري إذا تصرّف فيه حسب ما يراه؟ وماذا لنا فينا حتى نتكلم؟!

كيف بَعْتَ النفس الثمينة بشهوة تنقضي في لحظة؟! وبلذة لا تبقى سوى ساعة؟! وهبها بقيت أياما أو أعواما فماذا تساوي بجوار لذة الخلد؟! وبعته لمن؟! لأعدى أعدائك: شيطانك!!

٢٧/١٦

حكى عن مالك بن دينار أنه مرَّ بقصر يُبنى، فسأل العُمَّال عن أجرتهم، فأجاب كل واحد منهم بأجرته، ولم يجبه واحد، فقال: ما أجرتك؟ فقال: لا أجري؛ لأنني عبد صاحب القصر، فقال مالك: إلهي.. ما أسخاك، الخلق كلهم عبيدك، كلّفْتهم العمل ووعدتهم الأجر.

٢٧/١٧

البائع لا يستحق الثمن إذا امتنع عن تسليم ما باع، فكذلك لا يستحق عبدُ الجنة إلا بعد تسليم النفس والمال.

٢٧/١٨

﴿وَمَنْ أَوْفَ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١١١]:

٢٧/١٩

قال الزمخشري:

«لأن إخلاف الميعاد قبيح، لا يُقدِّم عليه الكرام من الخلق مع جوازه عليهم لحاجتهم، فكيف بالغني الذي لا يجوز عليه قبيح قط؟».

﴿التَّائِبُونَ الْعَبِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الَّاسْتِخُوتَ الرَّازِكُونَ
السَّاجِدُونَ الَّامِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ
لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢]:

هيا هيا.. تسابقوا إلى التَّحَلِّي بهذه الخصال، واحرصوا على بلوغ أوفى درجات الكمال.

قال الجمل: «ذكر الله تعالى في هذه الآية تسعة أوصاف للمؤمنين، الستة الأولى منها تتعلق بمعاملة الخالق، والوصفان السابع والثامن يتعلقان بمعاملة المخلوق، والوصف التاسع يعمُّ القبيلين».

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]:

روى الترمذي والنسائي عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رجلاً يستغفر لأبويه المشركين، فقلت له: أتستغفر لأبويك وهما مشركان؟ فقال: أليس قد استغفر إبراهيم لأبويه وهما مشركان؟ فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فنزلت هذه الآية.

قال القرطبي: «قال كثير من العلماء: «لا بأس أن يدعو الرجل لأبويه الكافرين ما دام حيين، فأما من مات على الكفر فقد انقطع عنه الرجاء، فلا يُدعى له».

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ﴾ [التوبة: ١١٤]:

تأمل هذا الوصف البليغ في الولاء والبراء، فاقتف أثر خليل الرحمن، وتبرأ من كل عدو لك ولدينك ورسولك والمؤمنين.

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]:

تأمل كيف اجتمعت صفة الحلم والغلظة في شخص واحد، فالحلم ليس معناه أبداً التهاون في أمر الدين.

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا

يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]:

لا عقوبة إلا بتجريم، ولا تجريم إلا بنص، والله لا يعاقب من لم تبلغه الرسالة. كان المؤمنون قد استغفروا للمشركين قبل نزول الآية، فلما نزلت خافوا بسبب ما صدر عنهم قبل ذلك، فأزال الله خوفهم بهذه الآية.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [١١٥] إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ نَحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ١١٥، ١١٦]:

لما أمر الله بالبراءة من الكفار بيّن أنه له ملك السموات والأرض، حتى لا يخاف المسلمون من إضرار المشركين لهم، فالله هو الولي وهو النصير.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ نَحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [التوبة: ١١٦]:

انقطع المسلمون عن موالاته الكافرين، فحرموا من معونتهم ونصرتهم، فطمأنهم الله أن ذلك لا يضرهم؛ لأن بيده كل شيء، ومن ذلك: نصره عباده.

هذا تسهيل من الله لعباده كي يتبعوا أمره، فلما أمرهم بهذه التكاليف الشاقة أوضح سبب وجوب الانقياد له، بكونه مالك كل شيء، وكلنا عبيد له.

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧]:

قال ابن القيم: «وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها، فإنه تاب عليه أولاً إذناً وتوفيقاً وإلهاماً، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانياً، قبولاً وإثابة».

قال ابن القيم: «التوبة نهاية كل عارف، وغاية كل سالك، وكما أنها بداية فهي نهاية، والحاجة إليها في النهاية أشد من الحاجة إليها في البداية، بل هي في النهاية في محل الضرورة؛ لذا كان ﷺ في آخر حياته أشد ما كان استغفاراً وأكثره، وأنزل الله بعد غزوة تبوك، وهي آخر الغزوات التي غزاها ﷺ بنفسه: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾».

﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧]:

قال أبو العباس المرسى:

«ذكر الله توبة من لم يُذنب (النبي والمهاجرون والأنصار) كي لا يستوحش مَنْ أذنب».

﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧]:

وصف الله العسر بأنه ساعة من نهار؛ كي لا تضجر من الأقدار!

﴿مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة: ١١٧]:

صحابة، ومجاهدون، وفي معية النبي ﷺ، ومع هذا تكاد قلوب بعضهم أن تزيغ، وبعضنا واثق في قلبه، ومطمئن على إيمانه! على أي أساس هذا الإحساس؟!

﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٧]:

تحتاج لأن يتوب عليك أولاً لتتوب، فالتوبة ليست مجرد قرار شجاع، هي قبل ذلك هداية ورحمة وتوفيق من الرحمن.

﴿وظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ [التوبة: ١١٨]:

أضيق ما يكون الأمر قبيل الفرج!

قال مجاهد:

«ما كان من ظن في القرآن فهو يقين»، فلما أيقنوا ألا ملجأ إلا الله، صدق منهم اللجوء إليه، فتداركهم بالشفاء، وأسقط عنهم البلاء.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]:

كونوا معهم، ولا تتفردوا في السير من دونهم، كي لا يستفرد بكم شيطان، فالجماعة بركة، والفُرقة عذاب.

﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]:

لن تستطيع أن تكون تقيًا إلا إن كنت في بيئة صالحة!

الصدق من أهم معايير اختيار الصحبة، فلا يصلح أن تصاحب كاذبًا.

﴿وَلَا يَطْفُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّانَ﴾ [التوبة: ١٢٠]:

الوطء في سبيل الله هو أن تدوس أرض العدو بما يغيظه، فإن العدو يأنف من وطء أرضه، وقد يكون الوطء استعارة لإذلال العدو وإغاظته، فكل عمل تغيظ به أعداء الله، فلك به أجر، ولو كان خطوة واحدة.

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً﴾ [التوبة: ١٢٠]:

لا تحقرن صغيرة من خير، فأصحاب الأعراف يوم القيامة يوقفون عن دخول الجنة، لنقصان حسنة واحدة!

﴿وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾:

بدأ بذكر الصغيرة كي لا تحقر شيئاً من المعروف.

جاء في مسند أحمد عن النبي ﷺ:

في الحديث: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تعطي صلة الحبل.

ولو أن تعطي شسع النعل.

ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي.

ولو أن تنحّي الشيء من طريق الناس يؤذيهم.

ولو أن تلقى أخاك ووجهك إليه منطلق.

ولو أن تلقى أخاك فتسلم عليه.

ولو أن تؤنس الوحشان في الأرض».

والوحشان: الغريب

﴿وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢١]:

حتى قطع الطريق إلى العمل كل يوم مكتوب في ميزان حسناتك، إذا أصلحت نيتك.

﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ

لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]:

قال القرطبي: «هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم».

﴿وَلْيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٢]:

من أهم نيات طلب العلم: نشره، وليس كما يفعل البعض من التباهي به والتكبر على الخلق.

﴿لَيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلْيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢]:

كان الظاهر في الآية (ليتفقهوا في الدين وليعلموا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يفقهون). فلماذا وضع الإنذار موضع (التعليم)؟! و(يحذرون) بدلا من (يفقهون)؟

والجواب: ليلفت النظر إلى أن الغرض من التعليم: الإنذار، والغرض من الفقه: الحذر من غضب الله.

﴿لَيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: ١٢٢]:

قال الغزالي: «كان اسم الفقه في العصر الأول، اسما لعلم الآخرة، ومعرفة دقائق آفات النفوس، ومفسدة الأعمال، والإحاطة بحقارة الدنيا، وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة، واستيلاء الخوف على القلب. ويدل عليه هذه الآية».

قال الزمخشري في الآية:

«وليجعلوا غرضهم وهمتهم في التفقه، إنذار قومهم وإرشادهم والنصيحة لهم، لا ما ينتحيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة، ويؤمنونه من المقاصد الركيكة، من التصدر والترؤس والتبسط في البلاد، والتشبه بالظلمة في ملابسهم ومراكبهم، ومنافسة بعضهم بعضا، وفشو داء الضرائر بينهم، وانقلاب حمايق أحدهم إذا لمح ببصره مدرسة لآخر، أو شرذمة جثوا بين يديه، وتهالكة على أن يكون موطأ العقب دون الناس كلهم، فما أبعد هؤلاء

من قوله عز وجل: ﴿لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]

﴿يَتَأَيُّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَتَلُوا الَّذِينَ يُلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣]:

قال السيوطي: «فيها أنه يجب الابتداء في القتال بالأقرب إلى بلد المقاتلين».

﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٣]:

من سُنن الجهاد البدء بالعدو الأقرب فالأقرب، وليس أقرب إليك من نفسك التي بين جنبيك!

في الحديث: «أفضل الجهاد: أن تجاهد نفسك وهواك في ذات الله عز وجل». السلسلة الصحيحة رقم: ١٤٩٦.

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣]:

معية الله للمتقين معية نصره وتوفيق وتأييد وإعانة وتثبيت، وكل ما يحتاجونه.

﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]:

لاحظ تواصي المنافقين بالنفاق، وتثبيتهم لبعضهم البعض حتى لا يؤمنوا!

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة: ١٢٤]:

تعرضك لآيات القرآن يزيد من إيمانك، وغيابك عنها قراءة وتدبراً سبب نقص إيمانك.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]:

تنزل الآية على القلوب، فتكون سبباً في زياد إيمان قوم، وزيادة رجس -أي كفر وشك- قوم آخرين.

﴿أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦]:

بعضنا مهما ابتلاههم الله بالشدائد ليردهم إليه لا يرجعون، وعلى غفلتهم يصرون.

﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [التوبة: ١٢٧]:

قصة حديث تشرح آية!

بينما رسول الله ﷺ جالس في المسجد إذ أقبل ثلاثة نفر، فأما الأول فرأى فرجة في

الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبا، فقال ﷺ: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة: أما أحدهم فأوى إلى الله، فأواه الله، وأما الآخر فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض، فأعرض الله عنه». صحيح مسلم رقم ٢١٧٦.

﴿٢١/٦١﴾ إعراض مديره عنه يُقلِّقه، فكيف بإعراض الله؟!

﴿٢١/٦٢﴾ سين: لم صرف الله قلوبهم؟!

جيم: لأنهم انصرفوا، فصرف الله قلوبهم عن الهدى؛ عقوبة على انصرافهم أولا.

﴿٢١/٦٣﴾ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَا مِنْ أَحَدٍ [التوبة: ١٢٧]:

المنافق تُقلِّقه سورة! فكيف بالقرآن كله؟!

﴿٢١/٦٤﴾ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ [التوبة: ١٢٨]:

هذا ترغيب للعرب في الإيثار بالنبي ﷺ وطاعته، فهو منكم، وكل ما يحصل له من العز والشرف في الدنيا عائد إليكم.

﴿٢١/٦٥﴾ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ [التوبة: ١٢٨]:

قال الإمام الرازي: «يشق عليه ضرركم، وتعظم رغبته في إيصال خير الدنيا والآخرة إليكم، فهو كالطبيب المشفق والأب الرحيم في حقكم، والطبيب المشفق ربما أقدم على علاجات صعبة يعسر تحملها، والأب الرحيم ربما أقدم على تأديبات شاقة، إلا أنه لما عرف أن الطبيب حاذق، وأن الأب مشفق، صارت تلك المعالجات المؤلمة متحملة، وصارت تلك التأديبات جارية مجرى الإحسان».

﴿٢١/٦٦﴾ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ [التوبة: ١٢٨]:

لم يجمع الله لأحد من الأنبياء اسمين من أسمائه إلا للنبي ﷺ فإنه قال: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وقال عن ذاته سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ [التوبة: ١٢٩]:

٢٧/٦٧

قل لكل شيء فقدته، ولكل غالٍ هجرك، ولكل قريب تخلى عنك: حسبي الله.. يكفيني ويؤويني.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]:

٢٧/٦٨

خصَّ العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات، فإذا أحاط الله به فقد أحاط بمن دونه، فكيف لا تتوكل عليه؟!

﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٩]:

٢٧/٦٩

قال ابن عباس:

«العرش لا يقدر أحدٌ قدره»، فهذه عظمة العرش، فكيف بعظمة رب العرش؟!



سورة يونس

﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]:

ثلاثة معانٍ للحكيم: الحكيم هو ذو الحكمة، أو الحكيم بمعنى الحاكم، أو الحكيم بمعنى المحكم ضد تسلل الباطل، فلا كذب فيه ولا تناقض ولا اختلاف.

﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [يونس: ٢]:

تبشير المؤمنين سنة غفل عنها الكثيرون، وما أكثر ما قال رسول الله ﷺ لأصحابه كلمة «أبشِّر»، وبها أمرنا: «بشِّروا ولا تنفِّروا».

﴿قَدَّمَ صِدْقٍ﴾ [يونس: ٢]:

حقيقة القدم ما قدم العبد، ويقدم عليه يوم القيامة، والمؤمنون قدَّموا العمل الصالح، والإيمان بالنبي ﷺ، فيقدمون على الجنة التي هي جزاء ذلك، فهذه ثلاثة تفسيرات لقدم صدق.

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [يونس: ٣]:

قال السعدي: «مع أنه قادر على خلقها في لحظة واحدة، ولكن لما له في ذلك من الحكمة الإلهية؛ ولأنه رفيق في أفعاله».

﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣]:

فرَّغ قلبك من همومك وتدبيرك، وفوِّض أمرك وأسلم قيادك لمن وعدك بتدبير الأمر لك ولغيرك.

قال سهل التستري: «يقضي القضاء وحده، فيختار للعبد ما هو خير له، فخيرة الله خير له من خيرته لنفسه».

﴿تَكَرَّرَ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَرْبَعُ مَرَّاتٍ؛ لَتَنْزَعَ مِنْ قَلْبِكَ أَوْهَامُ أَنْ أَمْرَكَ بِيَدِ أَحَدٍ غَيْرِ اللَّهِ.﴾

﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٤]:

يا من طال غيبته: ارجع إليه طوعاً قبل أن ترجع إليه بالموت قهراً.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [يونس: ٤]:

قال الضحاك: «يُسْقَى من حميم يغلي من يوم خلق الله السموات والأرض إلى يوم يُسْقونَه، ويُصَبُّ على رؤوسهم».

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٤]:

لما كانت الشمس أعظم حجماً خُصَّت بالضياء؛ لأن له سطوعاً ولمعاناً، وهو أعظم من النور، ومن ضخامة حجم الشمس أنها يمكن أن تحوي داخلها مليون وثلاثمائة ألف كرة أرضية!

﴿جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٤]:

لاحظ دقة التعبير القرآني! فالضوء أقوى من النور، والضوء يأتي من إشعاع ذاتي، فالشمس ذاتية الإضاءة، فإذا استقبل القمر ضوءها عكس النور.

﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا

بِالْحَقِّ﴾ [يونس: ٥]:

كل المواعيد والمواقيت ومصالح العباد الحياتية والعبادية تنضبط بالشمس والقمر عبر آلاف السنين، هل هذا مصادفة عابرة؟! كلا بل هو قدرة قاهرة وآية باهرة.

﴿إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [يونس: ٦]:

ما دلالة اختلاف الليل والنهار؟!

والجواب:

- دليل على وجود الإله، فحدوث الليل والنهار من أثر حركات الأجرام السماوية، ولا بدَّ لها من محرِّك.

- دليل على التوحيد، فلو أن إله الليل كان غير إله النهار، لاختلفا واضطرب الكون، فانتظام الكون دليل على وحدانية الله.

- دليل الرحمة، فاعتدال الكون من أثر تعاقب الليل والنهار، إذ لو دام الليل لتجمد العالم من البرودة، ودوام النهار يجعل الحرارة لا تطاق.

﴿وَرَضُوا بِأَلْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَظْمَأْنُوا بِهَا﴾ [يونس: ٧]:

لا يأمرُك بترك الدنيا، لكن يأمرُك بعدم الاطمئنان بها والركون إليها، كي لا تقدّمها على آخرتك، أو تحضّل شهواتها من أي طريق فتهلك!!

﴿أُولَئِكَ مَأْوَهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٨]:

عذاب النار قسمان: حسي، ونفسي، فإن من أحب شيئاً حباً شديداً ثم ضاع منه، احترق قلبه وباطنه، فألم العذاب النفسي أشد بكثير من ألم العذاب الحسي.

﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ [يونس: ٩]:

ليست الهداية درجة واحدة ولا الإيـان، بل درجات، وتتناسب هدايتك طردياً مع إيمانك، فكلما زاد الإيـان زادت الهداية.

الإيـان باقة نور يهتدي بها المؤمنون في ظلمات الفتن ومتاهات الغربة، حتى البلوغ إلى الهدف المنشود: الجنة.

قال ابن جريج: «يُمَثَّلُ له عمله في صورة حسنة وريح طيبة إذا قام من قبره، يعارض صاحبه ويبيّنه بكل خير، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك، فيجعل له نوره من بين يديه حتى يُدْخِلَه الجنة، فذلك قوله تعالى: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾».

﴿دَعَوْنَهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ۖ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس: ١٠]:

الدعوى هنا هي الدعاء، ومعنى قولهم ﴿سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ﴾: نسبّحك ونزّهك عما لا يليق بك، فعبادة أهل الجنة التسبيح والحمد، ليس على سبيل التكليف بل تلذذاً، وهو لهم بمنزلة النَّفْس، دون كلفة أو مشقة.

﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]

لو أجاب دعاءك على نفسك أو عند غضبك على ولدك، لعجل بإهلاكك.

قال مجاهد: «نزلت في الرجل يدعو على نفسه أو ماله أو ولده إذا غضب: اللهم أهلكه، اللهم لا تبارك فيه والعنه، أو نحو هذا، فلو استجيب ذلك منه كما يستجاب الخير لقضي إليهم أجلهم».

﴿فَنَذِرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [يونس: ١١]

غياب الإيمان بالآخرة هو مفتاح الطغيان.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾ [يونس: ١٢]

قال الألوسي: «وفي الآية ذمٌ لمن يترك الدعاء في الرخاء، ويهرع إليه في الشدة، واللائق بحال العاقل التضرع إلى مولاه في السراء والضراء، فإن ذلك أرجى للإجابة، ففي الحديث الشريف: «تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة».

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «ادع الله يوم سرائك، يستجب لك يوم ضرائك».

﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مِّنْهُ﴾ [يونس: ١٢]

لا تحزن إن جحد الناس إحسانك، فمنهم من جحد فضل الخالق، فكيف لا يجحد فضل المخلوق؟!

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾ [يونس: ١٣]

الظلم ذنب عظيم عقوبته الإهلاك.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس: ١٣]

تذييل هدفه تهديد المجرمين المعاصرين بما جرى لأسلافهم من المجرمين السابقين.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ خَلِيفَ فِي الْأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٤]

أخبرنا الله بخبرهم، وما أصابهم بسبب ذنوبهم، فإن اعتبرنا بهم نجونا، ومن لم يعتبر بمن سبقه، اعتبر به من بعده.

٢١/٤٨ في صحيح مسلم: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءٌ خَصْرَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ».

٢١/٤٩ ﴿قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّكَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]:

ما أشبه الليلة بالبارحة! ألا تذكرك هذه الآية ببعض من ينادون بتخفيف لهجة الخطاب الديني أو تجديده!

﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [يونس: ١٥]:

هذا سبب تعنت المنافقين والكافرين تجاه القضايا الإسلامية والأحكام الشرعية، وأما من آمن بلقاء الله فلا بد أن ينقاد لأحكامه.

﴿إِنَّكَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾ [يونس: ١٥]:

قال الطبري: «والتبديل الذي سألوه أن يحول آية الوعيد آية وعد، وآية الوعد وعيداً، والحرام حلالاً، والحلال حراماً، فأمر الله نبيه ﷺ أن يخبرهم أن ذلك ليس إليه، وأن ذلك إلى من لا يُردُّ حكمه، ولا يُتَعَقَّبُ قضاؤه، وإنما هو رسول مبلغ ومأمور مُتَّبِع».

٢١/٥٢ ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَنْكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦]:

قال الزمخشري: «يعني أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله، وإحداثه أمراً عجبياً خارجاً عن العادات، وهو أن يخرج رجل أُمِّيٍّ لم يتعلَّم ولم يستمع، ولم يشهد العلماء ساعة من عمره، ولا نشأ في بلد فيه علماء، فيقرأ عليكم كتاباً فصيحاً، يبهز كل كلام فصيح، ويعلو على كل منشور ومنظوم، مشحوناً بعلوم من علوم الأصول والفروع، وأخبار مما كان ويكون ناطقاً بالغيوب التي لا يعلمها إلا الله، وقد بلغ بين ظهرائكم أربعين سنة تطلعون على أحواله، ولا يخفى عليكم شيء من أسرارِهِ، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك، ولا عرفه به أحدٌ من أقرب الناس منه، وألصقهم به».

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ١٧]:

إذا كان الكذب على الناس قبيحًا، فإنه على الله أقبح، وأكثر الناس ظلمًا هو من كذب على الله، بالتقوّل عليه كذبًا بالتحليل والتحريم، أو نسب إليه الولد والشريك.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨]:
دلالة على أنّ من يملك الضرّ والنفع فهو المعبود حقًّا؛ وهذه الأصنام إن عبدوها لم تنفعهم، وإن تركوا عبادتها لم تضرهم، فكيف يعبدونها؟!

﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس: ١٩]:
المراد أنها أمة واحدة في الدين الحق وهو التوحيد؛ لأنها الفطرة السليمة التي وُلِدَ الإنسان عليها قبل الانحراف.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ١٩]:
لولا ما سبق في حكم الله أنه لا يقضي بينهم إلا يوم القيامة؛ لقضى بينهم في الدنيا وعجّل عذابهم.

﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [يونس: ٢٠]:
من مات قلبه لن تنفعه الآيات! كان أهل مكة يقولون: هلا أنزل عليه آية، أي معجزة غير معجزة القرآن، فيجعل لنا الجبال ذهبًا ويكون له بيت من زخرف، ويحيي لنا من مات من آبائنا.

﴿قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ [يونس: ٢١]:
مهما أسرع الماكرون وتفننوا وتستروا، فقد سبق مكر الله مكرهم؛ لأنه أحاط علما بمكرهم قبل أن يفعلوه، وقادر على إبطاله بعد أن فعلوه.

﴿وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ [يونس: ٢٢]:
مشركون.. دعوا الله حين أحاطت بهم الأمواج، فنجاهم الله، فكيف تياس وتنقطع عن الدعاء وأنت المؤمن؟!

﴿لَئِنْ أَجَبْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢]:

قال القرطبي: «المضطر يحاج دعاؤه، وإن كان كافراً؛ لانقطاع الأسباب ورجوعه إلى الواحد رب الأرباب».

﴿إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣]:

قال مكحول: «ثلاث من كن فيه كن عليه: المكر، والبغي، والنكث. قال تعالى:

﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ [الفتح: ١٠]، وقال: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ

السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، وقال: ﴿إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣].

﴿إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣]:

أنفع موعظة ما كانت من أجل منفعتك أو صرف السوء عنك؛ ولذا كانت هذه الآية صيحة تحذير وصرخة نذير، تقول لك: أنت لا تضر إلا نفسك!

﴿إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس: ٢٣]:

سهم البغي مرتدٌ على صاحبه عاجلاً أو آجلاً!

﴿وَظَلَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيَّهَا أَتَنَاهَا أَمْرُنَا﴾ [يونس: ٢٤]:

الاغترار بالقوة أولى علامات الانهيار.

﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ

الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٢٤]:

الدنيا أقصر ما تكون، وكأنها موسم زراعة واحد!!

﴿كَأَن لَّمْ تَغْرَبْ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]:

جملة كفيفة بأن تزهدك في الدنيا بأسرها لأنها زائلة ومنسية، وترغبك في الآخرة الخالدة.

﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]:

قال ابن كثير: «لما ذكر الله الدنيا وسرعة زوالها، رغب في الجنة ودعا إليها، وسماها: دار السلام، أي من الآفات والنقائص والنكبات».

من أجاب النداء من الدنيا دخل الجنة، ومن أجابه من القبر دخل النار.

تحيب أمك وأباك إذا ناداك، ولا تحيب ربك إذا دعاك! مع أن دعوته إلى سعادة الأبد في جنة الخلد لتكون مثواك!

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْخُسْفَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]:

بقدر إحسانك في الدنيا تكون زيادة نعيمك في الآخرة.

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦]:

قال السعدي: «لا يناهم في الجنة أي مكروه بوجه من الوجوه؛ لأن المكروه إذا وقع بالإنسان تبين ذلك في وجهه، وتغير وتكدّر».

﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ [يونس: ٢٦]:

تغير وجه صاحبك علامة نزول مكروه به، فتفقد أحوالك صاحبك عند تغير وجهه.

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ [يونس: ٢٧]:

قال ابن عاشور:

«وعبر في جانب المسيئين بفعل ﴿كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾، دون فعل (أسأؤوا)، كما عبر في جانب الذين أحسنوا؛ للإشارة إلى أن إساءتهم من فعلهم وسعيهم؛ فما ظلمهم الله، ولكن أنفسهم يظلمون».

يجازي الله على السيئة بمثلها، وهذا يدل على أن تعامل الله مع المحسنين بالفضل، ومع المسيئين بالعدل.

﴿أَحْسَنُوا﴾ [يونس: ٢٦]، ﴿كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ [يونس: ٢٧]:

تنبيه على أن المؤمن خلق على الفطرة، وأصلها الإحسان، وأن الكافر خلق على الفطرة فانتقل عنها، وكسب السيئات، فجعل الله هذا محسنًا، وذاك كاسبًا للسيئات؛ ليُدلَّ على أن المؤمن سلك طريق فطرته، والكافر خالف فطرته.

﴿كَأَنَّمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا﴾ [يونس: ٢٧]:

تتلون وجوه الناس يوم القيامة بحسب أعمالهم، فظلمة الذنوب ستعكس غداً على الوجوه.

﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ﴾ [يونس: ٢٨]:

هذا احتجاز إلهي قسري: الزموا أماكنكم لا تبرحوها! حتى تعرفوا ما يفعل بكم، ويقضي الله في أمركم.

﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨]:

فَرَّقْنَا بين العابدين والمعبودين، وهو من الزوال أي ذهاب الشيء واختفاؤه، وقال: «زَيَّلْنَا» ولم يقل: «فَرَّقْنَا»؛ لأن التفريق معه بقية أمل في الاجتماع، أما التزييل، فهو زوال إلى الأبد، وهو ما يزيد من وحشة المشركين حين يقاسون العذاب وحدهم.

﴿وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانَا تَعْبُدُونَ﴾ [يونس: ٢٨]:

يُنطق الله الأصنام، فتقول: ما أمرناكم بعبادتنا، والشركاء هم الشياطين، فيبرؤون منهم خوفاً، أو كذباً واحتيالاً للتخلص من العذاب.

﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ﴾ [يونس: ٢٩]:

إعلان صادر من كل مَنْ عُبِدَ من دون الله من الملائكة أو الرسل أو الأصنام، لتتم فضيحة المشركين على رؤوس الأشهاد، قبل أن يسلكوا طريقهم نحو النار.

﴿هَٰئِلِكَ تَبْلَوُا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ﴾ [يونس: ٣٠]:

تبلو أي تُختَبَر وترى بعين اليقين، ففي القيامة ستعابن كل ما سلف من أعمالك، وكل ما قَدِّمْتَ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وسيظهر مسجلاً بين يديك لِتُحَاسَبَ عليه.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ٣١]:

من رحمة الله بنا أن لم يقصر رزقنا على جهة واحدة؛ بل رزقنا من فوق رؤوسنا ومن تحت أرجلنا.



✓



﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ﴾ [٣٥]

[يونس: ٣٥]:

الذي يهدي إلى الحق هو الله وحده، والذي لا يهدي إلا أن يهدي هو كل مخلوق؛ فلا يهدي إلا أن يهديه الله، فكيف تُترك عبادة الهادي، ويُعبد من يستمد هدايته منه؟!

التقدير: أفمن يهدي إلى الحق أحق بالاتباع، أم من لا يستطيع الهداية إلا أن يهديه إليها غيره أحق بالاتباع؟

﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦]

قال صاحب المنار ما ملخصه: «استدل العلماء بهذه الآية على أن العلم اليقيني واجب في الاعتقادات، ويدخل في الاعتقادات: الإيمان بأركان الإسلام وغيرها من الفرائض والواجبات القطعية، والإيمان بتحريم المحظورات القطعية كذلك».

﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧]

هذا القرآن جامع لأوصاف يستحيل وجودها فيه مع كونه مفترى ومكذوبا على الله، والدليل: هل يقدر أحد منكم أيها البشر أن يتكلم بمثله، أو بما يقاربه؟!

﴿قُلْ فَاتَّبِعُوا بَسُورَةَ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ أَسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]

هذا القرآن.. خمدت نيران الفصاحة في مواجهته، واعترف كل خطيب مصقع بالعجز عن معارضته، فلم يتعرض لمعارضته أحد إلا افتضح في مواجهته.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ [يونس: ٣٩]

الإنسان عدو ما جهل!

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِءٍ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِءٍ﴾ [يونس: ٤٠]:

قال الرازي:

«واختلفوا في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِءٍ وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِءٍ﴾؛ لأن كلمة يؤمن فعل مستقبل، وهو يصلح للحال والاستقبال. فمنهم من حمّله على الحال، وقال: المراد أن منهم من يؤمن بالقرآن باطنا، لكنه يعتمد الجحود وإظهار التكذيب، ومنهم من باطنه كظاھرہ في التكذيب. ومنهم من قال: المراد هو المستقبل، يعني أن منهم (الكافرين) من يؤمن به في المستقبل بأن يتوب عن الكفر ويبدله بالإيمان، ومنهم من يُصِرُّ ويستمر على الكفر».

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٤٠]:

يعلم الله أهل الإفساد في الأرض، وليس بعد علمه إلا الحساب والعقاب.

﴿فَقُلْ لِّيْ عَمَلِيْ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ [يونس: ٤١]:

عار أن يعمل أهل الباطل، ويتخلف عن العمل أهل الحق، وعار أكبر أن يجتهد أقوام في السعي إلى النار، ويكسل عشاق الجنة.

﴿أَنْتُمْ بَرِيْتُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١]:

في البراءة استعمل الفعل المضارع: ﴿أَعْمَلُ﴾ و﴿تَعْمَلُونَ﴾ للدلالة على البراءة من كل عمل يحدث في الحال والاستقبال.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمْعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾

[يونس: ٤٢]:

الهداية بيد الله وحده، وإذا غاب القلب لم تسمع الأذنان.

﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمْعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾

[يونس: ٤٢]:

كم من المسلمين اليوم يسمع القرآن العظيم والأحاديث الصحيحة والمواعظ الفصيحة، ثم لا يتأثر بمقدار ذرة.

﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٣]:

النظرة واحدة، لكن الأثر يختلف بحسب نوع القلب. قال ابن كثير: «المؤمنون ينظرون إليك بعين الوقار، والكافرون ينظرون إليك بعين الاحتقار: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾».

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤]:

قال الطبري: «هذا إعلام من الله تعالى لنبیه محمد ﷺ والمؤمنين به، أنه لم يسلب هؤلاء -الذين أخبر جل ثناؤه عنهم أنهم لا يؤمنون- الإيَّان ابتداءً منه بغير جرم سلف منهم، وإخباراً أنه إنما سلبهم ذلك باستحقاقٍ منهم سلبه، لذنوبٍ اكتسبوها، فحقَّ عليهم قول ربهم، وطبع على قلوبهم».

﴿وَيَوْمَ تَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٤٥]:

عشرات السنين ستصبح بعد معاينة الآخرة أقصر ما تكون، وكأنها لحظات تعارف!

﴿وَأَمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَلَإِنَّا مَرْجِعُهُمْ﴾ [يونس: ٤٦]:

وعد الله بالنصر قائم، وقادم لا محالة، لكن لا يلزم أن يراه المستضعفون بأعينهم اليوم، والدليل: ما قاله الله لرسوله هنا.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ [يونس: ٤٧]:

لم يخل زمان من حجة على يد نبي أو رسول، فالله لا يعاقب أمة بغير نذير:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]

﴿فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٤٧]:

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية:

«فكل أمة تُعرض على الله - تعالى - بحضرة رسوله، وكتاب أعمالها من خير أو شر شاهد عليهم، وحفظتهم من الملائكة شهود أيضاً أمة بعد أمة، وهذه الأمة الشريفة وإن كانت آخر الأمم في الخلق، إلا أنها أول الأمم يوم القيامة، يفصل

بينهم ويقضي لهم، كما جاء في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: «نَحْنُ الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المَقْضِي لهم قبل الخلائق»، فأتمته إنما حازت قصب السبق بشرف رسولها - صلوات الله وسلامه عليه - دائماً إلى يوم الدين».

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس: ٤٨]:

كلما اشتدت الغفلة استعجل صاحبها العقوبة استخفافاً بها، واستبعد العذاب استبعاداً له.

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٤٩]:

سيد الأنبياء لا يقدر على دفع ضرر عنه ولا جلب نفع له إلا بإذن ربه، فمتى يتعلم التواضع أهل الكبر والخيلاء؟!

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]:

لا تستعجل وعد الله بإهلاك ظالم، فقد صدر الأمر، فانتظر النصر، وبشر عدوك بالذل والقهر، رُفِعَت الأقاليم، وجفت صحائف الأعمال.

﴿إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَفْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]:

لا أحد يموت إلا بعد انقضاء أجله، ولا يُقْتَل المقتول إلا على هذا الوجه.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيِّنًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠]:

من عرف كمال القدرة لم يأمن الأخذ بالشدة، ومن توسد الغفلة السائدة استيقظ على العقوبة المفاجئة.

لماذا قال: ﴿بَيِّنًا﴾ ولم يقل: ليلاً؟!

للإشعار بمجيء العذاب في وقت غفلتهم ونومهم، بحيث لا يشعرون به، فهم قد يقضون جانباً من الليل في اللهو واللعب، ثم ينامون فيأتيهم العذاب في الوقت الذي ناموا فيه.

﴿مَآذًا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٥٠]:

شدة الإجماع تذهب بعقل المرء، فيستعجل هلاكه.

قال القرطبي: «قوله: ﴿مَآذًا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ﴾ استفهام معناه التهويل والتعظيم. أي: ما أعظم ما يستعجلون به! كما يقال لمن يطلب أمراً تستوخم عاقبته: ماذا تجني على نفسك».

﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ ءَ الْيَقِينِ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [يونس: ٥١]:
بعض الناس لا يؤمن إلى أن يرى ملك الموت، ولا يرجو متاباً حتى يذوق عذاباً!

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ﴾ [يونس: ٥٢]:
القائل: خزنة جهنم، والظلم هنا ظلم الكفر لا ظلم المعصية؛ لأن من دخل النار من عصاة المؤمنين لا يخلد فيها.

﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس: ٥٢]:
قال الرازي: «كأن سائلاً يسأل يقول: يا رب العزة.. أنت الغني عن الكل، فكيف يليق برحمتك هذا التشديد والوعيد؟! فهو تعالى يقول: «أنا ما عاملته بهذه المعاملة ابتداءً، بل هذا وصل إليه جزاء على عمله الباطل».

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣]:

بعض القلوب كالحجارة بل أشد قسوة، لا ينفعها القسم، ولو كان من أعظم نبي، ولا يزيل شكها كثرة آيات العظيم العلي!

كان العرب يهابون الأيمان الكاذبة، ومن المنقول عنهم: (الأيمان الفاجرة تدع الديار بلاقع)، وقد اشتهر النبي ﷺ منذ صغره عندهم بصدقه، ومع هذا منهم من لم يؤمن بعد هذا القسم النبوي.

قال ابن كثير:

«وهذه الآية ليس لها نظير في القرآن إلا آيتان أخريان، يأمر الله تعالى رسوله أن

يُقَسِّمُ بِهِ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ الْمَعَادَ فِي سُورَةِ سَبَأٍ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ ، وفي التغابن: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾.

بعض الناس لا يقنع إلا بكلام نبي مشفوعاً بقسم، قال الإمام ابن القيم في (زاد المعاد): وحلف ﷺ في أكثر من ثمانين موضعاً، وأمره الله سبحانه بالحلف في ثلاثة مواضع، ثم ذكر هذه الآيات.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ﴾ [يونس: ٥٤]:

هذه الآية تعرض لمستحيل، وهو أن تملك نفس واحدة كل ما في الأرض، ولو افترضنا تحقق هذا المستحيل، فلن تستطيع هذه النفس الظالمة الافتداء به من عذابها، فمتى تعود -قبل فوات الأوان- إلى رحاب ربها؟!

لو كان للظالم كل ما في الأرض من أموال، وكل ما يملك الناس فيها من جاه وسلطان، لقدّمه فدية يفندي به نفسه من عذاب يوم القيامة، وهو الذي باع نفسه في الدنيا في مقابل كومة فضة أو حفنة ذهب!

﴿وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [يونس: ٥٤]:

حين يرى الظالم العذاب يُصعق من هول المفاجأة وشدة العذاب، فيتجمد الدم في عروقه، ولا يستطيع حتى الصراخ، فيكبت ألمه في نفسه؛ فيزداد عذابه، فإن الصراخ لون من التنفيس، وحين لا يستطيعه الإنسان، يكون ألمه أشد.

﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٤]:

غداً ينعقد مجلس القضاء الإلهي، ويفصل الله بين الظالم والمظلوم، والقاتل والمقتول، فلا تُظلم نفس شيئاً، وإن كان مثقال ذرة.

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ٥٥]:

قال الطبري: «فليس للظالم أو الكافر يومئذ شيء يفندي به نفسه، بعد أن استرد الله منه اليوم كل ما ملكه إياه في الدنيا».

﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٥٥]:

﴿أَلَا﴾ أداة استفتاح دالة على التنبيه، لحض الغافلين عن هذه الحقيقة على التذكر والاعتبار، ومع هذا فأكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله حق، أو يعرفون ذلك معرفة نظرية باردة لا يترتب عليها عمل؛ لذا لا يستعدون للقاء الله، ولا يجتهدون لذلك اليوم.

﴿هُوَ يُحْيِي- وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يونس: ٥٦]:

قال الفضيل بن عياض لرجل وقد سمعه يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون: من علم أنه عبد لله وأنه إليه راجع، فليعلم بأنه موقوف، ومن علم بأنه موقوف فليعلم بأنه مسؤول، ومن علم أنه مسؤول، فليعد للسؤال جواباً، فقال الرجل: فما الحيلة؟ قال: «تحسن فيما بقي، يُغفر لك ما مضى وما بقي، فإنك إن أسأت فيما بقي، أخذت بما مضى وما بقي».

﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ قَدْ جَاءَ تَكُفُّهُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ

وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]:

قال ابن عاشور: «وقد عبّر عنه بأربع صفات هي أصول كماله وخصائصه، وهي: أنه موعظة، وأنه شفاء لما في الصدور، وأنه هدى، وأنه رحمة للمؤمنين».

﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]:

وهذا الشفاء لن يتحصل عليه إلا من التزم شرطه، وشرطه: التدبر.

﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]:

جاءت كلمة (شفاء) قبل كلمة (هدى)، لتبيّن أن إخراج ما في القلب من أهواء وأمراض مطلوبٌ أولاً لحصول هداية القلب.

﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]:

قال بعض العارفين: «ما فرح أحد بغير الله إلا بغفلته عن الله، فالغافل يفرح بلهوه وهواه، والعاقل يفرح بمولاه».

حتى لا يلهينا متاع الدنيا عن نعيم الآخرة!

لما قدم خراج العراق إلى عمر خرج عمر مع مولى له، فجعل عمر يعدُّ الإبل ويقول: الحمد لله، ويقول مولاه: يا أمير المؤمنين، هذا والله من فضل الله ورحمته، فقال عمر: كذبت.. ليس هذا هو، يقول الله: ﴿بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وهذا مما تجمعون.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَلًا قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]:

احذر الفتوى بغير علم!

قال ابن كثير: «وقد أنكر الله تعالى على من حرّم ما أحلّ الله، أو أحلّ ما حرّم، بمجرد الآراء والأهواء التي لا مستند لها، ولا دليل عليها، ثم توعدهم على ذلك يوم القيامة».

﴿وَمَا ظُنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [يونس: ٦٠]: استفهام إلهي قصد منه الوعيد والتهديد لبيان هول ما سيلقون من عذاب شديد.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ [يونس: ٦٠]:

كيف جاءت هذه الجملة بعد تهديد: ﴿وَمَا ظُنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾؟!

والجواب: هو مُناسِبٌ؛ لأنَّ معناه: إنَّ الله لذو فَضْلٍ على النَّاسِ؛ حيث أنعم عليهم بالعقل، وإرسال الرُّسُل، وتأخير العذاب، وفتح لهم باب التَّوبة، أي: كيف تفترون على الله الكذب بعد تفضله عليكم بكل هذه النعم؟!

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [يونس: ٦١]:

هذه الآية من أشد آيات المراقبة، فإذا كان هذا علمه بحركات الذرات، فكيف إحاطته بحركات العباد؟!

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ﴾ [يونس: ٦٢]:

أي لا خوف يخافه خائفٌ عليهم، فهم بمأمن من أن يصيبهم مكروه، وليس المعنى هنا أنهم لا يخافون، لكن إذا اعتراهم خوفٌ انقشع عنهم بفضل اعتصامهم بالله وتوكلهم عليه.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]:

وإن كانوا يحزنون لما يصيبهم من أمور في الدنيا، فهذا حزنٌ عابر لا يستقر، بل يزول بالصبر وذكر الأجر، ولا يلحقهم الحزن الدائم المؤدي لانكسار النفس والاكئاب.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]:

قال ابن عاشور: «الكلام يفيد أن الله ضمن لأوليائه أن لا يحصل لهم ما يخافونه، وأن لا يحل بهم ما يُحزنهم، ولما كان ما يُخاف منه من شأنه أن يُحزن من يصيبه، كان نفي الحزن عنهم مُؤكِّدًا لمعنى نفي خوف الخائف عليهم».

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣]:

كأن أحداً سأل: من أولئك الأولياء؟! وما سبب فوزهم بهذا العطاء؟ ف قيل: هم الذين جمعوا بين الإيمان والتقوى.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣]:

عبر عن إيمانهم بالفعل الماضي، للإشارة إلى أنه إيمان ثابت راسخ، لا تنزله الشكوك والشبهات.

وعبر عن تقواهم بالفعل المضارع الدال على الحال والاستقبال؛ للإشارة إلى أن تقواهم حالة مستمرة.

﴿لَهُمُ الْبَشَرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]:

قال السعدي: «أما البشارة في الدنيا، فهي: الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به، وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوئ الأخلاق».

وأما في الآخرة، فأولها البشارة عند قبض أرواحهم.
وفي القبر: ما يبشّر به من رضا الله تعالى والنعيم المقيم.
وفي الآخرة: تمام البشرى بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤]:

اطمئن واستبشّر!

كل ما وعد الله به فهو حق، ولا يمكن تغييره أو تبديله أو الرجوع عنه؛ لأنه الصادق في قوله، ولا يقدر أحد على مخالفه ما قدره وقضاه، ومن ذلك وعوده للمؤمنين؛ ولذا قال بعدها مبشّرًا: ﴿وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

﴿فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤]:

الداعية لا يرجو بدعوته مالا ولا جاهًا، وكلما زهد داعية في دنيا الناس أقبل الناس عليه، ليفيدهم في أمر آخرتهم.

﴿إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤]:

فلا تأبه إن شكرك الناس على صنع المعروف أو ذمّوك، ولا تحزن لجمود الناس؛ لأنك تستلم أجرتك من جهة واحدة: الله رب العالمين.

﴿وَلَا تَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [يونس: ٦٥]:

لا يحزنك تهديد واستهزاء وسخرية وتآمر أهل الباطل، فحربهم ليست معك، بل مع رب العالمين.

﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥]:

انظر إلى أعدائك بنظر الفناء، لترى أعمالهم وأقوالهم وتهديدهم كالهباء، فمن شاهد قوة الله وعزته رأى العزة والقوة له، ولا قوة لأحد ولا حول له، وهو تعليل للنهي السابق. كأنه قيل: لم لا أحزن؟ فكان الجواب: إن العزة لله.

﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ﴾ [يونس: ٦٦]:

حين يسيطر الشيطان على القلب، يقوده إلى الوهم، فلا يتبع المشركون شركاء الله على الحقيقة، وإنما سموهم شركاء لشدة جهلهم.

﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [يونس: ٦٦]:

الخرص هو الكذب أو القول بتخمين، ومن أبشع الضلالة: أن يقضي أقوام أعمارهم في خدمة باطل ظنوه حقًا.

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [يونس: ٦٧]:

جعل الليل للسكن والراحة والنوم، والنهار للحركة والسعي والنشاط، فلا تقبلوا ليلكم نهارًا بالسهر، فتضطرب حياتكم بإدمان الأرق.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ سُبْحَنَهُ ۚ هُوَ الْغَنِيُّ ۚ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي

الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٦٨]:

قال ابن جرير: «الله غنيٌّ عن خلقه جميعًا، فلا حاجة به إلى ولد؛ لأن الولد إنما يطلُّه من يطلبه، ليكون عونًا له في حياته، وذكرًا له بعد وفاته، والله عن كل ذلك غنيٌّ، فلا حاجة به إلى معين يعينه على تدبيره، ولا يبيدُ فيكون به حاجة إلى خلف بعده».

﴿قُلْ إِبْرَاهِيمُ الَّذِي يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [يونس: ٦٩]:

قل لهم يا محمد! اصدح بكلمة الحق في وجه المبطلين، ولا تداهن أو تجامل على حساب الدين! وهذا واجب كل من اقتفى أثرك وطمع في مرافقتك في جنات النعيم.

كل من افترى على الله كذبًا بادعاء الولد له والشريك، وما لا ينبغي له، ينتظره الخسران، وعدم حصول مقصوده من هذا الكذب والبهتان.

﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا

كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٧٠]:

كأن سائلًا سأل: كيف لا يفلحون وهم اليوم في سعة رزق وسلطان ونعيم؟! فكان الجواب: لهم متاع يسير في الدنيا، لكنه زائل لا بقاء له، ثم يلقون الشقاء الأبدي في نار الآخرة.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بِفَايْتِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٧١]:

يشق عليهم مقام النبي بينهم، ولا يطيقون وجوده داعيا بين أظهرهم، وهو نبي يوحى إليه، فمن سار في طريق الانبياء، سيواجه نفس العناء.

﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]:

صدق التوكل على الله هو باعث القوة الأول في القلب لإعلان هذا التحدي، والتقدم بمثل هذا الطلب التعجيزي.

﴿فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١]:

يستطيع العبد - بتوكله على ربه - أن يُلقي بأعدائه خلف قضبان العجز.

﴿فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [يونس: ٧٢]:

من كان عمله لله لم يطلب أجراً عليه من غير الله، وهذا سمت من أخلص عمله لله.

عجيبٌ أن يُعرض البعض عمن يدعوهم إلى الجنة دون أن يتقاضى على ذلك أجراً، ويقبل على من يدعوهم إلى النار، ويبدل في ذلك الأموال والأوقات!

﴿فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنَقِبَةُ الْمُنْذِرِينَ﴾ [يونس: ٧٣]:

(المنذرين) أي المكذبين، حيث لم يُفد الإنذار فيهم، وقد جرت سنة الله أن لا يهلك قوماً بالاستئصال إلا بعد الإنذار، فمن أنذر فقد أعذر.

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يونس: ٧٤]:

تعوّد الذنب يجعل الإيمان أصعب والتوبة أبعد!

﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يونس: ٧٤]:

كانوا يسمعون من بقايا الأمم قبلهم أن رسلهم جاؤوهم بالتوحيد فكفروا فأهلكهم الله، فكانوا يكذبون بذلك، فلما جاءتهم رسلهم بنفس الرسالة، وقفوا نفس موقف التكذيب.

﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤]:

الطبع على القلب وحرمانه من الهداية ليس إلا عقوبة للمعتادين على الذنوب.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا﴾ [يونس: ٧٥]:

الملاّ هم أشراف القوم ووجوهه وبطانة فرعون، واسمهم: «ملاّ»؛ لأنهم يملئون العيون، وهم من نصّبوا فرعون وساندوه وزينوا له طغيانه؛ لذا أرسل الله إليهم موسى وهارون مع فرعون.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٧٥]:
الحق سحر، وحامل الحق ساحر! لن تنفذ حجج البعض للتفلت من تبعات الإيمان.

﴿إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦]:
هكذا، وبصيغة التأكيد والقسم، فما أشد إيمان أهل الباطل بباطلهم الزائف، أفلا يغار أهل الحق المتذبذبين؟!

﴿قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا﴾ [يونس: ٧٧]:
لن تنقطع الأعذار لمن أراد الفرار! وكما قيل: «ولا بد للمغلوب من بارد العذر».

﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧]:
هذا من كلام موسى قطعاً. قال ابن عاشور: «هذا ليس بسحر، وإنما أعلم أن الساحر لا يفلح، أي لو كان ساحراً لما شنع حال الساحرين؛ إذ صاحب الصناعة لا يحقر صناعته؛ لأنه لو رآها محقرة لما التزمها».

﴿وَتَكُونُ لَكُمْ أَلِكْرِيَاءَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يونس: ٧٨]:
يظن الظالم أن الناس كلهم مثله، فيرميهم بالداء الذي فيه، ولا يتصور أن أحداً يعمل لمهمة سامية وغاية نبيلة، أو رجاء ثواب الله والدار الآخرة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَلِيمٍ﴾ [يونس: ٧٩]:

يصدّق الطاغية بمرور الوقت كذبه، فما زال فرعون يظن موسى ساحراً، ويريد أن يقابله بسحر مثله.

﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [يونس: ٨٠]:

قال بعض العلماء: جواز الأمر بالسحر لدحضه، وكذلك طلب إيراد الشُّبُهَات حلها.

﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾ [يونس: ٨٠]:

قال الآلوسي: «لا يخفى ما في الإيهام من التحقير والإشعار بعدم المبالاة، والمراد أمرهم بتقديم ما صمّموا على فعله ليظهر إبطاله، وليس المراد الأمر بالسحر والرضا به».

﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾

[يونس: ٨١]:

قال الطاهر بن عاشور مبيناً طبيعة الباطل المضمحلة وزواله الحتمي: «فإذا نفى الله إصلاحها فذلك بتركها وشأنها، ومن شأن الفساد أن يتضاءل مع الزمان حتى يضمحل».

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١]:

كتب الخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز إلى عامله عبد الرحمن بن نعيم ينصحه في سطر واحد:

«أما بعد، فاعمل عمل من يعلم أن الله لا يُصْلِحُ عمل المُفْسِدِينَ».

﴿وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: ٨٢]:

الإحقاق هو الثبوت، ومنه سُمِّي الحق حقاً لأنه الثابت، وقول الله تعالى

﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾: «فمعناه بكلماته السابقة الأزلية في الوعد بذلك»

﴿فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ [يونس: ٨٣]:

الذرية هم الشباب، وهم أمل المستقبل ومفتاح التغيير.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَنْقُومُ إِن كُنتُمْ ءَامَنْتُمْ بِاللّٰهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]:

ليس الإيمان بالأقوال فحسب، فلا بد فيه من صدق الأحوال.

﴿فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤]: قال الرازي: «واعلم أنّ من تَوَكَّلَ على الله في كل المُهِمَّات كفاه الله تعالى كُلَّ المُلَمَّات».

﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥]: أي يا رب لا تمكّنهم من عذابنا؛ لئلا يقول الظالمون وأتباعهم: لو كان هؤلاء على الحق لنصرهم الله!

﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [يونس: ٨٦]: قال الإمام الشوكاني: «وفي هذا الدعاء الذي تضرعوا به إلى الله دليل على أنه كان لهم اهتمام بأمر الدين فوق اهتمامهم بسلامة أنفسهم».

﴿أَن تَبُوءَ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [يونس: ٨٧]:

لا عذر لأحد في ترك الصلاة! منعهم فرعون من الصلاة، فأمرهم الله أن يجعلوا مساجدهم في بيوتهم.

﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧]: اجعل بيتك قبلة للمؤمنين ومنارة للحائرين وواحة للمهتدين.

﴿رَبَّنَا لِضَلُوكَ عَن سَبِيلِكَ﴾ [يونس: ٨٨]: قال القرطبي: «اختلف في هذه اللام، وأصح ما قيل فيها - وهو قول الخليل وسيبويه - أنها لام العاقبة والصيرورة».

﴿وَأَشَدُّ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]: الشد على القلب: هو الصد والمنع، فلا تلين أو تنشرح للإيمان.

قال ابن القيم: «وهذا الشدُّ والتقسية، من كمال عدل الرب سبحانه في أعدائه،

فإنه جعله عقوبة لهم على كفرهم وإعراضهم، كعقوبته لهم بالمصائب؛ ولهذا كان محموداً، فهو حسن منه، وأقبح شيء منهم، فإنه عدل منه وحكمة، وهو ظلم منهم وسفه، فالقضاء والقدر فعل عادل حكيم غني عليم، يضع الخير والشر في أليق المواضع لهما والمقضي المقدر يكون من العبد ظلماً وجوراً وسفهاً، وهو فعل جاهل ظالم سفیه.

﴿قَدْ أَجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَأَسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٩]:

شكر نعمة الإجابة! قال ابن عاشور: «وفّر على إجابة دعوتها أمرهما بالاستقامة، فعلم أن الاستقامة شكر على الكرامة، فإن إجابة الله دعوة عبده إحسان للعبد وإكرام، وتلك نعمة عظيمة تستحق الشكر عليها، وأعظم الشكر: طاعة المنعم».

﴿فَأَسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٩]:

سين: ما فائدة أمر المستقيم بالاستقامة؟ فموسى وهارون حازا أعلى استقامة، وهي استقامة النبوة.
جيم: المعنى: الأمر بالمداومة عليها.

﴿قَالَ قَدْ أَجِيبَتْ دَعْوَتُكُمْ فَأَسْتَقِيمَا﴾ [يونس: ٨٩]:

الاستقامة على فعل الطاعات، من أعظم أسباب إجابة الدعوات.

﴿وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩]:

أول انحراف عن طريق الاستقامة سببه اتباع طريق المنحرفين، فحذر المؤمن وخوفه الدائم من الانحراف من أهم أسباب الاستقامة.

﴿وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]:

قال الإمام ابن كثير: «وهذا الذي حكاه الله تعالى عن فرعون من قوله هذا في حاله ذاك، من أسرار الغيب التي أعلم الله تعالى بها رسوله ﷺ؛ ولهذا قال الإمام أحمد بن حنبل: عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ:

(لما قال فرعون: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل، قال جبريل لي: يا محمد لو رأيته وقد أخذت حالا من حال البحر - أي طينا أسود من طين البحر - فدسسته في فمه، مخافة أن تناله الرحمة).

﴿إِنَّا لَنَرُّوهُمْ فَتَحْمِلُهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [يونس: ٩١]:

إذا طرق ملك الموت بابك، فقد أغلق باب القبول، وفات أوان الاعتذار، بعد الركض طويلا في ميدان الاغترار!

﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢]:

كم أهلك الله أمام الناس فراعين ليكونوا عبرة للغافلين.

آية لكل ظالم وكل مظلوم، وقلما اعتبر ظالم، فليعتبر كل مظلوم.

قال ابن عاشور: «وهي عبارة لم يأت مثلها فيما كتب من أخبار فرعون، وإنها لمن الإعجاز العلمي في القرآن، إذ كانت الآية منطبقة على الواقع التاريخي. والظاهر أن الأمواج ألقت جثته على الساحل الغربي من البحر الأحمر، فعثر عليه الذين خرجوا يتقصون آثاره ممن بقوا بعده بمدينة مصر، لما استبطؤوا رجوعه ورجوع جيشه، فرفعوه إلى المدينة، وكان عبرة لهم».

﴿وَإِنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَفُلُونَ﴾ [يونس: ٩٢]:

لا تتعجب من كثرة الغافلين، وادعُ الله أن يعصمك من داء الغفلة الدفين، وأن يجعلك خير مذكر لهؤلاء المساكين.

﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [يونس: ٩٣]:

توبيخ لمن جعل العلم الذي جعله الله سبيلا إلى الحق والخير، وسيلة للاختلاف والبعد عن الصراط المستقيم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣]:

سيظل الخلاف قائما، إلى أن يحين موعد الفصل النهائي والحكم الختامي بين المختلفين يوم القيامة، فيجازي الله أهل الحق بما يستحقون من ثواب، وأهل الباطل بما استحقوا من عقاب.

﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَأُونَ الْكِتَابَ

مِنْ قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]:

قال البيضاوي: «وفيه تنبيه على أن كل من خالجه شبهة في الدين، ينبغي أن يسارع إلى حلها بالرجوع إلى أهل العلم».

قال الآلوسي: «والخطاب قيل له ﷺ، والمراد إن كنت في ذلك على سبيل الفرض والتقدير؛ لأن الشك لا يتصور منه عليه الصلاة والسلام لانكشاف الغطاء له؛ ولذا عبّر - بإن - التي تستعمل غالباً فيها لا تحقق له، حتى تُستعمل في المستحيل عقلاً وعادة كما في قوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ [الزخرف: ٨١]».

سين: كثير من أهل الكتاب من اليهود والنصارى كذبوا رسول الله وعاندوه، فكيف أمره الله أن يستشهد بهم؟
جيم: الجواب من عدة أوجه:

- أن الشهادة إذا أضيفت إلى طائفة، فإنها تتناول العدول الصادقين منهم.
- أن شهادة أهل الكتاب لرسول الله ﷺ مبنية على ما جاء في التوراة، فإن فيها ما يوافق القرآن ويصدقّه، فإن كذبوا وأنكروه، لأخبره الله بكذبهم.
- ومنها: أن الله أمر رسوله أن يستشهد بأهل الكتاب على صحة ما جاء به، وأعلن ذلك على رءوس الأشهاد، فلو كان عندهم ما يرد ما ذكره الله لأظهره، فلما لم يفعلوا كان ذلك أدل الأدلة على صحة القرآن وصدقته.

﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [يونس: ٩٥]:

هذا اللون من الأمر والنهي لرسول الله ﷺ المراد به غيره على سبيل التعريض.

﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٩٦]:

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول وهو يطوف بالكعبة:

«اللهم إن كنت كتبتني في أهل السعادة فأثبتني فيها، وإن كنت كتبتني على الذنب - الشقاوة - فأحني وأثبتني في أهل السعادة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب».

﴿وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٧]:

رؤية العذاب، كناية عن نزوله بهم، والمعنى أنهم يؤمنون حين لا ينفع الإيثار؛ لأن نزول العذاب هو بداية مجازاتهم على كفرهم، وليس بعد الشروع في العقوبة عفو.

قال ابن عاشور: «ومن بركة هذا الدين أن الذين كفروا به قد هداهم الله قبل أن ينزل بهم عذاباً».

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَتَنْفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨]:

روي في قصة يونس عليه السلام أن قوم يونس كانوا بنيوي من أرض الموصل - بالعراق - وكانوا يعبدون الأصنام، فأرسل الله إليهم يونس يدعوهم إلى الإسلام، فأقام يدعوهم تسع سنين حتى يؤمن من إيمانهم، فقبل له: أخبرهم أن العذاب مُصَبَّحُهم إلى ثلاث ففعل، وقالوا: هو رجل لا يكذب فارقبوه، فإن أقام معكم وبين أظهركم فلا عليكم، وإن ارتحل عنكم، فهو نزول العذاب لا شك، فلما كان الليل تزود يونس وخرج عنهم، فأصبحوا فلم يجدوه، فأمنوا وتابوا.

قال الزجاج: «إنهم لم يقع بهم العذاب، وإنما رأوا العلامة التي تدل على العذاب، ولو رأوا العذاب لما نفعهم الإيثار».

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]:

لكنه ما شاء، فلا تحزن على عدم هداية أحد، فإن الله خلق عقول الناس متفاوتة في إدراك الحقائق، فلم يتفقوا على الإيمان.

﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩]:

الاستفهام إنكاري لحرص النبي ﷺ البالغ على إيمان قومه بكل وسيلة؛ لذا أنزله الله منزل من يحاول إكراههم على الإيمان، وقد قال: ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ

النَّاسَ ﴿دون أن يقال: أفكره الناس، أو أفأنت مكره الناس؛ لأنه يفيد تقوية صدور الإكراه من النبي ﷺ، وهذا أشد دلالة على شدة حرصه على هدايتهم.﴾

﴿٤٦١﴾ فيه تعريض بالثناء على النبي ﷺ، والتماس العذر له على عدم استجابة القوم له، بل وتقديم العذر الذي يعتذر به لربه، ومن بلغ المجهود حق له العذر.

﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٠٠]:

ليست هداية البشر بإرادة نبي ولا سعي ولي، وإنما بإرادة الله وتوفيقه، فلا تحمّل نفسك فوق طاقتها في سبيل هداية أحد، ووكل أمره إلى الله.

﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١]:

قال السيوطي: «في الآية دليل على وجوب النظر والاجتهاد، وترك التقليد في الاعتقاد».

﴿٤٦٢﴾ التفكير يهدي أصحاب العقول السليمة إلى أن إلهًا واحدًا لهذا الكون، وهو المستحق وحده للعبادة والطاعة.

﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]:

ما ينفع انهمار الآيات والعظات على القلب القاسي إن مات!

﴿فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [يونس: ١٠٢]:

السعيد من وعظ بغيره، والشقي من اتعظ به غيره.

﴿قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠٢]:

تهديد أني معكم من المتربصين لنزول وعد الله، وهي بشارة للنبي ﷺ بأن الله سيريه مصارع الظالمين.

﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٣]:

قال البقاعي:

«في كل زمن وإن لم يكن بين ظهرانيهم رسول؛ لأن العلة: الاتصاف بالإيمان الثابت».

﴿إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي﴾ [يونس: ١٠٤]:

شكَّ في شكِّهم! واستعمال النبي ﷺ حرف الشرط: ﴿إِنْ﴾ يدل على شكِّه ﷺ في شكِّهم، فهو ﷺ واثق أن شكِّهم باطل، لظهور ما لا ينبغي أن يشكوا فيه أبداً من شدة ظهوره وإعجازه.

﴿وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّنُكُمْ﴾ [يونس: ١٠٤]:

قال أبو حيان: «فكانه أشار إلى أنه يعبد الله الذي خلقكم ويتوفاكم ويعيدكم، وكثيراً ما صرَّح في القرآن بهذه الأطوار الثلاثة، وكان التصريح بهذا الوصف لما فيه من التذكير بالموت وإرهاب النفوس به، وصيرورتهم إلى الله بعده، فهو الجدير بأن يخاف ويتقي ويعبد».

﴿وَأَنْ أَقَمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[يونس: ١٠٥]:

قال الرازي:

«إقامة الوجه كناية عن توجيه العقل بالكلية إلى طلب الدين؛ لأن من يريد أن ينظر إلى شيء نظراً بالاستقصاء، فإنه يقيم وجهه في مقابلته بحيث لا يصرفه عنه لا بالقليل ولا بالكثير؛ لأنه لو صرفه عنه، ولو بالقليل فقد بطلت تلك المقابلة، وإذا بطلت تلك المقابلة، فقد اختل الإبصار؛ فلهذا السبب حسن جعل إقامة الوجه للدين كناية عن صرف العقل بالكلية إلى طلب الدين».

﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ [يونس: ١٠٦]:

استعانة الخلق بالخلق تضییع جهد، وتبديد وقت، فمن لا يملك لنفسه ضرراً ولا نفعاً، كيف يستعان به في دفع الضرر وجلب النفع؟!

يا أخي.. إذا انضم الضعيف إلى الضعيف ازدادا ضعفاً.

﴿وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]:

لا رادَّ لفضله ولو كانت الدنيا بأسرها، فمن الذي يحرم من أراد الله عطاءه؟! ومن يُشقي من أراد الله إسعاده؟!

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]:

عن عامر بن عبد قيس قال:

«أربع آيات من كتاب الله تعالى إذا قرأتها، فما أبالي ما أصبح عليه وأمسي:
﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢]

﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]

﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧]

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

﴿كَيْفَ تَخَافُ فَوَاتَ شَيْءٍ مِنَ الْخَيْرِ أَرَادَهُ اللَّهُ بِكَ، وَإِنْ لَمْ يَرْدْهُ بِكَ، فَمَنْ الَّذِي يَقْدِرُ عَلَى أَنْ يَعْطِيَكَ لَكَ؟!﴾

﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [يونس: ١٠٨]:

اختيار وصف الرب: ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ للتنبيه على أنه إرشاد من الذي يُحِبُّ صلاح عباده، ويدعوهم إلى ما فيه نفعهم، وهذا شأن من يربي، أي يسوس الأمر ويدبره.

﴿فَمَنْ آهَتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس: ١٠٨]:
كل من تعامله من الخلق إن لم يربح عليك لم يُعاملك، والرب سبحانه إنما يعاملك لتربح أنت عليه أعظم الربح وأعلاه.

﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ﴾ [يونس: ١٠٩]

اتباع الحق سيجر عليك المتاعب؛ لذا تحتاج دائماً إلى الصبر.

﴿أَنْتَ فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ صَبْرٍ مِنْ أَجْلِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَتَحْصِيلِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ، ثُمَّ الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.﴾

سورة هود

﴿الرَّ كِتَبٌ أَحْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]:

قال القرطبي: «وأحسن ما قيل في معنى ﴿أَحْكَمْتُ ءَايَتُهُ﴾ قول قتادة: أي جعلت مُحْكَمَةً كلها لا خلل فيها ولا باطل، والإحكام منع القول من الفساد، أي نظمت نظماً محكماً، لا يلحقها تناقض ولا خلل».

﴿كِتَابٌ أَحْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١]:
أو قيل: أحكم نزولاً؛ لأنه قد نزل مرة واحدة إلى السماء الدنيا، ثم فصل حسب الحوادث.

قال مالك بن نبي في كتاب الظاهرة القرآنية:
«لو أن القرآن كان قد نزل جملة واحدة لتحول سريعاً إلى كلمة مقدسة، وإلى فكرة ميتة، وإلى مجرد وثيقة دينية، لا مصدراً لبعث الحياة في حضارة وليدة، فالحركة التاريخية والاجتماعية والروحية التي نهض بأعبائها الإسلام، لا سِرَّ لها إلا في هذا التنجيم».

﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَنَشِيرٌ﴾ [هود: ٢]:
النذارة في المكروه، والبشارة في المحبوب، وقدم النذير لأن التحذير من النار أهم، وأسلوب التهيب أجدى مع أكثر النفوس؛ ولأن العبور إلى الجنة لا يتم إلا بعد العبور فوق النار عبر الصراط.

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا﴾ [هود: ٣]:
الاستغفار جسر موصل إلى التوبة.

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَّتَعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود: ٣]:

أعظم متعة هي التي تجدها في قلوب المستغفرين التائبين.

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]:

قال سعيد بن جبیر: «من عمل حسنة كُتِبَتْ له عشر حسنات، ومن عمل سيئة كُتِبَتْ عليه سيئة واحدة، فإن لم يعاقب بها في الدنيا، أخذ من العشرة واحدة، وبقيت له تسع حسنات؛ لذا قال ابن مسعود: «هلك من غلب آحاده أعشاره».

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]:

الاستغفار مقال، والتوبة أعمال، والتوبة أعلى في المقام.

﴿ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]:

قال البقاعي: «أشار بأداة التراخي ﴿ثُمَّ﴾ إلى علو رتبة التوبة، وأن لا سبيل إلى طلب الغفران إلا بها».

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٣]:

التوبة وعد، ووعد الحر دين عليه! سمع مطرف رجلاً يقول: استغفر الله وأتوب إليه، فأخذ مطرف بذراعه وقال: «لعلك لا تفعل! من وعد فقد أوجب».

قال القشيري: «توبوا إليه بعد الاستغفار، من توهمكم أن نجاتكم باستغفاركم، بل تحققوا بأنكم لا تجدون نجاتكم إلا بفضل ربكم، فبفضله وبتوفيقه توصلتم إلى استغفاركم، لا باستغفاركم وصلتم إلى نجاتكم».

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود: ٣]:

سين: كثيراً ما نجد من لم يتب ولم يستغفر، ومع هذا يمتع الله متاعاً حسناً، فيرزقه ويوسع عليه، فما السبب؟!

جيم: المتاع الحسن - المقيّد بالاستغفار والتوبة - هو الحياة في ظل الطاعة مع القناعة، ولا يجتمعان إلا للمستغفر التائب، فمن ضيق عليه رزقه من المستغفرين التائبين، فاعلم أنه يمتع متاعاً حسناً، بحسن صلته بربه، وطمأنينة القلب ورضاه.

﴿يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [هود: ٣]:

سمى منافع الدنيا متاعاً؛ للتنبيه على حقارتها، ونبه مع هذه الحقارة على أنها منفعة، فقال: ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، فدلّت الآية في شدة إيجاز على كون الدنيا حقيرة زائلة.

﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ [هود: ٣]:

المراد بالفضل الأول: العمل الصالح، والفضل الثاني: ثواب الله، فالجملة وعدٌ من الكريم بحسن مجازاة الصالحين.

﴿تَتَفَاوَتُ الدَّرَجَاتُ فِي الْآخِرَةِ بِحَسَبِ تَفَاوَتِ أَعْمَالِ الْعِبَادِ. قَالَ يَحْيَى بْنُ مَعَاذٍ: «إِنَّمَا يَنْبَسُطُونَ (يَنْشُطُونَ وَيَجْتَهِدُونَ) إِلَيْهِ عَلَى قَدَرِ مَنَازِلِهِمْ لَدَيْهِ».

﴿غَمَرَكَ اللَّهُ بِفَضْلِهِ مَرَّتَيْنِ! الْمَرَّةُ الْأُولَى بِأَنْ وَفَّقَكَ لِلْعَمَلِ الصَّالِحِ وَحَبَّبَهُ إِلَيْ قَلْبِكَ، وَالْمَرَّةُ الثَّانِيَةُ بِأَنْ تَقَبَّلَهُ مِنْكَ.

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣]:

هَدَّدَ الْغَافِلَ بِأَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَعَلَّهُ يَعُودُ! قِيلَ لِعَمْرِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: مَا كَانَ بَدْءَ إِنْابَتِكَ؟ قَالَ: أَرَدْتُ ضَرْبَ غِلَامٍ لِي، فَقَالَ: يَا عَمْرُ.. أَذْكَرَ لَيْلَةَ صَبِيحَتِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

﴿أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [هود: ٣]:

قَالَ ابْنُ عَاشُورَ: «وَتَنْكِيرُ يَوْمٍ لِلتَّهْوِيلِ، لِتَذْهَبَ نَفُوسُهُمْ لِلاَحْتِمَالِ الْمُمْكِنِ أَنْ يَكُونَ يَوْمًا فِي الدُّنْيَا أَوْ فِي الْآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يُنْكِرُونَ الْحَشَرَ، فَتَخَوِّفُهُمْ بِعَذَابِ الدُّنْيَا أَوْ قَعٍ فِي نَفُوسِهِمْ».

﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [هود: ٤]:

لَا مَفْرَ وَلَا مَهْرَبَ مِنَ الْوُقُوفِ غَدًا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ!

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٤]:

مَعَ اللَّهِ.. كُلُّ مَحَاوَلَاتِ الْإِخْتِبَاءِ دَلِيلُ غِبَاءٍ!

﴿أَلَا إِنَّهُمْ يَنْتُونُ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٤]:

فِيهَا قَوْلَانِ:

- إِذَا ثَنَيْنَا صُدُورَنَا عَلَى عِدَاوَةِ مُحَمَّدٍ، فَكَيْفَ سَيَعْلَمُ بِنَا؟ وَهِيَ إِشَارَةٌ إِلَى النِّفَاقِ.

- يَنْصَرِفُونَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ حَتَّى لَا يَسْمَعُوا كَلَامَهُ، وَلِيَقُولُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا يَشْتَهُونَ مِنَ الطَّعْنِ فِيهِ.



الجزء الثاني عشر

سورة هود آيت ٦
إلى سورة يوسف آيت ٥٢
عدد الفوائد: ٤٤١

قال أبو بكر الأَجْرِي:

«فالمؤمن العاقل إذا تلا القرآن استعرض القرآن، فكان كالمرأة يرى بها ما حسن من فعله، وما قبح فيه، فما حذره مولاه حذره، وما خوَّفه به من عقابه خافه، وما رَغِب فيه مولاه رَغِب فيه ورجاه. فمن كانت هذه صفته أو ما قارب هذه الصفة فقد تلاه حق تلاوته، ورعاه حق رعايته، وكان له القرآن شاهداً وشفيعاً وأنيساً وحرزاً، ومن كان هذا وُضِفَ نَفْع نفسه، ونَفَع أهله، وعاد على والديه وعلى ولده كل خير في الدنيا والآخرة».

أخلاق حملة القرآن ص ٢٧

الجزء الثاني عشر سورة هود آية ٦ إلى سورة يوسف آية ٥٢

﴿إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]:

لم يقل: رزقها على الله، وتقديم ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ قبل كلمة ﴿رِزْقُهَا﴾ لإفادة القصر، أي على الله لا على غيره، و ﴿عَلَى﴾ تدل على اللزوم، ومعلوم أن الله لا يلزمه أحد بشيء، فأفاد معنى اللزوم ضمان الرزق لكل الخلق؛ لأن الله إذا وعد وجب وقوع ما وعد به.

﴿وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ [هود: ٦]:

قال ابن مسعود: «مُسْتَقَرُّهَا: الأرحام، وَمُسْتَوْدَعُهَا: الأرض التي يموت فيها».

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٧]:

قال أبو جعفر الطبري: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ»، أفيعجز من خلق ذلك من غير شيء أن يعيدكم أحياء بعد أن يميتكم؟!.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]:

قال البقاعي: «ففي ذلك الحثُّ على محاسن الأعمال، والترقي دائماً في مراتب الكمال».

﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧]:

قال القشيري:

«وأحسن الأعمال موافقة الأمر، ولم يقل أكثر عملاً».

ويقال: أحسن الأعمال ما كان صاحبه أشدَّ إخلاصًا فيه.

ويقال: أحسنهم عملاً أبعدهم عن ملاحظة أعماله.

ويقال: أحسن الأعمال ما ينظر إليه صاحبه بعين الاستصغار.

ويقال: أحسن الأعمال ما لا يطلب صاحبه عليه عوضًا.

ويقال: أحسن الأعمال ما غاب عنه صاحبه لاستغراقه في شهود المعبود».

﴿وَلَيْنَ أَخْرَتَنَا عَنْهُمْ الْعَذَابُ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَّيْقُولُنَّ مَا نَحْبِسُهُ ۚ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ

لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [هود: ٨]:

لئن أخرنا عنهم العذاب لا يشكرون، بل العقوبة يستعجلون، ولئن عجلنا لهم العقوبة لا يتوبون، قد استولى عليهم الجهل في الحالين، فلا يعقلون.

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ﴾ [هود: ٩]:

ذاكرة أكثر الناس سمكية، ينسى الكثير من النعم، ويذكر قليل النعم.

﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ مَّسْتَةٍ لَّيْقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ

لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]:

عجبًا لمن يفرح بما نال من دنياه أكثر من فرحه بما نال من آخرته، ويفخر على الناس بهاله وعياله، وينسى أنها من الله وليست بكسبه وفضله.

﴿إِنَّهُ لَفَرِحَ فَخُورٌ﴾ [هود: ١٠]:

يا ويل من شغله الفرح والفخر عن التواضع والشكر.

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١]:

المراد بالذين صبروا المؤمنون؛ لأن الصبر من لوازم الإيمان، ولا إيمان لمن لا صبر له.

﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [هود: ١١]:

استعمل وصف (صبروا) بدلًا من (آمنوا)؛ لأن المراد مقارنة حالهم بحال

الكفار في قول أحدهم: ﴿إِنَّهُ لَكَيْفُوسٌ كَفُورٌ﴾ [هود: ٩].

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ ۖ إِلَيْكَ﴾ [هود: ١٢]:

وهو استفهام في معرض النهي، فإياك أن يضيق صدرك، فلا تُبَلِّغهم شيئاً مما أنزل إليك.

﴿وَصَاحِقٌ بِهٖ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢]:

قال ابن جزي: وإنما قال ضائق، ولم يقل ضيق؛ ليدل على اتساع صدره الكلية وقلة ضيقه.

﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ ۖ إِلَيْكَ وَصَاحِقٌ بِهٖ صَدْرُكَ﴾ [هود: ١٢]:

قال الفخر الرازي: «رَوَى عن ابن عباس رضي الله عنه أن رؤساء مكة قالوا: يا محمد، اجعل لنا جبال مكة ذهباً إن كنت رسولاً. وقال آخرون: اثنا بالملائكة يشهدون بنبوتك. فقال: لا أقدر على ذلك، فنزلت هذه الآية».

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيْنَ﴾ [هود: ١٣]:

قال الماوردي عن إعجاز القرآن: «ومن إعجازه: أن تلاوته تختص بخمسة بواعث عليه لا توجد في غيره، أحدهما: هشاشة مخرجه، والثاني: بهجة رونقه، والثالث: سلاسة نظمه، والرابع: حسن قبوله، والخامس: أن قارئه لا يكل، وسامعه لا يمل، وهذا في غيره من الكلام معدوم».

الإعجاز بالتحدي!

تحدى الله عز وجل الخلق أن يأتوا بمثل القرآن، فعجزوا، فتحدهم أن يأتوا بعشر سور من سور القرآن، فعجزوا، فتحدهم أن يأتوا بسورة واحدة، فعجزوا.

﴿إِعْجَازُ الْقُرْآنِ يَتِمُّثَلُ فِي مَا اشْتَمَلُ عَلَيْهِ مِمَّا نَظَّمَهُ أَحَدُهُمْ فِي تِسْعَةِ أَلْوَانٍ﴾ [هود: ١٣]: فقال:

سأنيكها في بيت شعر بلا ملل
بشير، نذير، قصّة، عظة، مثل

ألا إنما القرآن تسعة أحرف
حلال، حرام، محكم، متشابه

﴿فَالَّذِينَ لَا يَرْجُونَ ظَنَامُنَا لَعْنَةُ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ مَالَ اللَّهِ وَهُمْ لَا يَأْمُرُونَ بِالْعَدْلِ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ مَالَ اللَّهِ وَهُمْ لَا يَأْمُرُونَ بِالْعَدْلِ ۖ وَالَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ مَالَ اللَّهِ وَهُمْ لَا يَأْمُرُونَ بِالْعَدْلِ ۖ﴾ [هود: ١٤]

إن أعرض هؤلاء فأقبلوا، وإن شكوا فأيقنوا، وإن تزلزلوا فاثبتوا، فالعلم هنا معناه زيادة اليقين، والإسلام هنا بمعنى الثبات على الإسلام، والالتزام بأوامره ونواهيه.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلْتُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥]

لاحظ التعبير بقوله: ﴿كَانَ﴾، مما يفيد الاستمرار والإصرار على إرادة الدنيا بأعمالهم، دون التطلع إلى أجر الآخرة، فهذا ديدنهم المستمر.

قال ميمون بن مهران: «ليس أحد يعمل حسنة إلا وُفي ثوابها، فإن كان مسلماً مخلصاً وُفي في الدنيا والآخرة، وإن كان كافراً وُفي في الدنيا».

هذه الآية عامة في كل من ينوي بعمله غير الله. قال أبو يوسف: «يا قوم أريدوا بعملكم الله تعالى، فإني لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلوهم، ولم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أعلوهم، إلا لم أقم حتى أفترض».

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلْتُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [هود: ١٥]

قال مجاهد: «هي في الكفرة، وفي أهل الرياء من المؤمنين».

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٦]

قال ابن عاشور: «تنبيه المسلمين بأن لا يغتروا بظاهر حسن حال الكافرين في الدنيا، وأن لا يحسبوا أيضاً أن الكفر يوجب تعجيل العذاب، فأوقظوا من هذا التوهم».

﴿وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]:

ليس معنى يتلوه من التلاوة؛ بل المعنى: يتبعه.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَٰئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]:

الأشهاد هم الملائكة والأنبياء، وقد شهد الأشهاد في الآخرة على المفسدين على الله الكذب في الدنيا بأنه اتخذ ولدًا وشريكًا، أو أنه ثالث ثلاثة، أو أن يد الله مغلوله كما ادّعت اليهود.

عملية تشهير مقصودة!

قال ابن عاشور:

«المقصود تشهيرهم دون الشهادة، والمقصود من إعلان هذه الصفة التشهير والحزى لا إثبات كذبهم؛ لأن إثبات ذلك حاصل في صحف أعمالهم».

﴿الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [هود: ١٩]:

سبب صدّهم عن سبيل الله أنهم يريدون حال الأمة مُعَوَّجًا والانحراف قاعدة، وتنفير الناس عن طريق الله هو ما يضمن لهم الاستمرار في سلطتهم؛ لأن إصلاح القلوب بالإيمان يسلب منهم ما انتفعوا به بالفساد.

﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود: ٢٠]:

قال ابن عباس: «لم يُعْجِزُونِي أَنْ أَمْرَ الْأَرْضِ، فتنخسف بهم».

﴿يُضَعَّفُ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [هود: ٢٠]:

لأنهم يُعَذَّبُونَ على ضلالهم، وعلى إضلالهم لغيرهم.

﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ [هود: ٢٠]:

قال ابن عباس: «أخبر الله سبحانه أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في

الدنيا والآخرة، أما في الدنيا، فإنه قال: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا

كَانُوا يُبْصِرُونَ» ، وأما في الآخرة، فإنه قال: ﴿وَيُذْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا

يَسْتَطِيعُونَ ﴿١٢﴾ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ﴾ [القلم: ٤٢، ٤٣].

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ٢١]:

خسروا أهم شيء، وهي أعمارهم التي انقضت هباء، وصدق من قال:
إذا كان رأس المال عمرَكَ فاحترس عليه من الإنفاق في غير نافع

﴿وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [هود: ٢١]:

الأصنام التي عبدوها من دون الله كانت حطاً تُسَعَّرُ به نار جهنم.

﴿لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسِرُونَ﴾ [هود: ٢٢]:

لا عجب أن يكون أخسر الناس هو من زهد في النفس الرفيع، ورضي
بالخسيس الوضع.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآخَبْتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ

الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [هود: ٢٣]:

الخبث في أصل اللغة: المكان المنخفض من الأرض، وبه فسّر ابن عباس
وقتادة لفظ «المخبتين» وقالوا: هم المتواضعون. وأما مجاهد فقال: المخبت:
المطمئن إلى الله عز وجل، فهذه الأقوال تدور على معنيين للإخبات: التواضع،
والرضا بقدر الله عز وجل.

﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَىٰ وَالْأَصْمَىٰ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ

مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤]:

قال قتادة: «هذا مثل ضربه الله للكافر والمؤمن، فأما الكافر فُصْمٌ عن الحق فلا
يسمعه، وعمي عنه فلا يبصره، وأما المؤمن فسمع الحق فانتفع به، وأبصره
فوعاه وحفظه وعمل به».

العمى والصمم أخطر في القلوب والأرواح منه في الجوارح والأعضاء؛ لأنه
سبب عذاب النار.

﴿٣٠٣٨﴾ ماذا يضر عمى الأبصار إذا أثار نور الإيمان ضمائر الأبرار! قال عبد الله بن عباس بعد أن فقد بصره:

إِنْ يَأْخُذَ اللَّهُ مِنْ عَيْنِي نُورَهُمَا ففِي لِسَانِي وَقَلْبِي مِنْهُمَا نُورٌ

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [هود: ٢٥]:

شدة الإنذار ليست قسوة من الداعية، بل هو خوف وإشفاق على قومه من عذاب النار؛ ولذا قال مالك بن دينار: «ولو وجدت أعواناً لفرقتهم في سائر الدنيا كلها، يقولون: يا أيها الناس.. النار النار».

﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود: ٢٥]:

لم ذكر العذاب بعد الإنذار؟ قال ابن عاشور: «لأن شأن النذارة أن تثقل على النفوس، فكانت جديرة بالتعليل لدفع حرج ما يلاقونه».

﴿مَا نَزَّلَكَ إِلَّا بَشْرًا مِثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]:

عندما تغيب الموضوعية، ينصرف الناس عن الكلام إلى المتكلم، وعن القول إلى القائل، وعن الفكرة إلى صاحبها.

﴿وَمَا نَزَّلَكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يَنْزِلُوا﴾ [هود: ٢٧]:

عندما تغدو الدنيا معيار التمايز؛ يتحول الأفضل إلى الأرذل، والأتقى إلى الأغبي، والأقرب إلى الله إلى الأبعد عن الناس.

قال القرطبي: «الأراذل هنا هم الفقراء والضعفاء، كما قال هرقل لأبي سفيان: أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، فقال: هم أتباع الرسل. قال علماؤنا: إنما كان ذلك لاستيلاء الرياسة على الأشراف، وصعوبة الانفكاك عنها، والأنفة من الانقياد للغير، والفقير خلي عن تلك الموانع، فهو سريع إلى الإجابة والانقياد».

﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود: ٢٧]:

اتهموا المؤمنين الذين اتبعوا نوحا بالسطحية. قال ابن جزى: «أول الرأي من غير نظر ولا تدبير، والمعنى: اتبعك الأراذل من غير نظر ولا تثبت».

﴿وَأَتَيْنِي رَحْمَةٌ مِّنْ عِندِهِ فَفُعِمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ [هود: ٢٨]:

العمى الحقيقي ألا يبصر قلبك رحمت ربك المنزلة.

﴿وَيَقُولُ لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنِّي أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [هود: ٢٩]:

قال القشيري: «سنة الأنبياء - عليهم السلام - ألا يطلبوا على رسالتهم أجراً، وألا يؤمّلوا لأنفسهم عند الخلق قدراً، وعملهم لله لا يطلبون شيئاً من غير الله، فمن سلك من العلماء سبيلهم حُشِر في زمريتهم، ومن أخذ على صلاحه من أحد عوضاً، أو اكتسب بسداده جاهاً، لم ير من الله إلا هواناً وصغاراً».

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُّلتَفُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَنُكُمْ قَوْمًا

تَجْهَلُونَ﴾ [هود: ٢٩]:

ردُّ على طلبهم الساذج بطرد أهل الإيـمان، فلا يمكن أن يطرد إنسان من حظيرة الإيـمان لفقره، فالإيـمان لا علاقة له بثروة أو جاه أو فقر أو معاناة، بل الكل فيه سواسية أمام الله.

الكِبَر من أسباب الكفر!

قال الآلوسي: «والمروي عن ابن جريح أنهم قالوا له: يا نوح إن أحببت أن نتبعك، فاطرد هؤلاء الأراذل، وإلا فلن نرضى أن نكون نحن وهم في الأمر سواء».

وهو نفس طلب زعماء قريش للنبي ﷺ في شأن فقراء الصحابة حين قالوا: اطردهؤلاء عن مجلسك ونحن نتبعك، فإننا نستحي أن نجلس معهم في مجلس واحد.

﴿وَيَقُولُ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٣٠]:

مجرد طرد المؤمنين يستوجب عقوبة الله، فكيف بسجنهم وإيذائهم؟!

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [هود: ٣١]:

صدق نوح ﷺ: فلا يستطيع أحد أن يحكم على (نية) أحد إلا الله، ولا يعلم خبايا القلوب إلا علام الغيوب.

﴿قَالُوا يَنْبُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [هود: ٣٢]:

قال الإمام الرزاي:

«وهذا يدل على أنه عليه السلام كان قد أكثر في الجدل معهم، وذلك الجدل ما كان إلا في إثبات التوحيد والنبوة والمعاد، وهذا يدل على أن الجدل في تقرير الدلائل وفي إزالة الشبهات حرفة الأنبياء، وعلى أن التقليد والجهل والإصرار على الباطل حرفة الكفار».

﴿ثَلَاثَةٌ أَنْوَاعٌ مِنَ الْجِدَالِ الْمَذْمُومِ! قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: «دَلَالَةٌ عَلَى الْمَجَادَلَةِ الْمَشْرُوعَةِ، وَقَدْ تَجَبُّ وَقَدْ تُسْتَحَبُّ، وَأَمَّا الْمَذْمُومَةُ شَرٌّ عَافِي: الْجِدْلُ بِالْبَاطِلِ، وَالْجِدْلُ بغير علم، والجدل في الحق بعد ما تبين».

﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣]:

تبرأ من حوله وقوته، وأحال الأمر برمته على مشيئة الله، والأنبياء وإن تحدوا الناس بمعجزاتهم، إلا أنهم واقفون عند حدودهم، معترفون لله بعجزهم.

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]:

دلّت هذه الآية على أن الإغواء بإرادة الله، وهي بذلك تدلّ على بطلان مذهب من زعم أن الله تعالى لا يريد أن يعصي العاصي، ولا يكفر الكافر، فردّ الله عليهم بقوله: ﴿إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ أَفْتَرَيْتُهُ فَعَلَى إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْرُمُونَ﴾ [هود: ٣٥]:

جملة معترضة بين جملة أجزاء قصة نوح، وليست من القصة، وفيها توجيه بديع، وهو إفادة تبرئة النبي صلى الله عليه وسلم من أن يفتر القرآن.

﴿فَعَلَى إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْرُمُونَ﴾ [هود: ٣٥]:

نسب الإجماع إلى نفسه ليسوي نفسه بهم، حتى يستميل قلوبهم.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]:

ما أعظم تسلية المحزون.. الله يتولاها بنفسه، فجزى الله خيرًا كل من اقتسم معنا كسرة حزن.

﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود: ٣٦]:

قال الرازي: «أي لا تحزن من ذلك، ولا تغتم، ولا تظن أن في ذلك مذلة، فإن الدين عزيز، وإن قلَّ عدد من يتمسك به، والباطل ذليل، وإن كثر عدد من يقول به».

﴿وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧]:

قد علم الله من يصرُّ على الكفر منهم ويموت عليه، فلماذا يطلب الله من رسوله ﷺ تبليغ الرسالة؟

والجواب: لتقوم عليهم الحجة، ويكونوا شهداء على أنفسهم يوم القيامة.

﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]:

تعلموا الاستعلاء على الباطل، وعزة النفس في مقابلة إساءات المعاندين.

سئل ابن المبارك عن التواضع، فقال: «التكبر على الأغنياء».

أتى سليمان بن عبد الملك طاووسا اليماني وهو من كبار فقهاء التابعين، فلم يكلمه طاووس، فقيل له في ذلك، فقال: «أردت أن يعلم أن في عباد الله من يستصغر ما يستعظم من نفسه (أي الملك)».

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ مُخْزٍ وَنَحْلُ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾

[هود: ٣٩]:

المؤمن الواثق بأنه على الحق لا يُزعزع ثقته مقابلة السفهاء لدعوته بالسخرية، بل يجهر بكلمة الحق بكل قوة.

قال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، ولم يقل: فسوف نعلم، إيهاء إلى أن المخاطبين هم

الأحق بعلم ذلك، وأما هو فعلمه علم يقين.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠]:

طوفان يخرج من تنور (فرن)!! درس إلهي: أستطيع أن أنصرك بالسبب، وبلا سبب، بل وبعكس السبب.

﴿وَمَاءٌ أَمِنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]:

لا تستطل طريق الدعوة، فنوح مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، ولا تَصْجَر من قلة من استجاب لك، فما آمن مع نوح إلا قليل.

﴿بِسْمِ اللَّهِ تَجَرَّهَا وَمُرْسَنَهَا﴾ [هود: ٤١]:

قال القرطبي: «وفي هذه الآية دليل على ذكر البسملة عند ابتداء كل فعل».

﴿يَبْنِي أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]:

ولم يقل: مع الغارقين؛ لأن مصيبة الدين أعظم المصائب.

﴿قَالَ سَآوَىٰ إِلَيَّ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾ [هود: ٤٣]:

إذا جاء أمر الله فلا ينجي إلا الله، ولو لجأت إلى أعظم جبل، ولو كان أبوك خير البشر.

﴿وَقِيلَ يَتَازَضُ أَتْلَىٰ مَاءِكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلَىٰ وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ

وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَىٰ﴾ [هود: ٤٤]:

لم يُصْرَح بمن أفاض الماء، ولا بمن قضى الأمر، وسَوَّى السفينة، وقال: بُعْدًا، كما لم يصْرَح بقاتل: يا أرض ويا سماء، إشارة إلى أن تلك الأمور العظام لا تتأتى إلا من ذي قدرة قهار، فلا مجال لتوهم أن يكون غير الله قام بذلك.

﴿بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]:

قيام الطوفان بهذه الصورة الهائلة ما هو إلا أحد آثار الظلم.

﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥]:

قال مالك بن أنس: «الأدب أدب الله، لا أدب الآباء والأمهات، والخير خير الله لا خير الآباء والأمهات».

﴿قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦]:

صَحَّحَ اللهُ مَفْهُومَ الْأَهْلِ لَدَى نُوْحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَالْمُؤْمِنُونَ هُمْ أَهْلُهُ الْحَقِيقِيُّونَ.

قال القرطبي: «وقال الجمهور: ليس من أهل دينك ولا ولايتك، وهذا يدل على أن حكم الاتفاق في الدين أقوى من حكم النسب».

﴿قَالَ يَنْتُوخُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]:

تعزية! قال القرطبي: «في هذه الآية تسلية للخلق في فساد أبنائهم وإن كانوا صالحين».

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي

وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]:

دَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ نُوحًا، لَمْ يَكُنْ يَعْلَمُ أَنَّ سُؤَالَهُ لِرَبِّهِ فِي نَجَاةِ ابْنِهِ حَرَامٌ، وَأَنَّهُ دَاخِلٌ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تُخْطِئُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾، بَلْ تَعَارَضَ عِنْدَهُ الْأَمْرَانِ، وَظَنَّ دُخُولَ ابْنِهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَهْلَكَ﴾، ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ دَاخِلٌ فِي الْمَنْهِيِّ عَنِ الدَّعَاءِ لَهُمْ.

﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمَنِي أَكُنْ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧]:

الْخَسَارَةُ الْحَقِيقِيَّةُ فِي الْحَرَمَانِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَالْمَغْفِرَةِ، وَلَيْسَ فِي إِبْرَامَ صَفْقَةٍ خَاسِرَةٍ.

﴿قِيلَ يَنْتُوخُ أَهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ﴾ [هود: ٤٨]:

إِذَا أَحَاطَكَ اللهُ مِنْهُ بِسَلَامٍ سَتَنْجُو مِنْ جَمِيعِ الْأَهْوَالِ، وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ الطُّوفَانِ.

﴿بِسَلَامٍ مِنَّا﴾ [هود: ٤٨]:

إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ كُلَّ سَلَامٍ مِنْ عِنْدِ اللهِ لَا قِيَمَةَ لَهُ بِجَوَارِ سَلَامِ اللهِ.

﴿وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

[هود: ٤٨]:

النَّاسُ مِنْذُ الْأَزَلِ فَرِيقَانِ: فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ.

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]:

لماذا الصبر؟! قال ابن عاشور: «لأن داعي الصبر قائم، وهو أن العاقبة الحسنة ستكون من نصيب المتقين، فستكون لك وللمؤمنين معك». واللام في ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ للاختصاص والملك، فيقتضي امتلاك المتقين لجنس العاقبة الحسنة، فهي ثابتة لهم لا تفوتهم، ومتنفية عن أصدادهم من غير المتقين».

﴿إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود: ٥٠]:

قال الرازي: «يعني أنكم كاذبون في قولكم: إن هذه الأصنام تحسن عبادتها، أو في قولكم: إنها تستحق العبادة، وكيف لا يكون هذا كذباً وافتراء وهي جمادات لا حس لها ولا إدراك، والإنسان هو الذي ركبها وصورها، فكيف يليق بالإنسان الذي صنعها أن يعبدها، وأن يضع الجبهة على التراب تعظيماً لها».

المفترون في العصر الحديث!

يعكف سكان إحدى بلدات ولاية راجستان في الهند على عبادة الجرذان، وتقديم الطعام والرعاية لأعداد كبيرة منها تصل إلى ٢٠ ألف جرذ، وذلك في معبد خاص أنشئ لهذه الغاية، واسمه (كارني ماتا).

﴿يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [هود: ٥١]:

ما دامت النصيحة مشوبةً بالمطامع فهي بمعزل عن اختراق قلوب الخلق.

﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾

[هود: ٥٢]:

خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً يستسقي، فما زاد على الاستغفار حتى رجع قالوا: ما رأيناك استسقيت، قال: لقد طلبتُ المطر بمجاديح السماء التي يستنزل بها المطر، ثم قرأ: ﴿وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ

السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [هود: ٥٢].

﴿وَيَقُومِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ [هود: ٥٢]:

ما أجل هذا الحديث: «من استغفر للمؤمنين وللمؤمنات، كتب الله له بكل مؤمن ومؤمنة حسنة». صحيح الجامع: ٦٠٢٦.

﴿قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ [هود: ٥٣]:

سُمِّيت بيّنة لأنها بيّنت الحق من الباطل، وكم تظهر لقومٍ دلائل الحق وآياته المبهرات، لكنها لا تُجدي نفعًا؛ لأن القلب قد مات.

﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرْنَاكَ بِعَصُءِ الْهَيْتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٥٤]:

رمتني بدائها وانسلت! شتمت آلهتنا، فجعلتك مجنونًا وأفسدت عقلك، يرمون أعقل الخلق بما وقعوا فيه!

﴿قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيٌّ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤]:

قال الزمخشري:

«من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجلٌ واحد أمة عطاشًا إلى إراقة دمه، يرمونه عن قوس واحد، وذلك لثقتهم بربه، وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبتهم».

قال الزمخشري:

«هلا قيل: إني أشهد الله وأشهدكم، قلتُ: لأن إشهد الله على البراءة من الشرك إشهد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد، وأما إشهداهم فما هو إلا تهاون بدينهم، ودلالة على قلة المبالاة بهم».

﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ [هود: ٥٥]:

هذه معجزة نبي الله هود، فقد تحدى أمة بأسرها أن يصبوا عليه كيدهم بلا تريث أو انتظار، وكان سر قوته ومصدر منعته: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ [هود: ٥٦]:

لولا توكله على الله لبطش به الطغاة!

﴿مَّا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ [هود: ٥٦]:

الناصية هي ما انسدل من شعر الرأس على الجبهة، والأخذ بالناصية هنا تمثيل للتمكن، تشبيهاً بهيئة إمساك الإنسان من ناصيته بحيث يكون رأسه بيد آخذه، فلا يستطيع الإفلات، وهذا شأن كل الخلق مع الله.

قال الإمام الرازي: «واعلم أن العرب إذا وصفوا إنساناً بالذلة والخضوع قالوا: ما ناصية فلان إلا بيد فلان، أي أنه مطيع له؛ لأن كل من أخذت بناصره فقد قهرته، وكانوا إذا أسروا أسيراً وأرادوا إطلاقه جزوا ناصيته؛ ليكون ذلك علامة لقهره، فخطبوا في القرآن بما يعرفون».

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود: ٥٦]:

قال ابن القيم: «فإن الصراط المستقيم: هو العدل الذي الرب تعالى عليه. ومنه: انتقامه من أهل الشرك والإجرام، ونصره أوليائه ورسله على أعدائهم، وأن يذهب بهم ويستخلف قوماً غيرهم، ولا يضره ذلك شيئاً، وأنه القائم سبحانه على كل شيء: حفظاً ورعاية وتديراً وإحصاء».

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا

غَيْرَكُمْ﴾ [هود: ٥٧]:

الاستعمال في طاعته وإلا فلا استبدال.

﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ [هود: ٥٧]:

يا حفيظ احفظنا!

اقتضت سنة الله أن يحفظ أوليائه ويخذل أعداءه.

﴿نَجِّينَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٥٨]:

لم يقل باستحقاقه النجاة، أو لأنه نبي، أو لكثرة طاعته وحسن عبادته، بل قال: «بِرَحْمَةٍ مِنَّا»، ليعلم الجميع أن رحمة الله هي طوق النجاة، وأن أحداً لا يستوجب النجاة بسابق عمله بل بسابغ رحمة الله.

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود: ٥٩]:

عصوا رسولا واحداً، لكن رسالة الرسل واحدة، فمعصية واحد كمعصية الكل.

﴿وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [هود: ٥٩]:

احذرو! اتباع أمر الجبابرة يحشرك معهم يوم القيامة.

قال ابن عرفة: «دخلت ﴿كُلِّ﴾ على ﴿جَبَّارٍ﴾، ولم يقل: اتبعوا كل أمر جبار عنيد، وهذا هو الصواب؛ لأن المراد أنهم اتبعوه في ما فيه مخالفة للشرع، فلم يتبعوا كل أمره».

﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [هود: ٦٠]:

استعمل مع الدنيا اسم الإشارة ﴿هَذِهِ﴾؛ لقصد تحقيرها وتهوين أمرها عند مقارنتها بالآخرة.

﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود: ٦٠]:

ما فائدة الإشارة لعاد بأنهم قوم هود، مع أنه أمر معلوم؟! والجواب: للإشارة إلى أن استحقاقهم للبعد بسبب ما جرى بينهم وبين هود عليه السلام؛ فيكون هذا تعريضاً خفياً بمشركي قريش الذين آذوا رسول الله ﷺ، وأنهم سيلاقون بتكذيبهم ما لقيه قوم هود لمخالفة نبيهم.

﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود: ٦١]:

يجيب دعوة عباده مهما كانوا، فيجيب دعوة المضطر ولو كان كافراً، ودعوة المظلوم ولو كان فاجراً، فكيف بالأبرار والأتقياء!

﴿قَالُوا يَنْصَلِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود: ٦٢]:

يتغير رأي الناس فيك إن واجهتهم بما يكرهون ولو كان حقاً، ويحبونك إن وافقتهم ولو كانوا على باطل.

﴿أَتَنْهَدِنَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٦٢]:

التقليد الأعمى يذهب بالعقل، فيجعل المنكر معروفاً والمعروف منكراً.

﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود: ٦٢]:

شكٌّ لأنه لم يترجح في اعتقادهم صحة قوله، وقولهم: ﴿مُرِيبٍ﴾ مريب يعني أنه ترجح في اعتقادهم فساد قوله.

﴿قَالَ يَبْقَوْمِ آرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ [هود: ٦٣]:

تعلموا أدب الحوار!

صَدَّرَ كلامه بالحَرْفِ المفيد للشكِّ: ﴿إِنْ﴾ مع أَنَّهُ على الحق المبين؛ مراعاة لحال المخاطبين، والتزاماً لأدب الحوار مع المخالفين؛ ليستنزّهم عن موقف العناد والمكابرة، وليكون كلامه أقرب إلى القبول.

﴿فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾ [هود: ٦٣]:

نبي يخاف عاقبة معصيته، وبشر لا يخافون! والسبب: كلما طهر القلب زاد الخوف من الرب.

﴿وَيَبْقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا

تَمْسُوهَا بِسُوءٍ﴾ [هود: ٦٤]:

فيه المبالغة في النهي عن التَّعَرُّضِ للناقة بما يُضُرُّها؛ حيث نَهَى عن المسِّ الذي هو أول الإصابة، ونَكَرَ السُّوء؛ أي لا تقربوها بأدنى شيء من السُّوء، فضلاً عن عَقْرِها وقتْلِها.

﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]:

استُدِّلَ به على إمهال الحَصْمِ ثلاثة أيام. قال الأوزاعي: «كان عمر بن عبد العزيز إذا أراد أن يعاقب رجلاً حبسه ثلاثة أيام، ثم عاقبه كراهة أن يعجل في أول غضبه».

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ [هود: ٦٥]:

قال القرطبي: «إنما عقرها بعضهم، وأضيف إلى الكل؛ لأنه كان برضا الباقيين».

﴿نَجِّنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِن خِزْيٍ يَّوْمَئِذٍ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦]:

الخزي هو الذل العظيم الذي يبلغ بصاحبه حد الفضيحة، وسمى الله هذا العذاب خزيًا؛ لأنه فضيحة باقية يعتبر بها من بعدهم من الأمم.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ [هود: ٦٦]:

ما مناسبة هذا التذييل؟ الجواب: أنه أوصل العذاب إلى الكافر وصان عنه أهل الإيمان، وهذا التمييز في الجزاء لا يكون إلا من القوي القادر على قهر طبائع الأشياء، فيجعل الشيء الواحد بالنسبة إلى إنسان بلاء وعذابًا، وإلى إنسان غيره راحة وريحانًا.

﴿وَٱخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيرِهِمْ جَثِيمِينَ﴾ [هود: ٦٧]:

كل ظالم لا بد له من عقوبة، تتناسب مع جرمه، تبدأ بلفت نظره، وتنتهي بإهلاكه.

﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾ [هود: ٦٨]:

ما أحقر هذه الحياة إن تبعها العذاب، كأن لم تكن!

﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٨]:

لم يقل: كفروا برهم، ولكن قال: ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٨]، وفارق كبير بين المعنيين، فمعنى ﴿كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ أي: ستروا وجوده وأنكروه، فلا وجود له عندهم، ولكن معنى «كفروا برهم» هو اعتراف بوجود الله، لكنهم لم يؤمنوا به، وفي الآية تهديد للملاحدة الذين ينكرون وجود الله.

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِٱلْبَشَرِ قَالَ أَوَلَوْ سَلَٰمًا﴾ [هود: ٦٩]:

السَّلام قبل الكلام.

قال الإمام السيوطي: «فيه مشروعية الضيافة والمبادرة إليها، واستحباب مبادرة الضيف بالأكل منها».

﴿فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ﴾ [هود: ٦٩]:

فيه إشارة إلى أن السَّلام من مَلَّةِ أبينا إبراهيم عليه السلام

تحيّة الملائكة (السلام)، مثل تحيّة بني آدم.

فيه أن ردَّ السلام واجبٌ، والبدء به سنةٌ.

سَلَامًا الَّتِي قَالَتْهَا الْمَلَائِكَةُ تَقْدِيرُهَا: سَلَّمْنَا سَلَامًا؛ وَهِيَ جُمْلَةٌ فِعْلِيَّةٌ،

وَسَلَامٌ الَّتِي قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام تَقْدِيرُهُ: أَمْرِي سَلَامٌ، وَهِيَ جُمْلَةٌ اسْمِيَّةٌ، وَهِيَ أَدْلُ عَلَى ثَبَاتِ السَّلَامِ وَأَفْضَلِيَّتِهِ.

حَيَاهُمْ بِأَحْسَنِ مِمَّا حَيَّوْهُ بِهِ؛ أَخَذًا بِأَدَبِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ، وَهَذَا أَيْضًا مِنْ إِكْرَامِهِ لَهُمْ.

﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ [هود: ٧٠]:

المعتاد عندهم أنه إذا نزل بهم ضيفٌ، فلم يأكل من طعامهم ظنوا أنه لم يأت بخير.

﴿وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ﴾ [هود: ٧١]:

قال مجاهد: «في خدمة أضياف إبراهيم، ففيه دلالة على استحباب ذلك».

﴿فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]:

قال ابن القيم: «دلالة على استحباب بشارة من وُلِدَ له ولد، وتهنئته».

﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ﴾ [هود: ٧١]:

قال أبو حيان: «خُصَّتْ بِالْبِشَارَةِ؛ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ، وَكَانَ لِإِبْرَاهِيمَ عليه السلام وَلَدُهُ إِسْمَاعِيلُ».

بشارة بالولد والحفيد! البشارةُ بـيعقوبَ تقتضي أنَّ إسحاقَ يعيش، ويُولدُ له يعقوبُ.

قال السيوطي: «فهذه الآية قاطعة في أن المبشَّر به هو الذبيح وقوله: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ

قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ﴾، فقد صَرَّحَ

فيها أن المبشّر به: إسحاق، ولم يكن من سؤال إبراهيم، وكان ذلك في الشام لما جاءت الملائكة إليه بسبب قوم لوط وهو في أواخر أمره، وأما البشارة الأولى لما انتقل من العراق إلى الشام حين كانت سنه لا يستغرب فيه الولد؛ ولذلك سأله، فعلمنا بذلك أنها بشارتان في وقتين بغلامين: أحدهما بغير سؤال وهو إسحق صريحًا، والثانية قبل ذلك بسؤال وهو غيره، فقطعنا بأنه إسماعيل وهو الذبيح».

﴿قَالَتْ يَوَئَلَيْ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]:

قال الإمام السيوطي: «فيه جواز مراجعة المرأة الأجانب في القول، وأن صوتها ليس بعورة».

﴿قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [هود: ٧٣]:

من أخرج من الصخرة ناقة، وخلق من التراب بشرًا، كيف لا يقدر على أن يُخرج من المرأة العقيم ولدا؟!

﴿رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]:

جملة ﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ تعليل لتوجه رحمته وبركاته إليهم بأن الله يحمد من يطيعه، وبأنه ﴿مَجِيدٌ﴾ أي: عظيم الشأن لا حد لنعمه؛ فلا يعظم عليه أن يعطيها ولدا على كبر سنهما.

﴿إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]:

تذييل بديع للآية قُصِدَ به وجوب مداومتها على حمد الله وتمجيده على أن وهبها الولد بعد أن بلغت سن اليأس من الحمل.

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ مُجَنَّدِلْنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٤]:

من رحمة إبراهيم وإشفاقه على الخلق أن طلب تأخير نزول العذاب بهم.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]:

والحلیم: هو الصبور على الأذى، المقابل له بالإحسان، والأواه: كناية عن شدة اهتمامه بالناس، وتأوّهه لآلامهم، وهذا شأن كل داعية.

﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: ٧٦]:

إلى كل غافل: أدرك نفسك قبل فوات الأوان! إذا جاء أمر الله، فلا مردَّ له بدعاء ولا جدال.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ يَوْمٍ وَضَّا قَ يَوْمٍ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ

عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]:

حزن بسبب خوفه عليهم أن يعتدي عليهم قومه ويعجزوا عن مقاومتهم، فكان حزنه لله لا لنفسه؛ ولذا حمده الله عليه.

﴿قَالَ يَنْفَقُمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨]:

أراد بناته من صلبه، وهو الرأي الأصوب كما قال الآلوسي: «قال بعض أجلة المفسرين: إن ذلك القول لم يكن منه عليه السلام مجرياً على الحقيقة من إرادة النكاح، بل كان ذلك مبالغة في التواضع لهم، وإظهاراً لشدة امتعاضه مما أوردوا عليه، طمعا في أن يستحيوا منه، ويرقوا له إذا سمعوا ذلك، فيتركوا ضيوفه، مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده وعندهم أن لا مناكحة بينه وبينهم».

قال ابن كثير:

«وليس ألف **﴿أَطْهَرُ﴾** للتفضيل حتى يُتَوَهَّم أن في نكاح الرجال طهارة، بل هو كقولك: الله أكبر وأعلى وأجل، وإن لم يكن تفضيل، وهذا جائز شائع في كلام العرب».

﴿وَلَا تَحْزُونِ فِي ضَيْفَى﴾ [هود: ٧٨]:

قال ابن عاشور: «الضيافة جوارٌّ عند ربِّ المنزل، فإذا لحقت الضيف إهانة كانت عاراً على ربِّ المنزل».

﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]:

إشارة إلى أن إدمان الفواحش يُضعِف العقل ويذهب برشده.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكِ مِنْ حَقِّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُنَّ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]:

سمّوا إتيان الرجال حقاً! ألا ما أقبح انتكاس الفطرة وتبجح المتكسين.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]:

الحق الأعزل بلا قوة لا تأثير له ولو كان صاحبه نبياً، فلا بد للحق من قوة تحميه.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠]:

هذا حال المؤمن إذا رأى مُنْكَرًا لا يقدر على إزالته؛ أن يتحصّر على فقدان القوة أو المعين على دفعه.

﴿قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسلُ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨١]:

فيه جواز رؤية البشر للملائكة، كما رأتهم سارة امرأة الخليل عليه السلام، وكما رأى الصحابة جبريل على هيئة أعرابي، وكما نزل جبريل في صورة دحية الكلبي.

﴿لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١]:

عاجلوه بالبشرى ليطمئن.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ [هود: ٨١]:

قال قتادة: «كانت مع لوط حين خرج من القرية، فلما سمعت العذاب التفتت وقالت: وا قوماه، فأصابها حجر، فأهلكها».

﴿إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ﴾ [هود: ٨١]:

لم تنفعها قرابة النبي؛ لأن من بطأ به عمله، لم يُسرّع به نسيبه.

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢]:

قلب قوم لوط الأوضاع إتيان الذكور دون الإناث؛ فكان جزاؤهم من جنس عملهم: قلب الله عليهم قراهم.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ﴾ [هود: ٨٢]:

رُجِمُوا رجم الزناة، بسجيل منضود أي متتابع في النزول ليس بينه فترة، بما يناسب جريمتهم.

﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٣]:

قال البقاعي: «عَبَّرَ بِالرَّبِّ إِشَارَةً إِلَى كَثْرَةِ إِحْسَانِهِ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا أَمْرُهُ بِالْإِنْذَارِ رَحْمَةً لِأُمَّتِهِ الَّتِي جَعَلَهَا خَيْرَ الْأُمَمِ، وَسَيَجْعَلُهَا أَكْثَرَ الْأُمَمِ، وَلَا يُهْلِكُهَا كَمَا أَهْلَكَهُمْ».

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]:

هذا هو قانون التماثل، وهو تهديد للظالمين الحاليين، بأنهم ليسوا ببعيدين عن عقوبة الظالمين السابقين، لاشتراكهم في نفس الجريمة.

﴿إِنِّي أَرْسَلُكُمْ بِخَيْرٍ﴾ [هود: ٨٤]:

قالها شعيب لأمة وثنية، لكنه مع ذلك أقرَّ برحمتهم ورغد عيشهم، فالإنصاف من سمات المصلحين، وهم أبعد ما يكونون عن تشويه الحقائق أو الكذب لينصروا قضيتهم.

﴿وَيَقُومُوا أَوْفُوا أَلْمِ كَيْالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود: ٨٥]:

تحذير للمتلاعبين في الميزان! قال ابن عباس يومًا لأصحاب الكيل والوزن: «إنكم قد وليتم أمرًا فيه هلكت الأمم السالفة قبلكم».

﴿بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [هود: ٨٦]:

مال قليل مبارك خير من مال كثير غير مبارك! قال القرطبي: «أي ما يقيه الله لكم بعد إيفاء الحقوق بالقسط أكثر بركة، وأحمد عاقبة مما تبقونه أنتم لأنفسكم من فضل التطفيف بالتجبر والظلم».

﴿قَالُوا يَشْعَبُ أَصْلَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: ٨٧]:

هذا القول الذي أخرجوه بصيغة التهكم حقيقي، فالصلاة تأمر صاحبها وتنهاه، وتنتهي عن الفحشاء والمنكر، وإلا كانت مظهرًا بلا جوهر.

﴿قَالُوا يَشْعِيبُ أَسْلَوْتُكَ تَأْمُرُنَا أَنْ نَبْعُدَ آبَاءَنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ

فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشْتَوُ﴾ [هود: ٨٧]:

فصل الدين عن الحياة وعن واقع الناس ليس أمراً جديداً، بل له جذور قديمة، وسنة جاهلية.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨]:

قال ابن القيم: «وقد أجمع العارفون على أن كل خير، فأصله بتوفيق الله للعبد، وكل شر فأصله خذلانه لعبد، وأجمعوا أن التوفيق أن لا يكللك الله إلى نفسك».

﴿وَيَقَوْمٍ لَا تَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ

هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ﴾ [هود: ٨٩]:

إياك أن تحملك كراهية شخص على الإصرار على ذنب أو رد نصيحته، فتشابه قوم شعيب.

﴿وَمَا قَوْمٌ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]:

قال ابن كثير: «قليل المراد في الزمان، وقيل في المكان، ويحتمل الأمران».

﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود: ٩٠]:

خطيب الأنبياء يعلمنا سلوك طريق الترفع والرجاء.

﴿قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١]:

لا يفهمون خطيب الأنبياء! إنها حجة السفهاء للتهرب من تبعات الاهتداء.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْتُكَ﴾ [هود: ٩١]:

قال ابن عاشور: «وفيه دلالة على أن حكم من يخلع دينه الرجم في عوائدهم».

﴿قَالَ يَنْقَوْمِ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ﴾ [هود: ٩٢]:

أجعلتم حق قومي فوق حق الله؟! فحفظتموني رعاية لرهطي لا رعاية لأمر الله!

﴿قَالَ يَنْقَوْمِ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ﴾ [هود: ٩٢]:

عصبية لمؤمن ليست لرهطه وقومه، إنما هي لربه ودينه.

﴿قَالَ يَنْقَوْمِ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ﴾ [هود: ٩٢]:

تهاونهم بشعيب وهو نبي الله، ما هو إلا تهاون منهم بقدر بالله.

﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرًا﴾ [هود: ٩٢]:

نسيتم أمر ربكم، وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يُعبأ به، فكم منا من يفعل ذلك مع أوامر ربه اليوم؟

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [هود: ٩٢]:

إحاطة علم وإحاطة قدرة، فلا يغيب عن علم الله شيء من فعلكم، ولا يُعجز قدرته شيء إذا أراد إبطال كيدكم.

﴿وَيَنْقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ﴾ [هود: ٩٣]:

عمل أهل الباطل لا بد أن يقابله عمل مماثل لأهل الحق، وإن عمل أهل الشر يدينهم إلى النار وهم حريصون عليه، فكيف لا يعمل أهل الجنة عملاً يدينهم إلى الجنة، ويكونون أشد حرصاً عليه؟

﴿وَيَنْقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ﴾ [هود: ٩٣]:

لا يفت في عضدي تسارع عجلة عمل أهل الباطل وكثرة مؤامراتهم؛ لذا أمضي في عملي، ولا أنقض عزمي.

﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ﴾ [هود: ٩٣]:

تعريضُ بكذبهم في ادعائهم القدرة على رجحه، وفي نسبته إلى الضعف والهوان، وأنهم لولا رهطه لرجوه.

﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود: ٩٣]:

هكذا يجب أن تكون ثقة كل مؤمن بوعد الله.

﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَحْنُ شُعَبَاءٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا﴾ [هود: ٩٤]:

لا نجاة لأحد من العذاب -ولو كان نبياً- إلا برحمة الله.

﴿أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥]:

قال ابن عاشور: «وجه الشبهة: التماثل في سبب عقابهم بالاستئصال، وهو عذاب الصيحة».

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٩٦]:

الآيات هي الآيات التسع، والسلطان المبين أي: الحجة البيّنة، وكل سُلْطَانُ ذُكِرَ فِي الْقُرْآنِ هُوَ بِمَعْنَى الْحُجَّةِ.

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٩٦]:

سلطان قوة يقهر قوة فرعون، وسلطان حجة يقنع القلوب، فيشمل القوالب والقلوب، وهما علامة الكمال لكل داعٍ إلى الخير.

﴿فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧]:

قال الزمخشري:

«هذا تجهيلٌ لمُتَّبِعِيهِ، حيث شايعوه على أمره، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل، وذلك أنه ادعى الإلهية، وهو بشر مثلهم، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذي لا يأتي إلا من شيطان مارد، فاتبعوه وسلموا له دعواه، وتتابعوا على طاعته».

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]:

كل قدوة سيتقدم من اقتدوا به يوم القيامة، فهو قائلهم إما إلى جنة أو إلى نار.

﴿وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَمْرُودُ﴾ [هود: ٩٨]:

استهزاء بهم، فالورد هو نصيب الإنسان من الماء، يشربه لتسكين عطشه وإرواء ظمئه، وهؤلاء يردون النار ليزدادوا عطشاً، وتقطع أجوافهم ظمأً.

﴿وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾ [هود: ٩٩]:

الرفد هو العطاء، وكأن مكافأة فرعون لقومه على اتباعهم له هي اللعنة التي تصيبهم في الدنيا والآخرة، وهو لون من ألوان التهكم لا يخفى.

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفَرَى نَقْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ [هود: ١٠٠]:

من هذه القرى المهلكة ما آثارها قائمة يراها الناظرون، كآثار فرعون وشمود، ومنها ما زالت آثارها وصارت كالزروع المحصود، فلم يبق منه شيء كديار قوم نوح ولوط.

﴿فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠١]:

قال أبو الفتح البستي:

من استعان بغير الله في طلب فإن ناصره عجز وخذلان

﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ [هود: ١٠١]:

والتتبيب: مصدر تبَّ بمعنى خسر، وتبَّب فلان فلانا إذا أوقعه في الخسران، وتبَّا لفلان: دعاء عليه بالهلاك، والمعنى: أن الكفار كانوا يعتقدون في الأصنام أنها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضار، فما وجدوا منها عند الحساب جلب نفع ولا دفع ضرر.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَى وَهِيَ ظَلِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢]:

قانون التماثل مرة أخرى، فمن سلك نفس طريق الظالمين نال نفس عقوبتهم.

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْفَرَى وَهِيَ ظَلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]:

الظلم إعلان حرب مع الله، ولا بد أن ينتهي بانتقام الله.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]:

الخوف خير دواء يضمن الانتفاع بالآيات.

﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣]:

الفضيحة الكبرى هي فضيحة يوم القيامة؛ لأنها لا تخفى على أحد من المخلوقين، ويشهدها كل البشر؛ من يعرفهم العبد ومن لا يعرفهم.

ما أعجب نفساً! تحجل من فضيحة محدودة في الدنيا، ولا تأنف من خزي يوم القيامة، ولا من السقوط في عين الله والملائكة والنبين!

﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٤]:

تأخير الآخرة وإفناء الدنيا موقوف على أجل معدود، وكل ما له عدد فهو منته، وكل منته لا بد أن يفنى، فإذا فني أقام الله القيامة، وكل آت قريب.

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]:

في حديث الشفاعة أن رسول الله ﷺ قال: «ولا يتكلم يومئذ إلا الرسل، ودعوى الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم».

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ هُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦]:

تحيل التنفس داخل النيران، وسط جوها المتصاعد باللهب والدخان، فيتنفس المسكين ناراً تحرق جوفه وأحشاءه، فما أشده عذابه.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١٠٧]:

هذا أرحم استثناء في القرآن! لأن فيه أعظم فائدة، وهو إخراج أهل التوحيد من النار.

﴿سُعْدُوا﴾ [هود: ١٠٨]:

لم ترد كلمة السعادة في القرآن إلا مرة واحدة ﴿سُعْدُوا﴾، وفي الجنة فقط؛ لأنه لا سعادة حقيقية إلا في الجنة.

﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٨]:

وصف الله نعيم الجنة بأنه غير مقطوع؛ لئلا يتوهم وأهم بعد ذكر المشيئة:

﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أن ثم

انقطاعاً لهذا النعيم، بل هو الخلود والدوام الأبدي.

﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ

مِّن قَبْلُ﴾ [هود: ١٠٩]:

قال أبو حيان الأندلسي: «هَؤُلَاءِ»: إشارة لمشركي العرب، وأن ديدنهم

كديدن الأمم الماضية في التقليد والعمى عن النظر في الدلائل والمعجزات، وهذه تسلية للرسول ﷺ، ووعد بالانتقام منهم، إذ حالهم في ذلك حال الأمم السالفة، والأمم السالفة قد قصصنا عليك ما جرى لهم من سوء العاقبة».

﴿وَإِنَّا لَمُوقُوهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ [هود: ١٠٩]:

قال صاحب المنار: «أي وإنا لمعطوهم نصيبهم من جزاء أعمالهم في الدنيا والآخرة وافيًا تامًا لا ينقص منه شيء، كما وفينا آباءهم الأولين من قبل، فإنه ما من خير يعملُه أحد منهم كبرّ الوالدين وصلة الأرحام، إلا ويوفيههم الله جزاءهم عليه في الدنيا بسعة الرزق، وكشف الضر جزاء تامًا، لا ينقصه شيء يجزون عليه في الآخرة».

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَآخْتَلَفَ فِيهِ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [هود: ١١٠]:

اختلاف شأن الناس حول الحق سنة ربانية في كل زمان ومكان، والمصيبة إذا عمّت خفت، فالجملة تسلية لرسول ﷺ وورثته من بعده.

﴿وَإِنْ كُلًّا لَمَّا لَيُوفِيْنَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلُهُمْ﴾ [هود: ١١١]:

تضمنت الآية أربعة توكيدات لبث اليقين! التوكيد بـ (إِنَّ)، وبـ (كُلِّ)، وباللّام في الخبر وبالقسَم، وبنون التوكيد؛ وذلك مبالغة في وعد الطّائعين وتوعد العاصين.

﴿إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [هود: ١١١]:

سيوفيك الله أجرك كاملاً؛ لأنه الخبير الذي أحاط علماً بكل ما بذلت، ولو كان مثقال ذرة.

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود: ١١٢]:

قال ابن عباس ؓ: «ما نزل على النبي ﷺ آية كانت أشق ولا أشد من قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾؛ ولذلك قال ﷺ لأصحابه حين قالوا: أسرع إليك الشيب. قال: «شيبني هود وأخواتها».

﴿٣٢٠٢﴾ ما معنى الاستقامة؟! قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

«الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ وروغان الثعالب».

﴿٣٢٠٣﴾ أمر الله رسوله بالاستقامة وفق أمره، فنحن أحق بالنظر في استقامتنا منه، وهل هي وفق ما أراد الله أم لا.

﴿٣٢٠٤﴾ **﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾** [هود: ١١٣]:

قال القشيري: «لا تعملوا أفعالهم، ولا ترضوا بأفعالهم، ولا تمدحوهم على أفعالهم، ولا تتركوا الأمر بالمعروف لهم، ولا تأخذوا شيئاً من حرام أموالهم، ولا تسكنوهم بقلوبكم، ولا تخالطوهم، ولا تعاشرهم... كل هذا يحتمله الأمر، ويدخل تحت الخطاب».

﴿٣٢٠٥﴾ قال السعدي: «وإذا كان هذا الوعيد في الركون إلى الظلمة، فكيف حال الظلمة بأنفسهم؟! نسأل الله العافية».

﴿٣٢٠٦﴾ الظلم أخبث وباء! من سكت عنه أولاً رضي به ثانياً، وبرّره ثالثاً، ثم سقط فيه رابعاً؛ ولذا جاء النهي الرباني جازماً: **﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾**

﴿٣٢٠٧﴾ **﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾** [هود: ١١٤]:

وإذهاب السيئات يشمل:

١- محو إثمها إن وقعت.

٢- محو حبها في النفس ليصبح انسياق النفس لها أصعب وتركها أسهل.

﴿٣٢٠٨﴾ إكثار المرء من الحسنات هو سبيل محاصرة السيئات، والتغلب على تغلبها في قلوب العباد.

﴿٣٢٠٩﴾ قال الحسن البصري: «استعينوا على السيئات القدييات بالحسنات الحديثات، وإنكم لن تجدوا شيئاً أذهب بسيئة قديمة من حسنة حديثة، وأنا أجد تصديق ذلك في كتاب الله: **﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾**».

﴿إِنَّ الْحَسَنَتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١١٤]:

قال ابن قدامة:

«مثال ما ذكرنا: أن يكفر سماع الملاهي بسماع القرآن ومجالس الذكر، ويكفر مسح المصحف بغير طهارة بإكرامه وكثرة القراءة فيه، وإن أمكنه أن يكتب مصحفًا ويقفه فليفعل، ويكفر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال، وعلى هذا فاسلك سبيل المضادة، فإن الأمراض إنما تُعالج بضدها».

﴿وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٥]:

قال القشيري في تعريف الصبر: «الصبر تجرّع كاسات التقدير من غير تعيس».

يا قليل الصبر: شوق النفس إلى ثواب ربك، كلما ضعفت قوتك، وفترت همّتك.

قال ابن عاشور: «ومناسبة وقوع الأمر بالصبر عقب الأمر بالاستقامة والنهي عن الركون إلى الذين ظلموا، أن المأمورات لا تخلو عن مشقة عظيمة، ومخالفة لهوى كثير من النفوس، فناسب أن يكون الأمر بالصبر بعد ذلك، ليكون الصبر على الجميع كل بما يناسبه».

قال الزمخشري عن الأمر بالصبر في آخر السورة:

«كأنه قال: (وعليك بما هو أهمّ ممّا ذُكرت به، وأحقّ بالتوصية، وهو الصبر على امتثال ما أمرت به والانتهاؤ عما نهيت عنه)؛ فلا يتّم شيء منه إلّا به».

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَهَجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦]:

قال قتادة: «لم يكن من قبلكم من ينهى عن الفساد في الأرض ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَهَجَيْنَا مِنْهُمْ﴾».

﴿إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَهَجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦]:

لولا أنهم نهوا عن الفساد لما نجا منهم أحد!

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]:

المصلحون صمام أمان للمجتمع لا الصالحون، فإن قلَّ عدد المصلحين أو حوصروا فقلَّ تأثيرهم، فهي نُذْرُ الهلاك.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]:

لا يكفي أن تكون صالحًا سلبياً لتنقذ أمتك بل لا بد أن تكون مصلحاً إيجابياً.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]:

عفوًا! صلاحك وحده لا يكفي! إيجابيتك وإصلاح ما حولك هي وحدها ضمان نجاة مجتمعك من الهلاك.

﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]:

قال ابن تيمية: «فأخبر أن أهل الرحمة لا يَخْتَلِفُونَ، وأهل الرحمة هم أتباع الأنبياء قولاً وفِعْلاً، وهم أهل القرآن والحديث من هذه الأمة، فمن خالفهم في شيء فاته من الرحمة بقدر ذلك».

﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٩]:

اللام لام العاقبة والضرورة لا التعليل والسببية، أي يصيرون إلى ثمرة الاختلاف، من كون فريق في الجنة، وفريق في السعير؛ لأن حكمة خلقهم ليست الاختلاف، بل العبادة، ولو أنه خلقهم للاختلاف، لما عذبهم عليه.

﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]:

من أهم أسباب الثبات مطالعة سير الصالحين والأنبياء، وليس أفضل من مطالعة ذلك في خير الكتب: كتاب الله تعالى.

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانظُرُوا إِنَّا

مُنْتَظِرُونَ﴾ [هود: ١٢٠-١٢١]:

قال ابن عاشور: «في أمر الله رسوله بأن يقول ذلك على لسان المؤمنين شهادة من الله بصدق إيمانهم، وفيه التفويض إلى رأس الأمة بأن يقطع أمراً عن أمته؛ ثقة بأنهم لا يردُّون فعله».

﴿وَالِيهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ [هود: ١٢٣]:

من إحياء وإماتة، وهداية وضلال، وصحة ومرض، ونصر وهزيمة، فكل هذا يرجع إلى الله، وإلى علمه وقدرته.

﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]:

التوكل من العبادة، لكن الله خصّه بالذكر هنا اهتماماً به، فهو نعم العون على سائر أنواع العبادات، وهو سبحانه لا يُعبد إلا بمعاونته.



سورة يوسف

﴿الر﴾ [يوسف: ١]:

تحدّ! ها هي حروف اللغة بين أيديكم، فأتوا بمثل هذا القرآن، أو سورة منه، بل آية واحدة، ولن تستطيعوا.

﴿تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]:

الإشارة بلفظ ﴿تِلْكَ﴾ وما فيه من معنى البُعد، إشارة إلى عظمة الآيات وعلو مقامها، فليستحضر قلبك التعظيم والتبجيل وأنت تقرأ هذه السورة لتتفاعل معها.

﴿الر تِلْكَ ءَايَةُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]:

المراد بالكتاب القرآن، والمبين مشتق من:
- فعل (بان) أي ظهر إعجازه، فالقرآن معجزة، وإعجازه في بلاغته وإخباره بالغيب وغير ذلك من وجوه الإعجاز.
- أو فعل (أبان) أي أظهر. قال الزجاج: «مُبَيِّنٌ للحق من الباطل، والحلال من الحرام».

أبان لنا القرآن كل ما نحتاجه في حياتنا حتى أدق التفاصيل. قيل لسلمان الفارسي عليه السلام: قد علّمكم نبيكم كلّ شيء حتى الخِراءة؟ قال: «أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائطٍ أو بولٍ، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برّجيعٍ أو بعظم».

وفي رواية: قال له بعضُ المشركين - وهم يستهزئون به -: «إني أرى صاحبكم يعلمكم كلّ شيء حتى الخِراءة».

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [يوسف: ١]:

افتخر بدينك الذي أظهره الله، وإياك أن تحجل من شعيرة من شعائره، ففخرك الحقيقي في التزامك به، واقتفاء أثر النبوة.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]:

أنزل الله القرآن على العرب بلسانهم كي يفهموه ويعقلوه، فعلى كل داعية أن يكلم الناس بما يناسب عقولهم وأفهامهم، فيستعمل لغة العصر التي توصل رسالته إليهم بوضوح، فتقوم عليهم الحجة ويتم البلاغ.

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢]:

ولأنه نزل بلغتكم أيها العرب، كان أشد في إقامة الحجة عليكم، وأقطع لأعداركم في عدم العمل به من غير العرب.

﴿لَحْنُ نَقْصٍ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]:

ليس القصص - بالفتح - جمع قصّة كما يظن البعض؛ لكن القصص من قوله: قصّ أثره، ويقصّه قصصاً، واقتصصت الحديث أي رويته على وجهه، فقوله: ﴿أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ أي نخبرك أحسن الخبر، ونبيك أحسن النبأ، ونحدثك أحسن الحديث.

﴿لَحْنُ نَقْصٍ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]:

سورة يوسف تقاوم حملات الزيف والتشويه!

في الآية تعريض بقصص التوراة والكتب السابقة المحرّفة التي حوت كثيراً من الأباطيل، فقد كان النضر بن الحارث شيطاناً من شياطين قريش، وكان يسافر إلى العراق والشام لكونه تاجراً، فيتعلم أساطيرهم فإذا عاد إلى مكة حدّث الناس بها قائلاً: «بماذا محمد أحسن حديثاً مني؟».

قال ابن هشام: «وهو الذي قال في ما بلغني: ﴿سَأَنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾».

[الأنعام: ٩٣].

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾

[يوسف: ٣]:

هل سورة يوسف هي أحسن القصص؟! والجواب: كلا. قال الإمام ابن تيمية:

«يتناولُ كُلَّ ما قَصَّه في كِتَابِهِ فهو أحسنُ ممَّا لم يَقُصَّه، ليس المراد أنَّ قِصَّة يوسف أحسن ما قُصَّ في القرآن»؛ ولذا قال: ﴿بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾، ولم يقل: بما أوحينا إليك هذه السورة.

لماذا سورة يوسف بالتحديد؟! والجواب: لم تكن قصة يوسف عليه السلام معروفة لدى العرب قبل نزول القرآن إجمالاً ولا تفصيلاً، بخلاف غيرها من قصص الأنبياء التي كان العرب يعرفونها إجمالاً، فجاء القرآن مبيناً قصة يوسف مفصلاً لها، ورؤي أن اليهود أمروا كفار مكة أن يسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن السبب الذي أحلَّ بني إسرائيل بمصر، فنزلت السورة.

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]:

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في قول الله عز وجل: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾: أنزل الله القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتلاه عليهم زماناً، فقالوا: يا رسول الله.. لو قصصت علينا، فأنزل الله: ﴿الرَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ إلى قوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، فتلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم زماناً، فقالوا: يا رسول الله.. لو حدثتنا، فأنزل الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْخَبَرِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا﴾.

﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَفِيلِينَ﴾ [يوسف: ٣]:

والغفلة نوعان: غفلة إعراض، ولا شك أنها مذمومة، وغفلة بمعنى الجهل والذهول عن الشيء، وهذه لا يسلم منها بشر، ولكن الله لم يشأ أن يصف نبيه صلى الله عليه وسلم بالجهل تشريفاً لمقامه. قال العلامة القاسمي: «والتعبير عن عدم العلم بالغفلة؛ لإجلال قدر النبي صلى الله عليه وسلم».

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَتَّبِعْنِي فَإِنَّهُ رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ

رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤]:

جاء في الحديث أن الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوة، أو ستة وأربعين جزءاً، أو خمسة وعشرين جزءاً، فما سر هذا الاختلاف بين الأحاديث؟! قال ابن عبد البر: «اختلاف الآثار في هذا الباب في عدد أجزاء الرؤيا ليس ذلك عندي اختلاف متضاد متدافع، فعلى قدر اختلاف الناس فيما وصفناه تكون الرؤيا منهم على الأجزاء المختلفة العدد، فمن خلصت نيته في عبادة ربه وبقينه وصدق حديثه، كانت رؤياه أصدق، وإلى النبوة أقرب».

﴿قَالَ يَبْنِي لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]:

عن أبي قتادة بن ربعي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان، فإذا رأى أحدكم شيئاً يكرهه، فلينث عن يساره ثلاث مرات إذا استيقظ، وليتعوذ بالله من شرها، فإنها لن تضره إن شاء الله». تخرج الكلم الطيب رقم: ٥٠. قال أبو سلمة: إن كنت لأرى الرؤيا هي أثقل عليّ من الجبل، فلما سمعت بهذا الحديث فما كنت أبا ليها.

صحّ عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأى أحدكم الرؤيا يكرهها، فليصق عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من الشيطان ثلاثاً، وليتحول عن جنبه الذي كان عليه». صحيح الجامع رقم: ٥٥١.

﴿قَالَ يَبْنِي لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: ٥]:

رؤيا المؤمن تسرّه ولا تعرّه، أي يستبشر بها لكن لا تقعه عن العمل والأخذ بالأسباب.

من الحكمة كتمان الأخبار التي هي مظنة الغيرة أو الحسد.

قال القرطبي: «هذه الآية أصل في ألا نقصّ الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها».

في الحديث: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود». صحيح الجامع رقم: ٩٤٣.

﴿قَالَ يَبْنِيْ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]:

قال ابن العربي: «هذا يدل على معرفة يعقوب بتأويل الرؤيا؛ لأن نبيه لابنه عن ذكرها، وخوفه على إخوته من الكيد له من أجلها علم بأنها تقتضي ظهوره عليهم وتقدمه فيهم، ولم يبال بذلك يعقوب؛ فإن الرجل يود أن يكون ولده خيراً منه، والأخ لا يود ذلك لأخيه».

تعليل الأحكام ضروري حتى للصغار وذلك للإقناع، وكثير من الأساليب التربوية الخاطئة تعتمد على إصدار الأوامر دون توضيح الأسباب، فتورث العناد والصدام مع الآباء والأمهات.

في الآية دليل على أنه يباح للمسلم أن يحذر أخاه المسلم إذا خاف عليه خطراً من مُعْتَدٍ يريد به شراً، ولا يكون ذلك داخلًا في الغيبة.

لا يغني حذر من قدر! لم يخبر يوسف إخوته برؤياه، ومع هذا وقع ما قدره الله من طريق آخر.

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلسَّالِقِينَ﴾ [يوسف: ٧]:

كلما زادت الأسئلة زاد الفهم، وهذا أفضل بكثير من أسلوب التلقين، ويؤدي لتوصيل المعلومة بصورة أوضح مع ترسيخها في الأذهان؛ ولذا قيل لابن عباس: كيف أصبت هذا العلم؟ فقال: لسان سؤال، وقلب عقول، وقال بعض الحكماء: ليست الإجابة هي التي تنير الدرب، بل السؤال.

﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا﴾ [يوسف: ٧]:

مع أن الاهتمام بالصغير أمر فطري وطبيعي.

قيل لحكيم: أي أبنائك أحب إليك؟

فقال: «الصغير حتى يكبر؛ والغائب حتى يعود، والمريض حتى يُشْفَى»، لكن عمى البصائر يميت الضمائر.

احذروا فرط المحبة! قال الشيخ عبد الله العلمي:

واحذر الناس أن يروك مُحبًّا
ضلُّوا من أحب وهو أبوهم
أو حبيبا واذكر بني يعقوبا
ثم ظلما شرَّدوا المحبوبا

﴿إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أُمِينًا مِنَّا وَحَنُّ عُصْبَةٍ إِنَّ أَبَانَا لَفِي

ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]:

الحسد يُعمي ويصم! انظر كيف دفعهم الحسد إلى كبائر الذنوب، فكان منهم ثلاث جرائم: استحلُّوا قتل يوسف عليه السلام، ووصفوا أباهم - وهو النبي المرسل - بوصف لا يليق أبدًا، واستمروا الكذب ليخدعوا أباهم.

قال ابن الجوزي:

«رأيتُ الناس يذمون الحاسد، ويبالغون، ويقولون: لا يحسد إلا شرير، يعادي نعمة الله، ولا يرضى بقضائه، ويبخل على أخيه المسلم، فنظرت في هذا، فما رأيته كما يقولون.

وذاك أن الإنسان لا يجب أن يرتفع عليه أحد؛ فإذا رأى صديقه قد علا عليه، تأثر هو، ولم يجب أن يرتفع عليه، وودَّ لو لم ينل صديقه ما ينال، أو أن ينال هو ما نال ذاك، لئلا يرتفع عليه، وهذا معجون في الطبع، ولا لوم على ذلك؛ إنما اللوم أن يعمل بمقتضاه من قول أو فعل.

قال الحسن:

ليس من ولد آدم أحد إلا وقد خُلِقَ معه الحسد، فمن لم يجاوز ذلك بقول ولا بفعل، لم يتبعه شيء (أي ذنب).

﴿إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أُمِينًا مِنَّا وَحَنُّ عُصْبَةٍ إِنَّ أَبَانَا لَفِي

ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]:

ليست الكثرة دائمًا علامة خيرية أو اجتماع على الحق، أحيانًا تكون عكس ذلك.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]:

قارن بين قولهم وقول يوسف لأبيه: ﴿يَتَأْتٍ هَذَا﴾ ، لتعرف سر حب يعقوب ليوسف، فلم يكن تفضيله له عن هوى أو جمال شكل، فإن مقام النبوة منزّه عن كل هذا، لكن لحسن أدبه ورجاحة عقله، وظهور أمارات الاصطفاء عليه.

﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]:

الهداية هبة ربانية! تربيتهم في بيت من بيوت النبوة، لم تكن سبباً في هداية قلوبهم وصلاحهم.

﴿وَنَحْنُ غُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨-٩]:

القوة والكثرة تورث صاحبها الغرور، وتغريه بالظلم والعدوان.

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَمْلِكُ لَكُمْ وَجَهٌ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [يوسف: ٩]:

انظر كيف خدعهم الشيطان! قال السعدي: «فقدّموا العزم على التوبة قبل صدور الذنب منهم تسهيلاً لفعله، وإزالة لشناعته، وتنشيطاً من بعضهم لبعض».

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩]:

قد تختلف أحوال الإخوة مع اتحاد الأصل والبيئة، فمع أن كلّهم أبناء نبي، لكن شتان بين يوسف وإخوانه!

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ [يوسف: ٩]:

وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

لا يلزم أن يكون ابن النبي نبياً، ولا ابن التقي تقياً، قد يطيّب الأصل ويفسد الفرع: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿[يوسف: ٩]:

الازدواجية أسلوب حياة!

يغريك الشيطان بارتكاب الكبائر، ثم يخدرك ببعض النوافل!

اسفك دم أخيك ثم توضاً للصلاة عليه!

اغصب ماله ثم أطعم عياله!

كل الرشوة وانهب المال العام ثم حج كل عام!

لا بأس بظلم أخيك ما دامت لك صدقة تحميك!

وقليل الدم تمسحه دمة ندم!

يا هذا.. إن الله لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفريضة!

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ

السَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: ١٠]:

أول صور لطف الله تعالى بيوسف عليه السلام: أن أنطق أحد إخوته برأي كان سبب إنقاذه من القتل، ومع أنه رأي واحد بين الأغلبية، إلا أنهم جميعاً استمعوا إليه وأنفذوا رأيه.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ

السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَعِلِينَ﴾ [يوسف: ١٠]:

كلمة واحدة جعلها الله سبب إنقاذ يوسف من القتل، فلا تستهين بكلمة حق تنطق بها، أو نصيحة تُدلي بها، لعلها تكون حجر زاوية في إنقاذ نفس كما كانت مع يوسف.

﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَبَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٠]:

التاريخ يتكرر وسيتكرر!

ما الفارق بين تأمر إخوة يوسف وتأمر قريش على النبي ﷺ في دار الندوة؟

ما الفارق بين حرمان يوسف من أبيه وداره، وحرمان النبي ﷺ من أحب

بلاد الله إليه؟

ما الفارق بين العصبة التي تأمرت على يوسف وعصبة اليهود وقبائل العرب الذين تأمروا على النبي ﷺ؟

الطريق واحد، والعقبات واحدة، والعاقبة كذلك واحدة: دومًا للمتقين، وهي بشارة للنبي ﷺ وأتباع النبي، فقد نزلت سورة يوسف قبيل الهجرة إلى المدينة، لتبشر للمؤمنين بفتح قريب ونصر عجيب في بلد جديد.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣]:

تعلموا حسن الأدب والتوجيه غير المباشر من يعقوب عليه السلام، فلم يقل: أنتم تحسدون أخاكم وتحقدون عليه، فيتهمهم صراحة بما أرادوا، فهذا مما يرسخ العداوة في نفوسهم، لكنه أخبرهم أنه يخاف تقصيرهم (غير المتعمد) في حفظ يوسف.

الحزن يكون على ما فات، والخوف مما يقع في المستقبل، وقد اجتمع الشعوران في قلب يعقوب عليه السلام تجاه يوسف؛ مما يدل على علو مكانة يوسف في قلب أبيه.

﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ﴾ [يوسف: ١٣]:

الابن البار يتقي ما يحزن أباه!

قال ابن عاشور: «وإنما ذكر يعقوب عليه السلام أن ذهابهم به غدًا يُحدث به حزنًا مستقبلاً؛ ليصرفهم عن الإلحاح في طلب الخروج به؛ لأن شأن الابن البار أن يتقي ما يحزن أباه».

﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣]:

لَقَنَهُمْ حجتهم وعذرهم الذي سيعتذرون به إليه، وصدق الشاعر حين قال:

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى إنَّ البلاء مُوَكَّل بالمنطق

فإن قال قائل: لقد صدرت هذه الكلمة من يعقوب عليه السلام وهو نبي؟ فالجواب: ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا.

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ﴾ [يوسف: ١٥]:

إجماع عجيب وتواطؤ على هذه الجريمة البشعة: إلقاء طفل في قاع بئر، مع تركه فريسة للموت جوعاً.

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]:

ليس هذا وحي النبوة، فيوسف لم يبلغ بعد، بل كان غلاماً، لكنه وحي إلهام، وقد يقع مثله للصالحين تثبيتاً من الله، وبشارة للمظلوم بأن الفرج قريب.

﴿وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦]:

قال القشيري: «تمكين الكذاب من البكاء سمة خذلان الله تعالى إياه، وفي الخبر: إذا كمل نفاق المرء ملك عينه حتى يبكي ما شاء».

﴿لَا تَنْخَدِعْ بِحِيلِ الْمُحْتَالِينَ! قَالَ الشَّعْبِيُّ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ شَرِيحِ الْقَاضِي إِذْ

دَخَلَتْ عَلَيْهِ امْرَأَةٌ تَشْتَكِي زَوْجَهَا وَهُوَ غَائِبٌ، وَتَبْكِي بَكَاءَ شَدِيدًا، فَقُلْتُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ، مَا أَرَاهَا إِلَّا مَظْلُومَةً. قَالَ: وَمَا عَلِمَكَ؟ قُلْتُ: لِبُكَائِهَا. قَالَ: لَا تَفْعَلْ؛ فَإِنْ إِخْوَةَ يَوْسُفَ جَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ، وَهُمْ لَهُ ظَالِمُونَ.

﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧]:

الكاذب متهم من الكل، حتى من نفسه التي بين جنبيه!

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨]:

قصة القمصان الثلاثة! قال الإمام الشَّعْبِيُّ: «قصة يوسف كلها في قميصه.. وذلك أنهم لما ألقوه في الجُبِّ، نزعوا قميصه، ولطَّخُوهُ بِالْدَّمِ، وعرضوه على أبيه. ولما شهد الشَّاهد قال: ﴿وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قَدْ مِّنْ دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٧].

وقال: ﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ [يوسف: ٩٣]، ولما أتى البشير إلى يعقوب بقميصه، وألقى على وجهه، فارتدَّ بصيراً».

﴿عَلَامَةٌ أُخْرَى عَلَى قَسْوَةِ قُلُوبِهِمْ تَجَاهَ يَوْسُفَ، أَنَّهُمْ نَزَعُوا قَمِيصَ أَخِيهِمُ

الصغير ليستعملوه في ترويج كذبهم، وتركوه في العراء بلا قميص.

ليست هناك جريمة كاملة! هذا الدم المراق فأين القميص الممزق؟! ﴿٣٢٧٩﴾

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: ١٨]. ﴿٣٢٨٠﴾

علم يعقوب أن الذئب لم يأكل يوسف؛ لأن الكواكب لما تسجد له بعد! كن دائماً بوعد الله أوثق منك مما تراه عينك!

التنكير في ﴿أَمْرًا﴾ إما للتعظيم والتفخيم، كأنه يقول: أمراً عظيماً ارتكبتموه، أو للإيهام، أي أمراً من الأمور المستورة تحت طي الكتان. ﴿٣٢٨١﴾

ما أعظم حلم الأنبياء وأحسن أخلاقهم! رغم احتراق قلب يعقوب على يوسف، لم يصدر منه إلا ألين الكلام مع هؤلاء اللئام. ﴿٣٢٨٢﴾

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ١٨]. ﴿٣٢٨٣﴾

قال سفيان الثوري عن بعض أصحابه: «ثلاث من الصبر: ألا تحدث بوجعك، ولا بمصيبتك، ولا تزكي نفسك». ﴿٣٢٨٤﴾

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ [يوسف: ١٨]. ﴿٣٢٨٥﴾

لولا الله ما صبر أحد، ولولا استعانة يعقوب بربه ما تحمّل فراق يوسف.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ [يوسف: ١٨]. ﴿٣٢٨٦﴾

قال الإمام الرازي:

«لأن الدواعي النفسانية تدعوه إلى إظهار الجزع، وهي قوية.

والدواعي الروحانية تدعوه إلى الصبر والرضا.

فكأنهما في تحارب وتجالد، فما لم تحصل إعانته تعالى، لم تحصل الغلبة، فقلوه:

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يجري مجرى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وقوله: ﴿وَاللَّهُ

الْمُسْتَعَانُ﴾ يجري مجرى قوله: ﴿وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]. ﴿٣٢٨٧﴾

هذه من فراسة يعقوب الذي كان واثقاً أنهم كاذبون في هذا الوصف، وأنهم

هم الذين ألحقوا الضرر بيوسف لا الذئب، فقصتهم لم تقع، وقد وصفوا له

أموراً لم تقع.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]:

لماذا لم يسع يعقوب في البحث عن يوسف رغم علمه بأنه حي؟! قال الإمام الرازي في إجابته:

«عِلْمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَصُونُ يُوسُفَ عَنِ الْبَلَاءِ وَالْمَحَنَةِ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَعِظُمُ بِالْآخِرَةِ، ثُمَّ لَمْ يَرِدْ هَتَكَ أَسْتَارَ سِرَائِرِ أَوْلَادِهِ، وَمَا رَضِيَ بِالْقَائِمِ فِي أَلْسِنَةِ النَّاسِ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ أَحَدَ الْوَلَدَيْنِ إِذَا ظَلَمَ الْآخَرَ، وَقَعَ الْأَبُّ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ؛ لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَنْتَقِمْ يَحْتَرِقْ قَلْبُهُ عَلَى الْوَلَدِ الْمَظْلُومِ، وَإِنْ انْتَقَمَ فَإِنَّهُ يَحْتَرِقُ قَلْبُهُ عَلَى الْوَلَدِ الَّذِي يَنْتَقِمُ مِنْهُ».

﴿وَأَسْرُوهُ بِضَعَّةٍ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ١٩]:

قال ابن كثير:

«أَيُّ عَلِيمٍ بِمَا فَعَلَهُ إِخْوَةُ يُوسُفَ وَمَشْتَرَوْهُ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى تَغْيِيرِ ذَلِكَ وَدَفْعِهِ، وَلَكِنْ لَهُ حِكْمَةٌ وَقَدَرٌ سَابِقٌ، فَتَرَكَ ذَلِكَ لِيَمْضِيَ مَا قَدَّرَهُ وَقَضَاهُ، وَفِي هَذَا تَعْرِيزٌ لِرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَإِعْلَامٌ لَهُ بِأَنِّي عَالِمٌ بِأَذَى قَوْمِكَ لَكَ، وَأَنَا قَادِرٌ عَلَى الْإِنْكَارِ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنِّي سَأَمْلِي لَهُمْ، ثُمَّ أَجْعَلُ لَكَ الْعَاقِبَةَ وَالْحُكْمَ عَلَيْهِمْ، كَمَا جَعَلْتُ لِيُوسُفَ الْحُكْمَ وَالْعَاقِبَةَ عَلَى إِخْوَتِهِ».

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ٢٠]:

[يوسف: ٢٠]:

أَكْرَمُ الْخَلْقِ نَسَبًا وَشَرَفًا، وَسَلِيلُ الْكِرْمَاءِ وَنَسْلُ الْأَنْبِيَاءِ يُبَاعُ كَالْعَبِيدِ! وَهَذَا وَاللَّهُ مِنْ هَوَانِ الدُّنْيَا عَلَى اللَّهِ، فَلَوْ كَانَتْ ذَاتُ قَدَرٍ لَدَيْهِ، لَمَا حَرَّمَ مِنْهَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ عَلَيْهِ.

في الحديث:

«لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ» صحيح الجامع رقم: ٥٢٩٢، الدُّنْيَا لَا تَسَاوِي عِنْدَ اللَّهِ رِيشَةَ نَامُوسَةٍ! والدليل: أَنَّ الْكَافِرَ عَدُوَّ اللَّهِ، وَلَا يُعْطَى الْعَدُوَّ إِلَّا الشَّيْءَ الْخَسِيسَ الَّذِي لَا قَدْرَ لَهُ.

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾

[يوسف: ٢٠]:

لا تجعل للدنيا في قلبك قدرا، ولا تكن عند نعيمها عبدا، فإنك إن فعلت كان قدرك عند الله أهون منها، وصدق القائل:

إذا كان شيء لا يساوي جميعه جناح بعوض عند مَنْ أَنْتَ عبده
وأشغل جزء منه كُلُّكَ ما الذي يكون على ذا الحال قَدْرُكَ عنده

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠]:

رسالة لكل من تعجّب من جريمة إخوة يوسف!
قال ابن الجوزي:

«كان بعض الصالحين يقول: والله! ما يوسف - وإن باعه أعداؤه - بأعجب منك في بيعك نفسك، بشهوة ساعة من معاصيك».

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَا مَرْأَتِي أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ [يوسف: ٢١]:

المثوى هو المكان الذي يأوي إليه، ولا حظ لم يقل: أكرمي، بل أكرمي المكان الذي ينزل فيه، فما أعظم هذا الإكرام!! وهذا من لطف الله بيوسف، لطفًا ما بعده لطف.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٢١]:

الابتلاء أول درجة في سُلَّم التمكين؛ لذا قال الله بعد ذكر إلقاء يوسف في الحب وبيعه بثمان بخص: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١]:

أي تمكين هذا الذي ترتّب على وجود يوسف في أغلال العبودية؟! والجواب: رُبَّ منحة ساقها الله من محنة، فلولا هذه العبودية لما كان السجن، ولولا السجن لما عرف يوسف الساقى، ولولا الساقى لما عرفه ملك مصر، ولولا ملك مصر ما صار يوسف على خزائن الأرض، فهذه حلقات متصلة من الأحداث، ووقوع أول حدث منها إعلان عن بدأ مسلسل أحداث التمكين.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾ [يوسف: ٢١]:

جاءت الجملة بالسياق الاسمي، ولم ترد بالسياق الفعلي، فلم يقل الله: (ويغلب الله)؛ وذلك لأن هذا الحكم قانون لا يتبدل مع يوسف عليه السلام أو مع غيره.

عجيب أن تأتي هذه الآية عقب ذكر بيع يوسف كعبد يخدم في قصور الملوك، ففي أشد اللحظات قسوة يأتي ذكر أعظم البشارات، وكأن الله يختصر القصة المطوّلة للابتلاء والتمكين في آية واحدة، لتغرس اليقين بموعد الله وسط الأعاصير ووقت الزلزلة.

الناس لا يرفعون ولا يضعون، ولا يقدمون ولا يؤخرون، ولا يقربون ولا يبعدون؛ لأن الأمر كله بيد الله.

في قصة يوسف دائماً تخالف النهايات البدايات، فلما أحبه أبوه أُلقي في البئر، ولما أراد إخوته خفضه ارتفع، ولما أرادت امرأة العزيز إزالته أعزه الله، والسبب: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ﴾.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]:

قال أبو السعود: « لا يعلمون أن الأمر كذلك، فيأتون ويذرون زعماً منهم أن لهم من الأمر شيئاً، وأننى لهم ذلك! وإن الأمر كله لله عز وجل، أو لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا لطفه».

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]:

تكرّر في سورة يوسف قول ربي: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ في ثلاث آيات رقم: ٢١، ٤٠، ٦٨، ولم يتكرر نفس هذا التكرار في أي سورة أخرى، تذكيراً لنا بخفي لطف الله وعجيب أقداره.

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]:

قال ابن الجوزي:

«ومن عجائب الجزاء في الدنيا أنه لما امتدت أيدي الظلم من إخوة يوسف:

﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠]، امتدت أكفهم بين يديه بالطلب

يقولون: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٨٨]»

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف: ٢٢]:

المراد بالحُكْم هنا الحكمة، والحكمة هي الإصابة في القول والعمل، والمراد بالعلم: علم زائد على النبوة، ومنه علم تأويل الرؤى، والإحاطة الواسعة بشؤون الدين والدنيا، وتنكير: ﴿وَعِلْمًا﴾ إشارة لتعظيم هذا العلم.

من لا حُكْم له على نفسه لا حُكْم له على غيره!

قال القشيري:

«من جملة الحُكْم الذي آتاه الله نفوذ حكمه على نفسه حتى غلب شهوته، وامتنع عما راودته تلك المرأة عن نفسه، ومن لا حُكْم له على نفسه فلا حُكْم له على غيره».

﴿ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]:

قال الشيخ عبد الله العلمي: «قاعدة كلية مطّردة، وهي أن كل محسن يؤتيه الله حكماً وعلماً على قدر إحسانه، ممن كان وممن هو كائن، وممن سيكون وسوف يكون، فليعتبر بذلك القارئون والسامعون».

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٢٢]:

وعُدّ من الله لا يتخلف عن أي محسن، فكلُّ من أحسن في أقواله وأعماله أحسن الله جزاءه، ومن ذلك قول الحسن: «من أحسن عبادة ربه في شببته آتاه الله الحكمة في اكتهاله».

﴿وَرَاودَتْهُ أَلْتَى هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٢٣]:

كانت محنة يوسف مع امرأة العزيز أشد من محنته مع إخوته، وصبره عليها أعظم أجراً؛ لأنه صبر اختيار مع وجود دواعي السقوط الكثيرة، وأما محنته مع إخوته، فصبره فيها صبر اضطرار، وليس له إلا الصبر عليها، طائعا أو كارها.

الأصل في الأعراض الست وعدم التصريح. قال أبو حيان: «ولم يُصرَّح باسمها، ولا بامرأة العزيز، سترًا على الحُرْم».

﴿وَعَلَقَتْ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]:

إيجاز شديد لذكر خطوتين: (تغليق الأبواب، والإغراء بالقول)، وفيه أدب قرآني باختصار الكلام وعدم الإطالة في سرد التفاصيل المحركة للغرائز.

﴿وَعَلَقَتْ الْأَبْوَابَ﴾ [يوسف: ٢٣]:

المعاصي المخجلة والفواحش المزرية لا تُتعاطى إلا في الخفاء، لخوف صاحبها من انكشاف أمره وفضيحته بين الناس أكثر من خوفه من فضيحته عند الله.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾

[يوسف: ٢٣]:

تدلُّ الآية على لزوم ردِّ الجميل والمكافأة على الإحسان، وأنَّ من قصَّر في ذلك كان من الظالمين.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]:

هنا تقرير حقيقة قرآنية! ما أفلح ظالمٌ في تاريخ البشرية قط، وأول الظلم ومنشؤه وأقبحه: ظلم العبد نفسه.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٢٤]:

قال ابن تيمية: «وهو برهان الإيمان الذي حصل في قلبه، فصرف الله به ما كان همَّ به، وكتب له حسنَةً كاملة».

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ [يوسف: ٢٤]:

متى ينقلب الهمُّ بالسيئة إلى حسنة؟! الإجابة في الحديث:

«قالت الملائكة: يا رب ذاك عبدك يريد أن يعمل بسيئة وهو أبصر به، فقال: ارقبوه، فإن عملها فاكتبوها له بمثلها، وإن تركها فاكتبوها له حسنة، إنما تركها من جرّاي». صحيح الجامع رقم: ٤٣٥٦.

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ^{٢٤} وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا^{٢٥} أَنْ رَّءَا بُرْهَنَ رَبِّهِ^{٢٦}﴾ [يوسف: ٢٤]:

والصحيح في تفسيرها أن الكلام تم عند قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ^{٢٤}﴾ ، ثم الاستئناف بقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا^{٢٥} أَنْ رَّءَا بُرْهَنَ رَبِّهِ^{٢٦}﴾ ، و(لولا) في لغة العرب حرف يدل على امتناع الجواب لوجود الشرط، كأن تقول: لولا مرضي لَزُرْتُكَ، فأنا أعتذر أني لم أزرك بسبب مرضي، فامتنعت الزيارة لوجود المرض، وكذلك امتنع الهمُّ من يوسف بسبب وجود برهان ربه.

﴿لَوْلَا^{٢٥} أَنْ رَّءَا بُرْهَنَ رَبِّهِ^{٢٦}﴾ [يوسف: ٢٤]:

روايات باطلة! أن البرهان هو أن يوسف رأى صورة أبيه يعقوب في سقف البيت عاضاً على إصبعه، أو أن يوسف رفع رأسه إلى سقف البيت، فرأى مكتوباً عليه: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَ^{٢٧} إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً^{٢٨} وَسَاءَ سَبِيلًا^{٢٩}﴾، فهذه كلها إسرائيليّات.

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ^{٣٠}﴾ [يوسف: ٢٤]:

إذا جاهدت نفسك بالانصراف عن السوء والفحشاء فترة من الزمن، كافأك الله وأمر السوء والفحشاء أن ينصرفا عنك.

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ^{٣١} إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ^{٣٢}﴾ [يوسف: ٢٤]:

احفظ الله يحفظك! من كان له رصيدٌ سابق من الطاعات حفظه الله بما نال من الحسنات، فإذا قدّمت الصدق في الخلوات والإخلاص بخفي الأعمال الصالحات، حماك الله من السقوط في بئر الفواحش والمنكرات.

﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ^{٣٣}﴾ [يوسف: ٢٤]:

في الآية دليل على عصمة يوسف وبرأته من الهمِّ بالسوء، فلم يقل أن الله صرفه عن السوء والفحشاء، فهذا معناه أن يوسف كان متجهاً نحو السوء، وهو ما لم يحدث، بل أخبر الله أن السوء والفحشاء كانا متجهين إلى يوسف، فصرفهما الله عنه.

قال ابن مفلح: «ولا يُبتلى بالعشق غالباً إلا من غفل قلبه عن الله وعن ذكره وعن أمره ونهيه. قال تعالى في حق يوسف: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾» [يوسف: ٢٤]، يدل ذلك على أن الإخلاص سبب لدفع السوء والفحشاء، فالقلب إذا امتلأ من ذلك استحلاه على كل شيء، وتغذى به، واستغنى به عما سواه».

داء العشق ودواؤه! قال ابن عقيل: قال بعض الحكماء: «ليس العشق من أدواء الحكماء، إنما هو من أمراض الخلفاء الذين جعلوا دأبهم ولهجهم متابعة النفس، وإرخاء عنان الشهوة، وإفراط النظر في المستحسنات من الصور، فهناك تتقيد النفس ببعض الصور فتأنس، ثم تألف، ثم تتوق، ثم تتشوق، ثم تلهج فيقال عشق، والحكيم من استطال رأيهم على هواه، وتسلمت حكمته أو تقواه على شهوته، فرعونات نفسه مقيدة أبداً، كصبي بين يدي معلمه، أو عبد بمرأى سيده، وما كان العشق إلا لأرعن بطال، وقُلْ أن يكون في مشغول ولو بصناعة أو تجارة، فكيف بعلوم شرعية أو حكومية؟ فإنها صارفة عن ذلك».

أمام أعاصير الفتن إياك إياك أن تركز لسابق صلاحك أو شهرة عبادتك، فلا عاصم إلا الله، فاستغث به، واسأله النجاة.

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]:

من دلائل براءة يوسف! قال الإمام الزمخشري: «ولو وُجِدَتْ من يوسف عليه السلام أدنى زلة، لُنُعِيَتْ عليه، وذُكِرَتْ توبته واستغفاره، كما نُعِيَتْ على آدم زلته، وعلى داود، وعلى نوح، وعلى أيوب، وعلى ذي النون، وذُكِرَتْ توبتهم واستغفارهم، كيف وقد أثنى الله عليه وسُمِّيَ مخلصاً، فعُلِمَ بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدحض، وجاهد نفسه مجاهدة أولى القوّة والعزم، حتى استحق من الله الشاء في ما أنزل من كتب الأولين، ثم في القرآن الذي هو حجة على سائر كتبه ومُصدّق لها، ولم يقتصر على استيفاء قصته، بل ضرب سورة كاملة

عليها، ليقتردي به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار، والتثبت في مواقف العثار».

﴿وَأَسْتَبْقَا الْبَابَ﴾ [يوسف: ٢٥]:

إذا كنت خاليًا، وحاصرتك الشهوة، فاهرب على الفور، وابحث عن الباب. مهما بلغت درجة صلاحك وعلمك، فاهرب من الفتن ومن كل ما أذى إليها، فهذا فرار الشجعان، وهو فرار محمود.

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]:

قال البقاعي: «ولم يقل: سيدهما؛ لأن يوسف عليه الصلاة والسلام لم يدخل في رِقٍّ (وإنما اشترى ظلمًا)؛ ولأن المسلم لا يُمَلِّك وهو السيد (فلا سيادة لكافر على مسلم)».

﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

[يوسف: ٢٥]:

قال الألوسي: «حبها الشديد ليوسف عليه السلام حملها على رعاية دقيقتين في هذا الموضع؛ وذلك لأنها بدأت بذكر السجن، وأخرت ذكر العذاب؛ لأن المحب لا يسعى في إيلام المحبوب.

وأيضًا إنها لم تذكر أن يوسف عليه السلام يحب أن يقابل بأحد هذين الأمرين، بل ذكرت ذلك ذكرًا كليًا صونًا للمحبوب عن الذكر بالشر والالم».

﴿مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ﴾ [يوسف: ٢٥]:

ذكاء المرأة!

قال القشيري: «فذكر الأهل هاهنا غاية تهيج الحمية، وتذكير بالأنفة».

﴿إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]:

يدل على حرص المرأة على حياة يوسف، لكي لا يفكر العزيز في قتله، وهذا غاية الدهاء منها، أن تخيّر بين خيارين ليس منهما المساس بحياة يوسف.

﴿قَالَ هِيَ رَاودَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦]:

دافع عن أبشع تهمة بأربع كلمات فحسب، فالصادق واثق في نفسه، متوكل على ربه.

لم يسبقها يوسف بالكلام سترًا لها وصونا لعرضها، فلما اتهمته زورا اضطر للدفاع عن نفسه.

ليس للفاسق حرمة! قال الإمام القشيري: «أفصح يوسف عليه السلام بجرمها؛ إذ ليس للفاسق حرمة يجب حفظها».

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف: ٢٦]:

قال الإمام الرازي: «إنما قال: مِنْ أَهْلِهَا ليكون أولى بالقبول في حق المرأة؛ لأن الظاهر من حال مَنْ يكون من أقرباء المرأة ومن أهلها ألا يقصدها بالسوء والإضرار».

﴿إِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [يوسف: ٢٦]:

كان من فطنة الشاهد، ومن لطف الله بيوسف أن بدأ بالاحتمال الذي يبرئ المرأة، مع علمه المسبق أنها مذنبه، وذلك حتى لا يتهمه أحد بأنه متحيز ضدها، أو أنه يُصدر قراره عن انطباع سابق.

﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾

[يوسف: ٢٨]:

تعوَّض المرأة ضعفها دائماً بلجوئها إلى الكيد، والكيد موجود في الرجال والنساء، لكن النساء أخفى كيداً وأنفذ حيلة، ورغم أن الخطاب لامراته يقتضي قوله: إنه من كيدك، لكنه استعمل صيغة الجمع، إشارة إلى أن هذه طبيعة مغروسة في جميع النساء.

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨]:

بين كيد النساء وكيد الشيطان! وصف العزيز كيد النساء بأنه عظيم، بينما وصف الله كيد الشيطان بأنه ضعيف، ولا يلزم من ذلك أن كيد النساء أقوى

من كيد الشيطان، بل الحق أن كيد الشيطان أقوى، وما كيد النساء إلا جزء من كيد الشيطان، وناشئ عن وساوسه.

﴿وَأَسْتَغْفِرِي لَذُنُوبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩]:

ما معنى الاستغفار إن لم يقترن بتوبة؟ والتوبة تقتضي ترك مقدمات الذنوب، والخلوة من هذه المقدمات وكذلك التبرج، وبقاء هذه المقدمات مع طلب الاستغفار حرث في بحار وعلامة استهتار.

﴿إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩]:

والخاطيء غير المخطيء، فالخاطيء هو الذي تعمّد الخطأ لا الذي وقع فيه رغباً عنه، وقد خطّطت المرأة ودبّرت وغلّقت وتهيأت في سبيل أن تظفر بهذا الذنب؛ فلذا خاطبها بهذا الوصف.

﴿إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٢٩]:

لماذا لم يقل من الخاطئات؟! والجواب: لأن المراودة تقع غالباً من الرجال، وقُلْ أن تراود امرأة رجلاً، فكان في كلام العزيز مزيد تقريع وتوبيخ لامرأته.

﴿تَرَاوِدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٣٠]:

في كلمة ﴿فَتْنَهَا﴾ إشارتان:

الأول: عيب على امرأة العزيز أن تفعل هذا مع فتى يصغُرُها.

الثاني: فتى بمعنى مملوك يعمل في خدمتها، فكيف تُنزل نفسها إلى من دونها منزلة ومكانة؟!

نعم الأدب هذا الذي سار عليه المصريون القدماء في تسمية العبد: (فتى)، وهو من أخلاق الإسلام، ففي الحديث:

«لا يقولن أحدكم: عبدي وأمتي، كلكم عبيد الله، وكل نسائكم إماء الله، ولكن ليقُل: غلامي وجاريتي، وفتاتي وفتاتي» صحيح الجامع رقم: ٧٧٦٥.

﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠]:

﴿شَغَفَهَا﴾: أي وصل حبه إلى شغاف قلبها، أو أن حبها له أحاط بقلبها كإحاطة الشغاف بالقلب، وصار حجابا بينها وبين ما سواه، فلا ترى غيره، ولا يخطر ببالها إلا إياه.

قيل لهند بنت الحُسَّ إحدى أميرات العرب -وقد زنت بعبدها-: لم زنت وأنت سيدة قومك؟! فقالت: قرب الوُساد وطول السُّهاد، تريد قرب مضجعه منها، وطول مسارَّته (حديثه معها في السر) إياها.

أقسام الحب ستة! قال ابن القيم: «المحبة النافعة ثلاثة أنواع: محبة الله، ومحبة في الله، ومحبة ما يعين على طاعة الله واجتناب معصيته. والمحبة الضارة ثلاثة أنواع: المحبة مع الله، ومحبة ما يبغضه الله، ومحبة ما تقطع محبته عن محبة الله أو تنقصها. فهذه ستة أنواع، عليها مدار محابِّ الخلق».

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرُلَهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]:

قال ابن القيم:

«هذا الكلام متضمن لوجوه من المكر: أحدها: قولهن: امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا ولم يسموها باسمها، بل ذكروها بالوصف الذي ينادي عليها بقبيح فعلها بكونها ذات بعل، فصدور الفاحشة من ذات الزوج أقبح من صدورها ممن لا زوج لها. الثاني: أن زوجها عزيز مصر، ورئيسها، وكبيرها، وذلك أقبح لوقوع الفاحشة منها.

الثالث: أن الذي تراوده مملوك لا حر، وذلك أبلغ في القبح. الرابع: أنه فتاها الذي هو في بيتها، وتحت كنفها، فحكمه حكم أهل البيت، بخلاف من تطلب ذلك من الأجنبي البعيد.

والخامس: أنها هي المراودة الطالبة.

السادس: أنها قد بلغ بها عشقها له كل مبلغ، حتى وصل حبها له إلى شغاف قلبها.

السابع: أنه أعفُ منها وأبر، وأوفى، حيث كانت هي المراودة الطالبة، وهو الممتنع، عفاً وكرماً وحياء، وهذا غاية الذم لها.

الثامن: أنهم أتوا بفعل المراودة بصيغة المستقبل الدالة على الاستمرار والوقوع حالاً واستقبالاً، ولم يقلن: راودت فتاهاً.

التاسع: قولهن ﴿إِنَّا لَنَرٰهَا فِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي إنا لنستقبح منها ذلك غاية الاستقبح، دليل على أنه من أقبح الأمور، وأنه مما لا ينبغي أن تُساعد عليه، ولا يحسن معاونتها عليه.

العاشر: أنهم جمعوا لها في هذا الكلام واللوم بين العشق المفرط، والطلب المفرط، فلم تقتصد في حبها، ولا في طلبها.

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۚ إِنَّا لَنَرٰهَا فِي ضَلٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠]:

كانوا أضل منها، لكنهن قلن ذلك احتيالا لرؤية يوسف. قال ابن إسحاق: «بل بلغهن حُسن يوسف، فأحببن أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته».

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١]:

رأى النسوة جمال يوسف، فلم يشعرن بألم تقطيع أيديهن، فكيف بك إذا رأيت غدا جمال خالق يوسف؟! ولذا كان من الدعاء النبوي: «وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك». صحيح الجامع رقم: ١٣٠١.

﴿قَالَتْ فَذٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنِنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]:

تقول امرأة العزيز: انظرون ما فعلتن بأنفسكن من جراء نظرة واحدة، فكيف ألام وأنا أعيش مع هذا الجمال صباح مساء؟!

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]:

في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ مرَّ بيوسف عليه السلام عند مروره بالسماة الثالثة في رحلة المعراج، فقال: «وإذا هو قد أُعطي شَطْرَ الحُسْنِ». صحيح الجامع رقم: ٢٧.

﴿وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَن نَّفْسِهِ﴾ [يوسف: ٣٢]:

الهوى لا ينكتم، والعاشق لا بد أن يفتضح، ولا يصبر قلب عاشق على كتمان المشاعر حتى يبوح بها في الضمائر.

﴿وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَن نَّفْسِهِ فَاَسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ﴾ [يوسف: ٣٢]:

جَلَد الفجار في نيل الأوزار وشراء النار! قَسَمَانِ اثنان في آية واحدة: ﴿وَلَقَدْ﴾ ﴿وَلَئِن﴾ مما يدل على تصميم المرأة على المضي قدماً في فسادها وإفسادها.

﴿وَلْيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]:

هنا يظهر اختلال الموازين، فإن الصَّغار بدخول السجن في هذه الحالة هو قمة العزة والفخر، وأما الاستجابة لطلب المرأة الفاجر، فهو الصغار الحقيقي.

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلْيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]:

﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ بالنون المثقلة، ﴿وَلْيَكُونَا﴾ بالنون المخففة؛ لأن سجنه بيدها، أما جعله صاغراً فليس إليها، فقد رفع الله شأنه في العالمين، وجعل له سورة باسمه في كتابه إلى يوم الدين.

﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلْيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]:

في الآية تصوير لحالة الزوج المزرية، وتحكم الزوجة فيه رغم علمه بجريمتها، مع عجزه عن مقاومة سلطانها وجمالها، حتى في أعظم المواقف التي تؤجج قلوب الرجال غيرة وحمية.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]:

يفضّل الصالحون بذل حريتهم على أن يمسّ أحدٌ دينهم.

﴿يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]:

أسند الفعل إلى جميع النساء مع أن الداعية واحدة، إما لأنهن خوَّفنه من مخالفة أمر امرأة العزيز وأمرنه بمطاوعتها، أو لأن كلاًّ منهن دعتة إلى نفسها تصرّيحاً أو تلميحاً.

﴿يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]:

صيغة المضارع تدل على أن عروض الإغراء مستمرة، ومحاولات مرادته عن نفسه لم تتوقف في هذه البيئة الموبوءة!

﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣]:

هكذا تنقلب الموازين إذا نزل الإيمان في قلوب المؤمنين.

عندما تكون المساومة على الدين قد يكون السجن خيار المؤمنين.

﴿السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]:

ولم يقل: الزنى، فالمؤمن كامل العفاف حتى في لسانه.

﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣]:

هذا مقام الصبر.

﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣]:

وهذا مقام الاستغاثة.

الأعمال القلبية هي زاد الأعمال البدنية، ولولاها ما ثبت يوسف.

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]:

قد يكون السجن ثمن إجرام، لكن أحياناً يكون ثمن ثبات على الحق وضرورة الإيمان.

﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣]:

قد يخونك قلبك في مواجهة الفتن والمغريات، فسَل الذي يملك أمر القلوب أن يُلهمك الثبات.

﴿٣٣٤﴾ أليست امرأة العزيز وحدها هي من راودته عن نفسه؟! والجواب: كلا، بل حاولت غيرها من النساء التعرض له ومرادوته عن نفسه بعدما افْتُتِنَ بجمالها.

﴿٣٣٥﴾ **أَصْبُ إِلَيْنَ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ** ﴿يوسف: ٣٣﴾:

قال قتادة: «أجمع أصحاب محمد ﷺ أن كل من عصى الله، فهو جاهل».

﴿٣٣٦﴾ **فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ** ﴿يوسف: ٣٤﴾:

ما دمت تدعو فأنت بخير!

قال زياد بن أبي زياد: «أنا من أن أُمْنَعَ الدعاء أخوف من أن أُمْنَعَ الإجابة».

﴿٣٣٧﴾ **فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ** ﴿يوسف: ٣٤﴾:

لم يقل: فأدخله السجن!

لا تنظر إلى ظلمة المحنة وما أصاب دنياك، بل انظر إلى الخير الذي وراءها وما أفاد دينك.

﴿٣٣٨﴾ **فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴿يوسف: ٣٤﴾:

قانون رباني! من رجع إلى الله بصدق الاستغاثة تداركه ربه بعاجل الإغاثة.

﴿٣٣٩﴾ **إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴿يوسف: ٣٤﴾:

السميع الذي لا يخفى عليه دعاء داعيه وضراعة مستغيثيه، ولو كان همسا أو مناجاة قلب، بل إن الدعاء الخفي أحب إليه وأثر من الدعاء في العلن.

﴿٣٤٠﴾ وهو العليم بخفايا القلوب ومكنونات الضمائر، لما علم ما في قلب يوسف من تعفف عن الفاحشة، صرفها عنه، فإن صلاح الظاهر كثيرًا ما يكون ثمرة طهارة الباطن!

﴿٣٤١﴾ **ثُمَّ بَدَأْ هُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ** ﴿يوسف: ٣٥﴾:

فساد ضارب بجذوره في أرض هذا البلد، ومجتمع يموج بالفحشاء، فكان سجن يوسف بإلزام المرأة لزوجها بذلك، وكان لا يرد لها طلبًا، مع أن جريمتها تمس شرفه وعرضه، ورغم ظهور آيات براءة يوسف وكذبها.

﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آلَايَتِ لَيْسَ جُنَّةٌ حَتَّى حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥]:

كان قرار سجن يوسف سياسياً لا قضائياً، فقد كان القوم موقنين ببراءته؛ لذا لم يحكموا عليه بالسجن لمدة محددة، لكن ﴿حَتَّى حِينٍ﴾.

﴿لَيْسَ جُنَّةٌ حَتَّى حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥]:

وذلك كي تنقطع أخباره، ويتناسى الناس أمر هذه الفضيحة، فإن الخبر يُشاع مع وجود أسبابه، فإذا عُدِمَت أسبابه نُسي، وهو ما يُسمَّى اليوم: التعتيم الإعلامي أو حظر النشر في القضايا.

تنبيه رباني لطيف إلى أن السجن لا يدوم، وقيد الأبرار سينكسر، ودوام الحال محال، والحبل إذا اشتد انقطع، وأن الأمر صبر ساعة، والفرج على بعد رمية حجر.

القضاء الفاسد! أمر القاضي بسجن يوسف بغير دليل، ليتحول إلى ألعوبة بيد امرأة العزيز، معلنا أن الفساد عمّ البلاد، وأن انهيارها مسألة وقت.

أيسجن الكريم ابن الكريم، ويسكن القصر الظلوم اللئيم؟! قال القشيري: «ليس كلُّ أحدٍ أهلاً للبلاء؛ لأن البلاء من صفة أرباب الولاء، فأما الأجانب فيتجاوز عنهم ويخلي سبيلهم - لا لكرامة محلّهم - ولكن لحقارة قدرهم، فهذا يوسف عليه السلام كان بريء الساحة، وظهرت للكل سلامة جانبه، وابتلي بالسجن، وامرأة العزيز في سوء فعلها حيث قال: ﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِ كُنٍّ﴾، وقال لها: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ﴾، ثم لم تنزل بها شظية من البلاء».

﴿نَبِيْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرْلُكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]:

الرؤيا شأنها عظيم؛ فلا تُقَصَّ على أي أحد، بل تُخَيَّرُ الصالحين، ومن لهم دراية بتأويل الرؤى.

﴿إِنَّا نَرْلُكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦]:

رياح المحسنين تفضحهم مهما استتروا، وصدق القائل: «ما أسرَّ عبدٌ سريرة إلا أظهرها الله على قسَمَات وجهه وفتلات لسانه».

كان إحسان يوسف مقدّمة قبول الرجلين لدعوته، وهذا قانون جارٍ مع كل داعية: لا بد من التمهيد أولاً بالإحسان لكسب القلوب قبل الأبدان.

﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِيَهُ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾

[يوسف: ٣٧]:

قال جمال الدين القاسمي: «العالم إذا جُهِلَّتْ منزلته في العلم، فوصف نفسه بما هو بصدده - وغرضه أن يُقْتَبَسَ منه، ويُتَفَعَّ به في الدين - لم يكن ذلك من باب التزكية».

أحياناً يحتاج المرء أن يعرف الناس بنفسه حتى لا يتسلط عليه الجهلاء والسفهاء.

﴿ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ [يوسف: ٣٧]:

استعمل يوسف مواهبه التي وهبها الله إياه في تعريف الناس برهيم ودعوتهم إليه، فهلا تعلّمنها من يوسف!

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٣٧]:

التخليّة قبل التّحليّة؛ لذا ذكر يوسف التخلي عن الشرك، ثم ذكر التحلي بالتوحيد الذي هو ملة إبراهيم.

لم يقل لهم: اتركوا ملة القوم، بل عبّر بقوله: ﴿تَرَكْتُ﴾، وفيه لطف في النصيح وتورية، وكأنه كان على دينهما، فلما تركه آتاه الله هذا العلم، ترغيباً لهما في ترك ملة الكفر.

لم يقل لهم: أنتم كافرون، فيزيدهم ذلك إغراضاً وعناداً، بل جعل الحديث عن قوم آخرين، وهو من لطفه وحسن عرضه لدعوته على طريقة: إياك أعني فاسمعي يا جارة.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ

بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٣٨]:

انظر كيف قدّم الدعوة على تأويل الرؤيا، واستغل الفرصة لينشر دعوته ويبلغ رسالته.

﴿ مَا كَانَتْ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ [يوسف: ٣٨]:

أعظم نعمة أنعم الله بها على عباده هي نعمة التوحيد والإيمان به، وهي حقيقة يغفل عنها كثير من الناس؛ لذا لا يؤدون شكرها؟!

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ [يوسف: ٣٨]:

قالها يوسف بعد أن سُجن ظلمًا، وفي ديار الغربة، فمهما تكن آلامك؛ فهناك دومًا من نعم الله ما يمكنك التسلي به والتحدث عنه.

﴿ يَنْصَحِي السِّجْنَءَ أَزْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهِ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [يوسف: ٣٩]:

نفوس المصلحين لا تتوقف عن حمل همّ الدعوة حتى في ظلمات السجن ومن وراء القضبان!

﴿ يَنْصَحِي السِّجْنَءَ أَزْيَابٌ ﴾ [يوسف: ٣٩]:

النصيحة دواء مرّ، فلا بد أن يسبقه كلام حلو.

﴿ يَنْصَحِي السِّجْنَءَ ﴾ [يوسف: ٣٩]:

خاطب يوسف الرجلين بأنهما صاحباه في السجن، وزميلاه في المحنة، توددًا إليهما، وإيناسًا لنفوسهما، وذلك تمهيدًا لدعوتهما، تعلّموا فن الدعوة من السادة الأنبياء!

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ [يوسف: ٤٠]:

أصل البلاء هو تسمية الحرام بغير اسمه، وفي الحديث: «ليشربن أناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها»، وذلك لتسويغ شربها، وقد فعلها إبليس مع آدم عليه السلام حين دلّه على شجرة الخلد، وما هي بشجرة خلد.

هل آمن الرجلان؟! لم ينقل لنا التاريخ عن إيمانها شيئًا، وليس هذا مما يؤثر في همة يوسف ولا همة أي داعية، فالداعية ينال أجره كاملاً، عصاه الناس أو أطاعوه.

﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠]:

العبادة والحكم صنوان لا يفرقان! فكما أن العبادة لا تنبغي إلا لله وحده، فالحكم كذلك ينبغي أن يكون لله وحده.

﴿يَبْصُرْ فِي السِّجْنِ﴾ [يوسف: ٤١]:

يا كل داعية:

حافظ على قواسم مشتركة مع الجميع، فهو أدعى لأن يُستمع إليك.

﴿أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيَسْقَى رَبَّهُ حَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ [يوسف: ٤١]:

قيل: إن أصل القصة أن هذا الرجل -الذي هو الساقى- والآخر -الخبّاز- جاءهم أناس حاولوا رشوتهم ليدسّوا للملك سُمّا في طعامه وشرابه، وبعد إلحاح وافق الساقى والخبّاز، لكن بعد انصرافهم خاف الساقى فلم يضع السُمّ في الشراب، وأما الخبّاز فوضع السُمّ في الطعام، فلما أراد الملك الأكل قال الساقى: لا تأكل، فهذا طعام مسموم، فلما قال هذا تكلم الخبّاز وقال: لا تشرب، هذا شراب مسموم، ومن عادة الملوك في مثل هذا أن يطلب من أحدهم أن يشرب مكانه، فطلب الملك من الساقى أن يشرب، فشرب الساقى فلم يُصبه شيء، فليس في الشراب سم، وطلب الملك من الخبّاز أن يأكل من الطعام فلم يأكل، فأُتي ببهيمة فأكلت من الطعام فماتت فأمر بهما فُسجنا، حتى استكمال التحقيقات.

﴿وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ﴾ [يوسف: ٤١]:

قيمة الصدق! لم يجامل يوسف صاحب الرؤيا السيئة، وقد اكتسب بصدقه هذا صفة (الصديق)، فكان الصدق سبب الرجوع إليه في وقت لاحق لتأويل رؤيا الملك، فالصدق لا يأتي إلا بخير، ولو بدا عكس ذلك.

﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]:

في الحديث الصحيح: «الرؤيا على رجل طائر ما لم تُعبّر [تُفسّر]، فإذا عبّرت [فُسرّت] وقّعت [تحقّقت]». صحيح الجامع رقم: ٣٥٣٥.

وهذا يدل على أن الرؤيا إذا لم تُعَبَّرْ، لم تقع. قال ابن قتيبة: «أراد أنَّها غير مُسْتَقَرَّة، تقول العرب للشيء إذا لم يَسْتَقَرَّ: هو على رجل طائر».

﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١]:

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لما حكيا ما رأياه، وعَبَّرَ يوسف عليه السلام قال أحدهما: ما رأينا شيئاً، فقال: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١].»

﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]:

هب أن الساقى ذكر يوسف عند الملك، كان يوسف سيرجع خادماً في القصر، لكن تأخره بضع سنين أخرجه عزيزاً لمصر.. بعض التأخير فيه ألطاف خفية. فيه مشروعية الاستعانة بالغير على سبيل الشفاعة، وفي الحديث: «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء». صحيح الجامع رقم: ١٠٠٧.

﴿فَأَنسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢]:

الناسي هو الساقى وليس يوسف عليه السلام، لكن خالف في ذلك الإمام الرازي، فرجَّح نسيان يوسف قائلاً:

«واعلم أن الاستعانة بالناس في دفع الظلم جائزة في الشريعة، إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين، فهذا وإن كان جائزاً لعامة الخلق، إلا أن الأولى بالصديقين أن يقطعوا نظرهم عن الأسباب بالكلية، وألا يشتغلوا إلا بمسبب الأسباب»، ثم قال:

«والذي جرَّبته من أول عمري إلى آخره أن الإنسان كلما عَوَّلَ في أمر من الأمور على غير الله، صار ذلك سبباً إلى البلاء وإلى المحنة... وإذا عَوَّلَ العبد على الله ولم يرجع إلى أحد من الخلق حصل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه، فهذه التجربة قد استمرت لي من أول عمري إلى هذا الوقت الذي بلغت فيه السابعة والخمسين من عمري».

﴿٣٤٠٣﴾ من لطف الله وتدبيره الخفي أن أنسى الشيطان الساقى ذكر يوسف عليه السلام، فقد أراد الله أن يرتبط خروج يوسف بظهور براءته، فلو كان خرج عن طريق الساقى لظلت التهمة الأولى ملتصقة به.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]:

قال الإمام السعدي: «فيه أن من وقع في مكروه وشدة، لا بأس أن يستعين بمن له قدرة على تخليصه، أو الإخبار بحاله، وأن هذا لا يكون شكوى للمخلوق؛ فإن هذا من الأمور العادية التي جرى العرف باستعانة الناس بعضهم ببعض».

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]:

عبر هنا بـ ﴿ظَنَّ﴾ مع أنه نبي يوحي إليه، وهو ما يشعر بتواضعه، وأن على غيره ممن يأول الرؤى ألا يقطع بصحة تعبيره، فلربما أخطأ.

﴿فَلَيْتَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]:

ما الحكمة في طول بقاء يوسف في السجن؟! أجاب ابن تيمية قائلاً: «ولبثه في السجن كان كرامة من الله في حقه؛ ليتم بذلك صبره وتقواه، فإنه بالصبر والتقوى نال ما نال؛ ولو لم يصبر ويتق بل أطاعهم فيما طلبوا منه جزعا من السجن، لم يحصل له هذا الصبر والتقوى، وفاته الأفضل باتفاق الناس».

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ [يوسف: ٤٣]:

دليل على جواز صحة رؤيا الكافر وتحقيقها.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ [يوسف: ٤٣]:

عندما يأذن الله بالفرج، يأتي بأهون الأسباب، ولو كان رؤيا منام.

﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَلَمِينَ﴾ [يوسف: ٤٤]:

قال السعدي: «وهذا أيضاً من لطف الله بيوسف عليه السلام، فإنه لو عبرها ابتداءً - قبل أن يعرضها على الملأ من قومه وعلمائهم، فيعجزوا عنها - لم يكن لها ذلك الموقع، ولكن لما عرضها عليهم فعجزوا عن الجواب - وكان الملك مهتماً بها غاية الاهتمام، فعبرها يوسف - وقعت عندهم موقعاً عظيماً».

﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَّا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنْتِظَمُ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾

[يوسف: ٤٥]:

إذا أراد الله إنفاذ أمر يسّر له أسبابه؛ لذا أخفى عن الجميع تأويل الرؤيا، ولم يجعلها إلا ليوسف، فكان على يديه شفاء صدر الملك وذهاب حيرته.

﴿أَنَا أُنْتِظَمُ بِتَأْوِيلِهِ﴾ [يوسف: ٤٥]:

تأويل الرؤيا كالفتيا! أي أنا أخبركم بتأويل هذه الرؤيا بعرضها على العالم بها، لا من تلقاء نفسي، ولم يقل: أفتيكم كما قال يوسف: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾؛ تعظيماً لأمر تأويل الرؤى فهو كالإفتاء، ويحتاج إلى علم لا يصلح له كل أحد.

سئل الإمام مالك: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال: أبالنبوة يُلَعَبُ؟! وقال مالك: لا يعبر الرؤيا إلا من يحسنها، فإن رأى خيراً أخبر به، وإن رأى مكروهاً فليقل خيراً أو ليصمت، فقل: فهل يعبرها على الخير وهي عنده على المكروه؟ فقال: لا! الرؤيا جزء من النبوة، فلا يُتَلَاعَبُ بالنبوة.

﴿أَنَا أُنْتِظَمُ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥]:

سل مجرباً ولا تسئل حكيماً! وقد جرّب الساقى يوسف في تأويل الرؤى فوجد تأويله صحيحاً؛ لذا انطلق إليه واثقاً أنه سيأتيه بالخبر اليقين.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ [يوسف: ٤٦]:

الكريم لا يعلّق لوحة بارزة فيها ذكر شهاداته وإنجازاته، بل يترك أفعاله تتكلم عنه.

الصِّدِّيق صيغة مبالغة مشتقة من الصدق في حالة يوسف، أو من التصديق في حالة أبي بكر الصديق.

قال ابن عطية:

«وسمّاه صديقاً من حيث كان جرّب صدقه في غير شيء، وهو بناء مبالغة من صدق.

وُسْمِي أَبُو بَكْرٍ صَدِيقًا مِنْ (صَدَقَ) غَيْرِهِ، إِذْ مَعَ كُلِّ تَصَدِيقٍ صَدَقَ، فَالْمُصَدَّقُ بِالْحَقَائِقِ صَادِقٌ أَيْضًا.

﴿أَفْتِنَا﴾ [يوسف: ٤٦]:

قالها الساقى في المرة الثانية، ولم يَقُلْ كما قال مع صاحبه في المرة الأولى: ﴿نَبِيْنَا بِنْتًا وَابِلَهَ﴾؛ لأنه عَايَنَ عُلُوَّ رُتْبَةِ يَوْسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وعرف فضله وصدقه، فعَبَّرَ عن ذلك بالإفتاء.

﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ﴾ [يوسف: ٤٦]:

نسيه في السجن بضع سنين، ثم عاد يستفتيه في رؤيا الملك، فأفتاه دون كلمة عتاب! أي نفوس هذه!

﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦]:

لم يذكر الساقى ليوسف أن الرؤيا خاصة بالملك، ولم يذكر اسم يوسف للملك حين قال: ﴿فَأَرْسَلُونِ﴾، ولعل هذا بسبب طمعه في الاستفراد بالجائزة، واحتكار معرفة تأويل الرؤيا بلا منازعة، أو لكي لا يشترط يوسف خروجه من السجن أولاً قبل تأويل رؤيا الملك.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا﴾ [يوسف: ٤٧]:

قدّم يوسف -من داخل السجن- نصائحه بإشفاق إلى مجتمعه الذي سكت عن إلقاءه في السجن ظلماً.. انظر كيف عبرت أرواح العظماء أنهار الضغينة.

شأن الكريم عدم الإبطاء في العطاء، ولا التردد في البذل مهما قابل من جفاء.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧]:

المرحلة الأولى من خطة الإنقاذ المصرية تستغرق سبع سنين، وحدّد يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ معالمها كما يلي:

- خطة الإنتاج: ﴿تَزْرَعُونَ﴾.

- مدة الإنتاج: ﴿سَبْعَ سِنِينَ﴾.

- معدل الإنتاج: ﴿دَابَّأ﴾ أي عملاً دائماً متواصلاً بزيادة ساعات العمل.

- زيادة المدخرات: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾.

- ترشيد الإنفاق والاستهلاك: ﴿إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا

تُحْصِنُونَ﴾ [يوسف: ٤٨]:

درس إداري مهم!

اعتمدت خطة يوسف عليه السلام مبدأ المشاركة، ولاحظ مخاطبته لرسول الملك بقوله: ﴿تَزْرَعُونَ﴾، ﴿حَصَدْتُمْ﴾، ﴿فَذَرُوهُ﴾، ﴿تُحْصِنُونَ﴾، فالخطاب بصيغة الجمع، أي للناس جميعاً، إشارة إلى ضرورة إشراك كافة المستويات في إعداد الخطة وتنفيذها.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ﴾ [يوسف: ٤٩]:

وهو من الغيث وهو المطر، أو من الغوث وهو الفرج، وكلاهما يوصل إلى سنة الله في حصول اليسر بعد العسر.

الفرج يأتي بعد بلوغ الشدة منتهاها، فمهما اشتد إغلاق الأبواب ستسفل إليك رحمت الوهاب.

الكريم كريم في كل شيء! قال قتادة: «زاده الله علم سنة لم يسأله عنها، إظهاراً لفضله، وإعلاماً لمكانته من العلم وبمعرفته».

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِسُ بِيهِ﴾ [يوسف: ٥٠]:

الكرامة والعزة سمت المؤمنين!

طلب الملك رؤية يوسف، وأمر بإخراجه من السجن، فأبى يوسف الخروج إلا بعد إثبات براءته.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٥٠]:

عظيم صبر يوسف!

في الحديث: «لو لَبِثْتُ فِي السَّجْنِ مَا لَبِثَ يَوْسُفُ، ثُمَّ أَتَانِي الدَّاعِي لِأَجْبَتُهُ». صحيح البخاري رقم: ٦٩٩٢.

﴿فَسَأَلَهُ مَا بَالَ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]:

تأملوا عفة لسان يوسف، وستره عليهن، فقد اكتفى بالسؤال عن تقطيع أيديهن، دون التعرض لكيدهن ومراودتهن له عن نفسه، وتنزهها عن ذكرهن بما يسوء.

﴿فَسَأَلَهُ مَا بَالَ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]:

عجيب ألا يذكر يوسف امرأة العزيز تصريحاً، وهي سبب سجنه، وإنما ذكرها تلميحاً في عموم النسوة! والسبب: لحسن أدبه، ووفاء لزوجها، وحفظاً لمعروفها، وإكرامها مثواه حين كان في بيتها، فردَّ كرمها بعدم ذكرها.

﴿إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]:

أنا واثق أن ربي الذي جعل لكيد النسوة سلطاناً عليّ فترة من الزمن، لن يتخلّى عني، فهو العالم بصبري على بلائه ورضاي بقضائه، وسيجازيني عنه دنيا وآخرة.

﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ [يوسف: ٥١]:

أفضل من يدافع عنك في غيابك سمعتك الطيبة.

فيه نفى لما ذكره بعض المفسرين من وجود بعض المقدمات من يوسف عليه السلام، مثل حلّ السراويل، والجلوس منها مجلس الرجل من امرأته، وقوله تعالى: ﴿مِنْ سُوءٍ﴾ نكرة تؤكد النفي، فدلّ على أن يوسف لم يصدر منه أدنى سوء.

﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ﴾ [يوسف: ٥١]:

لا بد لبراءة المظلوم أن تظهر يوماً، فالصبر الصبر!

﴿٣٣٤﴾ أَي تَبَيَّنَ وَظَهَرَ بَعْدَ خَفَاءٍ، فَمَهْمَا عَلَا الْبَاطِلُ سَنِينَ، فَلَا بَدَّ مِنْ افْتِضَاحِهِ بَعْدَ حِينٍ.

﴿٣٣٥﴾ **﴿أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾** [يوسف: ٥١]:

دليل على أن الصدق فيه النجاة وإن رأيت فيه الهلاك.

﴿٣٣٦﴾ **توبة صادقة!**

كان بوسعها أن تسلك مسلك النسوة، فتعترف ببراءة يوسف ولا تزيد، لكنها -لصدق توبتها- أدلت باعتراف كامل أمام الملاء، مُعَرِّضَةً سَمْعَتَهَا وَكِبْرِيَاءَهَا لِلانْهِيَارِ، فَإِنَّ ذَلِكَ خَيْرٌ مِنْ عَذَابِ النَّارِ.

﴿٣٣٧﴾ العشق يذهب بعقل صاحبه! فها هي امرأة العزيز تفضح نفسها بين نساء المدينة، وتعترف بجريمتها دون أدنى نظر في العاقبة.

﴿٣٣٨﴾ **﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾** [يوسف: ٥٢]:

الأرجح أن هذا من كلام امرأة العزيز، أي ليعلم يوسف أنني لم أخنه في غيبته، وأرميه بذنب هو منه بريء، فَإِنَّ ذَلِكَ خِيَانَةٌ، وَكَانَ يُوسُفُ إِذْ ذَاكَ فِي السَّجْنِ لَمْ يَحْضُرْ.

﴿٣٣٩﴾ قال الشيخ رشيد رضا:

«وفيهما وجه آخر، وهو أنها تقول: ذلك الذي حصل أقررت به ليعلم زوجي أنني لم أخنه بالفعل في ما كان من خلواتي بيوسف في غيبته عنا، وأن كل ما وقع أنني راودت هذا الشاب الفاتن الذي وضعه في بيتي، وخلي بينه وبينني، فاستعصم وامتنع، فبقي عَرَضُهُ - أي الزوج - مصوناً، وشرفه محفوظاً».

﴿٣٤٠﴾ **﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾** [يوسف: ٥٢]:

قال ابن عاشور:

«لَا يَنْفِذُهُ وَلَا يَسُدُّهُ، فَأُطْلِقَتِ الْهُدَايَةُ الَّتِي هِيَ الْإِرْشَادُ إِلَى الطَّرِيقِ الْمَوْصِلَةِ عَلَى تَسْيِيرِ الْوَصُولِ، وَأُطْلِقَ نَفْيُهَا عَلَى نَفْيِ ذَلِكَ التَّيْسِيرِ، أَيِ إِنْ سَنَةَ اللَّهِ فِي الْكُونِ جَرَتْ عَلَى أَنْ فَنُونَ الْبَاطِلِ وَإِنْ رَاجَتْ أَوَائِلُهَا لَا تَلْبِثُ أَنْ تَنْقَشِعَ».

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِبِينَ﴾ [يوسف: ٥٢]:

فيه أن الخائن مفتضح ولو بعد حين، ويوسف يصرّح هنا أنه لو كان خائناً لما خلّصه الله من هذه الورطة، وحيث إنه خلّصه، فهو دليل على أنه بريء مما نسبوه إليه.

الخيانة من أهم موانع الهداية.



الجزء الثالث عشر

سورة يوسف آية ٥٢
إلى سورة إبراهيم آية ٥٢
عدد الفوائد: ٤٤٢

قال ابن أبي الدنيا:

«إذا التبست عليك الطُّرُق، واشتبهت عليك الأمور،
وَصِرْتَ في حيرة من أمرك، وضاق بها صدرك، فارجع
إلى القرآن الذي لا حيرة فيه، فقفْ على دلائله في
الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد والتشويق، وإلى ما
ندب الله إليه المؤمنين من الطاعة وترك المعصية، فإنك
تخرج من حيرتك وترجع عن جهالتك، وتأنس بعد
وحدتك، وتقوى بعد ضعفك».

العزلة لابن أبي الدنيا ص ١٧١

الجزء الثالث عشر سورة يوسف آية ٥٣ إلى سورة إبراهيم آية ٥٢

﴿وَمَا أَتَّبِعُ نَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٣]:

٣٤٤٣

هذا من قول امرأة العزيز.

قال ابن تيمية: «إنما يناسب حال امرأة العزيز لا يناسب حال يوسف، إضافة الذنوب إلى يوسف في هذه القضية فرية على الكتاب والرسول، وفيه تحريف للكلم عن مواضعه، وفيه الاغتيال لنبي كريم، وقول الباطل فيه بلا دليل، ونسبته إلى ما نَزَّهَهُ الله عنه».

أعلى درجات الصدق، أن تبدأ بإلقاء اللائمة على نفسك قبل غيرك.

٣٤٤٤

فيه كراهية تزكية النفس ومدحها.

٣٤٤٥

﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣]:

٣٤٤٦

ما انصرف سوء إلا برحمة الله عز وجل.

المعنى: إلا ما رحم الله من النفوس المطمئنة، فعصمها أن تكون أماراة بالسوء.

٣٤٤٧

أعدى أعدائك: نفسك التي بين جنبيك؛ لذا فجاهدها واجب، ومن جاهدها ربح دينه، ومن تخلف تأسّف. قال أبو عمرو بن بجد: «من كرم عليه دينه، هانت عليه نفسه».

٣٤٤٨

استعين بالله عليك، واطلب غوثه يسارع إليك، فقد سبقك إلى هذا الطلب

٣٤٤٩

أشرف نبي فقال: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها». صحيح الجامع رقم: ١٢٨٦.

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ [يوسف: ٥٤]:

كان ظهور براءة يوسف سبباً في نيل الخطوة عند الملك، فطلب استخلاصه لنفسه، وليس مجرد الإتيان به كما فعل في المرة الأولى مع أمر الرؤيا، فالسلامة من التُّهَم وحسن السيرة من أسباب علو المكانة.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]:

الدعاة والمصلحون شخصيات مخرصة ومبهرة ومقنعة؛ لذا يحرص المفسدون في كل عصر على أن يحولوا بينهم وبين صنّاع القرار.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤]:

تكلم يوسف بالحجة والبيان، فأبهر الملك بكلامه ومنطقه، فولاه هذا المنصب العظيم، وهذا تحقيق الكلمة السائرة: المرء مخبوءٌ تحت لسانه.

﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]:

قال الإمام السمعاني:

«فإن قال قائل: أيجوز للإنسان أن يُزَكِّي نفسه وقد قال يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾؟!

يجوز إذا كان في ذلك مصلحة عامة.

وقيل: إنّه يجوز إذا عرف أنه لا يلحقه بذلك آفة، وأمن العجب على نفسه. وعن بعض الأئمة: لا يضر المدح من عرف نفسه. وقد قال عليه السلام: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر».

قال القرطبي:

«قال بعض أهل العلم: في هذه الآية ما يبيح للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر، والسلطان الكافر، بشرط أن يعلم أنه يفوّض إليه في فعل لا يعارضه فيه، فيُصلح منه ما شاء، وأما إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهوته وفجوره فلا يجوز ذلك».

﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]:

هنا تقدّم يوسف بمسوّغات تعيينه في هذه الوظيفة الخطيرة، والتي لا تحمل التجربة والخطأ؛ ولأنه أكفأ من يقوم بهذه المهمة، فقد أعلن عن امتلاكه لمؤهلين أساسيين: حفظ ما يليه، وعلمه بتدبير ما يتولاه. قال الزمخشري: «وصف نفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلببة الملوك ممن يولونه».

﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]:

وهدف يوسف من هذا الإعلان تعريف الناس بفضله؛ ليكون ذلك أدعى إلى اتباعهم لأمره في المستقبل القريب.

حفيظ إشارة إلى الأمانة، وعليم إشارة إلى القوة، وهو مكافئ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ آسْتَفْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾، والقوة بحسبها، فقوة الطبيب في قدرته على تشخيص المرض وعلاجه، وقوة المدرس في علمه وقدرته على توصيل المعلومة إلى طلابه، وقوة العالم في حفظه ومعرفته بأحوال الناس، وقد يكون الشخص أميناً في دينه، لكنه ضعيف في علمه وإدراته، فلا يصلح لتولي أمر المسلمين.

كان أبو ذر رضي الله عنه أميناً في دينه وأقدم إسلاماً من خالد بن الوليد رضي الله عنه، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أقلت الغبراء - أي الأرض - ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذر»، لكنه ضعيف عند الإمارة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفاً، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمرنّ على اثنين، ولا تولين مال يتيم».

عزل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عمار بن ياسر عن ولاية الكوفة، واستعمل بدلاً منه أبا موسى الأشعري، بعد أن اشتكى أهل الكوفة منه، فعزله عمر سنة اثنتين وعشرين من الهجرة، وقال عمر لعمار عندها: قد علمت ما أنت بصاحب عمل، ولكني تأولت قول الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥].

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٦]:

ذكر الإمام الرازي أن الكمالات الحقيقية في القدرة والعلم، وأن الله سبحانه أعلى شأن يوسف بهاتين الصفتين، فأما تكميله في صفة القدرة، فأشار إليه بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾، وأما تكميله في صفة العلم، فأشار إليه بقوله: ﴿وَلَنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾.

طلب يوسف من الملك أن يجعله على خزائن الأرض، ولم يذكر الله إجابة الملك، بل قال: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾؛ لأن الفاعل الحقيقي هو الله، وقبول الملك لطلب يوسف لأن الله خلق في قلبه هذا القبول؛ ولذا حُذِفَتْ إجابة الملك، واقتصرَت الآية على ذكر التمكين الإلهي.

﴿يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]:

كناية عن إطلاق يد يوسف في جميع أرض مصر، فله مطلق الحرية وكامل السلطة في التنقل والنزول في أي مكان شاء، فلا ينازعه أحد في سلطانه، ولا يعارضه في قراراته؛ أي استتبَّ له الأمر.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾ [يوسف: ٥٦]:

وما أحسن قول البحري يواسي المسجونين ظلماً:

أما في رسول الله يوسف أسوة لمثلك محبوساً على الجور والإفك
أقام جميل الصبر في السجن برهة فآل به الصبر الجميل إلى الملك

﴿وَلَا تُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦]:

بشرى للمحسنين! قال الإمام الرازي: «وذلك لأن إضاعة الأجر إما أن يكون للعجز، أو للجهل، أو للبخل، والكُلُّ ممتنع في حق الله تعالى، فكانت الإضاعة ممتنعة (مستحيلة)».

هذه شهادة من الله ليوسف عليه السلام، وهي تبرئة جديدة له من تهمة الهمِّ بامرأة العزيز، فكيف لمحسن شهد الله له أن يقع في مثل هذا الخطأ؟!

﴿٣٤٦﴾ قضى الله قضاء مبرماً أن المحسن يرى أثر عمله الصالح في الدنيا قبل الآخرة، وهذا من عاجل بشرى المؤمن.

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧]:

تنبه رباني بعد وصول يوسف إلى سُدة الحكم، على أن أقل نعيم الآخرة خير من كل ما تبوأ الناس من نعيم الدنيا.

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧]:

لفتة لطيفة!

قال الطاهر بن عاشور: «والتعبير في جانب الإيمان بصيغة الماضي: ﴿ءَامَنُوا﴾، وفي جانب التقوى بصيغة المضارع: ﴿يَتَّقُونَ﴾؛ لأن الإيمان عقد القلب الجازم، فهو حاصل دفعة واحدة، وأما التقوى فهي متجددة بتجدد أسباب الأمر والنهي، واختلاف الأعمال والأزمان».

﴿٣٤٧﴾ قال سفيان بن عيينة: «المؤمن يُثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر يُعَجَّل له الخير في الدنيا، وما له في الآخرة من خلاق»، وتلا هذه الآية.

﴿وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف: ٥٧]:

إشارة إلى أن ما أعدَّ الله ليوسف عليه السلام في الجنة لا يقارن بحالته العظيمة ومملكه الكبير الذي حصَّله في الدنيا.

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨]:

سبحان مغير الأحوال!

لم يعرفوا أخاهم لطول الغياب فقد فارقهم في سن الطفولة، وظنوا أنه قد مات، مع قلة اهتمامهم بشأنه، ولم يعرفوه للفارق الشاسع بين الحال التي بلغها من الملك والجاه والسلطان، والحال التي فارقوه عليها طريحا في البئر، وساهم في ذلك أن الملك والسلطان مما يبدل الهيئة، ويُلبس صاحبه الهيبة، ويجعل منه شخصا آخر.

﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ قَالِ اتُّخَوِّنِي بِأَخِي لَكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩]:

بلاغة القرآن في الإيجاز!

هنا اختصار أحداث كثيرة، ويستلزم أن حديثاً نشأ بين يوسف وإخوته، عرف منه تفاصيل قصتهم كاملة، وأن لهم أخاً غير شقيق لم يحضر معهم، وظل مع أبيهم، ولعله قال لهم هذا بعد أن طلبوا طعاماً زائداً عن عددهم؛ لأن لهم أخاً لم يحضر معهم، فأعطاهم ما طلبوا، لكن اشترط عليهم إحضار أخيهم معهم في المرة المقبلة، ليتأكد من صدقهم.

﴿قَالَ اتُّخَوِّنِي بِأَخِي لَكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٥٩]:

إتقان التخفي!

نكّر يوسف الإشارة إلى أخيهم، فقال: ﴿اتُّخَوِّنِي بِأَخِي لَكُم﴾، فلم يقل: (اتُّخَوِّنِي بِأَخِيكُمْ)؛ لأن التعريف يفيد سابق المعرفة، بخلاف التنكير، ولو فعل، لآثار الشكوك في نفوسهم، ولن يستبعدوا حينها أنه يوسف أخوهم.

لماذا لم يطلب يوسف الإتيان بأبيه يعقوب؟! قال أبو حيان: «وظاهر كل ما فعله يوسف ﷺ معهم أنه بوحى، وإلا فإنه كان مقتضى البر أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه، لكن الله تعالى أراد تكميل أجر يعقوب ومحنته، ولتتفسر الرؤيا الأولى».

﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩]:

هذه الآية ترغيب، وبدأ به يوسف، والغرض منه: حثهم على أن يأتوه بأخيه. وعبرٌ بصيغة الاستقبال ﴿أَلَا تَرَوْنَ﴾ إغراء لهم بأن إيفاء الكيل عادة مستمرة له كلما أتوه.

﴿وَأَرْجِحْ﴾. صحيح الجامع رقم: ٣٥٧٤.

﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ﴾ [يوسف: ٦٠]:

هنا جاء دور التهيب: إن لم تأتوني بأخيكم في المرة المقبلة، فلن أبيعكم شيئاً من الطعام، وفوق ذلك فإني أحذركم أن تقربوا بلادي فضلاً عن دخولها، وهو تحذير ذكي لم يطلقه يوسف إلا بعد علمه بأن إخوته سيعودون إليه مرة أخرى؛ لأن ما معهم من طعام لا يكفي إلا لزمان محدود.

﴿ قَالُوا سَتَرُوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ [يوسف: ٦١]:

وعودهم دائماً مصحوبة بالتأكيدات؛ لأنهم يعلمون أنهم -لسوء سريرتهم وخلف وعودهم - عرضة للتشكيك والالتهام، والتأكيد هنا بقولهم: ﴿ إِنَّا ﴾ وحرف اللام في ﴿ لَفَاعِلُونَ ﴾.

﴿ سَتَرُوْدُ عَنْهُ أَبَاهُ ﴾ [يوسف: ٦١]:

لفظ ﴿ سَتَرُوْدُ ﴾ تصوير للجهد العظيم الذي سيبدلونه، وإشارة إلى أنهم سيكررون المحاولة مع صعوبة الطلب وعزة المنال خاصة بعد إضاعتهم ليوسف.

ولم يقولوا (أبانا)، إشارة إلى الحاجز النفسي الذي بينهم وبين أخيهما لأبيهم، فاستعمال ضمير المفرد الغائب بدلاً من ضمير جماعة المتكلمين معبر عن نار حقدهم التي لم تنطفئ.

﴿ وَقَالَ لِفَتَيْهِهِ أَجْعَلُوا بِضَعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى

أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يوسف: ٦٢]:

صنع يوسف عليه السلام كل ما في وسعه ليغري إخوته بالعودة إليه، ومن ذلك أن أمر فتياه بإعادة أثمان الطعام (بضاعتهم) إلى رحال إخوته، بعد أن دفعوها له، وذلك دون أن يشعروا، فإذا رجعوا ووجدوها، سيرجعون إليه مرة أخرى ليدفعوها مقابل ما أخذوه؛ لأن شأن النفوس الكبيرة أن تأنف من أخذ سلعة دون دفع الثمن.

﴿وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ﴾ [يوسف: ٦٢]:

تعلموا أخلاق الأنبياء واقتفوا آثار النبلاء! قال الإمام الرازي في سبب جعل البضاعة في رحالهم دون أخذ الثمن: «أراد أن يقابل مبالغتهم في الإساءة بمبالغته في الإحسان إليهم».

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ قَالُوا يَتَابَنَّا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ [يوسف: ٦٣]:

استعملوا مع أبيهم سلاح التخويف من المستقبل ليعث معهم أخاهم! فهذه أول كلمة نطقوا بها فور رجوعهم من الرحلة، وكانت العيون متطلعة إلى ما يحملون من زاد وطعام، فإذا بها تتلقى صدمة: ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾. وهذا للمستقبل، لكنهم أخرجوه بصيغة الماضي، لتأكيد المنع.

﴿فَأَرْسَلَ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣]:

كان قولهم هذا لأبيهم بمجرد رجوعهم إليه، وقبل أن يفتحوا متاعهم ليعرفوا ما بداخله، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فَأَرْسَلَ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ﴾ - بالياء - أي: فأرسله معنا ليأخذ نصيبه من الطعام المكال؛ لأن عزيز مصر لا يعطى طعاما لمن كان غائبا، فليات ليأخذ نصيبه، ولناخذ نحن نصيبنا كذلك من الطعام.

﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣]:

بالجملة الاسمية واستخدام حرف التأكيد، لتأكيد حفظهم له، وأن ذلك أمر ثابت عندهم ثبوتا لا مجال فيه للشك.

﴿فَأَرْسَلَ مَعَنَا أَخَانًا﴾ [يوسف: ٦٣]: ﴿إِنِّ ابْنُكَ سَرَقٌ﴾ [يوسف: ٨١]:

عندما كانت لهم مصلحة قالوا: (أخانا)، وعندما انتهت لمصلحة قالوا: (ابنك)، فتغيرت لغة الخطاب مع تغير المصلحة!

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤]:

إخلاف وعدك يجعلك مشتتها بين الناس بهذه الخلق الذميم، ولكي تمحو هذه السمعة عند الناس ستعاني كثيرا ولازمة طويلة.

﴿٣٤٨﴾ سوء الظَّنِّ - مع وجود القرائن الدالة عليه - غير ممنوع ولا مُحَرَّم، فلا يُلَدَغ المؤمن من جحر مرتين.

﴿٣٤٩﴾ **﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾** [يوسف: ٦٤]:

لم يقلها استسلامًا بل توكلاً! قال الإمام الرازي: «معناه: وثقت بكم في حفظ يوسف عليه السلام فكان ما كان، فالآن أتوكل على الله في حفظ بنيامين».

﴿٣٥٠﴾ تلقفها - يا أخي - من لسان نبي، ورددها عند كل خوف أو قلق، لتستقر وتطمئن.

﴿٣٥١﴾ لما قالها يعقوب متوكلًا، حفظ الله عليه ولديه، ورحمه بأن ردهما إليه. سبحانه.. هو الذي قال: «أنا عند ظن عبدي بي».

﴿٣٥٢﴾ لئن تعهدتم بحفظ ابني، فإني أتوكل في حفظه على الله لا عليكم، وهو عزاء يعزي به نفسه في فقدان يوسف، وذلك بتسليم أمره لله؛ لأنه خير الحافظين، ولا يقع شيء في هذا الوجود إلا بأمره وحكمته.

﴿٣٥٣﴾ **﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾** [يوسف: ١١]:

قالها يعقوب، فغاب عنه ابنه، فلما قال: **﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا﴾** عاد إليه.. احذر كلماتك وراقب ألفاظك!

﴿٣٥٤﴾ **﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾** [يوسف: ٦٥]:

تعجبوا من ذلك، وحسبوا أن في الأمر خطأ، أو أن العزيز ربما بدا له ألا يأخذ منهم ثمنًا للكيل الذي كاله لهم، انتظارا لعودتهم إليه في المرة المقبلة، أو كرمًا منه وفضلاً.

﴿٣٥٥﴾ **﴿قَالُوا يَتَابَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَتَزَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾** [يوسف: ٦٥]:

ماذا نريد يا أبانا بعد كل هذا الكرم المدهش؟! هذه بضاعتنا ردت إلينا، فلم ندفع شيئًا مقابل الطعام الذي جلبناه، فاستعملوا أربع وسائل في إقناع أبيهم باصطحاب أخيه:

- أولاً: مدحهم لعزیز مصر الذي ردَّ لهم أثمان مشترياتهم.
- ثانياً: حاجتهم الملحة إلى الميرة وطعام جديد لأن الكيل الحالي كيل يسير لا يكفي إلا لمدة يسيرة، ويجب العودة إلى مصر لجلب طعام آخر.
- ثالثاً: تعهدهم لأبيهم بحفظ أخيه.
- رابعاً: زيادة ما سيأخذون من أطعمة بسبب وجود أخيه معهم.

﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ [يوسف: ٦٥]:

لم يقولوا: ونأخذ أخانا، بل: ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾، وكأنَّ أخذه شيء مفروغ منه وأمر واقع، لا مجال لمراجعة أبيهم لهم فيه، فسلمَّ بهذا يا أبانا حكماً إن لم تسلِّم به رأياً.

﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ تُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]:

في معنى الإحاطة قولان:

- قول مجاهد: إلا أن تموتوا كلكم فيكون ذلك عذراً عندي، والعرب تقول: أحيط بفلان إذا اقترب هلاكه.
- قول قتادة: إلا أن تصيروا مغلوبين مقهورين، فلا تقدرُوا على الرجوع.

﴿حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٦٦]:

ما هذا الموثق؟! هو يمين الله وعهده، فطلب منهم أبوهم أن يجعلوا الله شاهداً عليهم، بأن يقولوا مثلاً: لك منا ميثاق الله أو عهد الله، وقد جعله موثقاً؛ لأنه تُوثِّق به العهود وتؤكد.

﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِ إِلَّا أَنْ تُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]:

قد يصدق هنا المثل السائر: (البلاء مُوَكَّلٌ بالمنطق)، فإن يعقوب عليه السلام قال هنا: ﴿إِلَّا أَنْ تُحَاطَ بِكُمْ﴾، فابتلي بذلك، وأحيط بهم وغلبوا عليه.

﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِي بِهِمْ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦]:

قال الإمام الرازي:

«فإن قيل: لم بعثه معهم وقد شاهد ما شاهد؟! »

قلنا: لوجوه:

أحدها: أنهم كبروا ومالوا إلى الخير والصلاح.

وثانيها: أنه كان يشاهد أنه ليس بينهم وبين بنيامين من الحسد والحقد مثل ما

كان بينهم وبين يوسف عليه السلام.

وثالثها: أن ضرورة القحط أحوجته إلى ذلك.

ورابعها: لعله تعالى أوحى إليه وضمن حفظه وإيصاله إليه.

﴿لَتَأْتُنِي بِهِمْ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ [يوسف: ٦٦]:

شفقة النبوة ظهرت في هذا الاستثناء، فلا يريد يعقوب عليه السلام أن يحملهم ما لا يطيقون، بأن يأخذ عليهم عهدا مطلقا لا استثناء معه، فإن عجزوا عنه وقعوا في الإثم.

﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧]:

خشي عليهم العين لكونهم أحد عشر رجلاً، وكانوا أهل جمال وبسطة في الجسم. قاله ابن عباس وغيره، والعين حق، وهي أقرب إلى الصغار منها إلى الكبار؛ ولذا عوّذ عليه الصلاة والسلام الحسن والحسين من عين الحاسد، فقال: «أعيذكما بكلمات الله التامة، من كل شيطان وهامة، وكل عين لامة»، ثم قال عليه السلام: «كان إبراهيم صلوات الله عليه يعوّذ به ابنه إسماعيل وإسحاق» صحيح ابن ماجة رقم: ٣٥٢٥.. تعلّموها واستعملوها مع أولادكم.

﴿وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧]:

قال القرطبي:

«واجبٌ على كل مسلم أعجبه شيء أن يُبرِّك، فإنه إذا دعا بالبركة صُرف

المحذور لا محالة، ألا ترى قوله ﷺ لعامر: (ألا بَرَّكَتَ)، فدل على أن العين لا تضر ولا تعدو إذا بَرَّكَ العائن (الحاسد)، وأنها إنما تعدو إذا لم يُبَرِّك، والتبريك أن يقول: تبارك الله أحسن الخالقين! اللهم بارك فيه».

الغرباء يلفتون الأنظار أكثر من غيرهم؛ لذا كان عليهم التفرق لإخفاء كونهم جماعة واحدة، وفي هذا إرشاد لهم إلى الاستعانة على قضاء حوائجهم بالكتمان.

فيه دلالة على جواز اتخاذ الأسباب الواقية من الحسد والعين.

﴿وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [يوسف: ٦٧]:

أحياناً تحتاج لأن تعلن عجزك أمام أولادك حتى يتعلقوا بالله وحده، ولا يعتمدوا عليك في كل شيء.

لا يُغني حذر من قدر! الاحتراز الذي أرشدتكم إليه لا يرد عنكم قدر الله إن شاء، وأراد هنا تعليمهم الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله، فكلاهما واجب.

العين لا تضر بنفسها، لكن بإذن الله ومشيئته.

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَنَهَا﴾ [يوسف: ٦٧]:

قال مجاهد: «خيفة العين على بنيه».

﴿وَأَنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ [يوسف: ٦٨]:

يعقوب ذو علم لأننا علمناه إياه، أو العلم هنا بمعنى العمل، نقله البخاري عن قتادة، فلا معنى للعلم إن لم يتبعه عمل.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٦٨]:

أكثر الناس لا يعلمون ما علمه يعقوب من لزوم الجمع بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف: ٦٩]:

﴿ءَاوَىٰ﴾ في معاجم اللغة تأتي بمعنى: أعاد، وضم، وأحاط، وأنزل عنده، وأشفق، ورحم، ورق. وتآوت الطير: إذا انضم بعضها إلى بعض. وتآوى

الجرح: أي تقارب للبرء، فانظر بلاغة القرآن، كيف صوّرت كلمة واحدة حال يوسف عليه السلام عند لقائه بأخيه بعد الغياب الطويل.

﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ [يوسف: ٦٩]:

وجود الأخ يُذهب البؤس، ويعين على نوائب الدهر، ويبرد حرارة الحزن.. من فوائد الأخوة.

﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [يوسف: ٦٩]:

اخلع ثوب البؤس، وارم به وراء ظهرك، فأنا أخوك الذي رموه في البئر ليقتلوه، ومع هذا قد رأيت ما أوصلني الله إليه من العز والسلطان، ومن رأى آثار رحمة الله على غيره، طمع في رحمة الله أن تناله، فقوي عزمه، واشتد بأسه.

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذْنُ مُؤَدِّنُ أُيْتَهَا أَلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]:

كيف يفعل هذا نبي، فيدّعي عليهم ما ليس فيهم؟! قال الآلوسي ما ملخصه: «والذي يظهر أن ما فعله يوسف، من جعله السقاية في رحل أخيه، ومن اتهمه لإخوته بالسرقة.. إنما كان بوحى من الله تعالى لما علم - سبحانه - في ذلك من الصلاح، ولما أراد من امتحانهم بذلك، ويؤيده قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾».

﴿جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذْنُ مُؤَدِّنُ أُيْتَهَا أَلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]:

كيف جاز ليوسف أن يروّع أخاه بنيامين بغير وجه حق؟! والجواب: كان هذا بالاتفاق معه. قال ابن كثير: «وتواطأ معه أنه سيحتال على أن يبقية عنده معززاً مكرماً معظماً».

﴿ثُمَّ أَذْنُ مُؤَدِّنُ أُيْتَهَا أَلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠]:

قال ابن الجوزي:

«فإن قيل: كيف جاز ليوسف أن يُسرق من لم يسرق؟

فعنه أربعة أجوبة:

أحدها: أن المعنى: إنكم لسارقون يوسف حين قطعتموه عن أبيه وطرحتموه في الحب، قاله الزجاج.

والثاني: أن المنادي نادى وهو لا يعلم أن يوسف أمر بوضع السقاية في رحل أخيه، فكان غير كاذب في قوله، قاله ابن جرير.

والثالث: أن المنادي نادى بالتسريق لهم بغير أمر يوسف.

والرابع: أن المعنى: إنكم لسارقون فيما يظهر لمن لم يعلم حقيقة أخباركم، كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ أي: عند نفسك، لا عندنا.

وهذا من أحسن المعارض، والمعارض: أن يقول الشخص لفظاً هو ظاهرٌ في معناه، لكن المراد به معنى آخر. قال ابن القيم:

«وتأمل حذف المفعول في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ [يوسف: ٧٠] ليصح أن يضمن سرقتهم ليوسف فيتم التعريض، ويكون الكلام صدقاً، وذكر المفعول في قوله: ﴿تَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٢] وهو صادق في ذلك، فصدق في الجملتين معاً تعريضاً وتصريحاً.

وتأمل قول يوسف: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ﴾ [يوسف: ٧٩] ولم يقل إلا من سرق، وهو أخصر لفظاً، تحريماً للصدق، فإن الأخ لم يكن سارقاً بوجه، وكان المتاع عنده حقاً؛ فالكلام من أحسن المعارض وأصدقها.

﴿قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ﴾ [يوسف: ٧١]:

في الآية دليل على جواز استعمال الحيلة في التوصل إلى المباح واسترجاع الحقوق.

﴿قَالُوا تَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٢]:

استدلوا بها على مشروعية الجعالة، والجعالة: التزام عَوْض معلوم (الجُعْل) مقابل عمل معين، ومثاله: أن يقول الرجل: مَنْ وجد محفظتي المفقودة فله ألف جنيه.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ [يوسف: ٧٣]:

السرقه من أعظم ألوان الفساد في الأرض.

﴿قَالُوا فَمَا جَزَاءُوهَ إِنْ كُنْتُمْ كَذِبِينَ﴾ [يوسف: ٧٤]:

الكاذب يستحق العقوبة دنيوية أو أخروية.

تحكيم المرء في ذنبه أدعى لقبوله الحُكم الصادر عليه.

سُمُّ أخلاق الأنبياء!

قال الشيخ العلمي: «ما أكبر الفرق بين الأنبياء وغيرهم! يعقوب جاء إليه أولاده، ينعون له يوسف وينبئون بافتراس الذئب إياه، فلم يصرِّح لهم بأنهم كاذبون، مع أنهم كانوا كذلك، وهو يعتقدهم كذلك، لكنه صعب على طبعه اللطيف أن يواجههم بكلمة (كاذبين)، وأما هؤلاء الجنود المصريون فوصفوههم وواجهوهم بكلمة (كاذبين) مع أنهم ما كانوا كاذبين، والمصريون لا يعتقدونهم كاذبين، فما أكبر الفرق؟!».

﴿قَالُوا جَزَاءُوهَ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاءُوهَ﴾ [يوسف: ٧٥]:

قال السمرقندي: «وكان الحكم في أرض مصر للسارق: الضرب والتضمين، وكان الحكم بأرض كنعان: أنهم يأخذون السارق ويسترقّونه، ففوّضوا الحكم إلى بني يعقوب ليحكموا بحكم بلادهم».

أي أن يوسف ردّ الحكم إليهم ليتمكن من أخذ أخيه بناء على حكمهم.

لم يقولوا جزاء السارق أو جزاء سرقته، للإشارة إلى كمال نزاهتهم، وبراءة ساحتهم من السرقة، حتى لكان ألسنتهم لا تطاوعهم بأن ينطقوا بكلمة السرقة في هذا المقام.

﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [يوسف: ٧٥]:

الجزاء من جنس العمل! قال ابن عطية: «أي هذه سُتُنَّا وديننا في أهل السرقة: أن يُتملَّك السارق كما تملك هو الشيء المسروق».

٣٥٢٨

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وَعَاءِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: ٧٦]:

ما السر في تكرار: ﴿وَعَاءِ أَخِيهِ﴾؟! ولماذا لم يقل: (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها منه) أو (استخرجها من وعائه)؟!
 أجابوا على ذلك فقالوا: لو قال: (فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها منه) لكان كأنه استخرجها من أخيه، ولو قال (ثم استخرجها من وعائه) لأوهم ذلك أنه استخرجها من وعاء نفسه أي وعاء يوسف، فلا يمكن التخلص من هذا إلا بتكرار: ﴿وَعَاءِ أَخِيهِ﴾.

٣٥٢٩

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ﴾ [يوسف: ٧٦]:

قال ابن القيم: «تسميته بذلك حقيقة على بابه؛ فإن المكر إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان:
 - قبيح وهو إيصال ذلك لمن لا يستحقه.
 - وحسن وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له؛ فالأول مذموم، والثاني ممدوح».

٣٥٣٠

عندما يكيد لك الخلق بغير الحق، فانتظر كيد الله بهم، فالجزء من جنس العمل.

٣٥٣١

صبر على كيد إخوته، فكاد الله له.

٣٥٣٢

﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ

اللَّهُ تَرْفَعُ دَرَجَتٍ مِّنْ نَّشَأٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]:

قال ابن القيم:

«تنبيه على أن العلم الدقيق بلطيف الحيل الموصلة إلى المقصود الشرعي الذي يحبه الله تعالى ورسوله - من نصر دينه وكسر أعدائه، ونصر المحق وقمع المبطل - صفة مدح يرفع الله تعالى بها درجة العبد، كما أن العلم الذي يُخَصَّمُ به المبطل وتُدْحَضُ حُجَّتُهُ، صفة مدح يرفع بها درجة عبده».

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦]:

استدل بعض العلماء بهذه الآية على جواز المشاركة في الحكومات التي لا تحكم بالإسلام، إذا ترتب على المشاركة تحقيق مصلحة كبرى أو درء مفسدة عظيمة.

﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦]:

مشيئة الله غالبية! إذا شاء الله إنفاذ أمر، يسّر له أسبابه، فقد أخذ يوسف أخاه بما وقع من حيلة الصواع، ولو شاء الله لأخذ أخاه بغير هذه الحيلة.

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]:

معناه أن كل عالم هناك مَنْ هو أعلم منه، فيوسف عليه السلام أعلم من إخوته، وفوق يوسف الأعلّم منه، وهكذا حتى ينتهي الأمر إلى الله عز وجل.

قال سعيد بن جبیر: كنا عند ابن عباس، فحدث بحديث عجيب، فتعجب رجل فقال: الحمد لله، فوق كل ذي علم عليم، فقال ابن عباس: بئس ما قلت! الله العليم فوق كل عالم.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ

يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف: ٧٧]:

أحياناً يكون الصمت أبلغ من كثير من الكلام.

﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧]:

ما هذا الحقد الأسود الذي لم تحفّ وطأته بعد كل هذه السنين؟! ويزيدك تعجبا أن المقام ليس مقام طعن في يوسف، بل إنهم ذكروه هنا على سبيل الاستطراد، ومع هذا اتهموه زوراً، وهم الذين كانوا سبب موته (كما ظنوا)، فاتهموه بالسرقة، ولم يكتفوا بجريمة محاولة قتله، بل ألحقوا بها القول السيئ بافتراء الكذب عليه.

قولهم: ﴿أَخٌ لَهُ﴾ إصرار منهم على اعتبار يوسف وأخيه جبهة مستقلة عنهم،

فزعّموا أن السرقة ليست غريبة على بنيامين، فإن أخاه الذي هلك كان أيضاً

سارقاً! وهما ضالعان في السرقة لأنهما من أم أخرى غير أمّنا، وقد اقتدى الأخ بأخيه، ولا شك أن الاشتراك في الأنساب يؤدي إلى الاشتراك في الأخلاق!

﴿٣٥٤٠﴾ من الكلام ما هو أشد وقعاً على المرء من الحسام!

﴿٣٥٤١﴾ رمتني بدائها وانسلت! كذبة جديدة يفترونها على يوسف، فينعتونه بالكذب وهم الكاذبون، وكأنهم لم يكذبوا من قبل على أبيهم في شأن يوسف مع الذئب. نفوس عجيبة!

﴿٣٥٤٢﴾ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف: ٧٧]:

الكلمة التي قالها في سره ولم يُبديها لهم هي: ﴿أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾، فما هذا الصبر؟ وقوة النفس الفولاذية! صبر على الظلم الأول بمحاولة قتله، ثم الظلم الثاني بالافتراء عليه.

﴿٣٥٤٣﴾ ما أعظم هذا الحلم النبوي! يُسَبُّ وهو عزيز مصر، فيغض الطرف عن الأذى! وي طرح من قاموسه كلمات التشنفي والانتقام.

﴿٣٥٤٤﴾ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٧٧]:

ما أجل ما قيل: صدرو الأحرار قبور الأسرار!

﴿٣٥٤٥﴾ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف: ٧٧]:

رحم الله امرءاً كتم سراً، وتنازل عن حق؛ ليؤلف بين القلوب وينزع الأضغان.

﴿٣٥٤٦﴾ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ [يوسف: ٧٧]:

احمل الكلمات الموجهة، وضعها تحت ثرى الذاكرة، وادفنها في قبر النسيان.

﴿٣٥٤٧﴾ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف: ٧٧]:

ليست الصراحة ممدوحة على الدوام، فالمداورة مطلوبة أحياناً تأليفاً للقلوب واتقاء للشُرور.

﴿٣٥٤٨﴾ التغافل من أخلاق العظماء.

شتم هشام بن عبد الملك رجلاً من أشرف الناس، فقال هذا الرجل: أما تستحي أن تسبني وأنت خليفة؟! فقال هشام: اقتص مني، قال: لا أريد أن أكون سفيهاً، قال: تعوِّض مني بهال، قال: ما كنتُ أبيع شرفي بالدرهم والدينار، قال: اجعلها لله، قال: هي لله ولك، فحجل هشام ونكس رأسه، وعاهد الله ألا يشتم أحداً بعدها أبداً.

﴿قَالَ أَنتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧]:

غالبا ما تأتي كلمة: ﴿تَصِفُونَ﴾ في القرآن للتعبير عن الكذب، كقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾، فيوسف أسرَّ في نفسه هذا القول: الله يعلم كذب اتهامكم لي بالسرقة، وأنا وأخي براء مما تدَّعون.

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨]:

قال ابن عاشور: «ووصفوا أباهم بثلاث صفات تقتضي الترقيق عليه، وهي: حنان الأبوة، وصفة الشيخوخة، واستحقاقه جبر خاطره لأنه كبير قومه، أو لأنه انتهى في الكبر إلى أقصاه، فالأوصاف مسوقة للحث على إطلاق سراح الابن».

﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨]:

الاستعطاف وسيلة مشروعة للوصول للهدف، بشرط أن يُقصد بها الرجل الشهم المحسن، وأما استعطاف اللئيم فذلٌّ وخنوع لا يليق بمسلم.

﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٧٨]:

تواتر الشهادات بالإحسان ليوسف عليه السلام! فهذه شهادة إخوته له بالإحسان، وهي الشهادة الثالثة، بعد شهادة الله له: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾

[يوسف: ٢٢]، وشهادة صاحبيه في السجن: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦].

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ ﴾

[يوسف: ٧٩]:

ما أجمل الصدق في المواقف كلها! لم يقل (من سرق) تحرزا من الكذب.

التماسكم مرفوض! هنا رسالتان: لا محابة في أحكام الشرع، ولا تترر وازرة وُزُر أخرى.

ما يفعله بعض الظلمة من إلقاء القبض على بعض أقارب المتهم حتى يسلم نفسه هو عدوان لا يقره شرع ولا عرف.

رُوي أن الحجاج بن يوسف أراد أخذ رجل فلم يجده، فأخذوا أخاه بدلاً منه، فقال له الحجاج لما رآه: أما سمعت قول الشاعر:

جانيك من يجني عليك وقد تُعدي الصّحاح مَبَارِكُ الجُرْبِ
ولُربّ مأخوذٍ بذنب عَشيرة ونجا المقارِفُ صاحب الذنب!

فقال الرجل: ولكنني سمعتُ الله يقول غير هذا!

قال الحجاج: وما يقول؟!

قال الرجل: قال عز وجل: ﴿قَالُوا يَتَّبِعُهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ

أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرْنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٧٨) قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ

إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَّعَيْنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ﴾ (٧٩)، فطلب الحجاج قائد

الشرطة، فمثل بين يديه، فأمره بفك قيد الرجل، وبناء منزله، وزيادة عطائه،

ثم أمر منادياً أن ينادي في الناس: صدق الله وكذب الشاعر.

﴿ فَلَمَّا أَسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا ﴾ [يوسف: ٨٠]:

آية من أبلغ آيات القرآن!

قال الإمام الثعالبي:

«من أراد أن يعرف جوامع الكلم، ويتنبه لفضل الاختصار ويحيط ببلاغة الإيجاز،

ويفطن لكفاية الإيجاز، فليتبذر القرآن وليتأمل علوه على سائر الكلام.

ثم قال: فمن ذلك قوله تعالى في إخوة يوسف: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسُّوْا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾، وهذه صفة اعتزالهم جميع الناس، وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودتهم إليه، وما يوردون عليه من ذكر الحادث، فتضمنت تلك الكلمات القصيرة، معاني القصة الطويلة.

ذكر القاضي عياض في كتاب (الشفاء) في (بحث إعجاز القرآن): أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسُّوْا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾، فقال: أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا.

﴿فَلَمَّا اسْتَيْسُّوْا مِنْهُ﴾ [يوسف: ٨٠]:

لم كان اختيار هذه الكلمة دون اختيار كلمة (يسوا)، وهي أكثر اختصاراً؟! والجواب: زيادة الهمزة والسين والتاء في ﴿اسْتَيْسُّوْا﴾ تدل على المبالغة، وهي تفيد أن اليأس قد بلغ منهم أعلى درجاته بعد أن باءت كل محاولاتهم لإنقاذ أخيهام مع عزيز مصر بالفشل، وفي الآية بلاغة بالحذف، بدلاً من أن يقول: فلما استيسس إخوة يوسف من العزيز.

﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]:

﴿خَلَصُوا﴾: بمعنى اعتزلوا، وأصله من الخلوص وهو الصفاء من الأخلاط، وهي أبلغ من قول: (انفردوا).

﴿نَجِيًّا﴾: منصوب لأنه حال أي انفردوا تناجياً متشاورين في ما سيقولونه لأبيهم عند رجوعهم بشأن أخيهام، والنَّجِي لفظ يوصف به مَنْ له نجوى، سواء كان واحداً أو جماعة، كلفظ (عدو)، فهو مفرد ويُقصد به الجماعة، ومثل قوله تعالى: ﴿وَالْمَلِيكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، وهو من بلاغة القرآن.

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ﴾ [يوسف: ٨٠]:

لم يذكر اسمه؛ فليس المهم الأسماء بل الوقائع والأحداث.

﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا قَرِطُمْ فِي يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٠]:

هنا كانت بداية الإفاقة وصحوة الضمير! فهذا اتهام صريح لهم من كبيرهم بالتفريط في أخيه يوسف، فإن توالي المصائب كفيل بإيقاظ بعض الضمائر، ووقوع الشدة قد يكون سبب التوبة، وعسى أن تكرر هوا شيئاً وهو خير لكم.

﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١]:

الأصل في الشهادة أن تكون عن مشاهدة وعيان، ولا تصح بغلبة الظن.

﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١]:

قال الإمام القرطبي: «تضمنت هذه الآية جواز الشهادة بأي وجه حصل العلم بها، ولهذا قال أصحابنا: شهادة الأعمى جائزة، وشهادة المستمع جائزة، وشهادة الأخرس إذا فهمت إشارته جائزة».

﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١]:

اتفق العلماء على أن القاضي يحكم بالظاهر والله يتولى السرائر؛ لذا يستند الحكم على اليقينة وشهادة الشهود وغيرها من أحكام الظاهر، ولو كان الباطن والحقيقة على خلاف ذلك.

﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ [يوسف: ٨١]:

آفة الأخبار رواتها، فلا تنقل إلا ما رأيت وتأكدت من صحته، وأكثر الناس يحدث بما فهم لا بما سمع أو رأى، وفارق شاسع بين الأمرين.

﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١]:

قال ابن عاشور: «احتراس من تحقق كونه سرق، وهو إما لقصد التلطف مع أبيهم في نسبة ابنه إلى السرقة، وإما لأنهم علموا من أمانة أخيه ما خالجهم به الشك في وقوع السرقة منه». والغيب: الأحوال الغائبة عن المرء، والحفظ هنا بمعنى العلم.

﴿وَسَقَلِ الْقَرْيَةُ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢]:

سوابق أعمالهم تلقي بالشك على كل تحركاتهم؛ لذا يستدعون الشهود لعلمهم أن الثقة فيهم معدومة.

﴿وَسَقِلْ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢]:

أي أهل القرية، أو أن المسألة واضحة مشتهرة تماماً لدرجة أن الكل حتى الجهاد يعرف تفاصيلها.

﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [يوسف: ٨٢]:

ومن الذي اتهمكم بالكذب؟! كاد المريب يقول: خذوني!

﴿فَصَبِّرْ جَمِيلٌ﴾ [يوسف: ٨٣]:

كيف اجتمعت مرارة الصبر مع الجمال؟! والجواب: ليس هذا حاصلًا إلا في نفوس الموقنين، فإن حلاوة الأجر لديهم طغت على مرارة الصبر.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]:

وصدق القائل:

اشْتَدَّى أَزْمَةٌ تَنْفَرُ جِي قَدْ أَذَنَ لِيْلِكَ بِالْبَلَجِ
وفيه تنبيه على ألا بقاء لمحنة كما ألا دوام لنعمة.

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ [يوسف: ٨٣]:

دوام الحال من المحال، فلا يغترن أحدٌ بكثرة مال، ولا ييأس من ضيق حال.

خَفَ إِذَا أَصْبَحَتْ تَرْجُو وَارْجُ إِذَا أَصْبَحَتْ خَائِفٌ
رُبَّ مَكْرُوهِ مَخَوْفٍ فَفِيهِ لَللَّهِ لَطَائِفُ

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٨٣]:

كل ما جرى ويجري وسيجري في هذا الكون إنما هو بعلم الله تعالى، ولحكمة بالغة، فلماذا الاستغراق في الحزن؟! وفيما الاستسلام لليأس؟!

﴿يَتَأَسَفُ عَلَى يُونُسَ﴾ [يوسف: ٨٤]:

فيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند المصيبة، ولقد بكى النبي ﷺ على ولده إبراهيم، لكن لم يجزع ولم يسخط على قدر الله لا بقلبه ولا بلسانه، بل قال: «تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضي الرب، والله إنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون». صحيح الجامع رقم: ٢٩٣١.

﴿يَتَأَسَفُ عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤]:

قال ابن الجوزي: «فإن قيل: هذا لفظ الشكوى فأين الصبر؟ فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه شكا إلى الله لا منه.

والثاني: أنه أراد به الدعاء، فالمعنى: يا رب.. ارحم أسفي على يوسف».

﴿٣٥٧٧﴾ كيف تأسف يعقوب على يوسف دون أخيه مع أن مصيبة فقد أخيه أحدث وبالتالي أشد أثراً؟

والجواب: تكون أشد أثراً إذا تساوت المصيبتان في القدر، لكن مصيبة فقد يوسف أشد على قلب يعقوب من مصيبة فقد أخيه، مع تقادم عهدها إلى عشرات السنين.

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾ [يوسف: ٨٤]:

ابيضت عينا يعقوب ولم تبيض عينا يوسف، فارق بين الآباء والأبناء!

﴿٣٥٨٠﴾ كثرة البكاء لا تنافي الصبر الجميل، وقد طال بكاء يعقوب على يوسف سنين طويلة حتى فقد بصره، لكن ما فقد مع ذلك رجاءه وأمله.

﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٨٤]:

علو الهمة في الحزن!

فالكظيم هو من كظم حزنه، وما أظهر الشكاية لأحد من الخلق، بل اكتفى بالبكاء في خلوته، وبث شكواه إلى مولاه.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ

الْهَالِكِينَ﴾ [يوسف: ٨٥]:

احذر شدة الحزن، فإنها تُدني صاحبها من الموت!

قال مجاهد: الحرَض: ما دون الموت أي قريباً من الموت، ﴿أَوْ تَكُونَ مِنَ

الْهَالِكِينَ﴾: أي من الميتين.

﴿٣٥/٣﴾ ما أقبح مواساتكم! أما كان يجمل بكم أن تشاطروه أحزانه، بدلاً من هذا التأنيب؟! بدلاً من أن يقولوا له: اصبر واحتسب، إذا بهم يبشرونه بالموت أو ما دون الموت!

الدرس: من لم يستطع البكاء مواساةً للمكرويين فليرحم الباكين، ومن لم يشعر بالآلم فليشفق على المتألمين.

﴿٣٥/٤﴾ **قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ** [يوسف: ٨٦]:

قال القشيري: «شكا إلى الله ولم يشك من الله، ومن شكا إلى الله وصل، ومن شكا من الله انفصل، ويُقال: لما شكا إلى الله وجد الخلف من الله».

﴿٣٥/٥﴾ ما الفارق بين البث والحزن؟!

قال الإمام الشوكاني:

«ذكر المفسرون أن الإنسان إذا قدر على كتم ما نزل به من المصائب كان ذلك حزنًا، وإن لم يقدر على كتمه كان ذلك بثًا، فالبث على هذا: أعظم الحزن وأصعبه».

﴿٣٥/٦﴾ بعض أوجاعك لن يفهمها البشر، ولا بمقدورهم أن يخففوها.

﴿٣٥/٧﴾ لا تبث شكواك إلا للقادر على كشف بلواك!!

﴿٣٥/٨﴾ شكواك إلى المحب تُحزنه، وشكواك إلى الكاره تُسعده، فلم ترفع الشكوى إلى غيرك؟!

﴿٣٥/٩﴾ قال ابن تيمية: «أعظم ما يكون العبد قدرًا وحرمة عند الخلق: إذا لم يحتاج إليهم بوجه من الوجوه، ومتى احتجت إليهم - ولو في شربة ماء - نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم».

﴿٣٥/١٠﴾ **وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** [يوسف: ٨٦]:

قال أبو حيان: «أعلم من صنعه ورحمته وحسن ظني به أنه يأتي بالفرج من حيث لا أحتسب».

﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]:

أولياء الله يلتمسون الفرج عند ضراوة البلاء، فشيخ كبير يوصي أبناءه بعد أن كفَّ بصره من البكاء على فقد أبنائه الثلاثة، قائلاً: ﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾.

﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٧]:

لماذا نياس من الإصلاح؟ هب أننا سوف لا نصل إلي شيء من النتائج، فما يضيرنا؟ ألم نؤدِّ الواجب؟ ألم نتحرَّ الحق؟ ألم نؤدِّ الرسالة؟ ذلك حسبنا. حسن البناء

﴿إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]:

قال الرازي:

«واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا إذا..

اعتقد الإنسان أن الإله غير قادر على الكمال،

أو غير عالم بجميع المعلومات،

أو ليس بكريم، بل هو بخيل.

وكل واحد من هذه الثلاثة يوجب الكفر، فإذا كان اليأس لا يحصل إلا عند

حصول أحد هذه الثلاثة، وكل واحد منها كفر، ثبت أن اليأس لا يحصل إلا

لمن كان كافراً».

﴿وَجَعَلْنَا بِيضَ عِصْيَةِ مُزَجَلَةٍ﴾ [يوسف: ٨٨]:

ما أبأس الحال التي وصل إليها إخوة يوسف! وصفوا بضاعتهم بأنها مزجاة،

ومعنى المزجاة على خمسة أقوال: قليلة أو رديئة أو كاسدة أو رثة أو ناقصة،

والبضاعة المزجاة من مظاهر الضر الذي نزل بهم، وقدموا هذا الوصف

لترقيق القلوب بين يدي طلبهم للطعام.

﴿فَأَوْفٍ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٨٨]:

قال ابن الجوزي: «من تأمل ذلَّ إخوة يوسف؛ عرف شؤم الزلل».

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٨٨]:

سبحان مغير الأحوال! الأيدي التي أَلقت يوسف في الحب هي نفس الأيدي التي امتدت إليه اليوم بالسؤال.

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٨٨]:

وفي طلب الصدقة هنا تعريض. قال ابن عاشور: «وطلبوا التصديق منه تعريضاً بإطلاق أخيهم؛ لأن ذلك فضل منه، إذ صار مملوكاً له كما تقدم».

﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٨٨]:

فائدة دُعائية! قال القرطبي: «يكره للرجل أن يقول في دعائه: اللهم تصدق علي. سمع الحسن رجلاً يقول: اللهم تصدق علي، فقال الحسن: يا هذا! إن الله لا يتصدق، إنما يتصدق من يبتغي الثواب، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾. قل: اللهم أعطني وتفضل علي».

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩]:

الكريم لا يُكثر عتاب من يجب، بل يعذره، وانظر كيف نسب يوسف محاولة قتلهم له إلى الجهل!

﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩]:

ومن أجمل ما قيل في التماس الأعذار:
إذا ما بدت من صاحب لك زلةً فكن أنت محتالاً لزلته عذرا

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠]:

أنا يوسف الذي ظلمتموه بكل ألوان الظلم، أنا ذلكم العاجز الذي أردتم قتله، وإلقاءه في البئر، ثم صار اليوم إلى ما تشاهدون من الملك والسلطان؛ أردتم أمراً وأراد الله أمراً، فكان ما أراد الله.

هنا ظهر شعور الرحمة في قلب يوسف، ولم يتمالك نفسه، بعد أن تأثر غاية التأثر بالحالة التي رآهم عليها، والتي أعلنوا عنها: ﴿مَسْنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ﴾،

واستعطفوه: ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ ، فإذا بنبع العاطفة يتفجر في قلبه، ليكشف عن هويته، ويمد يد المصافحة لهم لنسيان الماضي الأليم وإرث العداوة القديم.

﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩٠]:

يا سعد مَنْ مَنَّ اللهُ عليه! قَدْ مَنَّ اللهُ علينا بالحلّاصِ مما ابْتُلينا به من الظلم والإذلال، والاجتماع بعد الفرقة، والعزة بعد الذلّة، والأنس بعد الوحشة.

أدب الأنبياء يتمثل في رد الفضل في كل ما وصلوا إليه من خيرٍ إلى الله رب العالمين، فكانوا كلما ازدادوا نِعَمًا، ازدادوا تواضعًا وشكرًا.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]:
هذه خلاصة واحدة من أحسن القصص، وأهم دروسها في عشر كلمات.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ تعليل لجملة ﴿مَنْ يَتَّقِ﴾، فبسبب التقوى والصبر مَنْ اللهُ عليهم.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]:
على الداعية أن يغتنم الفرصة لإلقاء الموعدة، وهي عند تأثر السامع وانفعاله كما فعل ذلك يوسف حين قال: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠].

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]:
التقوى هي الأبقى والسبب الأقوى، وعاقبة الصبر الجبر، وثواب التقوى والصبر نوعان: معجل في الدنيا، ومؤجل إلى يوم القيامة.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]:
قال ابن تيمية: «ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة والعز في معصية الله - كما فعل يوسف عليه السلام - وغيره من الأنبياء والصالحين - كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة، وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيمًا وسرورًا؛ كما أن ما يحصل لأرباب الذنوب من التنعم بالذنوب ينقلب حزنًا وثورًا».

سُنَّةُ إلهية جارية!

قال ابن القيم: «هذه عادة الله سبحانه في الغايات العظيمة الحميدة: إذا أراد أن يوصل عبده إليها هيأ لها أسباباً من المحن والبلايا والمشاق، فيكون وصوله إلى تلك الغايات بعدها؛ كوصول أهل الجنة إليها بعد الموت وأهوال البرزخ والبعث والنشور والموقف والحساب والصراط، ومقاساة تلك الأهوال والشدائد، وكما أدخل رسول ﷺ إلى مكة ذلك المدخل العظيم، بعد أن أخرج الكفار ذلك المخرج، ونصره ذلك النصر العزيز، بعد أن قاسى مع أعداء الله ما قاساه».

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١].

علموا اليوم أن حقيقة الإيثار الإلهي ليست بالغنى ولقصور، إنما هي بالتقوى والصبر وهما مفتاح الأجور.

هنا كانت بداية الإفاقة لهم جميعاً! وقد جمعوا بهذا القسم بين فضيلتين: الإقرار ليوسف بالفضل، والاعتراف بالخطأ.

هذه كلمة مباركة!

كان أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية من أشد الناس عداوة وإيذاء للنبي ﷺ، فأقبلا على الرسول ﷺ، فأعرض عنهما، فلجأ أبو سفيان لابن عمه علي بن أبي طالب، فقال علي لأبي سفيان: أتت رسول الله ﷺ من قبل وجهه، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ﴾، فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن قولاً منه، ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له النبي ﷺ: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

انظر كيف مسحت كلمة واحدة عشرين عاما من العداوة؛ لأن صاحبها هو صاحب أعلى همّة بشرية، فلا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً، وهذا ما أدركه علي عليه السلام.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [يوسف: ٩٢]:

من أتاك معذراً ، فلا تكثر عليه اللوم ، يكفيه ما به من ندم .

عدم التعيير خلق إيماني رفيع ! ولو كان متعلّقاً بأكبر الكبائر ! ففي الحديث :

«إِذَا زَنَتِ أُمّةٌ أَحَدَكُمْ ، فَتَبَيَّنْ زَنَاهَا ، فليجلدها ، وَلَا يُثْرَبْ» . صحيح الجامع رقم :

٥٨٧ ، أي لا يوبّخها ولا يعيّرُها بعد إقامة الحد ، وقالوا : وسبب ذلك ستة أشياء :

أحدها : لأن المقدور كائن .

والثاني : لأن الهوى غالب .

والثالث : لأنها نالت عقوبتها الشرعية ، فلا يُزاد عليها .

والرابع : أنها ربما تكون قد ندمت وتابت .

والخامس : أنه ربما سمع تعييره لها من لم يكن يعلم حالها .

والسادس : أن المعير لها لا يأمن أن يُبتلى بما عيّرَها به .

﴿النفوس الكبيرة تتسامى فوق الجراح ، وتتناسى الآلام ، وتغفر زلات الكرام .﴾

﴿ما أعظم تحقيق يوسف لمقام الفتوة ، فما الفتوة ؟! جاء في تعريفها في مدارج

السالكين : «أن تقرب من يقصيك ، وتكرم من يؤذك ، وتعتذر إلى من يجني عليك ،

وهذه تتضمن الإحسان إلى من أساء إليك ، ومعاملته بضد ما عاملك به ، فيكون

الإحسان والإساءة بينك وبينه خطتين . فخطتك : الإحسان ، وخطته : الإساءة» .

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ [يوسف: ٩٣]:

كما كان قميص يوسف سبباً في حزن يعقوب ، كذلك كان سبب فرحته ، فأمرُ

الله إذا نفذ ، جاء من أي طريق .

﴿إِنِّي لأجد ريح يوسف﴾ [يوسف: ٩٤]:

لم يقل : أشم أو أحس دلالة على يقينه وثقته ، فللفرج رائحة لا يجدها إلا

الموقنون .

هذه معجزة يعقوب! قال الرازي: «إنه تعالى أوصل تلك الرائحة إليه على سبيل إظهار المعجزات، فإن وصول الرائحة إليه من هذه المسافة البعيدة أمر مناقض للعادة، فيكون معجزة، ولا بد من كونها معجزة لأحدهما، والأقرب أنه ليعقوب عليه السلام».

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]:

وجوب التأدب مع الأنبياء! قال قتادة: «لفي حبك القديم لا تنساه ولا تذهل عنه، قالوا كلمة غليظة، ولم يكن يجوز أن يقولوها لنبي الله».

لقد كان إخوة يوسف معه في مصر، فمن الذي قال هذا الكلام ليعقوب وهو في الشام؟!

إنهم أحفاده، وكانوا أشد سفاهة وجفاء وغلظة من آبائهم، فقد قَدَّمُوا القَسَمَ بالله أن يعقوب في ضلال مبين، في حين قال آبائهم: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]، وكان كلام آبائهم في حق أبيهم يعقوب في غيبته، بينما الأحفاد واجهوا جدَّهم بهذا الوصف الشائن في وجهه.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ﴾ [يوسف: ٩٦]:

كل حرف في القرآن له دور! وليس ثمة حرف في كتاب الله ليس له دور أو فائدة، فالفاء في بداية هذه الآية أفادت أن مجيء البشير وقع دون أدنى تراخٍ.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٩٦]:

يقول الشيخ الشعراوي: «إذا جاءكم خبر من معصوم؛ فإياكم أن تقفوا بعقولكم فيه؛ لأن العقول تأخذ مُدْرَكَاتِ الأشياء على قَدْرِها، وهناك أشياء فوق مُدْرَكَاتِ العقول.

وحين يُحَدِّثُكم معصوم عما فوق مُدْرَكَاتِ عقولكم إياكم أن تُكذِّبوه؛ سواء فهمتم ما حدَّثكم عنه، أو لم تستوعبوا حديثه».

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧]:

العبرة بكمال النهاية! قال السعدي:

«العبرة في حال العبد بكمال النهاية، لا بنقص البداية، فإن أولاد يعقوب عليه السلام جرى منهم ما جرى في أول الأمر، مما هو أكبر أسباب النقص واللوم، ثم انتهى أمرهم إلى التوبة النصوح، والسماح التام من يوسف ومن أبيهم، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، وإذا سامح العبد عن حقه، فالله خير الراحمين».

٣١٦ الإقرار بالذنب أول خطوة في طريق التوبة، وهو ضرب من ضروب الاستغفار، وأما الإنكار فمن سمات الفجار لا الأبرار.

٣١٧ اقتضروا على استدعاء الاستغفار، دون طلب الصفح من أبيهم؛ لأنهم كانوا على ثقة من عفوه وصفحته، لعلمهم برقة قلب الأب وشفقته بأبنائه.

٣١٨ قال المهامبي: «صرّحوا بالذنوب دون ذكر الرب: ﴿أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، لمزيد اهتمامهم بها، وكأنهم غلب عليهم النظر إلى قهره، وصرّح يعقوب بذكر الرب دون (ذكر) الذنوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾، إذ لا مقدار لها بالنظر إلى رحمته التي ربي بها الكل».

٣١٩ درس مؤلم تعلّموه، وإلينا أهدوه: لا تقع في ما يوجب عليك الاعتذار، وفي الحديث: «إياك وكل ما يُعتَدَر منه» السلسلة الصحيحة رقم: ٣٥٤.

٣٢٠ ﴿قَالُوا يَتَابَنَا أَسْتَغْفِرُ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [يوسف: ٩٧]:

فيه استحباب التبرك بدعوات الصالحين واستغفارهم.

٣٢١ ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [يوسف: ٩٨]:

قال عبد الله بن مسعود: أخرهم إلى السّحر.

٣٢٢ قال محارب بن دثار: كان عمّ لي يأتي المسجد، فسمع إنسانا يقول: اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا سحر، فاغفر لي. قال: فاستمع الصوت، فإذا هو من دار عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فسأل عبد الله عن ذلك، فقال: «إن يعقوب أخر بنيّه إلى السّحر بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾» [يوسف: ٩٨].

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ [يوسف: ٩٨]:

وعدهم بالاستغفار في المستقبل، أي سيلازم الاستغفار لهم الآن ومستقبلاً، إشارة إلى عظم الذنب الذي ارتكبه، والدرس: بعض الذنوب يحتاج استغفاراً كثيراً!

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيَهُ﴾ [يوسف: ٩٩]:

ذكر الطاهر بن عاشور أن أبويه هما يعقوب عليه السلام وخالته؛ لأن أم يوسف (راحيل) توفيت قبل ذلك أثناء ولادة أخيه بنيامين، وخالفه في هذا الرأي غيره.

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيَهُ﴾ [يوسف: ٩٩]:

لم خصّ الأبوين بالذكر؟! قال الآلوسي: «لأنهما ذاقا طعم مرارة الفراق، فخصّهما من بينهم بمزيد الدنو يوم التلاق».

﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِينَ﴾ [يوسف: ٩٩]:

تأملوا أدب النبوة، فقد قدّم مشيئة الله لأن الأمور كلها بيد الله، ولا بد للعبد أن يقدّم المشيئة الربانية في الأمور كلها، وإلا وكله الله إلى نفسه، فأحاط به الفشل.

﴿وَقَالَ يَتَابَتَ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: ١٠٠]:

قد يتأخر تأويل الرؤى عشرات السنين. قال ابن عباس: «كان بين رؤيا يوسف ومصير أبيه وإخوته إليه أربعون سنة».

يرى الصالحون كثيراً من الرؤى المبشرة بتفريج الكرب ونزول النصر، فإذا تأخر الأمر دبّ اليأس إلى القلوب، وتسلب الشك في الموعد، ونسى أن رؤيا يوسف تحققت بعد مضي عشرات السنين.

﴿وَحُزُّوا لَهُ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠]:

الحسود لا يسود!

قال القشيري:

«لما حسدوا يوسف على تقديم أبيهم له لم يرَضَ - سبحانه - حتى أقامهم بين يدي يوسف عليه السلام، وخرّوا له سجّدا ليعلموا أن الحسود لا يسود، ويقال: أطول الناس حزناً من أراد تأخير من قدّمه الله، أو تقديم من أخره الله، فإخوة يوسف - عليه السلام - أرادوا أن يجعلوه في أسفل الحبّ فرفعه الله فوق سرير الملك».

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ [يوسف: ١٠٠]:

قال الزركشي: «ولم يذكر خروجه من الحب، مع أن النعمة فيه أعظم، لوجهين: أحدهما: لئلا يستحيي إخوته، والكريم يغضي عن اللوم، ولاسيما في وقت الصفاء.

والثاني: لأن السجن كان باختياره، فكان الخروج منه أعظم، بخلاف الحب».

الإحسان (بالباء) يدل على شدة الملازمة والالتصاق، وهذا إقرار من يوسف بأن إحسان الله لم يفارقه لحظة من اللحظات، فصاحبه في حياته كلها منذ الرؤيا التي رآها، ثم إلقائه في البئر، وبيعه بثمن بخس، وخدمته في بيت العزيز، وصرفه عن فتنة امرأة العزيز، وحتى في دخوله السجن إلى أن صار عزيز مصر، وجمعه الله بأسرته، فقوله: ﴿أَحْسَنَ بِي﴾ تدل على قرب المحسن (الله) من المحسن إليه (يوسف) بعكس (أحسن إليك)، فتشعر بتباعد ما بين (المحسن) و(المحسن إليه) كما قال الشيخ رشيد رضا؛ لذا استعملها مع قارون حين أنكر نعمة الله عليه، فقال: ﴿وَأَحْسَنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧] ليدل على بُعد قارون عن الله، فكانت نعم الله عليه استدراجاً لا إكراماً.

﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ [يوسف: ١٠٠]:

قال العلامة القاسمي: «يُستدلُّ به على أن الانتقال من البدو نعمة، وذلك لما يلحق أهل البادية من الجفاء، والبُعد عن موارد العلوم، وعن رفاهة المدينة، ولطف المعاشرة، والكمالات الإنسانية».

﴿ مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرْغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ [يوسف: ١٠٠]:

وصف محاولات قتلهم له بأنها نزغات شيطان! نفوس عظيمة.

جعل نفسه طرفاً في الأمر، وساوى بين نفسه المجني عليها والجنّة، مواساة لهم، وتلطفاً معهم!!

بدأ بنفسه وكأنه المذنب! فما أرق مشاعره، وأنبّل أخلاقه!

﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ [يوسف: ١٠٠]:

لا يلمح لطف الله إلا من نظر في حكمة الله، وأيقن أن قضاءه كله خير.

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ١٠١]:

التحدث بنعمة الله مستحب، بشرط ألا يصاحبه كبر أو فخر أو رياء، وقد حدّث النبي ﷺ بنعم الله عليه، فقال:

«إني لأول الناس تنشق الأرض عن مجتمتي يوم القيامة ولا فخر، وأُعطي لواء الحمد ولا فخر، وأنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يدخل الجنة يوم القيامة ولا فخر، وإني آتي باب الجنة فأخذ بحلقها». صحيح الجامع رقم: ١٩١.

﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف: ١٠١]:

تواضع يوسف! وهو الذي لم تعرض له رؤيا إلا أوّلها، ومع هذا يُعلن أنه لا يعلم إلا بعض علم التّأويل، فقلوله: ﴿ مِنْ ﴾ للتبويض، وهو من أدب النبيين أثناء مناجاة الرب العظيم.

﴿ تَوْفَنِي مُسْلِمًا وَالْحَقَنِي بِالصَّلَاحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١]:

هذه أسمى أمنيات الأنبياء، ومع هذا فلا تخطر على بال كثير من الخلق!

رُوي في تفسير البغوي أن يعقوب قال للبشير حين جاءه بقميص يوسف:

كيف تركت يوسف؟

قال: إنه ملك مصر.

فقال يعقوب: ما أصنع بالملك؟! على أي دين تركته؟

قال: على دين الإسلام.

قال: الآن تمت النعمة.

﴿٣٦٥١﴾ هذه دعوة يوسف عليه السلام بعد أن تربع على عرش مصر وملك خزائنها، دلالة على زهده في الملك، وشوقه إلى لقاء الرب، وإيثار الدار الآخرة.

﴿٣٦٥٢﴾ الامتحان الأخير! قال السعدي: «أي: أدم عليّ الإسلام وثبّني عليه حتى تتوفاني عليه، ولم يكن هذا دعاء باستعجال الموت».

﴿وَالْحَقِّنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]:

وكان الصالحين سبقوه، وهو يريد اللحاق بهم، فما أعظم التواضع!

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]:

من آداب الدعاء! انظر كيف قدّم يوسف الشاء على الدعاء، وهذا من الأدب النبوي الذي يوفق الله إليه من اصطفى من عباده ورضي عنه من أوليائه.

﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]:

نبأ يوسف غيب لم تكن لتعرفه يا محمد إلا بالحضور والمشاهدة أو عن طريق الوحي، وبما أنك لم تحضره، فما هو غير الوحي أخبرك به، وليس المراد نفي حضور النبي ﷺ مشهد المكر بيوسف فقط، بل نفي حضوره سائر المشاهد، لكنه خصّ مشهد المكر بالذكر لأنه أخفى المشاهد وأولها.

﴿٣٦٥٦﴾ قال الطاهر بن عاشور:

«وهذه الجملة استخلاص لمواضع العبرة من القصة، وفيها منة على النبي ﷺ، وتعريض بالمشرّكين بتنبئهم لإعجاز القرآن من الجانب العلمي، فإن صدور ذلك من النبي ﷺ الأُمِّي آية كبرى على أنه وحي من الله تعالى؛ ولذلك عقب بقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾».

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]:

قال الألوسي ما ملخصه: سألت قريش واليهود رسول الله ﷺ عن قصة يوسف، فنزلت مشروحة شرحاً وافياً، فأمل النبي ﷺ أن يكون ذلك سبباً في إسلامهم، فلما لم يفعلوا حزن ﷺ، فعزاه الله تعالى بذلك.

كثير من الناس لن يصلوا إلى ساحل الإيمان، ولو حرص خير المرسلين على أن يكونوا مؤمنين، وفي هذا تسلية لكل داعية أعرض عنه المدعوون، أن هذا ميراث الأنبياء والمرسلين.

الاستدلال على صحة مذهب أو حزب أو جماعة بكثرة الأتباع فقط خطأ بالغ، فالكثرة غالباً ما تميل إلى غير الحق.

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [يوسف: ١٠٤]:

الداعية الذي يقصد التربح من وراء دعوته يسقط سقوطاً مريعاً من أعين الناس.

عفاف الدعاة! قال بعض اليمانيين: «في الآية دليل على أن من تصدّر للإرشاد، من تعليم ووعظ، فإن عليه اجتناب ما يمنع من قبول كلامه».

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ ءَايَةٍ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥]:

من أغمض عينيه لم يستمتع بضوء نهاره، وكذلك من قصّر في تفكره واعتباره لم يحظ بكنز عرفانه واستبصاره.

﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللّٰهِ إِلَّا وَهُمْ مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]:

قال القشيري: «الشرك الجليُّ أن يتخذ من دونه -سبحانه- معبوداً، والشرك الخفي أن يتخذ بقلبه عند حوائجه من دونه -سبحانه- مقصوداً». ومن الشرك الخفي ما قاله الحسن في هذه الآية: «ذاك المنافق، يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله».

﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا

يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٧]:

يقول إسماعيل حقي:

«فإن قيل: أما يؤدي قوله: ﴿بَغْتَةً﴾ مؤدَّى قوله ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، فيستغنى عنه؟!»

قيل: لا، فإن معنى قوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾: وهم غافلون؛ لاشتغالهم بأمور دنياهم، وفي الحديث: (موت الفجأة أخذة أسيف) أي غضبان، يعني موت الفجأة أثر غضب الله على العبد، والفجأة أو الفجأة هي البغته دون تقدم مرض ولا سبب، وإنما كره (موت الفجأة) لئلا يلقي المؤمن ربه على غفلة من غير أن يقدم لنفسه عذرا، ويُجدد توبته، ويردّ مظالمه.

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨]:

استدلوا بهذه الآية على وجوب الدعوة إلى الله، فقالوا: حقُّ على من اتبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويُذكر بالقرآن.

﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف: ١٠٨]:

كثير من إعراض الخلق هو من ضعف بصيرة الدعاة! قال الإمام البقاعي: «﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي حجة واضحة من أمري بنظري الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، وترك التقليد الدال على الغباوة والجمود».

يقول الشيخ محمد الغزالي: «أنا لا أخشى على الإنسان الذي يفكر وإن ضلَّ؛ لأنه سيعود إلى الحق، ولكني أخشى على الإنسان الذي لا يفكر وإن اهتدى؛ لأنه سيكون كالقشة في مهب الريح».

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩]:

قال القرطبي: «من أهل القرى: يريد المدائن، ولم يبعث الله نبياً من أهل البادية لغلبة الجفاء والقسوة على أهل البدو؛ ولأن أهل الأمصار أعقل وأحلم وأفضل وأعلم. قال الحسن: لم يبعث الله نبياً من أهل البادية قط، ولا من النساء، ولا من الجن».

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾

[يوسف: ١٠٩]:

عبادة التفكير من أجل العبادات، وهي تاج عبادات القلوب، وإن أثار الأمم البائدة يقدر زناد الفكر للاعتبار، وعدم السقوط في نفس الأخطاء والتكرار، وهذه من سمات العقلاء فضلاً عن الأبرار.

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا﴾ [يوسف: ١١٠]:

أفضل ما قيل في هذه الآية هو قول عائشة رضي الله عنها: معاذ الله! لم تكن الرسل تظن ذلك برها، فقال لها عروة بن الزبير: فما هذه الآية؟! قالت عائشة: «هم أتباع الرسل الذين آمنوا بهم، وصدّقوهم، وطال عليهم البلاء، واستأخروهم عن النصر، حتى إذا استيسر الرسل ممن كذبهم من قومهم، وظنّت الرسل أن أتباعهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك».

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُم نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف: ١١٠]:

قال صاحب الظلال:

«تلك سنة الله في الدعوات؛ لا بُدَّ من الشَّدائد، ولا بُدَّ من الكُروب، حتى لا تبقى بقية من جهد، ولا بقية من طاقة، ثمَّ يجيء النصر بعد اليأس من كل أسباب الظَّاهرة التي يتعلَّق بها النَّاس، يجيء النصر من عند الله، فينجو الذين يستحقُّون النِّجاة؛ ينجون من الهلاك الذي يأخذ المُكذِّبين، وينجون من البطش والعسف الذي يُسلِّطه عليهم المُتَجَبِّرون، ويحلُّ بأس الله بالمجرمين، مُدْمِرًا مَاحِقًا، لا يقفون له، ولا يصدُّه عنهم وليٌّ ولا نصير؛ ذلك كي لا يكون النصر رخيصةً، فتكون الدعوات هزلاً، فلو كان النصر رخيصةً لقام في كل يوم دعيٌّ بدعوة لا تكلفه شيئاً، أو تكلفه القليل».

﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُم نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠]:

لا يوجد أداة عطف بين (كُذِّبُوا) و(جاءهم) إشارة إلى نزول النصر فوراً، وبلا تريث أو تأخير.

٣٦٣

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]:

قال القشيري:

«عِبْرَةٌ مِنْهَا لِلْمُلُوكِ فِي بَسْطِ الْعَدْلِ كَمَا بَسَطَ يُوسُفُ عليه السلام، وَتَأْمِينِهِمْ أَحْوَالَ الرِّعْيَةِ كَمَا فَعَلَ يُوسُفُ حِينَ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ. وَعِبْرَةٌ فِي قَصَصِهِمْ لِأَرْبَابِ التَّقْوَى، فَإِنْ يُوسُفُ لَمَّا تَرَكَ هَوَاهُ رَقَّاهُ اللَّهُ إِلَى مَا رَقَّاهُ.

وَعِبْرَةٌ لِأَهْلِ الْهَوَى فِي اتِّبَاعِ الْهَوَى مِنْ شِدَّةِ الْبَلَاءِ، كَامْرَأَةِ الْعَزِيزِ لَمَّا اتَّبَعَتْ هَوَاهَا لَقِيتَ الضَّرَّ وَالْفَقْرَ.

وَعِبْرَةٌ لِلْمَمَالِيكِ فِي حَضْرَةِ السَّادَةِ، كَيُوسُفَ لَمَّا حَفِظَ حَرَمَةَ زَلِيخَا مُلْكُ مُلْكٍ الْعَزِيزِ، وَصَارَتْ زَلِيخَا امْرَأَتَهُ حَلَالًا.

وَعِبْرَةٌ فِي الْعَفْوِ عِنْدَ الْمَقْدَرَةِ، كَيُوسُفَ عليه السلام حِينَ تَجَاوَزَ عَنْ إِخْوَتِهِ.

وَعِبْرَةٌ فِي ثَمَرَةِ الصَّبْرِ، فَيَعْقُوبُ لَمَّا صَبَرَ عَلَى مَقَاسَاةِ حَزْنِهِ ظَفَرَ يَوْمًا بِلِقَاءِ يُوسُفَ عليه السلام».

٣٦٤

﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ [يوسف: ١١١]:

مَا الْفَائِدَةُ مِنْ أَيِّ قِصَّةٍ إِنْ لَمْ نَأْخُذْ مِنْهَا الْعِبْرَةَ؟! وَالْعِبْرَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ عُبُورِ الْبَحْرِ، فَكَأَنَّ قَارِئَ التَّارِيخِ يَعْبرُ إِلَى أَحْدَاثِهِ لِيَرْجِعَ مِنْهَا بِالدَّرُوسِ الَّتِي تَنْفَعُهُ فِي حَاضِرِهِ وَمُسْتَقْبَلِهِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ التَّارِيخَ يَعِيدُ نَفْسَهُ.

٣٦٥

لَنْ تَعِيشَ مِائَاتَ الْأَعْوَامِ، لَكِنَّكَ تَسْتَطِيعُ الْحَصُولَ عَلَى خِبْرَةِ مِائَاتِ الْأَعْوَامِ، وَذَلِكَ بِالنَّظَرِ فِي قِصَصِ السَّابِقِينَ وَتَجَارِبِ الْمَاضِينَ، وَصَدَقَ الشَّاعِرُ:

ليس بإنسانٍ ولا عاقل
من لا يعي التاريخ في صدره
ومن درى أخبار من قبله
أضاف أعماراً إلى عمره

٣٦٦

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]:

ليس هدى ورحمة للجميع، بل للمؤمنين فحسب؛ ولذا لا يتنفع الجميع بالقرآن، فمن لا يفهم ما يقرأ ﴿كَمَثَلِ الْجَمَارِ تَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾، والبعض

كالحمار الوحشي يهرب من القرآن إذا سمعه ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ﴾..
أمثال هؤلاء لا يهتدون بالقرآن.

خلاصة الخلاصة! قال ابن الجوزي:

٣٦٧

«قرأتُ سورة يوسفَ عليه السلام، فتعجبتُ من مدحه عليه السلام على صبره، وشرح قصته للناس، ورفع قدره بترك ما ترك، فتأملتُ خبيئة الأمر فإذا هي مخالفة للهوى المكروه، فقلت: واعجبا! لو وافق هواه، من كان يكون؟! ولما خالفه لقد صار أمره عظيماً؛ تُضرب الأمثال بصبره، ويُفتخر على الخلق باجتهاده، وكلُّ ذلك قد كان بصبر ساعة، فيا له عِزًّا وفَخْرًا أن تملك نفسك ساعة الصبر عن المحبوب وهو قريب».



سورة الرعد

﴿الْمَرْءُ تِلْكَ ءَايَتُ الْكِتَابِ ۖ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١]:

أخبر عن القرآن بأنه الحق بصيغة القصر، أي هو الحق لا غيره، فلا اعتداد بغيره من الكلام إذا تعارض مع القرآن.

﴿يُذِئِرُ الْآمَرَ﴾ [الرعد: ٢]:

أي أمر، مهما كان عظيماً أو حقيراً، سيدبره الله، ويسخر لك من خلقه من يقضي حاجتك، ويفتح لك الأبواب المغلقة.

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْحَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣]:

آيات الله مبثوثة حولك في كل مكان، لكن دون تفكر لن تصل إلى كنزها المخبوء وثمرتها الجنية. قال أبو الدرداء: «تفكر ساعة خير من قيام ليلة».

﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَنِّبَاتٌ وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ [الرعد: ٤]:

الصَّنَو: النخلة المجتمعة مع نخلة أخرى، نابتتين في أصل واحد أو نخلات، الواحد صنو، والمثنى صنوان.

﴿يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضْلُ بَعْضِهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ [الرعد: ٤]:
ماء واحد وتربة واحدة، وطعوم مختلفة، ومذاقات متنوعة، ليس واحد منها يشبه الآخر.

﴿وَإِنْ تَعَجَّبْتَ فَعَجَبْتَ قَوْلَهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]:

إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك، فالأعجب منه تكذيبهم للبعث بعد الموت مع إقرارهم بابتداء الله للخلق، ومعلوم أن الإعادة أهون من الابتداء، فهذا موضع التعجب بحق.

﴿وَإِنْ تَعَجَّبْتَ فَعَجَبْتَ قَوْلَهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَوْ إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]:

الله تعالى لا يتعجب، ولا يجوز عليه التعجب؛ لأن التعجب هو تغير النفس برؤية شيء مستبعد مما تخفى أسبابه، والله لا يخفى عليه شيء، وإنما ذكر ذلك ليتعجب منه نبيه والمؤمنون.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ [الرعد: ٥]:

الجزء من جنس العمل! لما أغلقوا عقولهم وقيدوها بالضلال، جازاهم يوم القيامة بالأغلال، يقادون فيها إلى النيران.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ [الرعد: ٥]:

أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [الرعد: ٥]:

في هذا التكرار فضح لهم على رؤوس الأشهاد، وتمييز لهم بين أهل المحشر.

﴿أُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ [الرعد: ٥]:

الأغلال في أعناقهم مع أنهم لم يُبعثوا بعد، ولم يساقوا إلى جهنم بعد، إشارة إلى أنه حكم قاطع من الله عليهم، لكنه مؤجل التنفيذ حتى يوم البعث!

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]:

قال ابن عباس: هذه أرجى آية في القرآن.

علت المغفرة فوق الظلم، فالظلم يتطلب العقاب، لكن رحمة الله لم تُعامل الظالم بها يستحق؛ لأن رحمته سبقت غضبه.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الرعد: ٦]:

قال ابن كثير: «قَرَنَ هذا الحكم بأنه شديد العقاب، ليعتدل الرجاء والخوف».

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [الرعد: ٨]:

خطوات حياتك مرسومة بأدق مما تتصور، ولحكمة بالغة لا يبصرها إلا أصحاب البصائر والإيمان.

﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ﴾ [الرعد: ٩]:

في الآية إثبات اسم الله الكبير والمتعال، فيقال: عبد الكبير، وعبد المتعال، وبعض الناس يسمي: عبد العال، والعال ليس من أسماء الله.

﴿سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِأَلِيلٍ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]:

استوى في علم الله من استتر في ظلمة الليل، والسرائر في سره تحت ضوء النهار، وما أجمل ما قيل:

يا من ترى مدَّ البعوض جناحها في ظلمة الليل البهيم الأليل
وترى عروق نياطها في نحرها والمخ في ذاك العظام النحل
اغفر لعبد تاب من فرطاته ما كان منه في الزمان الأول

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِأَلِيلٍ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]:

قال ابن عباس:

«هو صاحب ريبة (إثم) مستخف بالليل، وإذا خرج بالنهار أرى الناس أنه بريء من الإثم».

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ﴾ [الرعد: ١١]:

أنت في موكب حفظ إلهي وحراسة ملائكية خاصة، فلا تقلق!

قال الألوسي:

«فوائد الحفظة للأعمال أن العبد إذا علم أن الملائكة عليهم السلام يحضرونه ويحسون عليه أعماله، كان أقرب إلى الحذر من ارتكاب المعاصي، كمن يكون بين يدي أناس أجلاء من خدام الملك، موكّلين عليه، فإنه لا يكاد يحاول معصية بينهم».

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]:

كلنا يشكو حال الأمة، وينسى أنه من أسباب الغمّة!

قال ابن الجوزي: «ومتى رأيت تكديراً في حال، فاذكر نعمة ما شكرت، أو زلة قد فعلت، قد قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾».

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: ١٢]:

البرق صديق المؤمن، أهدى لكل مؤمن هديتين: الأولى: بذر خوف الله في قلبه، والثانية: تبشيره بالمطر.

كان عمر بن عبد العزيز في سفر مع سليمان بن عبد الملك، فأصابتهم السماء برعد وبرق وظلمة وريح شديدة حتى فزعوا لذلك، وجعل عمر بن عبد العزيز يضحك، فقال له سليمان: ما ضحكك يا عمر؟! أما ترى ما نحن فيه؟ قال له: يا أمير المؤمنين! هذا آثار رحمته، فكيف بآثار غضبه؟!

﴿وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢]:

هي المثقلة بالماء، فلا تستبطئ الفرج؛ فإن العرب تقول: أبطأ الدلاء فيضا أملؤها، وأثقل السحاب مشيا أحفلها (أي بالمطر).

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ [الرعد: ١٣]:

نظام كوني بأكمله يسبح الله، والتسبيح هنا بصيغة المضارع ليفيد الاستمرار، فكن جزءاً من هذا النظام.

كان عبد الله بن الزبير إذا سمع صوت الرعد ترك الحديث، وقال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته».

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]:

قيل: دعوة الحق هو دعاؤه عند الخوف، فإنه لا يُدعى فيه إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧]؛ ولذا قال الله بعدها: ﴿وَالَّذِينَ

يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ ﴿١٤﴾ أَي لَا يَسْتَجِيب الْأَصْنَامَ لَهُمْ
دعاء، ولا يسمعون لهم نداء.

﴿٣٧/٥﴾ إِلَّا كَبَسِطَ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ ۖ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ
إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿الرعد: ١٤﴾:

كل من دعا غير الله في دفع ضرر أو جلب منفعة، فهو كالقابض على الماء، لا
يبقى في كفه منه شيء.

﴿٣٧/٦﴾ وَظَلَّلَهُمْ بِالْغُدُوءِ وَالْأَصَالِ ﴿الرعد: ١٥﴾:

سبحان الله! ظلال ساجدة، وأجساد جاحدة. قال مجاهد: «ظل المؤمن يسجد
طوعاً وهو طائع، وظل الكافر يسجد طوعاً وهو كاره».

﴿٣٧/٧﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا
رَابِيًا ﴿الرعد: ١٥﴾:

قال القرطبي:
«ضرب مثلاً للحق والباطل، فشبه الكفر بالزبد الذي يعلو الماء، فإنه
يضمحل ويعلق بجنبات الأودية، وتدفعه الرياح، فكذلك يذهب الكفر
ويضمحل».

﴿٣٧/٨﴾ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴿الرعد: ١٦﴾:
قال مجاهد: «أما الأعمى والبصير فالكافر والمؤمن، وأما الظلمات والنور
فالهدى والضلال».

﴿٣٧/٩﴾ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ﴿الرعد: ١٦﴾:
الاستفهام هنا للتهكم والتغليب. فالمعنى: لو جعلوا لله شركاء يخلقون كما
يخلق الله لكانت لهم شبهة في الاغترار بهم واتخاذهم آلهة، أما اليوم فلا عذر
لهم في عبادتهم.

﴿٣٧/١٠﴾ الْخَطَابُ الْعَقْلَانِي الْمَقْنَعُ! قال مجاهد: «حملهم ذلك على أن شكوا في الأوثان».

﴿قُلِ اللَّهُ خَلِيقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]:

خلق كل شيء؛ لذا لا بد أن يخضع له كل شيء.

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]:

قال ابن عباس:

«﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾، فهذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾، وهو الشك، ﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾، وهو اليقين، كما يُجعل الحُلِّيُّ في النار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك».

﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ [الرعد: ١٧]:

ولو انخدعت به الجماهير، وانجرفت معه زمنا، سيبقى الزبد عند الله زبدا. وكما يضمحل هذا الزبد فيصير جفاء لا ينتفع الناس به، ولا تُرجى بركته، فكذلك يضمحل كل باطل ويتبدد.

قال ابن القيم:

«ومن لم يفقه هذين المثليين ولم يتدبرهما ويعرف ما يراد منهما، فليس من أهلها، والله الموفق».

﴿وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧]:

العمل الصالح هو الذي يبقى أثره في الأرض ما دام نفعه للناس باقيا.

اصنع في حياتك ما ينفع الناس بعد مماتك.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ الدَّهْنِ﴾ [الرعد: ١٧]:

النار في هذا المثل يقابلها في واقع الناس: نار المجاهدة في القلب، ونار محنة المؤمن وابتلائه في الأرض. قال الشيخ محمد بن عبد القادر: «يا بني! المصيبة ما جاءت لتُهْلِكَ، وإنما جاءت لتمتحن صبرك وإيمانك، فالمصيبة كير العبد، فإمّا أن يخرج ذهباً أو خَبثاً».

﴿لِّلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ [الرعد: ١٨]: هذا وعد بالجنة!

الحسنى هي المنفعة عظيمة الحُسن، وهي المنفعة الخالصة عن شوائب المضرة، والدائمة الخالية عن الانقطاع، المقرونة بالتعظيم والإجلال، وهذه لا تكون إلا في الجنة. قال ابن عباس في هذه الآية: «الحُسنى: الجنة».

﴿لِّلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى﴾ [الرعد: ١٨]:

على قدر استجابتك لأمر الله، يكون حسن جزائك ومثوبتك، فاستشرف مُلكك المستقبلي في الجنة.

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ﴾ [الرعد: ١٨]:

في صحيح البخاري: عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يُجَاء بالكافر يوم القيامة، فيقال له، أَرَأَيْتَ لو كان لك ملء الأرض ذهباً، أكنت تفتدي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد كنت سئلت ما هو أيسر من ذلك». صحيح البخاري رقم: ٦٥٣٨.

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ١٨]:

قال إبراهيم النخعي: «سوء الحساب أن يُحَاسِبَ الرجل بذنبه كله لا يغفر له من شيء».

﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولَئِكَ الْأَلْبَسَ﴾ [الرعد: ١٩]:

قال قتادة: «هؤلاء قوم انتفعوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووعوه، وهؤلاء كمن هو أعمى عن الحق، فلا يبصره ولا يعقله».

نور القرآن أعظم من نور الشمس، والذين يطلبون الهدى في غيره أضعف بصائر من الخفافيش.

﴿يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩]:

كل من لا يرى الحق في الوحي، فهو مسلوب العقل.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد: ١٩]:

إذا لم يكن للمرء عينٌ بصيرةٌ فلا عَرَوْ أن يرتاب والصُّبح مُسْفِر

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [الرعد: ٢٠]:

﴿وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ تعميم بعد تخصيص، لتشمل عهودهم مع الله ومع العباد.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ

الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١]:

قال جعفر بن محمد: «صلة الرحم تهون على المرء الحساب يوم القيامة، ثم تلا:

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ

الْحِسَابِ﴾».

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢]:

لا بد أن تكون الأعمال كلها خالصة لوجه الله حتى الصبر، فبعض الصبر يكون لمجرد ألا يُشْمِت الأعداء، وبعض التجلد حتى يُقال: شجاع.

﴿وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣]:

أبشروا!

قال ابن كثير: «يجمع بينهم وبين أحبائهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين؛ لتقر أعينهم بهم، حتى إنه تُرْفَع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته، بل امتناناً من الله وإحساناً».

هو اللقاء الذي لا فراق بعده، ونهر الحب الذي لا ارتواء منه، وإلقاء أوجاع الفراق إلى غير رجعة.

تأمل هذه الإيلاءة إلى شرط الصلاح عند اختيار الزوج، وكيف أن بركة هذا الاختيار تمتد إلى جنات الخلود.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: ٢٣]:

كناية عن كثرة دخول الملائكة عليهم، بحيث لا يخلو باب من أبواب قصورهم لا تدخل منه ملائكة، فهو دخولٌ من أماكن كثيرة، ومتكرر كذلك في أزمان كثيرة، وكثرة الأبواب دليل على كثرة الملائكة، فما دخلوا من كل باب إلا لأن كل باب مشغول بطائفة من الملائكة، مما يضاعف سرور المؤمنين.

﴿سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]:

اذكروا أن هذا التكريم لم تكونوا لتنالوه لولا صبركم، فاعرفوا قيمة البلاء إن صاحبه الصبر.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢٥]:

قال قتادة: فقطع والله ما أمر الله به أن يوصل بقطيعة الرحم والقرابة.

﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]:

اللعنة من الله هي الإبعاد من خيري الدنيا والآخرة إلى ضدهما من عذاب ونقمة، وسوء الدار هي جهنم، وليس فيها إلا ما يسوء داخلها.

﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الرعد: ٢٦]:

ليس بالضرورة أن ما أفرحك في الدنيا يسعدك في الآخرة، قد يكون الأمر بالعكس!

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]:

قال الإمام الشوكاني: «لما ذكر سبحانه عاقبة المشركين بقوله: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾، كان لقائل أن يقول: قد نرى كثيرًا منهم قد وفر الله

له في الرزق، وبسط له فيه. فأجاب سبحانه عن ذلك: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، فقد يبسط الرزق لمن كان كافرًا، ويقتّره على من كان مؤمنًا ابتلاءً وامتحانًا، ولا يدل البسط على الكرامة، ولا القبض على الإهانة.

قال ابن القيم:

«وقال لي غير واحد: إذا تبت إليه وأنبت وعملت صالحا ضيق علي رزقي، ونكد علي معيشتي، وإذا رجعت إلى معصيته وأعطيت نفسي مرادها، جاءني الرزق والعون ونحو هذا.

فقلت لبعضهم: هذا امتحان منه ليرى صدقك وصبرك؛ هل أنت صادق في مجيئك إليه وإقبالك عليه، فتصبر على بلائه، فتكون لك العاقبة؟ أم أنت كاذب فترجع على عقبك؟!».

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]:

إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم وشدة البأس في الكفر، فلا سبيل إلى اهتدائهم، وإن أنزل الله عليهم كل آية، ويهدي الله إليه من كان على خلاف صفتكم، ممن أقبل على الحق.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٢٨]:

هجرك للذكر هو ما جعل قلبك مرتعا للقلق والهموم؛ وإقبالك على الذكر هو دواؤك، وفيه شفاؤك.

﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]:

قلب بلا ذكر هو قلب خائف مضطرب حزين تائه.

وَالذِّكْرُ فِيهِ حَيَاةٌ لِلْقُلُوبِ كَمَا نَحْيَا الْبِلَادَ إِذَا مَا جَاءَهَا الْمَطَرُ

قال ابن عون: «ذِكْرُ النَّاسِ دَاءٌ، وَذِكْرُ اللَّهِ دَوَاءٌ». قال الذهبي معلقًا: «إي والله، فالعجب منا ومن جهلنا كيف ندع الدواء ونقتحم الداء؟!».

عندما يعترضك أمر يضطرب منه قلبك حتى ينخلع؛ فالتفت إلى السلاح الذي أمدك به خالقك، واستعمله في الحال كما قال هاشم الرفاعي:
ويهدني ألمي فأنشد راحتي في بضع آيات من القرآن!

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَّقَابٍ﴾ [الرعد: ٢٩]:
طابت في الدنيا أوقاتهم، فطاب في الجنة مقامهم، فطوبى لهم في الحال، وحسن مآب في المآل.

﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحَسَنُ مَّقَابٍ﴾ [الرعد: ٢٩]:
طوبى لمن قال له الله: طوبى.

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠]:
يكفرون بالذي وسعت رحمته كل شيء، ومن رحمته إنزال الوحي الذي هو سبب المنافع الدينية والدنيوية.

كانوا يتجافون هذا الاسم الكريم؛ لذا خصَّه الله بالذكر هنا؛ ولذا لم يرضوا يوم الحديبية أن يكتبوا: (بسم الله الرحمن الرحيم)، وقالوا: ما ندرى ما الرحمن الرحيم؟!
﴿وَالَيْهِ مَتَابٍ﴾ [الرعد: ٣٠]:

المتاب: أي التوبة، والمتاب يتضمن معنى الرجوع إلى ما أمر الله به؛ لذا استعمل معه حرف: ﴿إِلَيْهِ﴾.

﴿أَوْ تَحُلْ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ [الرعد: ٣١]:
حلول الكوارث قريباً من بلادنا هو إنذار رباني لإصلاح قلوبنا وأحوالنا.

﴿وَلَقَدْ أَسْتَهْزِئُ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابٍ﴾ [الرعد: ٣١]:

ما أبرد وقع هذه التسلية على القلب!
تسلية بما جرى في الماضي للأنبياء من استهزاء، فلست الأوحى في هذا الميدان، وأبشر بسوء عاقبة المستهزين في كل العصور والأزمان.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣]:

قال ابن جزي: «أي حفيظ رقيب على عمل كل أحد، والخبر محذوف تقديره: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت أحق أن يُعبد أم غيره؟».

﴿هُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٣٤]:

أشد الناس بؤساً من فقد الراحة في الدارين.

﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥]:

إذا نزع الرجل ثمرة من ثمار الجنة عادت مكانها أخرى!

﴿أَكُلْهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرعد: ٣٥]:

دوام الظل كناية عن التفاف الأشجار، بحيث لا يوجد بينها فراغ تنفذ منه الشمس، كما قال في سورة النبأ: ﴿وَجَنَّتٍ أَلْفَافًا﴾ [سورة النبأ: ١٦].

من عجائب الجنة:

أنه يوجد فيها ظل دون أن يوجد فيها شمس، فليس في الجنة شمس ولا قمر باتفاق العلماء، فكلها نهار مع أنه لا شمس فيها.

﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ [الرعد: ٣٦]:

لاحظ بلاغة التعبير عنهم بقوله: ﴿يَفْرَحُونَ﴾ وليس: (يؤمنون)، فإن بعض اليهود قد فرحوا بنزول القرآن مصدقاً للتوراة، وكانوا يحسبون دعوة النبي ﷺ مقصورة على العرب، فكان اليهود يستظهرون بالقرآن على المشركين، وكان النصارى يستظهرون به على اليهود، وفريق لم يثبت لهم الفرح بالقرآن، وهم معظم اليهود والنصارى البعيدين عن مكة، وما كفر الفريقان إلا يعد أن علموا أن دعوة الإسلام للناس عامة.

﴿تَضُمَّتْ﴾ [الرعد: ٣٧]: تضمنت الآية مدح كل من عرف الحق وفرح بوجوده، وذم من أنكره عنادا لجحوده.

﴿وَلَيْنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا

وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧]:

الخطاب للنبي ﷺ، والمراد به الأمة، وهو يشير إلى سوء عاقبة اتباع الهوى بعد معرفة الحق.

خطاب عام وليس خاصاً! قال ابن كثير: «وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية».

قال الزمخشري: «وهذا من باب الإلهاب والتهييج والبعث للسامعين على الثبات في الدين والتصلب، وأن لا يزلَّ زالٌّ عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة».

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]:

النكاح سنة المرسلين! عن سعد بن هشام أنه دخل على أم المؤمنين عائشة قال: قلت: إني أريد أن أسألك عن التبتل، فما ترين فيه؟ قالت: «فلا تفعل، أما سمعت الله عز وجل يقول: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾، فلا تتبتل».

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۖ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]:

قال ابن عاشور:

«فالمعنى: أنه يمحو ما يشاء ويثبت فيما يبلغ إلى الناس وهو يعلم ما ستكون عليه الأشياء وما تستقر عليه، فالله يأمر الناس بالإيمان وهو يعلم من سيؤمن منهم ومن لا يؤمن، فلا يفجؤه حادث».

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ۖ﴾ [الرعد: ٣٩]:

قال بعض أهل السلوك: إن من آثار هذا المحو محو الوعيد بأن يُلهم المذنبين بالتوبة، ومن مشيئة التثبيت أن يصرف قلوب قوم عن التوبة.

﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [الرعد: ٣٩]:

من آثار المحو تقليب القلوب بأن يجعل الله البغضاء محبة، كما قالت هند بنت عتبة للنبي ﷺ بعد أن أسلمت: «ما كان أهل خباء أحب إلي أن يذلّوا من أهل خبائك، واليوم أصبحت وما أهل خباء أحب إلي أن يعزّوا من أهل خبائك».

﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]:

كان عبد الله بن مسعود يقول: «اللهم إن كنت كتبتني في السعداء فأثبتني فيهم، وإن كنت كتبتني في الأشقياء فامحني من الأشقياء، واكتبني في السعداء، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب».

قال الرازي:

«فإن قال قائل: أألستم تزعمون أن المقادير سابقة قد جف بها القلم وليس الأمر بأنف، فكيف يستقيم مع هذا المعنى المحو والإثبات؟ قلنا: ذلك المحو والإثبات أيضًا مما جفّ به القلم، فلا يمحو إلا ما سبق في علمه وقضائه محوه».

﴿وَإِنْ مَا تُرِينَا بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]:

هلاك أعداء الدين قد يراه النبي ﷺ، وقد يؤخّره الله إلى الآخرة حيث العذاب الأشد.

﴿وَإِنْ مَا تُرِينَا بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُكَ﴾ [الرعد: ٤٠]:

ليتعلم كل داعية حسن الأدب مع الله، فليس له أن يستعجل النتائج، ولا نزول وعيد الله للمكذّبين، ولا أن يستعجل وعد الله للمتقين، ليس له أن يقول: دعوت كثيرًا فلم يستجب لي. هذا بعض ما تعلّمنا إياه هذه الآية.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]:

إن عليهم إلا البلاغ، أما حساب الناس في الدنيا والآخرة، أما الحكم عليهم بأنهم إلى جنة أو نار، فهذا ليس من شأن البشر، إنما هو شأن الله وحده.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الرعد: ٤١]:

الخطاب لمشركي مكة، ومن كان على شاكلتهم في الكفر والضلال في كل زمان، والمراد بالأرض هنا: أرض الكفار والظالمين، سَيُنْقِصُهَا اللهُ بِانْتِشَارِ الإسلام، فالآية بشارة للمؤمنين، وإنذاراً للكافرين.

﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٤٢]:

لا اعتداد بمكر غيره ولا قيمة له.

لا يضر مكر الماكرين إلا بإذن الله؛ ولا يؤثر إلا بقدر الله؛ لذا ينبغي ألا يكون الخوف إلا من الله.

مكر الله ما له من دافع.

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ [الرعد: ٤٢]:

هذا سبب من أسباب أن مكر الله أشد من مكر كل نفس: أنه يعلم ما تكسب كل نفس، ما ظهر منه وما بطن، فلا يفوته شيء مما تضمه نفوس الماكرين؛ لذا يبطل كيدهم، بعكس البشر، فقد تجد منهم القوي الشديد، لكنه لا يعلم الغيب؛ لذا يغلبه الضعيف بحيلته.

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ [الرعد: ٤٢]:

ما الذي يترتب على علم الله؟ يعلم ما تكسب كل نفس، ويجازي كل نفس بما كسبت.

﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٤٢]:

علم لا ينفع؛ لأنه في الوقت الضائع.

﴿قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٤٣]:

قال ابن كثير:

«وَمَنْ عِنْدَهُ» اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياء به».

سورة إبراهيم

﴿الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [إبراهيم: ١]:

قال ابن عاشور:

«تعليل الإنزال بالإخراج من الظلمات دلّ على أن الهداية هي مراد الله تعالى من الناس، وأنه لم يتركهم في ضلالهم، فمن اهتدى فبإرشاد الله، ومن ضل فبإيثار الضال هوى نفسه على دلائل الإرشاد».

﴿اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٢]:

كيف تقف بباب غيره؟! وتلتمس النجدة من فقير مثلك؟!

﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٣]:

هو كل من طلب الدنيا دون نظر للآخرة، فيأخذ ما يجده بأي طريق، لا يبالي أمن حلال أم حرام. قال النبي ﷺ: «ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال؟ أمن حلال أم من حرام؟». صحيح الجامع رقم: ٥٣٤٤.

﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [إبراهيم: ٣]:

قال الإمام المراغي:

«وإنك لتسمع كثيرًا من الملحدّين يقول: إن القوانين الإسلامية في الحدود والجنايات شديدة غاية الشدة وإنها تصلح للأمم العربية في البداية، لا للأمم التي أخذت قسطًا عظيمًا من الحضارة: كبرت كلمة تخرج من أفواههم، إن يقولون إلا كذبًا».

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤]:

تعرفوا على لغة الشباب اليوم أيها الدعاة، فجيل اليوم غير جيلكم، وإلا لم يصل البيان، فوقع الشباب في حبال الشيطان.

﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥]:

ليس المقصود أيام الأسبوع، بل المقصود تذكيرهم بالنعم والنقم التي حلت بالأمم السابقة كي تكون عبرة لهم.

﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: ٥]:

قال ابن تيمية: «وهي تتناول أيام نعمه وأيام نقمه، ليذكروا ويعتبروا، فإن ذكر النعم يدعو إلى الشكر؛ وذكر النقم يقتضي الصبر على فعل المأمور وإن كرهته النفس، وعن المحذور وإن أحبته النفس، لئلا يصيبه ما أصاب غيره من النعمة».

﴿وَذَكِّرْهُمْ بِأَيِّمِ اللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٥]:

التاريخ دورات مكرورة، فمن عرف الماضي فهم الحاضر، فخطط للمستقبل.

﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦]:

ليس من الحياء؛ بل من الحياة؛ أي يتركونهن على قيد الحياة، ولا يقتلونهن كقتلهم الصبيان.

﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]:

يشمل شكر النعم الدنيوية والأخروية، فيدخل فيه شكر الطاعات، فمن شكر الله على الطاعات زاده الله أعمالاً صالحات.

أي نعمة تخشى أن تفقدها أحدث لها شكراً، وأبشّر بوعده الله: ﴿لَئِنْ

شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

شكر النعمة بالإنفاق منها على الخلق، فأنفق من المال بالصدقة وسيزداد، ومن الصحة بمعاونة غيرك وستقوى، ومن الجاه بالشفاعة وستعلو.

ألا تعرف نعمة الله عليك إلا عند فقدها؟! وما أصدق ما قيل: الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، لا يراه إلا المرضى.

الشكر يسمّى الجالب والحافظ؛ لأنه جالب للنعم المفقودة، وحافظ للنعم الموجودة.

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَلِإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾

﴿٣٧/٤٤﴾

[إبراهيم: ٨]:

في صحيح مسلم عن أبي ذر عن الرسول ﷺ فيما يرويه عن ربه: «يا عبادي.. لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي.. لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من ملكي شيئاً». صحيح مسلم رقم: ٢٥٧٧.

﴿فَرُدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٩]:

﴿٣٧/٤٥﴾

إما أنهم ردوا أيديهم في أفواه أنفسهم غيظاً من الرسل كعض الأنامل من الغيظ، أو استهزاء وضحكاً، كمن غلبه الضحك فوضع يده على فمه، وإما أنهم ردوا أيديهم في أفواه الأنبياء تسكيناً لهم، ورداً لقولهم، فصبراً أخي الداعية!

﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠]:

﴿٣٧/٤٦﴾

قال ابن عباس: «لم أكن أعرف معنى فاطر حتى تخاصم أعرابيان في بئر لأي منهما تعود؟ فقال أحدهما: أنا فطرتها، أي بدأتها!».

﴿يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠]:

﴿٣٧/٤٧﴾

إذا أخطأت في حق بشر، فستحرص على ألا يراك أو يقابلك، أما مع الله فمع أنك كثير الخطأ في حقه إلا أنه يناديك ليغفر عنك.

﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [إبراهيم: ١١]:

﴿٣٧/٤٨﴾

كلما زاد الإيمان كان التوكل أكمل.

﴿٣٧/٤٩﴾ أكمل أنواع التوكل؟! قال السعدي: «واعلم أن الرسل عليهم الصلاة والسلام توكلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب، وهو التوكل على الله في إقامة دينه ونصره وهداية عبده وإزالة الضلال عنهم، وهذا أكمل ما يكون من التوكل».

﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣]:

طرد الدعاة من بلادهم عادة قديمة جرت سابقًا على الأنبياء والمرسلين، وتسري على أتباعهم من المؤمنين إلى يوم الدين.

يرى الطغاة أن الأرض ملكٌ لهم، وأنهم إنما يتفضلون على غيرهم بأن سمحوا لهم بالإقامة فيها.

﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم: ١٤]:

خير ما يمنع العبد من الظلم اليوم: خوفه من مقامه غدا بين يدي الله.

﴿وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]:

استفتح الكفار أي طلبوا واستعجلوا فتح الله وفرقانه بين أوليائه وأعدائه، فليس عجيبًا ما نراه اليوم من توهم أهل الباطل أنهم على الحق!

﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥]:

لم يقل: وخاب الذين كفروا، كما هو مقتضى السياق، للتنبيه على أن الذين كفروا كانوا جبابرة معاندين للحق، وأن كل من كان كذلك، فلا بد أن تكون له نفس العاقبة: الخيبة والخسران.

﴿وَيُسْقَىٰ مِنْ مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٦]:

شراب أهل النار هو ما يسيل من أجساد أهل النار من القيح والدم، فهل هذا شراب أم عذاب؟!

﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ﴾ [إبراهيم: ١٧]:

قال قتادة: «هل لكم بهذا يدان (قوة)، أم لكم على هذا صبر؟! طاعة الله أهون عليكم - يا قوم - فأطيعوا الله ورسوله».

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ [إبراهيم: ١٧]:

أنواع العذاب الذي يعذب الله بها في نار جهنم، كلها أنواع قاتلة، لكن قضى الله أن أهل النار لا يموتون؛ ليخلدوا في العذاب والنكال: ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفَ عَنْهُمْ مِّنْ عَذَابِهَا﴾.

في الحديث: «يُخرج عنق من النار يوم القيامة له عينان يبصران وأذنان يسمعان ولسان ينطق يقول: إني وُكِّلْتُ بثلاثة: بكل جبار عنيد، وبكل من دعا مع الله إلها آخر، وبالمصوّرين». صحيح الجامع رقم: ٨٠٥١.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]:

قال ابن القيم: «والأعمال أربعة: فواحد مقبول. وثلاثة مردودة. فالمقبول: الخالص الصواب. فالخالص: أن يكون لله لا لغيره، والصواب أن يكون مما شرعه الله على لسان رسوله. والثلاثة مردودة ما خالف ذلك (أي غير الخاص وغير الصواب، والخالص غير الصواب، وغير الخالص الصواب)».

﴿لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]:
لا يرون ثواب أعمالهم، ولا يقدرّون على تحصيل شيء من أعمالهم التي عملوها في الدنيا، إلا كما يقدرّون على جمع الرماد في اليوم العاصف، وهذه عاقبة عمل الكافر والفاجر والمرائي.

﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ [إبراهيم: ١٧]:
قال الضحاك: «يأتيه الموت من كل مكان وناحية، حتى من إبهام رجله»، وهو عذاب نفسي رهيب بالرعب يفوق العذاب الحسي بالنار.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [إبراهيم: ١٩]:
الحق هنا: الحكمة، أي ضد العبث، بدليل مقابله به في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِيبٍ﴾ ﴿٢٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ﴿٢٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ٢٩-٢٠]:

أهون شيء على رب العالمين أن يستبدل المعرضين عنه بقوم صالحين.

﴿وَبَرِّزُوا لِلَّهِ حَمِيْعًا﴾ [إبراهيم: ٢١]:

كانوا يخفون فواحشهم ويظنون أنها تخفى عن الله، فإذا بهم يوم القيامة ينكشفون، وإنما ذكر البروز بلفظ الماضي لتحقيق وقوعه.

﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا﴾ [إبراهيم: ٢١]:

أسوأ حماقة يمكن أن يرتكبها إنسان أن يتبع شخصاً لا فكرة، وفرداً لا منهجاً.

﴿قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢١]:

الهداية كنز متوفر بين يديك اليوم، فاحرص عليه قبل أن يحال غداً بينك وبينه.

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١]:

الصبر اليوم على الطاعات أو عن المعاصي هو خيار أحد خياراتك، أما غداً فلن ينفعك صبر ولا جزع.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]:

لم خطب إبليس في أهل النار؟! ليزيدهم حزناً إلى حزنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فهذه الخطبة جزء من عذاب أهل النار.

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]:

لم قصَّ الله علينا خبر هذه الخطبة؟!

قال الآلوسي: «وحكى الله تعالى عنه ما سيقوله في ذلك الوقت ليكون تنبيهاً للسامعين، وحثاً لهم على النظر في عاقبتهم، والاستعداد لما لا بد منه، وأن يتصوروا ذلك المقام الذي يقول فيه الشيطان ما يقول، فيخافوا ويعملوا ما ينفعهم هناك».

﴿وَأَدْخَلَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا

الأنهار﴾ [إبراهيم: ٢٣]:

هذه أسعد اللحظات في الدنيا والآخرة: لحظة دخول الجنة.

جاء التعبير بصيغة الماضي لتأكيد الحدث، وتعجيل البشارة للمؤمنين.

كان في شرف استقبال المؤمنين وفد من الملائكة المقربين، فقاموا بإدخالهم الجنة حتى أوصلوهم إلى قصورهم فيها.

﴿وَحَيَّيْنَاهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]:

لا تستبدل تحية أهل الجنة (السلام) بغيرها من التحيات!

﴿وَحَيَّيْنَاهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]:

هذه تحية الملائكة لأهل الجنة، وهي كذلك تحية الملائكة بعضهم لبعض: ﴿دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَنَكَ اللَّهُمَّ وَحَيَّيْنَاهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾.

﴿وَحَيَّيْنَاهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ [إبراهيم: ٢٣]:

سلم أهل الجنة من آفات الدنيا الحسية، فلا أمراض ولا أوجاع. ومن آفات المعنوية، فلا هموم ولا غموم.

ولا شك أن السلامة من هذه الآفات من أعظم نعيم الجنات، لا سيما إذا حصل بعد هذه السلامة الفوز بالم لذات المادية والروحية في دار السعادة الأبدية.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]:

عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال: «إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها، وإنها مثل المسلم، حدثوني ما هي؟» قال: فوق الناس في شجر البوادي. قال عبد الله: فوق في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله، قال: «هي النخلة». صحيح البخاري رقم: ٦٢.

قال شعيب بن الحبحاب: كنا عند أنس، فأتينا بطبق عليه رطب، فقال: كل يا أبا العالية، فإن هذا من الشجرة التي ذكر الله في كتابه: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾.

قال ابن القيم: «الشجرة لا تبقى حية إلا بمادة تسقيها وتنميتها، فإذا قُطِع عنها السقي أوشك أن تيبس، فهكذا شجرة الإسلام في القلب، إن لم يتعاهدها

صاحبها بسقيها كل وقت بالعلم النافع والعمل الصالح، والعود بالتذكر على التفكير، وبالتفكير على التذكر، وإلا أوشك أن تيسس».

٣٨٢٤ من أوجه تشابه العبد مع الشجرة! قال ابن القيم: «الغرس والزرع النافع قد أجرى الله سبحانه العادة أنه لا بد أن يخالطه دغل ونبت غريب، ليس من جنسه، فإن تعاهده ربه (صاحبه) ونقاؤه وقلعه، كمل الغرس والزرع، واستوى وتم نباته، وكان أوفر لثمرته وأطيب وأذكى، وإن تركه أوشك أن يغلب على الغراس والزرع، ويضعف الأصل، ويجعل الثمرة ذميمة ناقصة، ومن لم يكن له فقه نفس في هذا ومعرفة به، فإنه يفوته ربح كبير».

٣٨٢٥ قال البغوي: «والحكمة في تمثيل الإيوان بالشجرة هي أن الشجرة لا تكون شجرة إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل قائم، وفرع عال؛ وكذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان».

٣٨٢٦ لو طهرت قلوبنا!

قال ابن القيم بعد أن أورد عدة فوائد من هذه الآية: «فهذا بعض ما تضمنه هذا المثل العظيم الجليل من الأسرار والحكم، ولعلها قطرة من بحر، بحسب أذهاننا الواقفة، وقلوبنا المخطئة، وعلومنا القاصرة. وأعمالنا التي توجب التوبة والاستغفار، وإلا فلو طهرت منا القلوب، وصفت الأذهان، وذكت النفوس، وخلصت الأعمال، وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم، وتتلاشى عنده معارف الخلق».

٣٨٢٧ ﴿تَوَقَّى أَكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٥]:

كلماتك الطيبة ثمرتها مؤكدة ولو بعد حين، فلا تستعجل ثمرة دعوتك وأثر كلمتك.

٣٨٢٨ لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

أو (مفيش فايده)! وهذا خطأ يعارضه قول ربي عن الكلمة الطيبة: ﴿تَوَقَّى أَكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦]:

قال قتادة في هذه الآية: لقي رجل رجلاً من أهل العلم، فقال له: ما تقول في الكلمة الخبيثة؟ قال: «ما أعلم لها في الأرض مستقراً، ولا في السماء مصعداً، إلا أن تلزم عنق صاحبها، حتى يوافي بها القيامة».

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]:

الثبات على الحق في الدنيا علامة مبكرة على ثبات صاحبه في الآخرة.

﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ^{٢٧} وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: ٢٧]:
هذا سبب قلة من يتوب من الظالمين؛ أن الله يعاقبهم على ظلمهم بالضلال وحرمانهم من الهداية.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨]:
جعلوا الكفر محل الشكر، واستعملوا نعم الله في عصيانه، فأعضاء العبد كلها نعم من الله عليه، فإذا استعمل بدنه في السيئات بدلاً من الحسنات، وأودع الغفلة قلبه بدل اليقظة، وعلق قلبه بالخلق بدلاً من الخالق، ولطخ لسانه بغيبة المخلوقين بدلاً من ذكر رب العالمين، فقد بدل نعمة الله كفرًا.

﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ﴾ [إبراهيم: ٢٩]:
ما فائدة القلب في نعيم هذه الدار إذا كانت جهنم غدا هي القرار؟!

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ^{٢٨} قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]:

متاع يستقر صاحبه غدا في جهنم، فهل هذا متاع؟! تمتع قليلاً وعُذِّب طويلاً.

﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣١]:
لا قيمة لإيمان لا يدفعك إلى الصلاة.

﴿وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [إبراهيم: ٣١]:

ما الأفضل؟ صدقة السر أم العلانية؟! قال ابن العربي:
«والتحقيق فيه أنَّ الحال في الصدقة تَخْتَلِفُ بِحَالِ الْمُعْطِي لها، والمُعْطَى إيَّاهَا،
والناس الشاهدين لها.

أَمَّا الْمُعْطِي فله فَائِدَةُ إِظْهَارِ السُّنَّةِ وثواب القُدْرَةِ، وآفتها الرِّياءُ والمنُّ والأذى.
وَأَمَّا الْمُعْطَى إيَّاهَا، فَإِنَّ السِّرَّ أَسْلَمَ له مِنْ احتِقَارِ الناسِ له، أو نِسْبَتِهِ إلى أَنَّهُ
أخذها مع الغنى عنها وترك التعَفُّفِ.

وَأَمَّا حال الناس، فالسِّرُ عَنْهُمْ أَفْضَلُ من العلانية لهم، مِنْ جهة أَنهم ربما
طعنوا على المُعْطِي لها بالرياء، وعلى الآخِذ لها بالاستِثْناء، ولهم فيها تحريكُ
القلوب إلى الصَّدَقَةِ، لَكِنَّ هذا اليوم قليل.

﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]:

قلتُ للنفْسِ إن أردتِ رجوعاً فارجعي قبل أن يُسَدَّ الطريقُ

﴿يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]:

يوم القيامة لا تنفع فيه فدية للافتداء، ولا تُجدي معه صداقة الأصدقاء.

﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ﴾ [إبراهيم: ٣١]:

أعظم ما يحض الناس على إقام الصلاة والإنفاق في سبيل الله تذكيرهم باليوم
الذي تستحيل فيه الطاعات، ولا يمكن استدراك ما فات.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [إبراهيم: ٣٢]:

كيف تطفو السفن ولا تغرق رغم أنها مصنوعة من معادن كثافتها أعلى من كثافة
ماء البحر، ورغم حجمها الضخم؟ بينما تغرق إبرة من حديد؟ والجواب: سَخَّرَ
الله البحار وفق قانون ثابت عرفه الإنسان وفق تسخير الله له.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ﴾ [إبراهيم: ٣٢]:

كل شيء مُسَخَّرٌ لك يا ابن آدم، فأَيُّ كرامة هذه الكرامة، وهل يُقابل إكرام
الرحمن بالعصيان والسير في ركب الشيطان؟!

﴿وَأَتَّخِذُكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]:

إجابة دعائك أكيدة! قال ابن حجر: «كل داعٍ يستجاب له، لكن تتنوع الإجابة، فتارة تقع بعين ما دعا به، وتارة بعوضه».

﴿وَأَتَّخِذُكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [إبراهيم: ٣٤]:

﴿مِنْ كُلِّ﴾ كل ما يفصلك عن فضل الله: دعوة صادقة من قلبٍ يُحَسِّنُ الظنَّ برَّبِّه.

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]:

قال الحسن البصري: «إن فيها لمعتراً، ما نرفع طرفاً ولا نرده إلا وقع على نعمة، وما لا نعلمه من نعم الله أكثر».

إن عجزت عن إحصاء نعم الله، فكيف تزعم أنك شكرتها؟!

سين: كيف نعدُّ نعمة واحدة؟!

جيم: النعمة الواحدة مشتملة على آلاف النعم. قال ابن القيم: «ويكفي أن النفس من أدنى نعمه التي لا يكادون يعدونها، وهو أربعة وعشرون ألف نفس في كل يوم وليلة، فله على العبد في النفس خاصة أربعة وعشرون ألف نعمة كل يوم وليلة، دع ما عدا ذلك من أصناف نِعَمِهِ على العبد».

ما يدفع الله عن العبد من البلايا والمنايا لا حصر له ولا عدد، وهذا من النِّعمِ المنسية، فإن الدفع من نعم الله الخافية كما أن النِّفع من نعمه الظاهرة.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]:

كيف يكون شكرك مكافئاً لنعمه؟! وشكرك نزر يسير، وإنعامه وافر غزير، وما مقدار قطرة شكر بجوار بحور الإنعام؟!

توفيق الله لعبده بالشكر هو من جملة نعمه على عبده، فإذا أراد أن تشكر الله لم يمكنك ذلك إلا بتوفيقه.

إذا كان شكري نعمة الله نعمة عليَّ له في أمثالها يجب الشكر
فكيف وقوع الشكر إلا بفضل الله
وإن طالت الأيام واتَّصل العمر

﴿وَأَجْبِئْنِي وَيَنْبِ أَنْ نَعْبُدَ إِلَّا صَنَامًا﴾ [إبراهيم: ٣٥]:

خاف خليل الرحمن من الكفر بعد الإسلام، فكيف لا يخاف غيره؟!

﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٦]:

رحمة الأنبياء! ولم يقل: فإنك عزيز حكيم؛ لأن المقام مقام استعطاف، أي إن تغفر له وترحمه، توفقه للرجوع من الشرك إلى التوحيد، كما قال النبي ﷺ: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

﴿رَبَّنَا لِيقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]:

قال القرطبي عن الصلاة: «خصَّها من جملة الدين لفضلها فيه، ومكانها منه، وهي عهد الله عند العباد».

﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]:

رحلة الحج والعمرة رحلة قلوب وأرواح لا أبدان وأشباح.

﴿أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]:

البيت الحرام مغناطيس يجذب إليه قلوب المشتاقين

﴿وَارْزُقْهُمْ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]:

واستجاب الله دعوة إبراهيم، وانظر إلى ما عليه البيت الحرام اليوم من الأرزاق والثمرات.

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا خَفِيَ وَمَا نُعْلِنُ وَمَا تَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ

وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٨]:

قال الزمخشري: «المعنى: إنك أعلم، بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا، منا.

وأنت أرحم بنا بأنفسنا ولها، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب.

وإنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك، وتحشعاً لعظمتك وتذلاً لعزتك، وافتقاراً إلى ما عندك، واستعجالاً لنيل أياديك، وولها إلى رحمتك.

وكما يتملق العبد بين يدي سيده رغبة في إصابة معروفه».

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعٌ

الدُّعَاءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩]:

ظل طيلة عمره يدعو ربه بهذا الدعاء، ولم ييأس إلى أن نزل به العطاء.

﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: ٤٠]:

كم يداوي هذا الدعاء فينا من أدواء! تهاوننا وتثاقلنا وتكاسلنا وتأخيرنا للصلاة، خاصة صلاة الفجر.

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ [إبراهيم: ٤١]:

قال رسول الله ﷺ:

«إن الرجل لُتُرفَع درجته في الجنة فيقول: أنى لي هذا؟ فيقال: باستغفار ولدك لك». صحيح الجامع رقم: ١٦١٧.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢]:

من الحقائق التي لا يعرفها كثير من الناس ما قرّره الإمام المناوي: «فأكثر ما يُدخل الموحدين النار مظالم العباد».

قال ميمون بن مهران: «هذا وعيدٌ للظالم. وتعزيةٌ للمظلوم».

﴿لَا يَزِيدُ فِيهِمْ طَرَفُهُمْ وَأَفْعِدُهُمْ هَوَاءً﴾ [إبراهيم: ٤٣]:

قارن تجبر الظلمة اليوم وقسوتهم على المؤمنين وشخص ألبصارهم يوم القيامة حتى لا تطرف لهم عين من الرعب، وخروج قلوبهم عن صدورهم حتى تبلغ الحناجر من شدة الهول والفرع.

﴿وَأَفْعِدُهُمْ هَوَاءً﴾ [إبراهيم: ٤٣]:

هذا من باب التشبيه البليغ الذي حُذف فيه حرف التشبيه، والتقدير: وقلوبهم كالهواء في الخلو من الإدراك من شدة الأهوال.

﴿فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]:

اللهم لا تجعلنا من يدعو بالرجعة عند معاينة ملك الموت.

﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤]:

قالوا ذلك أشرا وبطرا بلسان المقال، وقاله غيرهم بلسان الحال حين تطاولوا في البنيان على حساب الإيوان، وطال أملهم فساء عملهم.

﴿مَا كَانُوا يَنْكُرُونَ أَن يُزُولُوا عَنْ الْحَيَاةِ بِالمَوْتِ، إِنَّمَا كَانُوا يَقُولُونَ: لَا زَوَالٌ لَنَا مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ إِلَى حَيَاةٍ أُخْرَى فِي الْآخِرَةِ.﴾

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَكِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥]:

رؤية مصارع الظالمين ومعاينة مساكنهم بمثابة جرعة مناعية ضد السقوط في هاوية الظلم.

﴿وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَكِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥]:

قال قتادة: «سكن الناس في مساكن قوم نوح وعاد وشمود، وقرون بين ذلك كثيرة ممن هلك من الأمم، ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْآمَثَالَ﴾، قد والله بعث رسله، وأنزل كتبه، ضرب لكم الأمثال، فلا يصم فيها إلا أصم، ولا يخيب فيها إلا خائب، فاعقلوا عن الله أمره».

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم: ٤٦]:

من رأى كيد أعداء الإسلام اليوم عرف معنى هذا التشبيه القرآني المعجز.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلَفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ [إبراهيم: ٤٧]:

قال الرازي:

«فإن قيل: هلا قيل خلف رسله وعده، ولم قَدَّم المفعول الثاني على الأول؟ قلنا: ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا، إن الله لا يخلف الميعاد، ثم قال: رسله ليدل به على أنه تعالى لما لم يخلف وعده أحدا وليس من شأنه إخلاف المواعيد فكيف يُخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته».

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم: ٤٨]:

قال الطاهر بن عاشور:

«وتبديل الأرض والسموات يوم القيامة: إما بتغيير الأوصاف التي كانت لها، وإبطال النظم المعروفة فيها في الحياة الدنيا، وإما بإزالتها ووجدان (خلق) أرض وسموات أخرى في العالم الآخروي، وحاصل المعنى: استبدال العالم المعهود بعالم جديد».

﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: ٤٩]:

رؤية هؤلاء المجرمين مقصودة غذا لشفاء صدور المؤمنين.

﴿مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [إبراهيم: ٤٩]:

جُمِعُوا مع غيرهم في قيد واحد، قد ضُمَّ كل قرين إلى من يشبهه في الكفر والفسوق والعصيان، فعابد الصنم مع عابد الصنم، وشارب الخمر مع شارب الخمر، والظالم مع الظالم، كما قال: ﴿أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾.

﴿سَرَابِلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ﴾ [إبراهيم: ٥٠]:

جُعِلَتْ الملابس من قطران لأنه شديد الحرارة، فيحرق الجلد الواقع عليه، فيعذبون بهذا اللباس قبل دخول النار، كلون من العذاب المبكر.

﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]:

وذكروا أن تخصيص الوجوه بالإحراق مع عمومته لسائر الجسد لأسباب:

- كونها أعزَّ الأعضاء الظاهرة وأشرفها.
- ولأنها مجمع المشاعر والحواس التي خلقت لإدراك الحق، وقد أعرضوا عن الحق، ولم يستعملوها في استقباله وتدبره، فعوقبوا فيها.
- أو خلَّوْها عن القطران الذي يعذب الجسد، فذكر تعذيبها بالنار بدلا منه، ولعل تخلية الوجوه من القطران ليتعارفوا عند انكشاف ألسنة اللهب، ويتضاعف عذابهم بالخزي والفضيحة على رءوس الأشهاد.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١]:

يحاسب جميع العباد على كثرتهم في قدر نصف نهار من أيام الدنيا، ورؤي أنه بمقدار فواق ناقة، ورؤي بمقدار لمح البصر، فلا يشغله شأن عن شأن، بل جميع الخلق بالنسبة لقدرته كنفس واحدة.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١]:

احذروه! قال البقاعي:

«ولما كان أسرع الناس حساباً أعلمهم بفنونه خطأ وصواباً، فكان التقدير: فالله عالم بخفي أعمالهم وجليلها، وتميز جيدها من رديئها، فهو يجازيهم على حسب ذلك».

﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [إبراهيم: ٥١]:

قال ابن عطية:

«قيل لعلي: كيف يحاسب الله العباد في يوم؟ فقال: كما يرزقهم في يوم».

﴿هَذَا بَلَدٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾ [إبراهيم: ٥٢]:

سئل أبو الحسن الرماني: كل كتاب له ترجمة (أي عنوان يلخص محتواه) فما ترجمة كتاب الله؟ فقال: ﴿هَذَا بَلَدٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ﴾.



من روائع المتدبرين



خرج عمر يعسّ (يطوف بالليل) بالمدينة ذات ليلة، فمرّ بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائماً يصلي، فوقف يستمع قراءته فقرأ: ﴿وَالطُّورِ ..﴾ حتى بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿[الطور: ٧-٨]. قال: قَسَمَ رَبُّ الْكَعْبَةِ حَقًّا، فنزل عن حماره، واستند إلى حائط، فمكث ملياً، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهراً يعود الناس لا يدرون ما مرضه، رضي الله عنه (١).

وعلق سيد قطب على هذه الحادثة بقوله:

«وعمر رضي الله عنه سمع السورة قبل ذلك، وقرأها، وصلى بها، فقد كان رسول الله ﷺ يصلي بها المغرب، وعمر يعلم ويتأسى، ولكنها في تلك الليلة صادفت منه قلباً مكشوقاً، وحساً مفتوحاً، فنفذت إليه وفعلت به هذا الذي فعلت، حين وصلت إليه بثقلها وعنفها وحقيقتها اللدنية المباشرة؛ التي تصل إلى القلوب في لحظات خاصة، فتتخللها وتعمقها، في لمسة مباشرة كهذه اللمسة، تلقى فيها القلب الآية من مصدرها الأول كما تلقاها قلب رسول الله ﷺ فأطاقها لأنه تهيأ لتلقيها، فأما غيره فيقع لهم شيء مما وقع لعمر رضي الله عنه حين تنفذ إليهم بقوة حقيقتها الأولى» (٢).

(١) تفسير ابن كثير ٧-٤٠٠ - ط دار الكتب العلمية

(٢) في ظلال القرآن ٦ / ٣٣٩٤



الجزء الرابع عشر

سورة الحجر آية ١
إلى سورة النحل آية ١٢٨
عدد الفوائد: ٤٠٢

قال الحارث المحاسبي:

«إذا كان كلام العالم أولى بالاستماع
من كلام الجاهل، وكلام الوالدة الرؤوم أحقّ
بالاستماع من كلام غيرها، فالله أعلم العلماء
وأرحم الرحماء، فكلامه أولى كلام
بالاستماع والتدبر والفهم».

الحارث المحاسبي / فهم القرآن ص ٢٤٧

الجزء الرابع عشر سورة الحجر آية ١ إلى سورة النحل آية ١٢٨

سورة الحجر

﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر: ١]

أقسم قتادة فقال: «تبيّن والله هداه ورشده وخيره».

﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الحجر: ٢]

متى يودون ذلك؟ أقوال العلماء في هذه الآية راجعة إلى ثلاثة أقوال: عند الاحتضار، وعند معاينة النار، وحين يرون خروج عصاة المؤمنين من النار.

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٣]

قيمة كل امرئ بحسب همّته، فهَمَمٌ في عليين، وهمم ترعى حول الطين.

﴿وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ﴾ [الحجر: ٣]

قال الحسن: «ما أطال عبد الأمل إلا أساء العمل».

قال الإمام القرطبي: «فالأمل يكسل عن العمل، ويورث التراخي والتواني،

ويعقب التشاغل والتقاعس، ويخلد إلى الأرض، ويميل إلى الهوى، وهذا أمر

قد شوهد بالعيان، فلا يحتاج إلى بيان، ولا يطالب صاحبه ببرهان، كما أن قصر

الأمل يبعث على العمل، ويحيل على المبادرة، ويحث على المسابقة».

﴿صرف الهمم إلى طلب الطعام والمتاع مما كانوا يتعبدون به في أشعارهم، كما

في قول الحطيئة الذي هجا به الزبرقان بن بدر:

دع المكارم لا تنهض لبغيتهَا واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

﴿ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]:

قال الألوسي: «وفي هذه الآية إشارة إلى أن التلذذ والتنعم، وعدم الاستعداد للآخرة، والتأهب لها، ليس من أخلاق من يطلب النجاة».

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿١٤١﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ﴾ [الحجر: ٤-٥]:

قال صاحب الظلال: «ولقد يقال: إن أمماً لا تؤمن ولا تحسن ولا تصلح ولا تعدل، وهي مع ذلك قوية ثرية باقية، وهذا وهم. فلا بد من بقية من خير في هذه الأمم، ولو كان هو خير العمارة للأرض، وخير العدل في حدوده الضيقة بين أبنائها، وخير الإصلاح المادي والإحسان المحدود بحدودها، فعلى هذه البقية من الخير تعيش حتى تستنفدها، فلا تبقى فيها من الخير بقية ثم تنتهي حتماً إلى المصير المعلوم، إن سنة الله لا تتخلف، ولكل أمة أجل معلوم».

﴿وَقَالُوا يَتَأْتِيَهَا الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦]:

قال ابن عاشور:

«فتسمية القرآن ذكراً تسمية جامعة عجيبة لم يكن للعرب علم بها من قبل أن ترد في القرآن».

وكذلك تسميته قرآناً؛ لأنه قصد من إنزاله أن يقرأ، فصار الذكر والقرآن صنفين من أصناف الكلام الذي يلقي للناس لقصد وعيه وتلاوته، كما كان من أنواع الكلام الشعر والخطبة والقصة والأسطورة».

﴿لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الحجر: ٧]:

ولو نزل الملائكة ما آمنوا!

﴿مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨]:

في الكلام حذف، تقديره: ولو أنزلنا الملائكة لعوجلوا بالعقوبة، وما كانوا إذا منظرين.

﴿مَا نُزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ﴾ [الحجر: ٨]:

المراد بالحق هنا الموت، والمعنى: أن الملائكة لا ينزلون إلا بالموت، أو بعذاب الاستئصال، وليس بعد نزولهم إنظار ولا إمهال، والله لم يأخذ المشركين بالاستئصال، بل مدَّ لهم في الإمهال، لعلمه بإيمان بعضهم، ومن إيمان بعض أولادهم، فلهذا السبب ما أنزل الملائكة.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]:

قال يحيى بن أكثم: «كان للمأمون - وهو أمير إذ ذاك - مجلس نظر، فدخل في جملة الناس رجل يهودي، حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة، فتكلم فأحسن الكلام والعبارة، فلما أن تقوض (انفضَّ) المجلس دعاه المأمون، فقال له: إسرائيلي؟ قال: نعم. قال له: أسلم حتى أفعل بك وأصنع، ووعدته، فقال: ديني ودين آبائي! وانصرف.

قال: فلما كان بعد سنة جاءنا مسلماً، قال: فتكلم على الفقه فأحسن الكلام، فلما تقوض المجلس دعاه المأمون وقال: أأست صاحبنا بالأمس؟ قال له: بلى. قال: فما كان سبب إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتك، فأحببت أن أمتحن هذه الأديان، وأنت مع ما تراني حسن الخط، فعمدت إلى التوراة، فكتبت ثلاث نسخ، فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الكنيسة، فاشترت مني، وعمدت إلى الإنجيل، فكتبت ثلاث نسخ، فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها البيعة، فاشترت مني، وعمدت إلى القرآن، فعملت ثلاث نسخ، وزدت فيها ونقصت، وأدخلتها الوراقين فتصفحوها، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان، رموا بها فلم يشتروها، فعلمت أن هذا كتاب محفوظ، فكان هذا سبب إسلامي».

﴿فَلا يَزَالُ نُورُ الْقُرْآنِ يَسْرِي، وَبِحُرِّ هَدَايْتِهِ يُجْرِي، رَغْمَ كَيْدِ الْكَائِدِينَ، وَإِفْسَادِ الْمُفْسِدِينَ، وَشَاهِدُوا حُلُقَاتِ (بِالْقُرْآنِ اهْتَدَيْتِ) لَتَرَوْا كَيْفَ أَسْلَمَ هَؤُلَاءِ وَاهْتَدَوْا بِسَمَاعِهِمْ آيَاتِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ.﴾

في إيراد العبارة بالجملة الاسمية، دلالة على الثبات على دوام الحفظ.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٠]:

قال الجمل:

«لما أساءوا في الأدب، وخاطبوه ﷺ خطاب السفاهة، حيث قالوا له: (إنك لمجنون)، سلاه الله فقال له: إن عادة الجهال مع جميع الأنبياء كانت هكذا، وكانوا يصبرون على أذى الجهال، ويستمرون على الدعوة والإنذار، فاقتد أنت بهم في ذلك».

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الحجر: ١١]:

مواساة ربانية كريمة لكل داعية استهزئ به أو لقي مشقة ومكروها ممن دعاهم إلى الخير.

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ١٢]:

تشابهت قلوبهم فتشابهت معاملاتهم! تشابهت قلوبهم في الكفر والطغيان، فتشابهوا في الاستهزاء وعدم الإيمان.

﴿كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الحجر: ١٢]:

كما يدخل السلك في الحائط، وكما يدخل الخيط في الثوب، كذلك يدخل القرآن قلوب البعض فيفهمونه ويدركون إعجازه، ومع هذا لا يزدادون إلا إعراضاً وعناداً، فاللهم لا تجعلنا منهم.

سلك الله القرآن في قلوب الجميع ففهموه، فسلكه في قلوب المؤمنين فازدادوا إيماناً، وسلكه في قلوب المجرمين فازدادوا تكديبا، كل على علم وفهم:

﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾.

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر: ١٣]:

أن يروا سوء عاقبة من سبقهم من المجرمين، ثم يسيروا في نفس الطريق، لقد فقدوا إذن عقولهم.

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٥﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤-١٥]:

قال ابن عباس رضي الله عنه: لو ظل المشركون يصعدون في تلك المارج وينظرون إلى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه، وإلى عبادة الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون، لشكوا في تلك الرؤية، وبقوا مُصرِّين على كفرهم وجهلهم، كما جحدوا سائر المعجزات من انشقاق القمر، وما خص به النبي ﷺ من القرآن المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله.

قرأ ابن كثير سُكِّرَتْ بالتخفيف، والباقون بالتشديد: ﴿سُكِّرَتْ﴾، وسُكِّرَتْ أصله من السَّكَّر، وهو سد الشق كي لا ينفجر الماء، فكأن هذه الأبصار مُنِعت من النظر كما يمنع السكر الماء من الجري، أو هو مأخوذ من سُكَّر الشراب يعني أن الأبصار وقع بها فساد النظر كما يقع للرجل السكران من تغير العقل.

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦]:

إشباع النظر بجمال الخلق منهج قرآني فريد، وبناء حياة المؤمنين على التجميل في الظاهر والباطن سلوك فطري نبيل.

﴿وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦]:

زَيَّنَّاهَا لك لتنظر إليها، وتتأمل جمالها وعظمة الله فيها، فتزداد إيمانًا.. الله أعانك على عبادة التفكير.

﴿وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر: ١٧، ١٨]:

قال ابن عباس:

«كانت الشياطين لا تُحجَّب عن السموات، فكانوا يدخلونها ويسمعون أخبار الغيوب من الملائكة فيلقونها إلى الكهنة، فلما ولد عيسى عليه السلام منعوا من ثلاثة سموات، فلما وُلِدَ رسول الله ﷺ منعوا من السموات كلها، فكل واحد منهم إذا أراد استراق السمع رُمي بشهاب».

﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ [الحجر: ١٩]:

آية قرآنية وكونية معجزة، فالتوازن البيئي من أهم أسباب استمرار الحياة على وجه الأرض! ويشمل كل شيء في الأرض، فوجوده بنسب محددة مقدرة، بحسب حاجة الأرض وسكانها للحياة.

﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر: ٢٠]:

هنا احتمالان: الاحتمال الأول: أن كلمة «مَنْ» مختصة بالعقلاء، فهم العيال والخدم؛ لأن أكثر الناس يظنون أنهم يرزقونهم، وهذا خطأ فإن الله هو الرزاق، يرزق الخادم والمخدوم، والمالك والمملوك. والاحتمال الثاني: الوحش والطير، وهو قول الكلبي.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١]:

خزائن الله لا تنفذ مهما أنفق منها، فلا تحرم نفسك ما فيها بإمساك لسانك عن الطلب والدعاء.

العطاء معلق بالدعاء، فلا يغفل عنه إلا الأغبياء!

من عرف أن عند الله خزائن كل شيء، تسامت همته عن طرق أبواب الناس، وقطع أمله عن الخلق، وتجرد قلبه عن التعلق بغير ربه.

من طلب شيئاً ممن لا يملك خزائنه، فقد طلب ممن لا يملك ولا يقدر، وصدق من قال:

لا تخضعن لمخلوق على طمع فإن ذاك مُضِرُّ منك بالدين
واسترزق الله مما في خزائنه فإنها هي بين الكاف والنون

الخزائن مادية أو إيمانية، والإيمان أغلى وأهم، فعند الله خزائن الصبر والثبات واليقين والتوكل والاستقامة، ولا يملك مفاتيح هذه الخزائن إلا الله.

من روائع وجوامع الدعاء النبوي:

«اللهم إني أسألك من كل خير خزائنه بيدك، وأعوذ بك من كل شر خزائنه بيدك». صحيح الجامع رقم: ١٢٦٠.

﴿وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١]:

أي نُخْرِجُهُ من عالم الغيب إلى عالم الشهادة بقَدَرٍ معلوم، والقَدَرُ المعلوم هو الأجل المعين له هو حسب ما اقتضت حكمة الله ومشيئته.

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢]:

كان ﷺ إذا اشتدت الرياح قال كما في حديث سلمة بن الأكوع: «اللهم لقعًا لا عقيًا».. أي ريحا تلقح السحاب فيمتلئ بالماء.

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾ [الحجر: ٢٣]:

اسم الله الوارث معناه: الباقي، أي بعد هلاك الخلق أجمعين؛ لأن الكل يموت إلا صاحب الملكوت.

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ [الحجر: ٢٤]:

قال الإمام ابن جرير بعد أن ساق جملة من الأقوال: «وأولى الأقوال عندي بالصحة، قول من قال: ولقد علمنا الأموات منكم يا بني آدم، فتقدم موته، ولقد علمنا المستأخرين الذين تأخر موتهم، ممن هو حي، ومن هو حادث منكم ممن لم يحدث بعد».

﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ [الحجر: ٢٤]:

أخرج أبو داود عن ابن عباس:

«كانت امرأة تصلي خلف النبي ﷺ، حسناء من أجمل الناس، فكان ناس يصلون في آخر صفوف الرجال فينظرون إليها، فكان أحدهم ينظر إليها من تحت إبطه [إذا ركع]، وكان أحدهم يتقدم إلى الصف الأول حتى لا يراها، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ﴾ [الحجر: ٢٤].»

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ تَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجر: ٢٥]:

الموت ليس هو نهاية الحياة، بل ابتداء حياة جديدة، يُحَاسِبُ الناس فيها على أعمالهم، ويقتسمون منازلهم بحسب ما عملوا في دنياهم.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٦]:

ما أعجب صنع الله، وما أعظم قدرته، أخرج من التراب والطين بشراً سوياً في أحسن تقويم، وأكد هذه الحقيقة بلام القسم و(قد)، لزيادة الإرشاد إلى أهمية التأمل في هذا الخلق.

﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٧]:

دليل على أن الله خلق الجن قبل خلق الإنسان.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨]:

شأنك ليس كسائر الخلق! فقد خلق الله أباك بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وعلمه أسماء كل شيء، وأظهر فضله على الملائكة، وطرده إبليس من قرب، إذ لم يسجد له مع الساجدين، واتخذ عدواً له.

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩]:

قال ابن عاشور ما ملخصه: حقائق العناصر عند الله تعالى لا تتفاضل إلا بتفاضل آثارها وأعمالها، وكرهية الناس للذات -تبعاً لطباع الأمزجة أو إلف العادة- لا يؤبه به في علم الله تعالى، ألا ترى أن المني يُستقذر في الحس البشري، ومنه تخلقت أفاضل البشر؟ وكذلك المسك، طيب في الحس البشري لملاءمة رائحته للشم، وما هو إلا غدة من خارجات بعض أنواع الغزال.

﴿فَسَجَدَ الْمَلَأِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ [الحجر: ٣٠]:

قال ابن عاشور:

«وأمر الملائكة السجود لا ينافي تحريم السجود في الإسلام لغير الله من وجوه: أحدها: أن ذلك المنع لسد ذريعة الإشراك، والملائكة معصومون من ذلك.

وثانيها: أن شريعة الإسلام امتازت بنهاية مبالغ الحق والصلاح، فجاءت بما لم تجئ به الشرائع السالفة؛ لأن الله أراد بلوغ أتباعها أوج الكمال في المدارك، ولم

يكن السجود من قبل محظورًا، فقد سجد يعقوب وأبناؤه ليوسف عليهم السلام، وكانوا أهل إيمان. وثالثها: أن هذا إخبار عن أحوال العالم العلوي، ولا تُقاس أحكامه على تكاليف عالم الدنيا».

﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٠]:

لُعِنَ إبليس، وطُرد من الجنة بترك سجدة واحدة، فلا تأمن أن يجسك الله في النار بسبب معصية واحدة!

﴿قَالَ يَتْلِيَ لَيْسَ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٣٢-٣٣]:

لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَاسِلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ [الحجر: ٣٢-٣٣]: غلط إبليس لأنه رأى الفضل باعتبار عنصر الطين الذي خلق الله منه آدم، بينما غفل عن أن الله نفخ فيه من روحه.

﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَاسِلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٣٣]:

إبليس أول من أسس بنيان التكبر، وأول من دعا غيره إلى التمرد، فعليه وزر من سار خلفه.

﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَاجِمٌ﴾ [الحجر: ٣٤]:

الرجيم هو المرجوم.. وما يُرَجَم به هنا هو لعنة الله، فاللعنة عقوبته، وعقوبة من عاند أمر الله.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الحجر: ٣٤]:

لعنة دائمة، وليس المعنى أن اللعنة تنتهي يوم القيامة، لكن المراد أنها باقية في الدنيا إلى أن يلاقي عقوبته يوم القيامة، فعقوبته يومئذٍ أشد من اللعنة.

﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الحجر: ٣٦-٣٧]:

قال السعدي: «وليس إجابة الله لدعائه كرامة في حقه، وإنما ذلك امتحان وابتلاء من الله له وللعباد، ليتبين الصادق الذي يطيع مولاه دون عدوه ممن ليس كذلك».

﴿إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٨]:

هو وقت النفخة الأولى في الصور، والتي يموت فيها الأحياء، فيموت معهم إبليس والشياطين.

الصراع مستمر! قال ابن عاشور: «وهذا الإنظار رمز إلهي على أن ناموس الشر لا ينقضي من عالم الحياة الدنيا، وأن نظامها قائم على التصارع بين الخير والشر والأخيار والأشرار».

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الحجر: ٣٩]:

بابان للشيطان! قال القرطبي: «وتزيينه هنا يكون بوجهين: إما بفعل المعاصي، وإما بشغلهم بزينه الدنيا عن فعل الطاعة».

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر: ٤٠]:

الهداية توفيق إلهي! ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾: الذين استخلصتهم لطاعتك، وصُتُّهم عن اقتراف ما نهيتهم عنه.

قرأها ابن كثير بكسر اللام، فيكون المعنى: لأضلنهم جميعاً، إلا عبادك الذين أخلصوا لك العمل، واجتنبوا الرياء في أقوالهم وأفعالهم. قال الرازي: «وهذه القراءة تدل على أن الإخلاص والإيمان ليس إلا من الله تعالى».

﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ [الحجر: ٤١]:

قال ابن جرير: «بمعنى هذا طريق إليّ مستقيم، فمعنى الكلام: هذا طريق مرجعه إليّ، فأجازي كلاً بأعمالهم».

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢]:

قال ابن تيمية:

«فأهل الإخلاص والإيمان لا سلطان له عليهم؛ ولهذا يهربون (الشياطين) من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة، ويهربون من قراءة آية الكرسي، وآخر سورة البقرة، وغير ذلك من قوارع القرآن».

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]:

الاحتفاء بحصن العبودية هو أفضل وقاية من إبليس وجنوده؛ لأنه يُضعف سلطانهم عليك، ويقوّي سلطانك، فتنتصر.

سئل سهل التستري: متى يصح للعبد مقام العبودية؟ قال: «إذا ترك تدبيره، ورضي بتدبير الله فيه».

رحمة الله! سئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية فقال: «معناه ليس لك عليهم سلطان أن تُلقِيَهُم في ذنب يضيق عنه عفوي».

﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٤٣]:
اجتمعوا في الدنيا على الباطل وقضاء الشهوات المحرمة، فاجتمعوا غدًا لمقاساة العقاب على جرائمهم في جهنم.

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحجر: ٤٤]:
قال ابن عباس عن أسماء أبواب النار: لها سبعة أبواب: جهنم، والسعير، ولظى، والحطمة، وسقر، والجحيم، والهاوية، وهي أسفلها.

﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]:
لكل دركة قوم يسكنونها بقدر ذنوبهم، وقال الألوسي: «عدد الحواس الخمس والقوتين الشهوية والغضبية، وهاتان القوتان بابان عظيمان للضلالة المفضية إلى النار».

﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]:
قال هشام بن حسان:
خرجنا حُجَّاجًا، فنزلنا منزلًا في بعض الطريق، فقرأ رجل كان معنا هذه الآية:
﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر: ٤٤]، فسمعت امرأة فقالت: أعد رحمك الله، فأعادها، فقالت: خلّفتُ لي في البيت سبعة عبيد، أشهدكم أنهم أحرار، لكل بابٍ واحدٌ منهم.

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الحجر: ٤٥]:

في الجنة ثلاثة عيون:

الأولى: عين الكافور، يشرب المقربون ماءها صرفا غير مخلوط، ويشرب منها الأبرار شرابا مخلوطا ممزوجا بغيره.

الثانية: عين التسنيم.

الثالثة: عين السلسيل.

﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٦]:

قال رسول الله ﷺ: «من سأل الله الجنة ثلاث مرات، قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة». صحيح الجامع رقم: ٦٢٧٥.

اختفاء الخوف إلى الأبد مع دوام الأمن هو نعيم لا يستشعر قدره إلا من فقده؛ ولذا كان من عظيم نعيم أهل الجنة، فلا عذاب ولا موت ولا خروج ولا زوال.

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَدِّينَ﴾ [الحجر: ٤٧]:

قال ابن عباس: «أول ما يدخل أهل الجنة الجنة تعرض لهم عينان، فيشربون من إحدى العينين، فيذهب الله ما في قلوبهم من غلٍّ، ثم يدخلون العين الأخرى، فيغتسلون فيها، فتشرق ألوانهم، وتصفو وجوههم، وتجري عليهم نضرة النعيم».

﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾ [الحجر: ٤٧]:

أي أخوة هذه التي لا تطهر قلوب أصحابها من الغل والحسد؟!

﴿وَمَا هُمْ مِّنَّا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٧]:

أكثر ما يخيف المتعتمين اليوم في الدنيا هو زوال النعمة وسلبها؛ ولأن الجنة لا خوف فيها، فينزع الله خوف المؤمنين من زوال النعيم في جنات النعيم.

زوال النعيم من أعظم أنواع العذاب، بل مجرد تصور زوال النعيم عذاب، لا يلذ معه عيش؛ ولذا قيل:

إذا شئت أن تحيا حياة هنية

فلا تتخذ شيئا تخاف له فقدا

وهذا منتفٍ في الجنة.

﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ [الحجر: ٤٨]:

حتى في قمة أحداثنا السعيدة يدركنا التعب، وأما الجنة فسعادة الأبد بلا أدنى تعب.

﴿بَيْنَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩]:

ذكر المغفرة دليل على أن الله لم يُرد بالمتقين: من يتقي الذنوب بأسرها: كبيرها وصغيرها، فهذا محال.

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٥٠]:

آية في غاية اللطف، إذ لم يقل على وجه المقابلة: وأني المعذب المؤلم، ترجيحاً لجانب العفو والرحمة.

﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٥٠]:

لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله الذي لا يقدر قدره أحد، ولا يبلغ كُنْهَه عقل أحد.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَمًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ﴾ [الحجر: ٥٢]:

وذلك لأنهم دخلوا بغير إذن، وبغير موعد سابق؛ ولأنهم امتنعوا من الأكل، وكل هذه من أسباب الوجل واضطراب النفس.

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]:

هو إسحاق عليه السلام.

﴿قَالَ أَبَشِّرْهُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسِّنِي إِلْكِبْرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤]:

قال الرازي:

«لم سألهم وقد أخبروه؟! والجواب: الإنسان إذا كان عظيم الرغبة في شيء، وفاته الوقت الذي يغلب على ظنه حصول ذلك المراد فيه، فإذا بُشِّرَ بعد ذلك بحصوله ازداد فرحه وسروره، ويصير ذلك الفرح القوى كالمدهش له، وربما يجعله هذا الفرح يعيد السؤال ليسمع تلك البشارة مرة أخرى، طلباً للالتذاذ بسماعها».

﴿قَالَ أَبَشِّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَ تَبَشِّرُونَ﴾ [٥٤-٥٥]

بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِيبِ﴾ [الحجر: ٥٤-٥٥]:

لا مجال لليأس ولو كنت في سنّ اليأس.

﴿قَالُوا بَشِّرْنَا بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنِطِيبِ﴾ [الحجر: ٥٥]:

أحط نفسك بالمتفائلين المستبشرين، فإنهم مفاتيح السعادة وأسباب السرور، ومغاليق التعاسة وأقفال الشرور.

﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]:

اليأس ضلال عن طريق الله، وفيك من الهداية بقدر ثققت في رحمة الله.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر: ٥٧]:

الخطب هو الشأن العظيم الذي يقع فيه التخاطب بين الناس إما لغرابته أو لإنكاره، أي قال لهم: ما الأمر العظيم الذي جئتم لأجله غير البشري بمولد إسحاق؟ فقد فهم من حوارهم أن ليست هذه البشري هي المقصودة، بل هناك مهمة أخرى أرسلوا لأجلها؛ لأنهم كانوا عددا، والبشارة لا تحتاج لمثل هذا العدد.

سؤال:

إذا كان هؤلاء الرسل من الملائكة، جاءوا لإهلاك قوم لوط، فلم ذهبوا إلى إبراهيم، ولم يذهبوا رأسا إلى لوط؟

والجواب: أن لوطا عليه السلام كان من قوم إبراهيم، ومن الذين تابعوه، فكان إعلام إبراهيم بما سينزل على لوط من بلاء، مما لا يغفل عنه أدب السماء.

﴿قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ مُجْرِمِينَ﴾ [٥٨-٥٩]

﴿أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٥٨-٥٩]:

في الآية دليل على أنه يجوز أن يُستثنى من خلاف نوعه؛ لأنه استثنى آل لوط من قومه، والمجرم ليس من نوع الصالح.

﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٥٩]:

آل الرجل هم أتباعه؛ حيث استثنى آل لوط من العذاب، وقد قال: آل فرعون، وهم أتباعه، وآل موسى، وآل هارون، وآل عمران، ومن ذلك دعائنا: «اللهم صلّ على مُحَمَّدٍ وعلى آل مُحَمَّدٍ»، فیدخل فيه كل من تبعه.

﴿إِلَّا أَمْرَاتُهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لَمِنَ الْغَيْرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠]:

فيه دليل واضح على ما قرّره علماء الأصول أنه يجوز أن يُستثنى من الاستثناء؛ لأنه استثنى امرأته من آله.

﴿قَدَرْنَا إِنَّمَا لَمِنَ الْغَيْرِينَ﴾ [الحجر: ٦٠]:

قال الرازي: «لقائل أن يقول: لم أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم مع أنه لله تعالى، ولم لم يقولوا: قدّر الله تعالى؟ والجواب: إنما ذكروا هذه العبارة لما لهم من القرب والاختصاص بالله تعالى، كما يقول خاصة الملك: دبّرنا كذا وأمرنا بكذا، والمدبّر والأمر هو الملك لا هم، وإنما يريدون بذكر هذا الكلام إظهار ما لهم من الاختصاص بذلك الملك، فكذا ها هنا، والله أعلم».

﴿فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ﴾ [الحجر: ٦١]:

تشريف المؤمنين! مع أن المجيء كان للوط عليه السلام، لكن الله أخبر أن المجيء لآل لوط، وذلك تشريفاً للمؤمنين من قوم لوط، فكأنهم حضروا وشاهدوا الملائكة.

﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٢]:

تنكركم نفسي، فأخاف أن تقصدوني بشرّ، فالأنبياء يخافون، لكنهم -مع خوفهم- عن مهامهم لا يتأخرون.

﴿قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٣]:

بل جئناك بما فيه فرحك وسرورك وتشفيك من عدوك، وهو العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله، فيشكون فيه.

﴿وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَدِّقُونَ﴾ [الحجر: ٦٤]:

تأكيد على تأكيد، وهذه التأكيدات المتعددة تشعر بأن لوطاً عليه السلام، كان في غاية الهم والكرب لمجيء الملائكة إليه بهذه الصورة التي تغري المجرمين بهم دون أن يملك أسباب حمايتهم أو الدفاع عنهم، فجاء توالي هذه التأكيدات ليزيل خوفه.

﴿وَاتَّبَعَ أَذْبَرَهُمْ﴾ [الحجر: ٦٥]:

القائد دوماً خلف الجند! قال ابن كثير: «وأن يكون لوط عليه السلام يمشي وراءهم ليكون أحفظ لهم، وهكذا كان رسول الله ﷺ يمشي في الغزو إنما يكون ساقية يزجي الضعيف، ويحمل المنقطع».

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥]:

الانشغال بالمعارك الجانبية يستهلك طاقتك، ويمنعك من بلوغ هدفك.

﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَتُولَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٦٦]:

إمهال ربي ليس بالإهمال، والظالمون مآلهم شرٌّ مآل، وستدور دائرة الزمان عليهم، حتماً سيؤذن ظلمهم بزوال.

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الحجر: ٦٧]:

يشتر بعضهم بعضاً بأضياف لوط وجمال وجوهرهم، واقتدارهم عليهم لقصد فعل الفاحشة فيهم، فجاءوا إلى بيت لوط، فجعلوا يسألون لوطاً أن يخلي بينهم وبين أضيافه، ولوط يستعيز منهم.

﴿قَالَ إِنْ هَتُولَاءِ صِيفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَحْزُونِ﴾ [الحجر: ٦٨-٦٩]:

من أسيء إلى ضيفه فقد أسيء إليه.

﴿قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكَ عَنِ الْعُلَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠]:

نبيناك أن تحول بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرضون لأي أحد بالفاحشة، وكان لوط عليه السلام ينهاهم عن هذا المنكر، ويحول بينهم وبين من يتعرضون له بالفاحشة، حتى توعدوه وهددوه.

﴿قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١]:

قال لوط لقومه: تزوجوا النساء، ولا تقعوا في ما حرم الله عليكم من إتيان الرجال إن كنتم فاعلين ما أمركم به، وليس كما يزعم الكتاب المقدس أن لوطاً زنى بانيته، حاشا مقام النبوة! وما أشد فجور اليهود!

﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر: ٧٢]:

لم يقسم الله بحياة بشر إلا بحياة نبيه تكريماً له وتشريفاً.

﴿إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر: ٧٢]:

للهوى سُكْرٌ أشد من سُكر الخمر، وما أكثر خموري العقول اليوم بالأهواء والشهوات!

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ﴾ [الحجر: ٧٣]:

كان ابتداء عذابهم عند الصباح، وانتهأؤه باستئصال شأفتهم مع شروق الشمس.

﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهِمَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابَةً مِّن سَجِيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤]:

قلبوا ناموس الفطرة، فكان عذابهم بأن قلب الله ديارهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]:

قال مجاهد: المتوسمين: المتفرسين. وقال ابن عباس: للناظرين. وقال مقاتل: للمتفكرين، ولا تنافي بين هذه الأقوال، فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين، وما آل إليه أمرهم، أورثه فراسة وعبرة وفكرة.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر: ٧٥]:

تعريض بالغافلين، أنهم دون مرتبة النظر في الآيات؛ لذا لا يعتبرون بها.

﴿وَإِنَّا لَنَسْبِلُ مَقِيمٍ﴾ [الحجر: ٧٦]:

جعل الله مدينة قوم لوط في طريق يعرفه كل المترددين على تلك الديار، ليكونوا من المعتبرين.

تشبيهه بليغ! شبه آثار المدينة الباقية بالشخص المقيم المستقر في مكانه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧]:

المؤمن فقط هو من يعتبر بالآيات، ومن لا إيمان له لن يعتبر ولو جاءه ألف دليل.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٧٧]:

المؤمنون فقط هم المتوسّمون أي المعتبرون.

﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ﴾ [٧٨] فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الحجر: ٧٨-٧٩]:

انتقام الله من الظالمين سنة كونية.

﴿وَإِنَّمَا لِبِإِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [الحجر: ٧٩]:

الإمام هو الطريق الواضح لأنه يأتّم به السائر، أي أن كلتا القريتين بطريق قوافل أهل مكة، يعتبر بهما كل من يمر عليهما.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الحجر: ٨٠]:

من كذب واحداً من الأنبياء عليهم السلام، فقد كذب الجميع، وذلك لاتفاقهم على أصول الدين.

من أصحاب الحجر؟! هم ثمود قوم صالح عليه السلام، والحجر هو وادٍ بين المدينة والشام كانوا يسكنونه.

﴿وَأَتَيْنَهُمْ ءَايَتُنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر: ٨١]:

قال الرازي: «يدل على أن النظر والاستدلال واجب، وأن التقليد مذموم».

﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٢]:

ينحتونها بلا احتياج إليها، ولا خوفاً من خطر، بل بطراً وعبثاً، كما هو المشاهد من بيوتهم بوادي الحجر، وقد مرّ بها النبي ﷺ في طريقه إلى تبوك، ففتح رأسه - أي غطاها بثوبه - وأسرع بدابته، وقال لأصحابه: «لا تدخلوا بيوت القوم المعذبين، إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تبكوا فتباكوا خشية أن يصيبكم ما أصابهم».

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٣]:

أخذهم الله بالصيحة، وهي مجرد سبب، ولو شاء أن يهلكهم بغير سبب لفعل.

﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر: ٨٤]:

كل وقاية ضائعة، وكل أمان ذاهب، وكل حصن زائل أمام عذاب الله المسلط على المجرمين.

﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ ۖ فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]:

عشاق الآخرة لا وقت لديهم للعداوات والضغائن وتوافه الأمور.

استحضار قرب الرحيل خير ما يعين العبد على الصفح والتسامح.

قيل لأبي الفضل يوسف بن مسرور: فلان يتكلم فيك، فقال: إنما مثلي ومثله كمثل رجل حُمِلَ لضرب عنقه، فقذفه رجل في الطريق، فقال لنفسه: أنت تُحْمَلُ للقتل تسأل عمن يقع في؟! وأنا سائر إلى الموت لا أدري متى يأتيني!! أسأل عمن يتكلم في؟! في الموت ما يشغلني عن ذلك.

﴿فَاصْفَحَ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]:

قال علي بن أبي طالب عليه السلام: «الصفح الجميل صفح لا توبخ فيه، ولا حقد بعده».

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٦]:

خلقك وخلقهم، وهو الْعَلِيمُ بحالك وحالهم، فلا يخفى عليه شيء مما جرى، وسيحكم بينكم.

ربك هو الذي خلقهم، وعلم ما هو الأصلح لهم، وقد علم أن الصفح اليوم أصلح لهم لا السيف.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧]:

هي سورة الفاتحة لأنها تُشْتَىٰ في كل صلاة أي تُكْرَرُ وتعاد في كل ركعة، وسُمِّيَتْ سَبْعًا لأنها سبع آيات وفي صحيح البخاري: «الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته». صحيح الجامع رقم: ٣١٨٥.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ

إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴿الحجر: ٨٧-٨٨﴾:

قال سفيان بن عيينة: «من أُعطي القرآن فمدَّ عَيْنَيْهِ إلى شيء منها، فقد صغر القرآن، ألم تسمع قوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ»، وقوله: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الدُّنْيَا لِنَفْتِهِمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]: يعني القرآن».

﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨]:

قال ابن جزي: «أي لا تنظر إلى ما متعنهم به في الدنيا، كأنه يقول: قد آتيناك السبع المثاني والقرآن العظيم، فلا تنظر إلى الدنيا، فإن الذي أعطيناك أعظم منها».

علام تحسّر الإمام أحمد؟! قال الإمام أحمد: «عزيزٌ عليّ أن تذيب الدنيا أكباد رجال وعت صدورهم القرآن».

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [الحجر: ٨٨]:

قال القرطبي: «المعنى: قد أغنيئك بالقرآن عما في أيدي الناس».

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «مَنْ أَوَى الْقُرْآنَ فَرَأَى أَنْ أَحَدًا أَوَى أَفْضَلَ مِمَّا أَوَى، فَقَدْ صَغُرَ عَظِيمًا وَعَظُمَ صَغِيرًا».

الخطاب له عليه الصلاة والسلام والمراد أمته؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان أبعد ما يكون عن إطالة النظر إلى زينة الدنيا وزخارفها، وكيف وهو القائل: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالما، أو متعلما». صحيح الجامع رقم: ١٦٠٩.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٨٨]:

كان حزنه عليهم لا منهم، رغم أنهم آذوه وأخرجوه من أرضه وحاولوا قتله!

﴿وَقُلْ إِنِّي - أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر: ٨٩]:

في الحديث: «إني نذير إنما مثلي ومثلكم، كمثل رجل رأى العدو، فانطلق يريد أهله، فخشي أن يسبقوه إلى أهله، فجعل يهتف: يا صباحاه يا صباحاه! أتيتم أتيتم». صحيح الجامع رقم: ٧٩٠١.

﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ [١] ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩٠-٩١]:

أي أنزلنا عليك سبعا من المثاني والقرآن العظيم كما أنزلنا على اليهود والنصارى التوراة والإنجيل، لكنهم اقتسموا القرآن المنزل عليك، فصدقوا بعضه وهو ما وافق كتابيهما، وكفروا ببعضه المخالف لأهوائهم مثل نسخ شريعتهم وإبطال بنوة عيسى لله تعالى، والعصيان: جمع عضو أي أجزاء.

﴿كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ﴾ [الحجر: ٩٠]:

القرآن دائما مستهدف! قال الفراء: «هم ستة عشر رجلا، بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم، فاققسموا أنقاب مكة وفجاجها يقولون لمن دخلها: لا تغتروا بهذا الخارج فينا فإنه مجنون، وربما قالوا ساحر، وربما قالوا شاعر، وربما قالوا كاهن، فقليل لهم مقتسمين؛ لأنهم اقتسموا هذه الطرق».

﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١]:

آمنوا ببعض القرآن وكفروا ببعضه.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٢] ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]:

قال ابن عباس في الجمع بين هذه الآية وبين قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢]:

«لا يسألهم: هل عملتم كذا وكذا؛ لأنه أعلم بذلك منهم، ولكن يسألهم: لم عملتم كذا وكذا؟».

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٣] ﴿عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]:

قال ابن عباس: «لا يسألون سؤال شفاء وراحة، وإنما يسألون سؤال تقييع وتوبيخ».

﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤]:

جاء في تفسير الألوسي أن أعرابياً لما سمع هذه الآية، سجد وقال: سجدت لبلاغة هذا الكلام.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]:

لم يقل سنكفيك، بل جاء بصيغة الماضي للتحقيق والتوكيد، فنبينا مكفيٌّ بالله حقاً.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]:

ذكر ابن القيم في كتاب (الصارم المسلول): أن المسلمين كانوا يحاصرون الحصن أو المدينة الشهر وهو ممتنع عليهم حتى يكادوا ييأسون، حتى إذا تعرض أهله لسبِّ رسول الله ﷺ والوقعة في عرضه، فعُجِّلَ فتحه وتيسَّر، ولم يكد يتأخر.

﴿إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾ [الحجر: ٩٥]:

مزَّق كِسرى رسالة النبي ﷺ فمزَّق الله مُلكه!

﴿الَّذِينَ تَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٩٦]:

أشد تهديد ما أخفى الله فيه نوع الوعيد! فهذا تهديد شديد لمن جعل مع الله معبوداً آخر.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٧]:

من الكلام ما هو أشد وقعاً من الحسام.. انتبه!

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [٩٧] ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ

مِّنَ السَّجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨]:

دواء ضيق الصدر بالوصفة القرآنية في أمرين: التسبيح والسجود.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ

مِّنَ السَّجْدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧-٩٨]:

أن تبوح لله في سجودك وتدخل عليه في أي وقت، فيضمن لك الراحة، خير لك من أن تبوح لمن يتهرب منك أو تحتاج إلى ترتيب موعد سابقاً للقاءه، ولا تضمن أن يريح لقاءه صدرك.

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]:

لا تتوقف الطاعات بانقضاء مواسم الخيرات، بل لا يزال المؤمن مجتهداً حتى الممات.



سورة النحل

﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١]:

أتى بصيغة الماضي، والمراد منه الاستقبال، والمعنى: (سيأتي)، فوعد الله واقع لا محالة، ولا تستطيع قوة أن تنازع الله أمراً أَراده.

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١]:

المؤمن لا يستعجل شيئاً باختياره رضا باختيار الله له.

﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ [النحل: ٢]:

سمَّى الوحي روحاً، فكل من لم يتصل بالوحي من كتاب وسُنَّة بمثابة الميت.

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٣]:

خصَّ الله السموات والأرض بالذكر لأنها أعظم المخلوقات، وهما أوضح ما يكون للناظرين؛ ولأنها تشتملان على أصناف لا تُحصى من الخلق.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل: ٤]:

كنتَ نطفة لو سقطت على الأرض لغُسِلت! فلما مدَّ الله في عمرك، خاصمت ربك واعترضت عليه!

﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل: ٥]:

(دِفء) و(منافع)، ثم جاء التعبير بالمضارع في (تأكلون)؛ لأن الأكل عادة متكررة يومياً، بينما الدِفء موسمي، والمنافع الأخرى قد لا تتكرر، وقد تكون المنافع يومية لكن ليست لكل الناس.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْتَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٦]:

ولكم في هذه الأنعام زينة حين تردونها بالعشي من مسارحها إلى منازلها التي تأوى إليها، وحين إخراجها من منازلها إلى مسارحها، وخصَّص هذين

الوقتین بالذكر، حيث يتجاوب ثغاؤها ورغاؤها حين الذهاب والإياب، فتعظم في أعين الناظرين.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَلِّغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٧]:

خاطبهم بما يفهمونه، حيث كانت الأنعام هي وسيلة النقل، لكنه ختم الآية بقوله: ﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ويظهر هذا جلياً اليوم بما يسر الله للإنسان من طائرات وباخرات تحمل أثقاله اليوم إلى أي مكان شاء.

الفرق بين الرأفة والرحمة:

قدّم الله ذكر الرأفة على الرحمة؛ لأن الرأفة تكون في دفع المكروه، والرحمة في إيصال الخير، فقدّم الرأفة على الرحمة؛ لأن السلامة قبل الغنيمة.

﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨]: آية جمعت بين الماضي والحاضر في وسائل المواصلات.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩]: لما ذكر نعمة سلوك السبيل أو الطريق المادي بالخيول والبغال والحمير، انتقل إلى الأهم وهو ذكر النعمة العظمى، وهي نعمة سلوك سبيل الإيمان.

﴿وَمِنْهَا جَايِرٌ﴾ [النحل: ٩]:

أي ومن السبيل جائر، إشارة إلى الطرق المائلة عن الحق، وما أكثرها اليوم. قومٌ هداهم السبيل، وعرفّهم الدليل، وآخرون أضلّهم وأغواهم، وعن رؤية الحق أعماهم، ولو شاء لعرفّهم وهداهم.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩]:

قال ابن عباس: «أي من أراد الله أن يهديه سهّل له طريق الإيمان، ومن أراد أن يُضلّه ثَقَّلَ عليه الإيمان وفروعه».

٤٠٤٥ قال ابن عاشور: «ولم يُضَف السبيل الجائر إلى الله؛ لأن سبيل الضلال اخترعها أهل الضلالة اختراعاً لا يشهد له العقل الذي فطر الله الناس عليه، وقد نهى الله الناس عن سلوكها».

٤٠٤٦ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠]

﴿مِنْهُ شَرَابٌ﴾: من هنا تبعية؛ لأننا لا نشرب كل الماء بل بعضه.
﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾: من هنا سببية؛ أي من الماء؛ لأن الماء سبب حياة الشجر.

٤٠٤٧ تخيلوا لو انقطع المطر عن الأرض.. هل تبقى في الأرض حياة؟!
٤٠٤٨ ﴿يُنِيتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَبَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾ [النحل: ١١]

نسب سبحانه الإنبات إليه؛ لأنه الفاعل الحقيقي لكل شيء، حتى تتعود التعلق دائماً بمسبب الأسباب لا بالأسباب.

٤٠٤٩ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١١]:
جاء التعبير بـ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ وليس بـ ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ أو ﴿يَعْقِلُونَ﴾؛ لأن الأمر ليس ظاهراً ظهور ما يحتاج إلى تذكر فقط، بل تفكير عميق.
٤٠٥٠ لا يحصل الاعتبار بأمر الزروع والثمار إلا بتفكير في حال البذرة ونموها، وكيف أنها انتقلت من بذرة يابسة إلى زرع يانع وثمار ناضجة.

٤٠٥١ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [النحل: ١٢]:
﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]:

ذكر الله الليل قبل النهار؛ لأن خلق الليل كان قبل خلق النهار.
وقدّم ذكر الشمس على القمر؛ لأنها الأصل في الإضاءة، ونور القمر مقتبس من الشمس.

وقدّم ذكر الشمس والقمر على ذكر النجوم؛ لأن الشمس والقمر ألصق بالأرض من النجوم البعيدة، وآثارهما على الأرض أوضح من أثر النجوم.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ﴾ [النحل: ١٣]:

الفرق بين (الخلق) و (الذرة) أن الذرة خلقت عن طريق التكاثر، ومنه الذرية.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبًّ تَلْبُسُونَهَا وَتَرَى الْفُلُكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٤]:

ذكر الله من منافع البحار في هذه الآية ثلاثة أنواع: اللحم الطري، واللؤلؤ، وحمل السفن للبشر.

قال القرطبي: «امتن الله سبحانه على الرجال والنساء امتناناً عاماً بما يخرج من البحر، فلا يحرم عليهم شيء منه، وإنما حرم الله تعالى على الرجال الذهب والحريـر».

فائدة فقهية:

اختلفوا في حكم لبس اللؤلؤ للرجال، وسبب الخلاف: هل لبسه من باب تشبه الرجال بالنساء أم لا؟ فمن قال: هو من باب التشبه، قال بالحرمة أو الكراهة.

ومن لم يقل بذلك، قال بالإباحة، والقول بالإباحة موافق لظاهر الآية.

﴿وَالْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٥]:

سمّى القرآن الجبال بالرواسي تشبيها لها بالسفينة التي ترسو ويغوص جزء كبير منها في الماء، وهذا شبيه بالجبال، فهي ترسو وتغوص في قشرة الأرض.

لماذا ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ وليس (على الأرض)؟!

- أولاً: لأن ﴿فِي﴾ تدل على التمكن والثبات.
- ثانياً: لأن الجزء الظاهر من الجبل للنظر مقابله جزء عظيم مغروس في باطن الأرض، وقد يصل إلى عشرة أضعاف الجزء الظاهر.

﴿وَعَلَّمْتَ وَيَا لَنَجْمٍ هُمْ يَتَذَوْنُ﴾ [النحل: ١٦]:

قال السيوطي في (الإكليل): «هذه الآية أصل لمراعاة النجوم لمعرفة الأوقات والقبلة والطرق».

﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]:

عبر عن الأصنام غير العاقلة بصيغة التعبير عن العاقل (من لا يخلق)، وليس: (ما لا يخلق)؛ لأن المشركين أجروها مجرى العقلاء بعبادتها.

﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]:

التقصير في شكر النعمة بحاجة إلى غفران ورحمة مؤكدين، ولولا هذه المغفرة وهذه الرحمة لهلك الناس.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١٨]:

قدّم ذكر (الغفور) على (الرحيم)؛ لأن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة قبل الغنيمة.

لولا رحمة الله ومغفرته لعاقب كل من قصّر في القيام بشكر النعمة، ولو فعل لهلكنا جميعاً.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُلْهِونَ﴾ [النحل: ١٩]:

قد يظن ظان أن الله يعلم السر والعلانية، لكن علم العلانية أسهل عليه، فقدّم الله علم السر تنبيها على أن الأمرين مستويان.

يعلم سركم، وسيجازيكم عليه، فاستحوا من مخالفة أمره بعيداً عن أعين الناس تماماً كما تستحون من ذلك بين الناس.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [النحل: ٢٠]:

﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً﴾: هل سمعتم عن أحد من الخلق خلق أي شيء؟! ولو كان ذرة واحدة؟! اتّوني به!

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل: ٢١]:

هي الأصنام لا ترى ولا تسمع، ولا تنفع ولا تضر. قال ابن عباس: «تُبْعَثُ الأصنام، وتُرَكَّبُ فيها الأرواح، ومعها شياطينها، فيتبرءون من عبدتها، ثم يؤمر بالشياطين والمشركين إلى النار».

﴿٤٠٦٧﴾ جهل العوام! قال محمد رشيد رضا:

«قد سمعت امرأة مصرية تدعو وتستغيث في أمر أهمّها: يا متبولي.. يا متبولي، فقلت لها بعد أن هدأ روعها: لماذا تدعين المتبولي ولا تدعين الله تعالى؟! قالت: المتبولي ما (بيستناش)، أي لا يتأخر في إجابة من دعاه واستغاث به!».

﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢]:

قال ابن عاشور:

«وعبر بالجملة الاسمية: ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾ للدلالة على أن الإنكار ثابت لهم، دائم لا استمرارهم على الإنكار بعد ما تبين من الأدلة. وذلك يفيد أن الإنكار صار لهم سجية، وتمكّن من نفوسهم».

﴿٤٠٦٨﴾ في كون (منكرة) اسم فاعل، رد على من يدعي أن كفر الكافر إجبار من الله، والحق أن علم الله علم إخبار لا علم إجبار.

﴿٤٠٦٩﴾ تدل كلمة (مستكبرون) على أن الكفار ليسوا في حقيقة الأمر كبارًا، بل هم مستكبرون، أي يتكفّفون العظمة ويدّعون الكبرياء، ولن يبلغوها.

﴿٤٠٧٠﴾ جمعت الآية بين وصف الباطن والظاهر في أوجز بيان، فالباطن: ﴿قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ﴾، والظاهر: ﴿وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾؛ لأن الاستكبار لا بد أن يبدو عياناً للأنظار.

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]:

مرّ الحسن بن علي على مساكين يأكلون، فدعوه فأجابهم وأكل معهم، وتلا: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَآذَ أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ [النحل: ٢٤]

﴿رَبُّكُمْ﴾ وليس: (ربنا)، وهذا من باب الوعظ، وتذكير المخاطب بأن له ربًّا يرزقه ويرعاه، فكيف يعانده ويعصاه؟!

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]

قال حبيب الفارسي: «إن من سعادة المرء إذا مات ماتت معه ذنوبه».

﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]

قال بعض الصالحين: «إنفاق درهم مزيّف أشد من سرقة مائة درهم؛ لأن السرقة معصية واحدة وقد تمت وانقطعت، وإنفاق المزيف قد يكون عليه وزرها بعد موته إلى مائة سنة أو مائتي سنة إلى أن يفنى ذلك الدرهم، ويكون عليه ما فسد من نقص أموال الناس».

﴿فَأَنَّى اللَّهُ بُنِيَئُهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ﴾ [النحل: ٢٦]

عاقبة المكر وخيمة وأكيدة، فيجثته الله من قواعده وجذوره.

﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ﴾ [النحل: ٢٦]

دَلَّ صوت الخريز على سرعة السقوط، مما دَلَّ على شدة العذاب الذي ينتج عنه تدمير القواعد، فتكون سرعة سقوط السقف، وصدور صوت الخريز.

﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ﴾ [النحل: ٢٦]

دلالة على أن الله دمرهم مع بيوتهم؛ فالمكر يدمر صاحبه وما مَلَك.

السبب الذي اتخذ الماكرون ليحفظهم من الأخطار كان هو نفس أداة العذاب والإهلاك.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُخْزِيهِمْ﴾ [النحل: ٢٧]

حسرة المفلس تتضاعف عند الحساب، فكيف إذا اجتمع مع ذل الحساب: الفضيحة على رؤوس الأشهاد؟!

﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْتَقُونَ فِيهِمْ﴾ [النحل: ٢٧]:

التعبير بالشَّق فيه إشارة إلى الصعوبة؛ حيث بذل الكفار جهدًا كبيرًا لمفارقة المسلمين، وبذلوا الكثير من الجهود والأموال لدعم هذه المفارقة ومحاربة المؤمنين.

﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل: ٢٧]:

الخزي عذاب الباطن، والسوء عذاب الظاهر.

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ﴾ [النحل: ٢٨]:
استسلامٌ لله، لكن بعد فوات الأوان ومعاينة الأهوال.

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ [النحل: ٢٨]:

كذب صراح! جاء التعبير ﴿مِنْ سُوءٍ﴾، وليس (سوءاً)؛ لأنهم أرادوا أن ينفوا عن أنفسهم أدنى شيء من السوء.

﴿بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٢٨]:

يعلم ما تعملون، وسيحاسبكم عليه، فعَلِمَ العبد أن علم الله محيط به خوف إيجابي، ويدفعه لاستدراك تقصيره.

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَيْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩]:

أبواب جهنم سبعة! استحضر ببصيرة قلبك صورة هذه الأبواب العملاقة حين تُفْتَحْ غدا لاستقبال وجبتها من أهل الشقاء.

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [النحل: ٣٠]:

خير من ماذا؟! خير من كل حسنات الدنيا ولذاتها، فالقادم أجمل!

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا﴾ [النحل: ٣٠]:

﴿خَيْرًا﴾: نكرة مما يدل هنا على الإطلاق، أي أن خيرية القرآن مطلقة، فهو خير للفرد، وخير للمجتمع، وخير للعلاقات الأسرية، والعلاقات الاجتماعية، وخير للاقتصاد، وخير لكل شيء.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل: ٣٠]:

ليس هذا تكملة جواب المؤمنين، بل هو بيان من الله لعاقبة المؤمنين.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل: ٣٠]:

الجزء من جنس العمل، لكن شتان بين إحسان العباد وإحسان رب العباد.

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ [النحل: ٣٠]:

ولم يقل للمحسنين، إشارة إلى أن كل من أحسن ولو بأقل إحسان سينال حسن ثواب إحسانه، ولو كان إحسانه طفرة من الطفرات لا عادة من العادات.

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعَمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ [النحل: ٣٠]:

حرية أهل الجنة وحبس أهل النار! عبّر عن الجنة بلفظ (الدار)، بينما عبّر عن النار بلفظ (مثنوى)؛ لأن صاحب الدار يتصرف فيها بإرادته، وهذا متحقق لأهل الجنة لا أهل النار؛ لأن النار سجن يُعذَّب فيه أصحابه، ولا يتصرفون بإرادتهم.

﴿هَلُمَّ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ [النحل: ٣١]:

مما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين.

عن أبي ظبية السلفي قال: «إن السُّرْب من أهل الجنة لتظلهم السحابة، فتقول: ما أُمَطُّكُمْ؟! قال: فما يدعو داع من القوم بشيء إلا أمطرتهم به، حتى إن القائل منهم ليقول: أمطرينا كواعب أتراباً».

﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيْهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل: ٣٢]:

قال ابن القيم: «فالجنة لا يدخلها خبيث، ولا من فيه شيء من الخبث، فمن تطهر في الدنيا ولقي الله طاهراً من نجاساته دخلها بغير معوق، ومن لم يتطهر في الدنيا فإن كانت نجاسته عينية، كالكافر، لم يدخلها بحال، وإن كانت نجاسته كسبية عارضة دخلها بعد ما يتطهر في النار من تلك النجاسة، ثم يخرج منها».

﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾ [النحل: ٣٣]:

جاء ترتيب الوعيد بالموت الذي تأتي به الملائكة، وبعده العذاب الذي يأتي به أمر الله، وهذا ترتيب تصاعدي من الأدنى إلى الأعلى، وهذا من بلاغة القرآن؛ لأن فيه زيادة الوعيد.

﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ٣٣]:

قدّم ذكر (أنفسهم) لإظهار استبشاع أن يظلم العبد نفسه.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ [النحل: ٣٤]:

العمل أعم من الكسب؛ ولذا قال: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ و﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾، وخُصّت به هذه السورة، لموافقة ما قبله، وهو قوله: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]:

الاحتجاج بالأقذار وغيرها من الأعذار الواهية لتبرير الانحراف هي سنة قديمة متكررة: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

﴿فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦]:

اتخذها البعض حجة لعدم اهتدائه، وأن الهداية بيد الله لا بيده، والحقيقة أن الهداية هدايتان: هداية دلالة وإرشاد وهذه للجميع من مؤمن وكافر، وهداية اختيار وهذه باختيار العبد (أنت مخير لا مسير).

﴿إِنْ تَحَرَّصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ

نَصِيرِينَ﴾ [النحل: ٣٧]:

ثناء على النبي ﷺ في حرصه على خير قومه رغم ما لقيه منهم من أذى، وهكذا يجب أن تكون نفوس الدعاة الصادقين المقتفين لآثار سيد المرسلين.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ^{٤٠} لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ^{٤١} بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٣٨]:

سبب النزول: قال أبو العالية: «كان لرجل من المسلمين على مشرك دينٌ فتقاضاه، وكان في بعض كلامه: والذي أرجوه بعد الموت إنه لكذا، فأقسم المشرك بالله: لا يبعث الله من يموت، فنزلت الآية».

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ [النحل: ٣٩]:

قال ابن القيم:

«فذكر تعالى حكمتين بالغتين في بعثة الأموات بعدما أماتهم: إحداهما: أن يبين للناس الذي اختلفوا فيه، وهذا بيان عياني تشترك فيه الخلائق كلهم. الحكمة الثانية: علم المبطل بأنه كان كاذبا وعلى باطل، فيخزيه ذلك أعظم خزي».

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ^{٤٢} كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]:

هو تقريب للأذهان؛ والحقيقة أن الله تعالى لو أراد شيئا لكان؛ بغير حاجة إلى لفظ «كن».

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبْوِّنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً^{٤٣} وَلَا أَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١]:

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا دفع إلى المهاجرين العطاء قال: هذا ما وعدكم الله في الدنيا، وما ادّخر لكم في الآخرة أكثر، ثم تلا عليهم هذه الآية.

﴿مَا أَجْمَلْ مَدَحَ اللَّهِ فِي صَفَحَاتِ الْقُرْآنِ الْخَالِدِ لِكُلِّ مَنْ أَوْذَى، وَأُرِيدَ فَتَنَتَهُ عَنْ دِينِهِ، فَهَاجَرَ، وَفَوْقَ هَذَا: يَعِدُهُ بِحَسَنَةِ الدُّنْيَا، وَالْغَلْبَةِ عَلَى مَنْ ظَلَمَهُ.﴾

﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤١]:

الضمير إلى من يعود؟

قال الرخشري: «فيه قولان:

الأول: أنه عائد إلى الكفار، أي لو علموا ما أعدَّ الله لهؤلاء المستضعفين في أيديهم الدنيا والآخرة لرغبوا في دينهم.
والثاني: أنه راجع إلى المهاجرين، أي لو كانوا يعلمون ذلك لزدادوا في اجتهادهم وصبرهم».

﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣]:

لم يقل: من عنده ذكر، بل لا بد أن يكون من أهل التخصص والاحتراف.

﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٤٢]:

صبر الصابرين لا يكون إلا لثقتهم وتوكلهم على الوكيل.

لماذا جاء الفعل ﴿صَبَرُوا﴾ ماضياً، بينما الفعل ﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾ مضارعاً؟

﴿صَبَرُوا﴾: فعل ماضٍ من باب البشارة للمؤمنين، كأن الشدة قد انتهت وزالت.

﴿يَتَوَكَّلُونَ﴾: فعل مضارع؛ لأن التوكل في حياة المؤمن أمر متجدد كل يوم، بل كل ساعة، فلا يعمل المؤمن عملاً إلا متوكلاً على الله سبحانه.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا﴾ [النحل: ٤٣]:

لاحظ الالتفات من الغيبة إلى المتكلم: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٤٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾، وذلك إشارة لعلو شأن إرسال الرسل.

﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]:

قال الإمام السيوطي: «استُدِّلَّ به على جواز التقليد في الفروع للعامي».

﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]:

قال العلامة السعدي: «وفي هذا دليل لقاعدة أدبية، وهي أنه إذا حصل بحث في أمر من الأمور ينبغي أن يُؤلَّى مَنْ هو أَهْلٌ لذلك، ويُجْعَلُ إلى أهله، ولا يُتقدم بين أيديهم، فإنه أقرب إلى الصواب، وأحرى للسلامة من الخطأ».

عن ابن عباس قال: «أندرون ما ذهاب العلم؟» قلنا: لا، قال: «ذهاب العلماء».

﴿فَسَقُلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]:

قال ابن عباس: «لا يزال عالمٌ يموت، وأثر للحق يدُرس، حتى يكثر أهل الجهل، وقد ذهب أهل العلم، فيعملون بالجهل، ويدينون بغير الحق، ويضلون عن سواء السبيل».

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]:

من إجمال مهمة الرسول ﷺ: بيان ما في القرآن؛ لذا يجب على المفسر إذا وجد التفسير النبوي بطريق صحيح ثابت، ألا يذهب إلى غيره.
لذا كان الحافظ ابن حجر يبذل غاية وسعه ليجد حديثاً صحيحاً في تفسير السورة أو الآية التي تطرق إليها بالكلام والتفسير، وإن لم يجد شيئاً من ذلك صرح به، كما قال في سورة (إيلاف قريش): أما هذه السورة فلم أر فيها حديثاً مرفوعاً صحيحاً.

﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]:

رسالة الإسلام عالمية، وخير المسلم يجب أن يكون للكون بأسره.

﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ

مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٤٥]:

يا راقداً الليل مسروراً بأوله
إنَّ الحوادث قد يطرقن أسحارا

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [النحل: ٤٦]:

الموت يأتي فجأة، وقد يكون بسبب أو بغير سبب، وقد يأتي في أوج صحة المرء أو انهيارها، وفي ذروة حركته أو سكونه.

﴿أَوْ يَأْخُذْهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٧]:

﴿تَخَوُّفٍ﴾ له معنيان:

الأول: من الخوف، أي: يصيب الكفار الرعب قبل إيقاع العذاب بهم.

الثاني: وهو التنقص، أي: أن يأخذهم العذاب بشكل تدريجي، بأن يصيبهم المرض المهلك، فيموتوا بشكل تدريجي، والهلاك التدريجي فيه العذاب وزيادة؛ لأنه فيه مزيدة رعب وخوف.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالْشَّمَائِلِ
سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨]:

ما فائدة ذكر سجود الظلال لله في هذا السياق؟!
الفائدة هي التعريض بالكفار الذين لا يسجدون لله، والإخبار بأن هذه
الظلال خير من الكفار، فهي تعبد الله، وهم لا يعبدون.

﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ [النحل: ٤٨]:

ظلال كل شيء مما في السموات وما في الأرض، كل شيء تدب فيه الحياة
يسجد لله رب العالمين.

﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنَ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٤٩]:

السجود على نوعين:
سجود طاعة وعبادة كسجود المسلم لله عز وجل.
وسجود انقياد وخضوع كسجود الظلال.
والآية تحتل النوعين، فسجود المسلمين والملائكة سجود طاعة وعبادة،
وسجود غيرهم سجود خضوع وانقياد.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]:

لماذا تخاف الملائكة وهم المعصومون، الذين لا يعصون الله ما أمرهم؟
والجواب: الخوف أنواع، فخوف منشؤه فعل الخطأ، وخوف منشؤه الإجلال
والتعظيم، وخوف الملائكة من النوع الثاني.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُونَ﴾ [النحل: ٥١]:

قد يسأل سائل: إن الإلهين لا بد وأن يكونا اثنين، فما فائدة قوله: إلهين اثنين؟
والجواب: إن الشيء إذا كان مستنكرًا مستقبحًا، فمن أراد المبالغة في تنفير
الناس عنه، عبّر عنه بعبارات كثيرة، ليصبح توالي تلك العبارات سببًا لوقوف
العقل على ما فيه من القبح، فما أقبح الشرك بالله!

﴿وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ [النحل: ٥٢]:

قال الإمام الرازي:

«الدين ها هنا الطاعة، والواصب: الدائم، يقال: واطب على الشيء، وواصب عليه إذا داوم، ومفازة واصبة أي بعيدة لا غاية لها، ويقال للعليل: واسب، ليكون ذلك المرض لازماً له».

قال ابن قتيبة: «ليس من أحد يُدان له ويطاع، إلا انقطع ذلك بسبب في حال الحياة أو بالموت إلا الحق سبحانه، فإن طاعته واجبة أبداً».

﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]:

النعم بنوعيتها من الله وحده؛ نِعَم الطَّاعَاتِ، وَنِعَم اللِّذَاتِ، فالجأ إليه كي يعينك على شكرها.

قال ابن القيم: «وإذا كانت القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، وكل إحسان وصل إلى العبد فمن الله عز وجل، فلا ألام ممن شغل قلبه بحب غيره دونه».

لا خروج للعبد عن نعمة الله وفضله وإحسانه طرفة عين، لا في الدنيا ولا في الآخرة، ومع هذا فبعضهم يجادل ويقول: إنما أوتيته على علم!

﴿ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٤]:

كم نطلب الله في ضَرٍّ يحل بنا
فإن تولت بليانا نسيناه
ندعوه في البحر أن ينجي سفيتنا
فإن رجعنا إلى الشاطي عصيناه
ونركب الجو في أمن وفي دعة
فما سقطنا لأن الحافظ الله

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَهُمْ فَتَمْتَعُوا﴾ [النحل: ٥٥]:

ينسبون نعمنا لغيرنا.

قال مجاهد: «هو قول الرجل: هذا مالي ورثته عن آبائي».

وقال عون بن عبد الله: «يقولون: لولا فلان لم يكن كذا».

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ [النحل: ٥٦]:

قال قتادة: «هم مشركو العرب، جعلوا لأوثانهم نصيبا مما رزقناهم، وجزاء من أموالهم يجعلونه لأوثانهم».

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ﴾ [النحل: ٥٧]:

﴿سُبْحَنَهُ﴾: جاءت مباشرة لتنزيه الله عن هذا الادعاء الكفري: أن جعلوا له البنات، فتعلم منها تنزيه الله عن كل ما لا يليق به من جميع النقائص

﴿وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧]:

كانوا يكرهون البنات، فجعلوا لله ما يكرهون، ويحبون الذكور، فلهم ما يريدون.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ [النحل: ٥٨]:

هذا صنيع مشركي العرب أخبركم الله تعالى بخبثه، فأما المؤمن فحقيق أن يرضى بما قسم الله تعالى له، وقضاء الله تعالى خير من قضاء المرء لنفسه، ولا ندري.. لرب جارية خير لأهلها من غلام، وإنما أخبركم الله عز وجل بصنيعهم لتجنبوه ولتنتهوا عنه.

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ﴾ [النحل: ٥٩]:

أحيانا تفرض سطوة نظرة المجتمع الخاطئة نفسها، فتجعل المرء يتوارى ويختبئ مما لا عيب فيه.

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ

فِي التُّرَابِ أَلَّا سَاءَ مَا تَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٩]:

التسخط بالإناث من أخلاق الجاهلية التي ذمها رب البرية.

﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّ ۚ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠]:

وصف الكافرين بأن لهم ﴿مَثَلُ السَّوِّ﴾ ؛ لأنهم يسيئون إلى الله خالقهم

ورازقهم، وهذه الإساءة ليست على سبيل الخطأ، بل إساءة عناد واعتقاد، فنسبوا إليه ما يكرهون من البنات، إمعاناً منهم في الكفر والجرأة على الله.

لماذا (مثل) وليس (صفة)؟

لأن سوء الكفار من فظاعته وبشاعته أصبح رمزاً للسوء، فأصبح سوءهم جارياً مجرى الأمثال في اشتهاره وشدة وضوحه.

لماذا يتقدم ذكر (العزیز) على (الحكيم)؟

لأن من عزَّ حكم، أي من كان له القدرة والقهر، كان له الحكم والأمر، فالحكم ناشئ عن امتلاك أسباب القدرة.

﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١]:
جرت سنة الله أن للظلم عقوبة، لكنها تتأخر إمهالاً لا إهمالاً.

قال القرطبي:

«فإن قيل: فكيف يعم بالهلاك مع أن فيهم مؤمناً ليس بظالم؟
فالجواب: يجعل هلاك الظالم انتقاماً وجزاء، وهلاك المؤمن معوّضاً بثواب الآخرة، وفي صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إذا أراد الله تعالى بقوم عذاباً أصاب العذاب من كان فيهم، ثم بُعثوا على نياتهم وأعمالهم)».

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ [النحل: ٦٢]:

الكفار يفترون على الله الكذب بأن لهم العاقبة الحسنى في الآخرة. وقدم الجار والمجرور (لهم) في قوله تعالى ﴿أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾؛ لأنهم يزعمون أن الحسنى مختصة بهم دون غيرهم.

قال صاحب الكشاف:

«فإن قلت: ما معنى وصف ألسنتهم الكذب؟ قلت: هو من فصيح الكلام وبليغه. جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه، فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته، وصورته بصورته، كقولهم: وجهها يصف الجمال، وعينها تصف السحر».

﴿لَا جَرَمَ﴾ [النحل: ٦٢]:

الجرم هو الذنب، والذنب هو الباطل، ونفي الجرْم نفي للباطل، ونفي الباطل هو إثبات الحق؛ فمعنى لا جرم: أي حقاً.

﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ [النحل: ٦٢]:

وهم ليسوا فقط من أهل النار، بل هم ﴿مُفْرَطُونَ﴾ إليها، أي: مُقَدَّمُونَ إليها، يقال: فرط: إذا تقدم تقدماً، والفرارط إلى الماء: المتقدم إليه، ومنه قول النبي ﷺ: «أنا فرطكم على الحوض»، أي: متقدمكم.

دليل على تفاوت أهل النار - ليس فقط في الدرجات - وإنما كذلك في ترتيب الدخول للعذاب، فمنهم المتقدم، ومنهم المتأخر.

﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَرِيقٌ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَهُوَ وِلِيُّهُمْ أَلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣]:

ليس المراد من القسم الإخبار بأن الله أرسل رسلاً قبل النبي ﷺ، بل المراد تأكيد تكذيب الأمم السابقة: ﴿فَرِيقٌ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ﴾، فلا تحزن يا محمد، ولا تكن في ضيق مما يكيد الكائدون ويفتري المكذبون.

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمْ أَلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣]:

الله وليكم، والشیطان وليهم، فلمن الغلبة؟

ما دام الشيطان تولاهم في الدنيا، وأغراهم بالكفر وعداء المرسلين، فليتوهم اليوم وليدافع عنهم يوم القيامة، فقيل لهم: هذا وليكم اليوم على سبيل السخرية.

﴿إِلَّا لِّتَبَيَّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤]:

﴿لِّتَبَيَّنَ لَهُمُ﴾ دليل على حُجَّةِ السنة.

قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]

﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل: ٦٤]:

القرآن هو الفرقان الفاصل بين الحق والباطل، وصاحب القول الفصل في كل ما تنازع فيه الناس.

﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [النحل: ٦٥]:

تعريض بالغافلين أنهم لا يسمعون، والسماع هنا سماع القلب لا الأذن، وهذا سبب عدم اعتبارهم بالآيات الباهرة، مثل آية إنزال الماء وإحياء الأرض بعد موتها.

﴿لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]:

ومن العجائب قول القرطبي وغيره: «لم يغصَّ أحدٌ باللبن قط».

﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ [النحل: ٦٧]:

الامتنان بالسَّكَّر - وهو الخمر - امتنان بشيء كان مباحًا وقت نزول هذه الآيات؛ لأنها آيات مكية وتحريم الخمر كان في المدينة.

﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ [النحل: ٦٧]:

وصف الله الرزق بالحسن، ولكنه لم يصف السَّكَّر بالحسن رغم إباحته في ذلك الوقت؛ لأنه خبيث، وإنما أباحه الله وقتها من باب التيسير على الداخلين في الإسلام، وليتدرج بهم في تغيير واقعهم الجاهلي.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا

يَعْرَشُونَ﴾ [النحل: ٦٨]:

قال صاحب الكشاف:

«والإيحاء إلى النحل: إلهامها والقذف في قلوبها على وجه هو أعلم به، لا سبيل لأحد إلى الوقوف عليه، وإلا فتأنقها في صنعتها ولطفها في تدبير أمرها، وإصابته فيها يصلحها دلائل شاهدة على أن الله تعالى أودعها علما بذلك وفطنها، كما أودع أولي العقول عقولهم».

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً

لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٩]:

قال الإمام ابن كثير:

«والدليل على أن المراد بقوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ هو العسل، الحديث الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: إن أخي استطلق بطنه فقال: «اسقه عسلاً»، فذهب فسقاه عسلاً ثم جاء فقال: يا رسول الله، سقيته عسلاً فما زاده إلا استطلاقاً. قال:

«اذهب فاسقه عسلاً».

فذهب فسقاه عسلاً، ثم جاء فقال: يا رسول الله.. سقيته عسلاً، فما زاده إلا استطلاقاً. فقال رسول الله ﷺ: «صدق الله وكذب بطن أخيك. اذهب فاسقه عسلاً، فذهب فسقاه عسلاً فبرئ». صحيح البخاري رقم: ٢٢٥١.

في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن كان في شيء من أدويتكم - أو يكون في شيء من أدويتكم - خير: ففي شرطة محجم، أو شربة عسل، أو لدعة بنار، توافق الداء، وما أحب أن أكتوي». صحيح البخاري رقم: ٥٦٨٣.

﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ﴾ [النحل: ٧٠]:

قال عكرمة: «من قرأ القرآن لم يرد إلى أردل العمر».

كان من دعائه ﷺ كما أخرجه البخاري. وابن مردويه عن أنس: «أعوذ بك من البخل والكسل، وأردل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات».

﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ [النحل: ٧١]:

هذا التفضيل ليس تفضيلاً مطلقاً، بل هو تفضيل ظاهري، لا أثر له في قدر المرء عند الله، فالتفضيل في الرزق، وليس بناء على الرزق؛ لأن الرزق اختبار، قد ينجح فيه العبد أو لا ينجح.

﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَآدَىٰ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ

سَوَاءٌ﴾ [النحل: ٧١]:

قال صاحب الكشاف:

«جعلكم متفاوتين في الرزق، فرزقكم أفضل مما رزق ممالئكم وهم بشر مثلكم وإخوانكم، فكان ينبغي أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم، حتى تتساووا في الملبس والمطعم، كما يُحكى عن أبي ذر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إنما هم إخوانكم، فاكسوهم مما تلبسون، وأطعموهم مما تطعمون»، فما رُوي عبده بعد ذلك إلا ورداؤه رداؤه، وإزاره إزاره من غير تفاوت».

﴿أَفَبِعِزَّةِ اللَّهِ تَجْحَدُونَ﴾ [النحل: ٧١]:

عن ابن عباس في هذه الآية يقول: «لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم، فكيف يشركون معي عبيدي في سلطاني».

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النحل: ٧٢]:

الزواج فطرة، ولا تستقر النفوس إلا على شاطئ الزواج.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾ [النحل: ٧٢]:

المراد بالحفدة: أبناء الأبناء. رُوي عن ابن عباس أنه قال: الحفيد: ولد الابن والبنات، ذكراً كان أو أنثى، وقيل: المراد بهم: الخدم والأعوان، وقيل: المراد بهم: الأختان والأصهار أي: أزواج البنات وأقارب الزوجة.

﴿وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل: ٧٢]:

أتبع ذكر نعمة الأزواج والأبناء والأحفاد بنعمة الرزق الطيب؛ لأنه لا يستقيم أمر العائلة بغير مال، فالعائلة والرزق مكملان لبعضهما.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [النحل: ٧٣]:

﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أي: إنهم لا يملكون رزقاً لأحد في هذا الزمن الحاضر، ولن يستطيعوا مستقبلاً؛ وإنما الخالق والرازق هو الله وحده.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]:

لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، إما بما جاء في القرآن أو بما جاء على لسان نبينا ﷺ.

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ [النحل: ٧٥]:

قال ابن جزي:

«مثل لله تعالى وللأصنام، فالأصنام كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، والله تعالى له الملك، ويده الرزق ويتصرف فيه كيف يشاء، فكيف يسوي بينه وبين الأصنام».

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦]:

يضرب الله مثلاً آخر على أنه لا يُعْقَل أن يُسَوَّى بين الله سبحانه وبين الأصنام، كما لا يُعْقَل أن يُسَوَّى بين الأبكم العاجز عن البيان، وزيادة على هذا العجز عن النطق فهو غبي لا يقدر على فعل أي شيء مفيد، فلا يُعْقَل أن يسوى بينه وبين الناطق الحكيم الذي يأمر بالعدل والخير.

بينت الآية أسوأ حالة للأبكم، وبينت في المقابل أحسن حالة للناطق، وأحسن حالة للناطق هي أن يأمر بالعدل، وهو الحق؛ ولذا فإن أعلى أعمال اللسان على الإطلاق هو النطق بالحق، ويندرج تحت النطق بالحق: الدعوة إلى الله والذكر والخير والعدل والنصح، وغير ذلك من صور الحق.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النحل: ٧٧]:

الله يعلم كل شيء! ما غاب عن حواسنا في السموات والأرض، وبالأولى ما أدركته حواسنا وما نشاهده.

هذا تهديد للعصاة بأن ما تقتربونه من ذنوب، وتُسرِّونه من سيئات يعلمه الله، ولن يفلت أحد منكم بلا حساب.

﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]:

الله يملك إنزال العقوبة بأسرع ما يتصوره بشر في خياله، فكيف يغتر أحدٌ بحلمه وإمهاله؟!

﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨]:

قال السيوطي: «استدل به على أن الأصل في الناس الجهل، فلا يجوز استفتاء رجل غير مشهور بالعلم حتى يُبحث عن علمه، ومن ادّعى جهل شيء كان القول قوله لموافقته للأصل».

﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]:

امتنان من الله على عباده بنعمتين عظيمتين: الحواس والعلم.

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ ۚ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]:

قيل: قدّم السمع على البصر؛ لأنه طريق تلقي الوحي، أو لأن إدراكه أقدم من إدراك البصر.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۚ إِنَّ فِي

ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٧٩]:

لولا تسخير الله وما أودع الله في السماء من خصائص، ما طار طائر ولا ارتفعت طائرة.

﴿اعْتَدْنَا رُؤْيَا الْآيَاتِ، فَحَرَمْنَا الْاعْتِبَارَ مِنْهَا وَالْعِظَاتِ، فَتَسَلَّلَتْ إِلَى الْقَلْبِ

الظلمات والشبهات!

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [النحل: ٨٠]:

قال القرطبي:

«قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمْ﴾ معناه صيّر، وكل ما علاك فأظلك فهو سقف وسماء، وكل ما أقلك فهو أرض، وكل ما سترك من جهاتك الأربع فهو

جدار، فإذا انتظمت واتصلت فهو بيت، وهذه الآية فيها تعديد نعم الله تعالى على الناس في البيوت، وقوله: ﴿سَكَنَّا﴾ أي: تسكنون فيها وتهدأ جوارحكم من الحركة».

إذا أردت أن تعرف قدر نعمة السّكن، فاعلم أن عدد المشرّدين الذين لا مسكن لهم حول العالم حوالي ١٠٠ مليون نسمة بتقديرات عام ٢٠٠٥.

﴿أَنشَأْ وَمَتَعْنَا إِلَىٰ حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠]:
الدنيا بأسرها وكل نعيمها مؤقتة، لها أجل وينقضي، فلا تغفل عن رحيلك، ولا تغتر بطول أملك عن دنو أجلك.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ [النحل: ٨١]:
ظِلُّ الأشجار والأبنية من النعم المنسية، ولا يشعر بها إلا العامل المحترق تحت لظى الشمس!

﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]:
خلق الله النعم لتستدل بها عليه لا لتتشغل بها عنه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾، أي: تنقادون لأمره.

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]:
قال قتادة: «هذه السورة تسمى سورة النّعم».

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُم سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١]:
لم ذكر الظلال أولاً ثم الأكنان والألبسة؟
لأن نفع الظلال عام لكل الناس.

﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ [النحل: ٨١]:
قال رسول الله ﷺ: «اتقوا اللّعائين»، قالوا: وما اللعانان يا رسول الله؟
قال: «الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم». رواه مسلم رقم: ٣٩٧.

أي يتغوط في المواضع التي يمر بها الناس أو يستريحون.
قال أبو سليمان الخطابي: «المراد باللعانين، الأمرين الجالبين لِلْعَن، الحاملين
الناس عليه، والداعيين إليه.
وذلك أن من فعلهما شَتَمَ وَلَعِنَ، يعني عادة الناس لعنه، فلما صارا سبباً لذلك
أضيف اللعن إليهما».

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَنًا﴾ [النحل: ٨١]:

بعد الظلال ذكر الأكنان؛ لأن عدد الذين يحتمون بالأكنان أقل من الذين
يحتمون بالظلال.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ﴾ [النحل: ٨١]:

ثم ذكر الاحتماء بالملابس بعد ذلك؛ لأنها ملحقة إلحاقاً بالبيوت والظلال
والأكنان، لوجود معنى المسكن فيها؛ فكأن الإنسان يأوى إلى ملابسه ليحتمي
من البرد والحر وشدة الحرب.

﴿كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١]:

رغبنا ربنا في الإسلام بكل طريق، ومن ذلك إسباغ نعمه علينا وتتابع أفضاله.

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢]:

رسالة إلى كل داعية بالألأ يصاب باليأس من قلة المستجيبين أو قلة السامعين؛
لأن وظيفته دعوة الناس لا إجابتهم، وتوفية الله لأجور الدعاة بحسب
جهدهم لا بحسب الاستجابة لهم.

﴿الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٨٢]:

البلاغ المبين هو الذي تقام به الحجة، وهذا يفرض على كل داعية أن يتفنن في
وسائل الوصول إلى عقول الناس وقلوبهم.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣]:

ليست المعرفة وحدها سبباً كافياً للهداية، فكم من أناس يعرفون الحق ولا
يتبعونه.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ

يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤]:

قال ابن عباس: «شاهد كل أمة نبيها، يشهد لهم بالإيمان والتصديق، وعليهم بالكفر والتكذيب».

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤]:

لا يؤذن يوم القيامة لأهل النار في الاعتذار، ولا يؤذن لهم بالرجوع إلى الدنيا لتدارك ما ضاع من الأعمال.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا تُخَفِّفْ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [النحل: ٨٥]:

خوفهم لن يخفف عذابهم، ورعبهم لن يقلل آلامهم، ومن هول عذاب النار أنه لا يخفف أبدًا مهما طال.

﴿فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [النحل: ٨٦]:

أي ألقوا إليهم الآلهة القول، فنطقت الأصنام بتكذيب من عبدها بأنها لم تكن آلهة، ولا أمرتهم بعبادتها، وفي إنطاق الله للأصنام ظهور فضيحة الكفار.

﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٨٧]:

هذا إعلان الاستسلام يوم القيامة مقترنًا بانكشاف كذب المفتريين، والتعبير بصيغة الماضي للتحقيق وأنه أمر أكيد.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا

كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل: ٨٨]:

ليس عذاب الكفار درجة واحدة! قال ابن كثير: «وهذا دليل على تفاوت الكفار في عذابهم، كما يتفاوت المؤمنون في منازلهم في الجنة ودرجاتهم».

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا

عَلَى هَؤُلَاءِ﴾ [النحل: ٨٩]:

قال محمد إقبال:

«جاء سائل، فطرق بابنا بعنف، فضربته بعصا على رأسه، فتناثر ما جمعه، فتألم والدي وسال الدمع من عينيه وقال:

يا بني.. غداً تجتمع أمة خير البشر أمام مولاها، ويُحْشَرُ أهل الملة البيضاء، حكماءها والشهداء والعلماء والعصاة، ويأتي هذا السائل المسكين صائحاً شاكياً، فماذا أقول إذا قال لي النبي ﷺ: إن الله أودعك شاباً مسلماً، فلم تؤدِّبه بأدي، بل لم تستطع أن تجعله إنساناً، فانظر يا ولدي عتاب النبي الكريم ومقامي في خجلي بين الخوف والرجاء، أتفضح أباك أمام مولا ه؟! يا ولدي.. كن برعماً في غصن المصطفى، وكن وردة من نسيم ربيع، وخذ من خُلُقِهِ الطيّب بنصيب».

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]:

قال ابن الجوزي: «فأما قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، فقال العلماء بالمعاني: يعنى: لكل شيء من أمور الدين، إما بالنص عليه، أو بالإحالة على ما يوجب العلم، مثل بيان رسول الله ﷺ أو إجماع المسلمين».

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ﴾ [النحل: ٩٠]:

قال الفيروز آبادي: «فالإحسان فوق العدل، وذلك أن العدل هو أن يعطي ما عليه، ويأخذ ما له، والإحسان أن يعطي أكثر مما عليه، ويأخذ أقل مما له، فالإحسان زائد عليه، فتحري العدل واجب، وتحري الإحسان ندب وتطوع، ولذلك عظم الله ثواب أهل الإحسان».

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ

الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]:

قال ابن مسعود: «ما في القرآن آية أجمع للخير والشر من هذه الآية».

﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل: ٩١]:

عهد الله هو أوامره وتكاليفه الشرعية، والوفاء به يكون بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه.

﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ [النحل: ٩١]

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل: ٩١]:

قال العلماء: يمين العقود والعهود وحقوق العباد ليست على نية الحالف، بل هي على نية من يحلف له؛ لأنها لو تُركت على نية الحالف؛ لكان فيها هضم حقوق العباد، فلا يُقبل قول قائل: إنني حلفت لكم يمينا؛ ولكنه كان لغوا؛ قال ﷺ: «يمينك على ما يُصدِّقُك عليه صاحبك» صحيح مسلم رقم: ١٦٥٣، وفي رواية له: «اليمين على نية المُستحلف».

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾ [النحل: ٩٢]:

قال ابن كثير: «هذه امرأة خرقاء كانت بمكة، كلما غزلت شيئاً نقضته بعد إبرامه».

والمعنى: كونوا أوفياء بعهودكم، ولا تنقضوها بعد إبرامها، فإن فعلتم كنتم مثل تلك المرأة الحمقاء.

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾ [النحل: ٩٢]:

قال مجاهد: «كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز، فنهوا عن ذلك».

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [النحل: ٩٣]:

قال السعدي: «يُعطي الهداية من يستحقها فضلاً، ويمنعها من لا يستحقها عدلاً».

﴿فَتَزَلْ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ [النحل: ٩٤]:

قدم ثابتة ومع هذا زلت؟! فكيف بقدم مضطربة مهتزة؟!

الزلل لا يكون إلا بعد ثبوت، فلم ذكر الثبوت؟!

والجواب: في ذكر الثبوت زيادةً تقبيح اختيار الزلل على الثبات، والعصيان بعد الإيمان.

﴿وَتَذُقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النحل: ٩٤]:

لا تكونوا قدوة سيئة! من نقض عهد الله فقد صدَّ عن سبيل الله! والسبب: لأنه يقدِّم لغير المسلم قدوة سيئة، فينفر الناس عن دين الله؛ فيقول غير المسلم أو ضعيف الإيمان: لو كان هذا فعل المسلمين، فدينهم لا خير فيه.

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ

تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٩٥]:

هذه الآية أصل عظيم في النهي عن أخذ الرشوة، وتحمل بين طياتها تحذيرا شديداً في النهي عن كل ذنب يفعلُه العبد للحصول على مكسب دنيوي زائل.

﴿إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النحل: ٩٥]:

أسلوب تأكيد بالقصر بإعادة الضمير (هو)، فلم يقل الحق سبحانه: (إنما عند الله خير لكم)؛ لأنه يحتمل أن ما عند غيره أيضاً خير لكم، أما تعبير القرآن: ﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي: الخير في ما عند الله على سبيل القصر، وليس عند غيره أي خير.

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]:

بأي شيء بعنا ما عند الله من نعيم باقٍ بمتاع زائل.

﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦]:

قال الفضيل: «لو كانت الدنيا من ذهب يفنى، والآخرة من خزف يبقى، لكان ينبغي لنا أن نختار خزفاً يبقى على ذهب يفنى، فكيف وقد اخترنا خزفاً يفنى على ذهب يبقى!».

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً

وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]:

قال المهايمي:

«أي فيتلذذ بعمله في الدنيا فوق تلذذ صاحب المال والجاه، ولا يبطل تلذذه إعساره. إذ يرضيه الله بقسمته فيقنعه، ويقل اهتمامه بحفظ المال وتنميته. والكافر لا يهنأ عيشه بالمال والجاه، إذ يزداد حرصاً وخوف فوات».

﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨]:

إذا توجهت لقراءة القرآن، فاعلم أنه سيهاجمك شيطان؛ لأن الشيطان أحرص ما يكون على استهدافك عند الأعمال الصالحة؛ لذا استعن بسلاح الاستعاذة، فإذا ولّى عدوك الأدبار منهزماً؛ فانتهاز الفرصة السانحة؛ واستنزل فيوضات الله ورحماته بتلاوة آياته.

قال ابن جرير: «الاستعاذة: الاستجارة، وتأويل قول القائل: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ﴾: أستجير بالله دون غيره من سائر خلقه، ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾: أن يضرنى في ديني؛ أو يصدني عن حق يلزمني لربي».

قال الحافظ ابن كثير: «من لطائف الاستعاذة: أنها طهارة للفم مما كان يتعاطاه من اللغو والرفث وتطيب له.

وهي استعانة بالله؛ واعتراف له بالقدرة، وللعبد بالضعف والعجز عن مقاومة هذا العدو المبين الباطني الذي لا يقدر على منعه ودفعه إلا الله الذي خلقه، فمن قتله العدو البشري كان شهيداً، ومن قتله العدو الباطني كان طريداً، ومن غلبه العدو الظاهري كان مأجوراً، ومن قهره العدو الباطني كان مأزوراً.

ولما كان الشيطان يرى الإنسان من حيث لا يراه؛ استعاذ منه بالذي يراه والشيطان لا يراه».

﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]:

قال الثوري: «ليس للشيطان عليهم سلطان أن يوقعهم في ذنب لا يتوبون منه».

﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ١٠٠]:

الشيطان ضعيف، لكنه يستمد قوته من إقبال الضالين عليه وخضوعهم له: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ ، وما كان الشيطان يوماً صاحب سلطان على من يتولى الله ويلجأ إليه ويستعيذ به.

﴿يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ [النحل: ١٠٠]:

عبر بالمضارع للدلالة على تجدد عملية التولي، للتنبيه على أنهم كلما تولوه بطاعته تمكن منهم سلطانه، وإذا انقطع التولي بالإقلاع أو التوبة انسلخ سلطانه عليهم.

﴿وَإِذَا بَدَلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ﴾ [النحل: ١٠١]:

روي عن ابن عباس أنه قال: «كان إذا نزلت آية فيها شدة، ثم نزلت آية ألين منها، يقول كفار قريش: والله ما محمد إلا يسخر بأصحابه، اليوم يأمر بأمر، وغدا ينهى عنه، وأنه لا يقول هذه الأشياء إلا من عند نفسه».

جمهور المفسرين على أن المراد بالآية هنا: الآية القرآنية، وعلى أن المراد بتبديلها هو نسخها.

قال صاحب الكشاف:

«تبدل الآية مكان الآية هو النسخ، والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لأنها مصالح، وما كان مصلحة بالأمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم وخلافه مصلحة، والله تعالى عالم بالمصالح والمفاسد، فيثبت ما يشاء، وينسخ ما يشاء بحكمته».

أنواع النسخ ثلاثة:

الأول: نسخ الحكم وبقاء التلاوة، ومثاله:

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ صَدَقَةٌ﴾

[المجادلة: ١٢] منسوخ بقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَانِكُمْ

صَدَقْتُمْ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ

وَاطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٣]

الثاني: نسخ التلاوة وبقاء الحكم.

ومثاله: ما أخرج مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري أنه بعث إلى قراء أهل البصرة، فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرءوا القرآن، فقال: «أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم، فاتلوه، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسوا قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم، وإنا كنا نقرأ سورة كنا نشبهها في الطول والشدة ببراءة، فأنسيته غير أي قد حفظت منها: لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى واديا ثالثا، ولا يملأ جوف بن آدم إلا التراب».

الثالث: نسخ الحكم والتلاوة.

ومثاله: حديث عائشة أنها قالت: كان في ما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يحرمن، ثم نُسخن بخمس معلومات، فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن.

ومعنى (فتوفي رسول الله ﷺ وهن فيما يقرأ من القرآن) أي عند من لم يبلغه النسخ لغاية ذلك الوقت.

﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]:

روح القدس هو جبريل عليه السلام، ووصفه بالقدس لطهارته وبركته، فهو المطهر من أي خطأ خاصة أثناء تبليغ الوحي من رب العالمين، وسمي روحاً لما يحمل من الرسالة الإلهية التي تحيا بها القلوب.

﴿لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]:

من مقاصد إنزال القرآن: تثبيت المؤمنين على الاستقامة، وهدايتهم إلى الطريق المستقيم، وتبشيرهم بأنهم على الحق المبين.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ

إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣]:

قال ابن كثير: «ويشيرون إلى رجل أعجمي كان يبيع عند الصفا، وربما كان النبي ﷺ يجلس إليه ويكلّمه بعض الشيء، وذاك كان أعجمي اللسان لا يعرف إلا اليسير من العربية».

﴿٤٣١﴾ أخبروني بربكم: من أين للأعجمي أن يتذوق بلاغة هذا القرآن وما حواه من العلوم، فضلاً عن أن ينطق به، فضلاً عن أن يكون معلماً له!!

﴿٤٣٢﴾ **إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ** [النحل: ١٠٤]:
إضلال الله تعالى لمن اختار الضلالة أكيد.

﴿٤٣٣﴾ **قارن بين نموذجين!**

كان أبو جهل وأبو سفيان كافرين، وكان أبو سفيان أطول مدة في الكفر من أبي جهل، ولكن أبا جهل كان يخلط كفره بأذى النبي ﷺ، وكان أبو سفيان مقتصرًا على الانتصار لقومه ودفع المسلمين عن أن يغلبوهم، فحرم الله أبا جهل الهداية فمات كافرًا، وهدى أبا سفيان فأصبح من خيرة المؤمنين، وتشرف بمصاهرة النبي ﷺ.

﴿٤٣٤﴾ **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ** [النحل: ١٠٥]:

قال القشيري:

«هذا من لطائف المعارض؛ إذ لما وصفوه ﷺ بالافتراء، أنار الحق سبحانه طريقه في الجواب، فقال: لست أنت المفتري، إنما المفتري من كذب معبوده وجعل توحيده».

﴿٤٣٥﴾ **سُمِعَتْكَ الطيبة مفتاح القبول!**

لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن صفة رسول الله ﷺ، كان فيما قال: هل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال: لا. فقال هرقل: «ما كان ليدع الكذب على الناس، ويذهب فيكذب على الله».

﴿٤٣٦﴾ **تعلم كيف تُفجِّم أعداءك لتبرئ ساحتك، وكيف تقلب الطاولة عليهم بالحجة والبرهان، بالتعريض أولاً ثم التصريح: **﴿وَأُولَئِكَ هُمُ****

الْكَاذِبُونَ».

﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]

قال الألوسي: «رُوي أن قريشاً أكرهوا عماراً وأبويه: ياسراً، وسمية، على الارتداد فأبوا، فربطوا سمية بين بعيرين... ثم قتلوها وقتلوا ياسراً، وهما أول شهيدين في الإسلام. وأما عمار فأعطاهم بلسانه ما أكرهوه عليه، فقبل يا رسول الله: إن عماراً قد كفر.

فقال ﷺ: «كلا، إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه، واختلط الإيمان بلحمه ودمه».

أتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ويقول: «كيف تجد قلبك؟» قال: مطمئن بالإيمان، فقال ﷺ: «إن عادوا فعد»، فنزلت هذه الآية.

قال الألوسي:

«والآية دليل على جواز التكلم بكلمة الكفر عند الإكراه، وإن كان الأفضل أن يتجنب عن ذلك إعزازاً للدين ولو تيقن القتل، كما فعل ياسر وسمية، وليس ذلك من إلقاء النفس إلى التهلكة، بل هو كالقتل في الغزو كما صرحوا به».

إذا كان يباح الكفر عند الإكراه، فإباحة فعل المعاصي كشرب الخمر وأكل الميتة أولى بالجواز.

هناك أفعال لا يبيحها الإكراه مثل القتل والاغتصاب، لما فيها من العدوان على الآخرين.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾ [النحل: ١٠٧]:

آثَر وتكلّف الحب؛ فالدنيا أحقر من أن تُحبّ لذاتها، وفيها هموم كثيرة وتقلبات عجيبة، فلا يدوم لها حال، فكيف تُستحب الدنيا على حساب الآخرة؟!

لا تُحبّ الدنيا لذاتها، بل لأنها مزرعة الآخرة، ومفتاح دخول الجنة.

٤٢٤٤ كان محمد بن أحمد المعروف بابن رزقويه يقول مخاطبا تلامذته:

«والله.. ما أحب الحياة في الدنيا لكسب ولا تجارة، ولكن لذكر الله، ولقراءتي عليكم الحديث».

٤٢٤٥ ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ﴾ [النحل: ١٠٨]:

الطبع هو التغطية على الشيء للتأكد من ألا يدخله شيء، والطبع على القلوب يحجب عنها نور الهدى والإيمان.

٤٢٤٦ من معاني الطبع جعل الشيء سجية وطبيعة، والطبع على قلوب الغافلين يكون بجعل الإعراض عن الإيمان والهدى طبيعة لهذه القلوب، فلا تهتدي أبداً ولا تلين.

٤٢٤٧ ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَتْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ﴾ [النحل: ١٠٨]:

الترتيب مهم! من الأعلى أهمية إلى الأدنى؛ لأن القلب هو الأهم في أمر الإيمان، ثم السمع أهم من البصر، ثم تأتي منزلة الأبصار في المنزلة الأدنى في حصول الاعتبار.

٤٢٤٨ في هذا الترتيب إشارة لخطورة القلب، حيث بدأ به.

٤٢٤٩ قال مجاهد: «الران أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الأقفال، والأقفال أشد ذلك».

٤٢٥٠ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٩]:

الخاسرون هم الذين خسروا الجنة ولو ربحوا الدنيا بأسرها.

٤٢٥١ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَنَّهُدُوا وَصَبَرُوا

إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٠]:

أفضل العطايا: المغفرة والرحمة! من هاجر في سبيل الله طلباً لمرضاة الله، وفتن على دينه ليرجع إلى الكفر، فثبت على الحق، ثم جاهد أعداء دينه بلسانه ويده، وصبر على كل هذا، استحق أعظم العطايا وأفضل الهدايا: المغفرة والرحمة.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١]:

ذكرهم بيوم المجادلة! ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل: ١١١]:

في حديث عمر أنه قال لكعب الأحبار: يا كعب، خوِّفنا! هيِّجنا! حدِّثنا! نبِّهنا! قال له كعب: «يا أمير المؤمنين، والذي نفسي بيده لو وافيت يوم القيامة بمثل عمل سبعين نبياً لأتت عليك تارات لا يهملك إلا نفسك، وإن لجهنم زفرة لا يبقى ملك مقرَّب، ولا نبي منتخب إلا وقع جاثياً على ركبتيه».

﴿فَكَفَرْتَ بِأَنْعَمِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢]:

أنعم جمع قلة، ونعم جمع كثرة، فكفران أنعم الله يؤدي إلى هذا العذاب، فكيف لو كفر الإنسان بالنعم؟! كفروا بالقليل، فأذاقهم لباس الجوع والخوف، فما ظنك لو كفروا بالكثير؟!

﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: ١١٣]:

اعتبروا يا أهل مكة!

حال أهل مكة أشبه بحال أهل تلك القرية، فقد كانوا في حرم آمن، يُتخطَّف الناس من حولهم، ولا يمر ببالهم طيف من الخوف، وتُجبى إليه ثمرات كل شيء، ثم جاءهم رسول منهم، فكذبوه، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف، وأصابهم دعاؤه ﷺ: «اللهم اشدد وطأتك على مُضَر، واجعلها عليهم سنين كسني يوسف»، فاضطروا إلى أكل الجيف والميتة والعلهز، وهو طعام يُتخذ في سني المجاعة من الدم والوبر، ثم أخذهم العذاب يوم بدر.

﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا﴾ [النحل: ١١٤]:

ليس الأكل وحده هو المقصود، بل المراد الكسب، فلا بد أن يكون حلالاً، فيندرج فيه اللباس والمركب والمسكن.

قال وهيب بن الورد: «لو قمت قيام هذه السارية ما نفعتك حتى تنظر ما يدخل بطنك؟ حلال أو حرام؟».

﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [النحل: ١١٤]:

قال القشيري: «وحقيقة الشكر على النعمة: الغيبة عن شهود النعمة بالاستغراق في شهود المنعم».

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهْلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۚ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٥]:

مناسبة تحديد هذه المحرمات أن بعض المسلمين ممن هاجروا كانوا بأرض غربة، وقد يؤكل فيها لحم الخنزير وما أهْلٌ به لغير الله، وكان بعضهم ببلد يؤكل فيه الدم، وما أهْلٌ به لغير الله، فجاء النهي عنها تحديداً.

(إنما) أداة قصر، أي ما حرم عليكم إلا هذه المحرمات، لكن كيف وقد وردت أحاديث صحيحة تحرم غير ذلك؟!

والجواب: القصر في اللغة ينقسم إلى قصر حقيقي، وقصر إضافي.

فالقصر الحقيقي مثل: (لا إله إلا الله) أي لا معبود بحق إلا الله.

والقصر الإضافي ليس قصرًا حقيقيًا، بل مقصود به زيادة الاهتمام بالنهي عن هذه المحرمات، فليس المراد قصر الإثم عليها، بل زيادة الإنكار على من فعلها.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]:

عن أبي نضرة قال: «قرأت هذه الآية في سورة النحل: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومي هذا».

قال الحافظ ابن كثير: «يدخل في الآية كل من ابتدع بدعة ليس له فيها مستند شرعي، أو حلَّ شيئاً مما حرم الله، أو حرَّم شيئاً مما أباح الله، بمجرد رأيه وتشهيه».

﴿مَتَّعَ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ١١٧]:

قال مسروق:

خرج علينا عمر ذات يوم وعليه حُلَّة قطن، فنظر إليه الناس نظرا شديداً، فقال:

لا شيء مما يرى تبقى بشاشته
ثم قال ﷺ:

وما الدنيا في الآخرة إلا كنفجة (وثبة) أرنب!
يشير إلى قصرها وسرعة انقضائها.

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل: ١١٨]:

الأصل في ترتيب الآية: (وحرمنا على الذين هادوا ما قصصنا)، فلماذا قَدَّمَ ذكر اليهود: ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾؟ والجواب: تنبيهاً على أن هذه المحرمات حُرِّمَتْ عليهم دون غيرهم من الأمم، وتشهيراً بهم وما اقترفوه من ظلم استحقوا به هذا التحريم.

﴿لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوْءَ بُجْهَلَةٌ﴾ [النحل: ١١٩]:

والمراد بالجهالة: الجهل والسفه اللذان يحملان صاحبهما على ارتكاب ما لا يليق بالعقلاء، وليس المراد بها عدم العلم.
قال ابن عطية: الجهالة هنا بمعنى تعدي الطور، وركوب الرأس: لا ضد العلم.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]:

حاز من الفضائل البشرية ما لا يكاد يوجد إلا متفرقاً في أمة.

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]:

قال مجاهد: «سُمِّي عليه السلام أمة لانفراده بالإيمان في وقته، ففي صحيح البخاري أنه قال لزوجته سارة: «ليس على الأرض اليوم مؤمن غيري وغيرك».

﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: ١٢٠]:

كيف تكون أمة؟!

قال ابن مسعود:

إن معاذ بن جبل كان أمةً قانتاً لله حنيفاً. فقيل: ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠]. فقال: ما نسيئت، هل تدري ما الأمة؟ وما القانت؟ فقلت. الله أعلم فقال: الأمة، الذي يعلم الخير، والقانت: المطيع لله عز وجل وللرسول. وكان معاذ بن جبل يعلم الناس الخير، وكان مطيعاً لله عز وجل ورسوله.

﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢١]:

صفة لإبراهيم عليه السلام، وفيها تعريض بالمشركون الذين سبق أن وصف الله قريتهم بقوله تعالى: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ [النحل: ١١٢].

أنعم: جمع قلة، وجاء التعبير عن النعم بجمع القلة؛ لأن إبراهيم عليه السلام مهما شكر، فلن يسعه أن يشكر كل نعم الله عليه، فضلاً عن إحصائها.

﴿وَأَتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ [النحل: ١٢٢]:

اللهم آتنا في الدنيا حسنة.

قال ابن عاشور:

«والحسنة في الدنيا: كل ما فيه راحة العيش من اطمئنان القلب بالدين، والصحة، والسلامة، وطول العمر، وسعة الرزق الكافي، وحسن الذكر بين الناس».

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل: ١٢٢]:

إشارة إلى إكرام الله بإجابة دعوته، إذ حكى عنه في سورة الشعراء: ﴿رَبِّ هَبْ

لِي حُكْمًا وَالْحَقِّقِي بِالصَّالِحِينَ﴾

من كان صالحاً في الدنيا، فهو صالح في الآخرة، ومن كان صالحاً في الآخرة، دخل الجنة.

﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[النحل: ١٢٣]

قيمة ﴿ثُمَّ﴾! قال صاحب الكشف: «قوله تعالى: في ﴿ثُمَّ﴾ هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ، وإجلال محله، والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم من الكرامة، وأجل ما أوتي من النعمة، اتباع رسول الله ﷺ ملته».

قال القرطبي: «وفي هذه الآية دليل على جواز اتباع الأفضل للمفضول فيما يؤدي إلى الصواب، ولا درك على الفاضل في هذا، فإن النبي ﷺ أفضل الأنبياء، وقد أمر بالاعتداء بهم».

﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ

يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ١٢٤]:

أثار اليهود تساؤلاً: كيف يكون الإسلام من ملة إبراهيم؟ وقد جعل يوم الجمعة اليوم المقدس، وقد جعلت التوراة لليهود يوم التقديس يوم السبت، فنفى القرآن أن يكون إبراهيم قدس يوم السبت، وقال: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾، فقرّر القرآن أن حرمة يوم السبت لم تكن من ملة إبراهيم، كما زعم اليهود.

﴿عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [النحل: ١٢٤]:

أي خالفوا نبيهم، وليس المراد بالاختلاف أن بعضهم رضي باتباع أمره، وبعضهم لم يرض، بل المراد به امتناع الجميع عن طاعة نبيهم، حيث قالوا: لا نريد يوم الجمعة، واختاروا السبت.

وإن ربك ليحكم بحكمه العادل بين هؤلاء اليهود الذين اختلفوا في شأن يوم السبت، وقيل: اختاروه بدل يوم الجمعة، لقول الرسول ﷺ:

«نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدا، والنصارى بعد غد». صحيح البخاري رقم: ٨٧٦.

﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥]:

إلى سبيل ربك لا إلى تشييد مجدك وإبراز شخصك.. جدد نيتك في دعوتك.

﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]

قال ابن القيم:

«جعل الله سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق، فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه: يُدعى بطريق الحكمة. والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر: يدعى بالموعظة الحسنة، وهي الأمر والنهي المقرون بالترغيب والترهيب. والمعاند الجاحد: يُجادل بالتي هي أحسن. هذا هو الصحيح في معنى هذه الآية».

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ

لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل: ١٢٦]:

سبب نزول هذه الآية ما جاء عن أبي بن كعب قال: لما كان يوم أحد أصيب من الأنصار أربعة وستون رجلاً، ومن المهاجرين ستة، فيهم حمزة فمَثَّلُوا بِهِمْ. فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوماً مثل هذا لنرين عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾

استنبط العلماء من هذه الآية الماثلة بالقصاص، واستدلوا بها روي عن أنس رضي الله عنه أن يهودياً رَضَّ رأس جارية بين حجرين، قيل: من فعل هذا بك، أفلان أفلان؟ حتى سمي اليهودي، فأومأت برأسها، فأخذ اليهودي فاعترف، فأمر به النبي ﷺ فَرَضَ رأسه بين حجرين. صحيح البخاري رقم: ٢٤١٣.

﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]:

صبر العبد بربه لا بنفسه، فالله هو المُصَبِّرُ، وإلا فلا صبر لأحد.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [النحل: ١٢٧]:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما [الحزن] فلم يأمر الله به ولا رسوله، بل قد نهى عنه في مواضع وإن تعلق بأمر الدين، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]».

قال ابن تيمية: «وقد يقترن بالحزن ما يثاب صاحبه عليه ويحمد عليه، فيكون محمودًا من تلك الجهة لا من جهة الحزن، كالحزين على مصيبة في دينه، وعلى مصائب المسلمين عمومًا، فهذا يثاب على ما في قلبه من حب الخير، وبغض الشر، وتوابع ذلك، ولكن الحزن على ذلك إذا أفضى إلى ترك مأمور من الصبر والجهد وجلب منفعة ودفع مضرة نهى عنه، وإلا كان حسب صاحبه رفع الإثم عنه من جهة الحزن.

وأما إن أفضى إلى ضعف القلب واشتغاله به عن فعل ما أمر الله ورسوله به، كان مذمومًا عليه من تلك الجهة، وإن كان محمودًا من جهة أخرى».

﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: ١٢٧]:

إذا آذاك أهل الأرض، سيحتفل بك أهل السماء، وإن كنت في ضيق من الخلق، فأبشّر بسعة من الخالق.

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨]:

قيل لهرم بن حيان حين الاحتضار: أوص. قال: «إنما الوصية من المال، فلا مال لي، وأوصيكم بخواتيم سورة النحل».



الجزء الخامس عشر

سورة الإسراء آيت ١
إلى سورة الكهف آيت ٧٤
عدد الفوائد: ٢٩٨

قال سعيد النورسي:
«عَصْرٌ مَرِيضٌ، وَعَنْصَرٌ سَقِيمٌ،
وَعَضْوٌ عَلِيلٌ، وَصَفْتُهُ الطَّبِيبَةُ هِيَ
اتِّبَاعُ الْقُرْآنِ».

المكتوبات ص ٥٩١

الجزء الخامس عشر سورة الإسراء آية ١ إلى سورة الكهف آية ٧٤

٤٢٨٧ كان رسول الله ﷺ يقرأ سورة الإسراء كل ليلة!

جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: «كان لا ينام حتى يقرأ بني إسرائيل والزمير». صحيح الجامع رقم: ٤٨٧٤

٤٢٨٨ ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]:

الليل.. موسم المنح الربانية والعطايا الإلهية.

٤٢٨٩ ﴿أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]:

أشرف المقامات التي يمكن أن يبلغها عبد هو مقام العبودية لله. قال الإمام القرطبي: «قال العلماء: لو كان للنبي ﷺ اسمٌ أشرف منه لسمَّاه به في تلك الحالة العلية».

٤٢٩٠ ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]:

بلغ من طيبه أن بارك الله حوله، فهل بلغ من طيبك أن تنشر الخير في من حولك؟!

٤٢٩١ عن أبي ذر رضي الله عنه قال: تذاكرنا ونحن عند رسول الله ﷺ: أيهما أفضل: مسجد رسول الله ﷺ أو مسجد بيت المقدس؟ فقال رسول الله ﷺ:

«صلاة في مسجدي هذا أفضل من أربع صلوات فيه، ولنعم المصلّي، وليوشكن أن يكون للرجل مثل شطن (هو الجبل) فرسه من الأرض، حيث يرى منه بيت المقدس خير له من الدنيا جميعاً أو قال: خير من الدنيا وما فيها».

السلسلة الصحيحة رقم: ٢٩٠٢.

﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]:

العلاقة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى علاقة أخوة لا تنفك، يظهر هذا في هذه الآية، وظهرت حتى في مواعيد البناء! فعن أبي ذر قال: قلت: يا رسول الله أي مسجد وُضع أول؟ فقال: «المسجد الحرام ثم المسجد الأقصى». قال: قلت: كم كان بينهما؟ قال: «كان بينهما أربعون سنة، وحيث ما أدركتك الصلاة فصلّ، فثمّ مسجد». التعليقات الحسان رقم: ١٥٩٦.

﴿نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]:

قال محمد القرظي: «كان نوح إذا أكل وإذا شرب وإذا لبس وإذا ركب قال: الحمد لله، فسماه الله عبداً شكوراً».

﴿عِبَادًا لَّنَا﴾ [الإسراء: ٥]:

هذا شرط الانتصار: أن نكون عباداً لله حقاً، فنخوض المعركة على أسس إيمانية ربانية، لا أسس قومية أو وطنية أو عصبية أو عرقية، لنسترد بذلك وصف العبودية لله، فنكون أهلاً لنصره، وعندها فحسب يوكل الله إلينا تنفيذ وعيده الذي توعد به بني إسرائيل: ﴿لِيَسْتَفْؤُوا وَجُوهَكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]

﴿عِبَادًا لَّنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥]:

وعد الله لا يتخلف بأننا سنتنصر؛ لكن هذا الانتصار مرهون بشرطين: ﴿عِبَادًا لَّنَا﴾ و﴿أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، فالشرط الأول متعلّق بالقوة الإيمانية، والشرط الثاني متعلّق بالقوة المادية والأخذ بالأسباب.

﴿فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ [الإسراء: ٥]:

جاسوا من جاس أي: بحث واستقصى المكان، وطلب مَنْ فيه، وهو ما يُسمّى رجال الأمن: «تمشيط المكان» للبحث عن المجرمين، أي تتبعوا اليهود تتبعاً بحيث لا يخفى عليهم منهم أحد، وهو ما حدث مع يهود المدينة: بني قينقاع وبني قريظة وبني النضير ويهود خيبر.

﴿أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾ [الإسراء: ٦]:

والنفير يُطلق اليوم غالبًا على الإعلام، واليهود اليوم سيطرتهم على الوسائل الإعلامية مشاهدة معلومة.

﴿لَيْسْتُمْ أَوْجُوهَكُمْ﴾ [الإسراء: ٧]:

أي: نُلحق بهم من الأذى ما يظهر أثره على وجوههم؛ وأشرف ما في الإنسان وجهه. قال الإمام الرازي: «وإنما عزا - سبحانه - الإساءة إلى الوجوه؛ لأن آثار الأعراض النفسية الحاصلة في القلب إنما تظهر على الوجه، فإن حصل الفرح في القلب ظهر الإشراق في الوجه، وإن حصل الحزن والخوف في القلب، ظهر الكلوح في الوجه».

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لَيْسْتُمْ أَوْجُوهَكُمْ وَلَيْدٌ خُلُوهُ الْمَسْجِدِ﴾ [الإسراء: ٧]:

ليس المقصود به وعد يوم القيامة؛ بل وعد الإفساد الثاني لبني إسرائيل.

﴿وَلَيْدٌ خُلُوهُ الْمَسْجِدِ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٧]:

كأن الله سبحانه يلفت أنظارنا ويقول لنا: إن أردتُمْ أَنْ تدخلوا المسجد الأقصى مرة أخرى بعد خروجكم منه، فادخلوا في السَّلم (الإسلام) كافة، وارجعوا إلى منهجي وتمسكوا به.

﴿وَلَيْدٌ خُلُوهُ الْمَسْجِدِ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٧]:

يقول الشيخ سعيد حوى: «غلبة اليهود على المسجد الأقصى ليست دائمة حتى قيام الساعة، كما يفهم البعض من أن المسيح هو الذي سيقتل اليهود عند نزوله، فاليهود الذين يقتلهم المسيح يومها هم الذين يكونون مع الدجال، والنصوص تفيد أن المسجد الأقصى وقتذاك يكون بيد المسلمين، وأن القدس تكون عاصمة الخلافة، وهذا كله يتنافى مع الوضع الحالي».

﴿وَلْيَتَبَرَّوا مَا عَلَوْا تَتَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٧]:

يُقال: تبر الشيء تبرًا إذا هلك، وتبرّه أي أهلكه. وقال الزجاج: كل شيء جعلته مكسرًا ومفتتًا فقد تبرّته.

فالتبدير هو التدمير والإهلاك، وفيه إشارة إلى أن المسلمين سيرجعون بقوة القاهرة، تدمر كل ما مع اليهود من سلاح وعتاد جلبوها من كل مكان، ورصدوها للشر والعدوان.

والعلو يحتاج فترة زمنية معتبرة حتى يعلوا فيه اليهود في البنيان والطغيان.

أقوال كثيرة قالها المفسرون في بيان العباد الذين سلَّطهم الله على بني إسرائيل. قال الإمام الرازي: «واعلم أنه لا يتعلق كثير غرض في معرفة أولئك الأقوام بأعيانهم، بل المقصود هو أنهم لما أكثروا من المعاصي، سلَّط عليهم أقواما قتلوهم وأفنؤهم».

﴿وَإِنْ عُدَّتُمْ عِدْنَا﴾ [الإسراء: ٨]:

لا يزال العرض جارياً على بني إسرائيل: أي إن عدتم للإفساد في الأرض بعثنا عليكم عبادا يؤدّبونكم. قال ابن عباس: «عادوا فسَلَّطَ الله عليهم المؤمنين».

قال (عدنا) ولم يقل سيعود عبادنا، وهذا من عظيم تأييد الله للمؤمنين.

كلما ازداد اليهود علواً وإفساداً، اقتربت نهايتهم.

﴿إِنَّ هَذَا الْقَرْنُ يَهْدِي﴾ [الإسراء: ٩]:

القرآن مصدر الهداية، ومفتاح تقويم الفكر والأخلاق، وهو وحده مقياس معرفة الخطأ من الصواب، ومن دونه تغرق البشرية في الضلال.

﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١]:

قد تدعو وأنت لا تعلم أنك تدعو على نفسك، فلا يستجيب الله لك، رحمة بك وشفقة عليك.

ربما كان تأخير الإجابة حمايةً للداعي من حُمق الدعاء! لأنه دعا بما يضره وهو يظن أنه ينفعه.

قال ابن عباس وغيره: «هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يُستجاب له: اللهم أهلكه، ونحوه».

﴿٤٣٢﴾ في الحديث: «من هذا اللاعن بعيره؟! انزل عنه فلا تصحبنا بملعون، لا تدعوا على أنفسكم، ولا تدعوا على أولادكم، ولا تدعوا على أموالكم، لا توافقوا من الله ساعة يُسأل فيها عطاءً، فيستجيب لكم». صحيح الجامع رقم: ٦٥٨٢.

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]:

هذا هو السبب الذي يحمل الإنسان على الدعاء بالشر كما يدعو بالخير، فالعبد متسرع في طلب كل ما يخطر بباله دون النظر في عاقبته، ليتأكد هل هو خيرٌ فيدعو به، أم شرٌّ فيستعيذ منه، وفي غمرة استعجاله يغفل عن أن المقسوم لا يفوته، وأن اختيار الله للعبد خير له من اختياره لنفسه.

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]:

ما أجمل قول الشاعر:

لا تعجلنَّ فربَّما عجل الفتى فيما يضرُّه
ولربَّما كره الفتى أمراً عواقبه تسرُّه

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ [الإسراء: ١٣]:

عبر عن عمل الإنسان بطائرته، وجعل عمله في عنقه إشارة لشدة الارتباط بين الإنسان وعمله، وكأن عملك هو الذي يقودك، ويقودك إلى الجنة أو النار كما تُقاد الدابة بالحبل من عنقها.

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٤]:

أنت اليوم كاتب، وغداً قارئ، فراجع ما كتبت.

﴿ثُمَّ لِيَوْمٍ عَلَىٰ السَّائِلِينَ مَا يَسْأَلُونَ فِي صَحِيفَتِكَ، وَغَدَا يَنْشُرُونَ مَا أَمَلْتُمْ مِنْ أَعْمَالٍ وَأَقْوَالٍ﴾: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾.

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْنَا الْقَوْلُ

فَدَمَرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]:

فَسَقُ أَهْلُ بَلَدَةٍ مَا إِذَا بَقَرُ هَلَاكُهَا.

﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦]:

المأمور به هنا هو الإيثار والعمل الصالح، أي أمرناهم بالطاعة ففسقوا، وليس المعنى أمرناهم بالفسق ففسقوا؛ لأنه لا يأمر بالفسق، وهو مثل أن تقول: أمرته فعصاني، أي أمرته بطاعتي فعصاني، وليس معناه: أمرته بالعصيان فعصاني.

﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ [الإسراء: ١٩]:

من أراد يعني من الإرادة، فليس شراء الآخرة بالأمان والأحلام.

﴿وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء: ١٩]:

أي السعي اللاتق بالآخرة، وهو الإتيان بما أمر الله، والانتها عما نهى عنه، وفائدة (لها): اعتبار النية والإخلاص، وفائدة ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾: أن الكافر إذا قَدَّم عملاً صالحاً في الدنيا، فلن ينفعه في الآخرة لفقده شرط الإيمان.

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الإسراء: ١٩]:

شرط الإيمان: روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا يظلم مؤمناً حسنة يُعطى بها في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة، وأما الكافر فيُطعم بحسناته ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم تكن له حسنة يُجزى بها» السلسلة الصحيحة رقم: ٢٧٧٠.

﴿كُلًّا نُّنَمِّدُهُنَّوَلَّا وَهْتُولَا مِنَّ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ [الإسراء: ٢٠]:

هذه الآية تنبيه أن الله لم يترك خلقه من أثر رحمته حتى الكفرة منهم، فقد أعطاهم من نعمة الدنيا على حسب ما قَدَّر لهم، وأعطى المؤمنين خيري الدنيا والآخرة.

معلوم أن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، لكنه لا يعطي الدين إلا من يحب.

إذا لم يكن فيها معاش لظالم
وقد شبت فيها بطون البهائم

فلو كانت الدنيا جزاءً لمحسن
لقد جاع فيها الأنبياء كرامةً

﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]:

عطاء الله على قدره، وطلب العبد على قدره، وعطايا الله ليست عطاء ملك من ملوك الأرض، كمًّا ولا نوعًا، وهي غير محظورة عن أحد، بل متاحة للجميع.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٢١]:

الخطاب للنبي ﷺ، والمقصود إسماع قومه، وهذا مشاهد في الدنيا، فطلاب الآخرة يتفاضلون في الإيمان والحسنات، وطلاب الدنيا يتفاضلون في المال والثروات.

حضر جماعة من الناس باب عمر رضي الله عنه وفيهم سهيل بن عمرو وأبو سفيان بن حرب، فأذن عمر لصهيب وبلال وأهل بدر وكان يحبهم، فقال أبو سفيان: ما رأيت كاليوم قط! إنه ليؤذن لهؤلاء العبيد ونحن جلوس لا يُلتفت إلينا، فقال سهيل -وكان أعقلهم-: أيها القوم.. إني والله قد أرى الذي في وجوهكم، فإن كنتم غضابًا فاغضبوا على أنفسكم، دُعي القوم ودعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، أما والله لما سبقوكم به من الفضل أشد عليكم فوتًا من بابكم هذا الذي تنافسون عليه!

﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٢١]:

لا تظن الدنيا آخر المطاف!

قال ابن كثير: «ولتفاوتهم في الدار الآخرة أكبر من الدنيا، فإن منهم من يكون في الدرجات في جهنم وسلاسلها وأغلالها، ومنهم من يكون في الدرجات العلا ونعيمها وسرورها.

ثم أهل الدرجات يتفاوتون فيما هم فيه، كما أن أهل الدرجات يتفاوتون، فإن في الجنة مائة درجة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض».

﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾ [الإسراء: ٢١]:

قال الضحاك:

«الأعلى يرى فضله على من هو أسفل منه، والأسفل لا يرى أن فوقه أحدًا».

﴿وَيَا لَوِ الدِّينَ إِحْسَنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]:

ما هي آخر مرة أحسنت فيها إلى والديك؟!

﴿إِنَّمَا يَبْتَلِغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ﴾ [الإسراء: ٢٣]:

(عندك): وكأنه حث على أن (يسكن) والداك معك عند كبرهما.

﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْيَ﴾ [الإسراء: ٢٣]:

قال ابن عقيل: «من حسن ظني بربي أنه بلغ من لطفه أن وصّى ولدي إذا كبرت فقال: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْيَ﴾».

﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء: ٢٣]:

قيل لسعيد بن المسيب: كل ما في القرآن من بر الوالدين قد عرفته إلا قوله: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، فما القول الكريم؟ قال ابن المسيب: قول العبد المذنب للسيد الفظ الغليظ.

﴿وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]:

قال عروة: «إن أغضباك فلا تنظر إليهما شزراً، فإنه أول ما يُعرَف غضب المرء بشدة نظره إلى من غضب عليه». يا هذا.. ليست المعاملة معها بالمثل!

﴿وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]:

قال زهير بن محمد: «إن سبّك أو لعنك فقل: رحمكما الله.. غفر الله لكما».

﴿وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]:

عن عبد الله بن عون أنه نادته أمه، فعلا صوته صوتها، فأعتق رقبتين.

﴿وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: ٢٤]:

ليس من البر!

سأل رجل الإمام أحمد: إن أبي يأمرني أن أطلق زوجتي؟! قال له الإمام: لا تطلقها، فقال: أليس النبي ﷺ قد أمر ابن عمر أن يطلق زوجته حين أمره عمر بذلك؟ قال الإمام أحمد: وهل أبوك مثل عمر؟!

﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: ٢٤]:

ومن رحمة الله لهما أن يهديهما للإيمان والعمل الصالح، فالدعاء بالرحمة لوالديك يشمل صلاح دينهما وعمران آخرتهما.

قال الألوسي: «والظاهر أن الأمر للوجوب، فيجب على الولد أن يدعو لوالديه بالرحمة». اجعل لنفسك وزدا ثابتاً للدعاء لوالديك.

﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٥]:

قال سعيد بن المسيب: «الأواب الذي يذنب ثم يستغفر، ثم يذنب ثم يستغفر».

﴿وَأَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦]:

قدّم القرابة على المساكين؛ لأن عدم إحسان الغني إلى أقاربه يثير ضغائن قلوبهم وحزازات نفوسهم.

وصى الله في كتابه بآبن السبيل ثماني مرات، فآنس وحشة الغريب، وأحسن إليه، ولا تجمع عليه مرارة الغربة مع مرارة الحرمان.

﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٢٧]:

قال ابن عاشور: «التبذير يدعو إليه الشيطان؛ لأنه إما إنفاق في الفساد، وإما إسراف يستنزف المال في السفاسف واللذات، فيعطّل الإنفاق في الخير، وكل ذلك يرضي الشيطان، فلا جرم أن كان المتصفون بالتبذير من جند الشيطان وإخوانه».

﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨]:

وهذا متعلق بقوله: ﴿وَأَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ ، فلا ترد المسكين إلا بإحدى ثلاث: بعتاء، أو وعد بعتاء، أو دعاء!

﴿فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٨]:

ما أجمل قول القائل:

لِلسَّائِلِينَ فَإِنِّي لَيِّنُ الْعُودِ
إِمَّا نَوَالِي وَإِمَّا حُسْنُ مَرْدُودِي

إِن لَّمْ يَكُنْ وَرَقٌ يَوْمًا أَجُودُ بِهِ
لَا يَعْدُمُ السَّائِلُونَ الْخَيْرَ مِنْ خُلُقِي

﴿١٣٤٧﴾ في هذا الأمر تأديب للمؤمن إن هو فقد المال، أن يرجو من الله تيسير أسبابه، وأن لا يحملة الشح على السرور بعدم امتلاك المال؛ كي يتخلص من الإنفاق على المحتاج، بل الأولى أن يدعو الله - إن كان فقيراً وعدم المال - أن يرزقه به في المستقبل حرصاً على ثواب الصدقة.

﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]:

في الآية حَضُّ على التوسط، فخير الأمور الوسط. وقد رُوي عن رسول الله ﷺ قوله: «ما عال من اقتصد». ضعيف الجامع رقم: ٥١٠١. وقد قيل: «الاقتصاد نصف المعيشة»، وكان يُقال: حسن التدبير مع الكفاف، خير من الغنى مع الإسراف.

﴿وَلَا تَقْرُبُوا الزِّنَىٰ﴾ [الإسراء: ٣٢]:

لأن من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه؛ ولأن مشوار الألف ميل في الحرام يبدأ بخطوة؛ ولأن الاستدراج أخفى حيل إبليس.

﴿١٣٥٠﴾ قال يونس بن عبيد: احفظوا عني ثلاثاً مت أو عشت: ومنها: ولا يخل رجلٌ بامرأة شابة وإن أقرأها القرآن.

﴿فَلَا يُسْرِفَ فِي الْقَتْلِ﴾ [الإسراء: ٣٣]:

غَضَب أهل القاتل لا يسوِّغ لهم انتهاك العدالة، وتحقيق القصاص لا يجب أن يجزَّ إلى ظلم.

﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٤]:

النهي عن القرب منه هو مبالغة في النهي عن التعرض له؛ لأن العرب في الجاهلية كانوا يستحلون أموال اليتامى لضعفهم وقلة نصيرهم، فحذَّر الله المسلمين من ذلك لإزالة ما عسى أن يكون بقي في نفوسهم من رواسب الجاهلية.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦]:

قال قتادة: «لا تقل: رأيت ولم تر، وسمعت ولم تسمع، وعلمت ولم تعلم، فإن الله سائلك عن ذلك كله».

في الحديث: «بِسْ مَطِيَّةِ الرَّجُلِ زَعَمُوا»: أي يقولون؛ لأنها بداية الإشاعة وبوابة الكذب، وكان عبد الله بن عمر يقول: «(زعموا) مَطِيَّةُ الكَذِبِ».

يُقال: قَفَّيْتُهُ إِذَا اتَّبَعْتَ أَثَرَهُ، وَمِنْهُ جَاءَ اسْمُ (القَافَةِ) وَهُمْ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَثَارَ الْأَقْدَامِ، وَقَافِيَةٌ كُلُّ شَيْءٍ آخِرُهُ، وَمِنْهُ قَافِيَةُ الشَّعْرِ، وَمِنْهُ اسْمُ النَّبِيِّ ﷺ الْمُقْفَى؛ لِأَنَّهُ جَاءَ آخِرَ الْأَنْبِيَاءِ.

﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]:

قَدَّمَ السَّمْعَ عَلَى الْبَصَرِ لِأَنَّهُ يَحْصُلُ مِنْ ضُرُوبِ الْمَعْرِفَةِ عَنْ طَرِيقِ السَّمْعِ مَا لَا يَحْصُلُ عَنِ الْبَصَرِ، فَبَشَّارُ بْنُ بَرْدٍ كَانَ أَعْمَى، وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ صَاحِبَ الْبَيْتِ الْمَشْهُورِ الَّذِي يَمْتَلِئُ بِالْبَصِيرَةِ وَالْإِحْسَاسِ:

كَأَنَّ مَثَارَ النَّقْعِ فَوْقَ رُؤُوسِنَا وَأَسْيَافُنَا لَيْلٌ تَهَاوَى كَوَاكِبُهُ

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [الإسراء: ٣٧]:

عَجِيبٌ! حَتَّى طَرِيقَةُ الْمَشْيِ يَحْدِّدُهَا لَكَ الْقُرْآنُ، وَتَنْزِلُ فِيهَا الْآيَاتُ! لَقَدْ عَلَّمَنَا دِينَنَا كُلَّ شَيْءٍ.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَأَبْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢]:

قال سعيد بن جبیر: «المعنى إذا لطلبوا طريقا إلى الوصول إليه ليزيلوا ملكه؛ لأنهم شركاؤه». مخاطبة العقل والإقناع منهج قرآني.

﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤]:

قال ابن عون المصري: «أما يستحي أحدكم أن تكون دابته التي يركب، وثوبه الذي يلبس، أكثر ذكرا لله منه».

﴿١٣٦٠﴾ الإنسان البليد! قال رسول الله ﷺ: «ليس شيء إلا وهو أطوع لله تعالى من ابن آدم». صحيح الجامع رقم: ٥٣٩٣.

﴿١٣٦١﴾ تصريح بأن كل جماد وحيوان وطير وحشرة في الوجود تسبّح الله تعالى، وهذا حريٌّ أن يدفع كل عاقل على طاعة ربه وكثرة ذكره كي لا يكون - بعد ما فضله على سائر خلقه - أقل طاعةً لله منهم، فينحط قدره.

﴿١٣٦٢﴾ «وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم» [الإسراء: ٤٤]: تطبيقها العملي: «أحب الكلام إلى الله أن يقول العبد: سبحان الله وبحمده». صحيح الجامع رقم: ١٧٤، وقوله ﷺ: «من قال: سبحان الله وبحمده في يوم مائة مرة حطت خطاياهم وإن كانت مثل زبد البحر». صحيح الجامع رقم: ٦٤٣١.

﴿١٣٦٣﴾ «قل كونوا حجارة أو حديدًا» [الإسراء: ٥٠]: لما قالوا: أئذا كنا عظامًا إنا لمبعوثون، قيل لهم: كونوا حجارة أو حديدًا، فإن الله قادر على إحيائكم على أي حال، فإن كنتم تستبعدون رد العظام اليابسة إلى رطوبة الحياة، مع أنها جزء من جسدكم الحي، فكيف إذا كنتم حجارة أو حديدًا، وهما أبعد عن الحياة؟! قال مجاهد: «المعنى: كونوا ما شئتم فستعادون».

﴿١٣٦٤﴾ «قل عسى أن يكون قريبًا» [الإسراء: ٥١]: عسى مع الله تحقيق وليست ظنًا، فحطّم بهذه الآية أسوار يأسك، ودع نور الأمل ينتشر في ربوع قلبك!

﴿١٣٦٥﴾ «يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده» [الإسراء: ٥٢]: قال سعيد بن جبير: «ينفضون (أي الموتى) التراب عن رؤوسهم ويقولون: سبحانك اللهم وبحمدك».

﴿١٣٦٦﴾ «وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن» [الإسراء: ٥٣]: إذا احتار عقلك بين قولين حسنين فأثر أحسنهما.

﴿١٣٦٧﴾ من تمام العبودية لله: (حسن الكلام)، وإن (سوء اللسان) يقدر في العبودية.

﴿٤٣٦﴾ في سنن البيهقي أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «انطلقوا بنا إلى البصير الذي في بني واقف نعوّده»، وكان رجلاً أعمى! فانظر رِقَّتَه وحسن كلامه وعدم جرحه للرجل بكلمة ولو كان فيها صادقا!

﴿٤٣٧﴾ قال رجلٌ لرجل أمام عمر بن عبد العزيز: تحت إبطك، فقال عمر: وما على أحدكم أن يتكلّم بأجل ما يقدر عليه؟ قالوا: وما ذاك؟ قال: لو قال: تحت يدك كان أجمل.

﴿٤٣٨﴾ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ [الإسراء: ٥٣]:
انتقاء كلماتك فيه إفشال مؤامرة شيطانية.

﴿٤٣٩﴾ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]:
كان الإمام البخاري مع أن صنعتَه الكلام في الرجال بالجرح والتعديل، يتورع عن الألفاظ القاسية، مثل كَذَاب، أو وَضَاع، أو متروك، ويختار كلاماً أحسن مثل: فيه نظر، وإذا قال البخاري عن رجل: فيه نظر، فهو متروك لا يُقبل حديثه.

﴿٤٤٠﴾ رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ [الإسراء: ٥٤]:
وبمقتضى هذا العلم يُقسَّم الأرزاق ويُوزَع المواهب بين العباد، كُلُّ بحسب حاله، وعلى قَدْر ما يُصلِحُه، والجميع عبيدٌ لله، وليس بينه وبين أحد منهم عداوة فيحرمه، ولا مصلحة أو نسب فيعطيه ويُكرمه.

﴿٤٤١﴾ قال القشيري:
«سَدَّ على كل أحد طريق معرفته بنفسه ليتعلَّق كُلُّ قلبه بربه، ويوصف العبد بالعلم ويوصف الربّ بالعلم، ولكن العبد يعلم ظاهر حاله، وعلم الرب يكون بحاله وبمآله».

﴿٤٤٢﴾ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥]:
قال الإمام ابن كثير:
«وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ

الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ لا ينافي ما ثبت من الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا تفضلوا بين الأنبياء»، فإن المراد من ذلك هو التفضيل بمجرد التشهي والعصبية، لا بمقتضى الدليل، فإذا دلّ الدليل على شيء وجب اتباعه، ولا خلاف أن الرسل أفضل عن بقية الأنبياء، وأن أولى العزم منهم أفضلهم، وهم الخمسة المذكورون نصاً في قوله تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَنُوحٌ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾**، ولا خلاف في أن محمداً ﷺ أفضلهم.

﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ [الإسراء: ٥٥]:

كأن الله سبحانه يشير إلى أن سبب تفضيله لأحد خلقه هو الرسالة لا الملك، فسبب شرف داود أنه أوتي الزبور لا أنه أوتي الملك.

يرى الطاهر بن عاشور أن وجه هذا التخصيص للإيحاء إلى أن كثيراً من الأحوال التي ينظر إليها بعض الجاهلين وقصيري النظر باستصغار واحتقار هي أحوال لا تعوق أصحابها عن الصعود في مدارج الكمال، وأن التفضيل بالنبوة والرسالة لا ينشأ عن عظمة سابقة، فإن داود عليه السلام كان راعياً من رعاة الغنم في بني إسرائيل، وكان ذا قوة في الرمي بالحجر، فأمر الله شاول ملك بني إسرائيل أن يختار داود لمحاربة جالوت الكنعاني، فلما قتل داود جالوت آتاه الله النبوة وصيّرهُ ملكاً لإسرائيل.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٥]:

قال القرطبي: «لما ابتليت قريش بالقحط، وشكوا إلى رسول الله ﷺ، أنزل الله هذه الآية: **﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾**».

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧]:

يعني أولئك الذين تدعون من دون الله كعيسى والعزير والملائكة الذين زعمتم أنهم بنات الله، هؤلاء جميعاً يتوسلون إلى الله ويتقربون إليه.

﴿وَأَن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الإسراء: ٥٨]:

هل سيفني الله كل قرية قبل يوم القيامة؟ يجب الطاهر بن عاشور بما مختصره: «المрад: القرى الكافر أهلها، لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧]، وليس المقصود شمول ذلك القرى المؤمنة؛ لأن ذلك معارِضٌ لآيات أخرى؛ ولأنه منافع لغرض تحذير المشركين من الاستمرار على الشر».

﴿وَمَا تُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩]:
ومن الآيات كسوف الشمس وخسوف القمر، فلا بد بعد مشاهدة هاتين الظاهرتين أن نكون أكثر خوفاً من الله وأحسن عملاً.

﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠]:
قال ابن عباس: هي رؤيا عين أريها النبي ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس، إذ رأى بيت المقدس ورأى غيرهم وحال رجالهم، فوصفه لهم، فكان الأمر كما وصف، وكان ما رآه ﷺ فتنة للناس، فارتد بعضهم عن الإسلام، وتردد آخرون في قبوله.

﴿وَالشَّجَرَةُ الْمَلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ [الإسراء: ٦٠]:
والشجرة عطف على الرؤيا، فكلاهما كان فتنة للناس، والشجرة هي شجرة الزقوم، فروي أن أبا جهل قال: «زعم صاحبكم أن نار جهنم تحرق الحجر، ثم يقول بأن في النار شجرة لا تحرقها النار»، وروي أن بعضهم قال: إن الزقوم هو التمر بالزبد بلغة أهل اليمن، وأن أبا جهل أمر جارية فأحضرت تمرًا وزبدًا وقال لأصحابه: تمزقوا، فكانت شجرة الزقوم سبب فتنتهم وانصرافهم عن الإيمان.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا﴾ [الإسراء: ٦٠]:
آيات الله الزاجرة إن لم تزد في إيمانك كانت وبالا عليك، وأدّت إلى قسوة قلبك، وقادت لاجترائك على محارم الله.

﴿قَالَ أَاسْجُدْ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦٤]:

يقول إسماعيل حقي:

«وبشؤم الاعتراض على الله في فعله لعن إبليس، وقد اتفقت كلمة أهل الحق على أن الاعتراض على الله الملك الحق في فعله، وما يُحْدِثُهُ في خلقه كُفْرٌ، فلا يجترئ عليه إلا كافر وجاهل ضال، وكذا الاعتراض على النبي ﷺ، فإنه إنما يقول عن الحق لا عن الهوى، فالاعتراض عليه اعتراض على الحق، وفيه الهلاك».

﴿لَأَحْتَنِكَ زُرِّيْتَهُ﴾ [الإسراء: ٦٢]:

قال ابن جزى: «معناه لأستولين عليهم ولأقودنهم، وهو مأخوذ من تحنيك الدابة، وهو أن يشد على حنكها بحبل فتتقاد معه».

﴿قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْفُورًا﴾

[الإسراء: ٦٣]:

﴿فَأِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُ مَنْفُورٍ﴾ وهي صيغة خطاب لمن حضر مع أنه قدّم ذكر الغائب حين قال: ﴿فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾، تغليباً لجانب المخاطب - وهو إبليس - على جانب الغائب وهم أتباعه؛ لأنه سبب إغواء هؤلاء الأتباع.

﴿وَاسْتَفْزَزَ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]:

مَنْ الْفَزَ، والفز هو «ولد البقرة الوحشية لما فيه من عدم السكون والفرار»، وتستنهض ولدك الذي تكاسل، وتقول له: فز يعني انهض، والمعنى: استنهض أيها الشيطان من استطعت (بصوتك) أي بوسوستك، سواء أكان هذا الصوت من جندك من الأبالسة مثلك، أم جندك من شياطين الإنس الذين يعاونونك.

﴿وَاسْتَفْزَزَ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ﴾ [الإسراء: ٦٤]:

يتحدى الله بها إبليس، بأن بعض عباد الله لا يستطيع الشيطان غلبته والانتصار عليه مهما فعل! اللهم اجعلنا منهم.

﴿٤٣٨٩﴾ كَأَن اللّٰهُ يَقُولُ لِعَدُوِّهِ إِبْلِيسَ:

افعل ما بدا لك.. كِدْ وامكر.. دَبِّرْ وخطِّط.. فكل مكرك عليك.. وكل خططك ضدك.. وسيفك قاتلك.. وسهمك راميك.. ولن توقف دعوة الله مهما فعلت وحاولت، وهذه طمأنة لكل مؤمن أنه لن يضره كيد إبليس ما دام بالله معتصماً.

﴿٤٣٩٠﴾ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴿[الإسراء: ٦٤]:

هذه معركة حقيقية، فأجمع يا إبليس لبني آدم كل ما استطعت من وسائل الفتنة والإغواء لإضلالهم، وهو تمثيل لحال الشيطان الذي يحاربنا بمختلف قواته وكافة فصائل جيشه من فرسان ومشاة!

﴿٤٣٩١﴾ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ ﴿[الإسراء: ٦٤]:

مشاركة الشيطان للإنسان في المال بثلاثة أشياء:

- الطلب المحرم: بأن يطلب زيادة المال عن طريق ربا، أو قمار، أو سرقة، أو غصب، أو غش، أو رشوة، أو بيع حرام كالخمر ونحوه.
- الإنفاق المحرم: مثل ما يُعطى الكاهن أو العراف أو الساحر، أو مهر البغي، أو شراء خمر، أو يسافر لمواطن ينفق فيها ما يلبي شهواته ونزواته المحرمة، أو يقع في الإسراف والتبذير الذي يلحقه بزمرة الشياطين.
- المنع المحرم: مثل منع الزكاة المفروضة، وعدم أداء حج الفريضة، وعدم الوفاء بالنذر، والتقصير في النفقة على النفس والأهل.

﴿٤٣٩٢﴾ إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿[الإسراء: ٦٥]:

طريق التخلص من أغلال الشيطان سهل يسير: العبودية لله والاستعانة به!

﴿٤٣٩٣﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزَيِّجُ لَكُمْ الْفَلَاحَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ

كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿[الإسراء: ٦٦]:

تعرف الله إلى عباده بنعمه كي يحبوه، فإذا أحبوه أطاعوه، فإذا أطاعوه أدخلهم الجنة، وهذا من تمام رحمته وعظيم فضله.

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]:

الكفور صيغة مبالغة من الكفر، أي كثير الكفر، وله معنيان:
الأول: أن أكثر الناس اليوم هم أهل الشرك.

الثاني: أن كل عبد غير خالٍ من الكفران حتى المسلم، فصيغة المبالغة هنا راجعة لكثرة أحوال كفران العبد، وعدم شكر النعمة سهواً أو غفلة أو ضلالاً؛ بأن يسند العبد النعمة إلى أسبابها المادية لا إلى المنعم بها سبحانه.

﴿أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ تَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٨]:

هذا فصل من فصول مدرسة الخوف، ومن تعريفات الخوف: ترقب العقوبات مع مجاري الأنفاس كما في تعريف الجنيد.

أعرف الخلق بالله أخوفهم من الله؛ وبسبب هذا قال النبي ﷺ: «إنما أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له». صحيح البخاري.

﴿أَمْرٌ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [الإسراء: ٦٩]:

القاصف: الريح التي تقصف كل شيء، والله يخاطبهم: هل أمنتُم بعد أن نجاكم الله من الغرق ثم كفرتم به، أن يعيدكم للبحر مرة أخرى، وقال ﴿يُعِيدُكُمْ فِيهِ﴾، ولم يقل (إليه) للإشعار باستقرارهم فيه، ثم يرسل عليكم ريح تغرقكم بكفركم، فقد كفرتم بالوحيته أولاً، ثم كفرتم بنعمة إنجائه لكم من الغرق ثانياً، فإن أغرقكم اليوم فلن تجدوا لكم تبعاً يطالب بشاركم ودمائكم، وهذا ارتقاء في التهديد بعدم وجود من ينقذهم، بعد أن هددهم بالغرق لأن الغريق قد يجد له منقذاً.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]:

امتنَّ الله على عباده في هذه الآية بخمس منن: التكريم، وتسخير المراكب في البر، وتسخير المراكب في البحر، والرزق من الطيبات، والتفضيل على كثير من المخلوقات.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]:

تعددت أقوال المفسرين في المراد بهذا (التكريم)، فقال ابن عباس: كَرَّمَهُم بالعقل، وقال الضحاك: بالنطق، وقال عطاء: بتعديل القامة وامتدادها، وقال زيد بن أسلم: بالمطاعم والملاذات، وقال الطبري: بالتسلط على غيرهم من الخلق وتسخيرهم لهم، وقال محمد بن كعب: بجعل محمد ﷺ منهم. قال الألوسي: «والكل في الحقيقة على سبيل التمثيل؛ ومن ادعى الحصر في واحد.. فقد ادعى غلطاً، ورام شططاً، وخالف صريح العقل، وصحيح النقل».

لا بد من وجود فرق بين (التكريم) و(التفضيل)، وإلا كان تكراراً، وقد أجاب الرازي عن هذا، فقال: «الأقرب أن يقال: إنه تعالى فَضَّلَ الإنسان على سائر الحيوانات بأمور خَلْقِيَّةٍ طبيعية ذاتية، مثل: العقل، والنطق، والخط، والصورة الحسنة، والقامة المديدة، ثم إنه تعالى عَرَّضَهُ بواسطة ذلك العقل والفهم لاكتساب العقائد الحقة، والأخلاق الفاضلة، فالأول هو التكريم، والثاني هو التفضيل».

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]:

قال القشيري في لطائف الإشارات:
«ومن التكريم: أنهم متى شاءوا وقفوا معه على بساط المناجاة.
ومن التكريم: أنه على أي وصف كان من الطهارة وغيرها، إذا أراد أن يخاطبه خاطبه، وإذا أراد أن يسأل شيئاً سألته.
ومن التكريم: أنه إذا تاب ثم نقض توبته ثم تاب يقبل توبته، فلو تكرر منه جُرْمُهُ ثم توبته يضاعف له قبوله التوبة وعفوه.
ومن التكريم: أنه إذا شرع في التوبة أخذ بيده، وإذا قال: لا أعود - يقبل قوله، وإن علم أنه ينقض توبته.
ومن التكريم: أنه زينَ ظاهرهم بتوفيق المجاهدة، وحسَّن باطنهم بتحقيق المشاهدة».

ومن التكريم: أنه أعطاهم قبل سؤالهم، وغفر لهم قبل استغفارهم، كذا في الأثر: «أعطيتكم قبل أن تسألوني، وغفرت لكم قبل أن تستغفروني».

ومن تكريم: جملتهم أنه قال لهم: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾، ولم يقل ذلك للملائكة ولا للجن.

ومن التكريم: قوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾

ومن التكريم ما ألقى عليهم من محبة الخالق حتى أحبوه.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]:



قواعد التفضيل عند العلماء:

ذهب جمهور العلماء إلى أن خواص البشر - كالمرسلين - أفضل من خواص الملائكة.

والصديقون من البشر أفضل من عوام الملائكة.

وخواص الملائكة أفضل من عامة البشر.

وعامة الملائكة أفضل من عامة البشر من غير الصديقين وأمثالهم.

ولبعض البشر نوع ميزة على الملائكة؛ ومن ثم قال بعضهم: إن جنس البشر هو أكرم الأجناس على الله.

قال النسفي في تعليل ذلك:

وهذا لأنهم مجبولون على الطاعة، ففيهم عقل بلا شهوة، وفي البهائم شهوة بلا عقل، وفي الآدمي كلاهما، فمن غلب عقله شهوته فهو أكرم من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم.

﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ﴾ [الإسراء: ٧١]:



رجح ابن كثير القول بأن الإمام هو كتاب الأعمال، لقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ

أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾، وما رجحه رحمه الله هو الصواب؛ لأن القرآن يُفسر بعضه بعضا.

﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ [الإسراء: ٧٢]:

ليست وَصْفًا، وإنما تفضيل لعمى الآخرة على عمى الدنيا، أي أنه في الآخرة أشدَّ عمى، وعماه في الدنيا عمى بصيرة، لكنَّ عماه في الآخرة عمى بصر.

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢]:

سين: معلوم أنه كان ضالًّا في الدنيا، فكيف يكون أضلَّ في الآخرة؟
جيم: لأنَّ ضلاله في الدنيا كان يمكن تداركه بالرجوع إلى الحق، وأما ضلال الآخرة فلا يمكن تداركه.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيتَ إِلَيْكَ لَيَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرُهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣]

هنا إثبات لعصمة النبي ﷺ، فقولك: كاد زيد يفعل معناه أنه لم يفعل. قال ابن عباس: «كل شيء في القرآن كاد، وأكاد، ويكاد، فإنه لا يكون أبدا».

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]:

قال قتادة: لما نزلت هذه الآية، قال النبي ﷺ: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

والركون هو أدنى الميل، فنفى الله عن نبيه الشيء اليسير من الركون، فلم يقترب ﷺ أدنى الأدنى من الميل إلى المشركين، وهذا صريح في أن النبي ﷺ لم يهَمَّ بإجابتهم.

﴿وَلَوْلَا أَنْ تُبَيِّنَنَّكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]:

أكمل الخلق مفتقر إلى تثبيت الله، وهو القائل ﷺ: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين»، فكيف بغيره؟!

﴿إِذَا لَا أَذُقْنَلَكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا

نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٥]:

هذا الوعيد موجه إلى من؟! إلى خير الخلق المعصوم ﷺ! فلا محابة في المبدأ، ولو كان مع رسول الله؟ إنه القانون الصارم الساري على الجميع، وهو جدير

أن يبعث الخوف في قلب كل مؤمن من أدنى مداهنة على حساب دينه، فهي سبب جالب لغضب الله وعذابه.

﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا

نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٥]:

يُضاعف العقاب على من زاغ بقدر علمه، وأن هبوط الأكابر على حسب صعودهم، وأن أخطاء الأوبة وإن قلت جلت.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ [الإسراء: ٧٦]:

إخراج الأنبياء والمصلحين من ديارهم سنة الطغاة، كانت وستبقى.

﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبُثُونَ

خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٦]:

قال مجاهد: «ذهبت قريش إلى هذا، ولكنه لم يقع منها لأنه لما أراد الله سبحانه استبقاء قريش، وألا يستأصلها، أذن لرسوله في الهجرة، فخرج من الأرض بإذن الله، لا بقهر قريش، واستبقيت قريش لئيسلم منها ومن أعقابها من أسلم».

﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٧]:

أي عادة الله في كل رسول أخرجه قومه أن لا يبقوا بعده، خرج هود من ديار عاد إلى مكة، وخرج صالح من ديار ثمود، وخرج إبراهيم ولوط وهلك أقوامهم، وقد سنَّ الله هذه السنة لرسوله لأن تأمر أقوامهم على إخراجهم يستدعي أمره لهم بالهجرة؛ كي لا ينظر الناس إلى رسلهم بعين الاستصغار.

﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨]:

هي صلاة الفجر، وسميت قرآناً، لمشروعية إطالة القرآن فيها أطول من غيرها، ولفضل القراءة فيها حيث يشهدها الله وملائكة الليل وملائكة النهار.

في صحيح مسلم حديثان عن تطويل القراءة في صلاة الفجر:

عن جابر بن سمرة رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر ب (ق والقرآن المجيد)».

وعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يقرأ في الفجر ما بين الستين إلى المائة آية».

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ﴾ [الإسراء: ٧٩]:

قال البغوي: «قم بعد نومك، والتهجد لا يكون إلا بعد النوم، يقال: تهجد إذا قام بعد ما نام»، وكان التهجد فريضة على النبي ﷺ وعلى أمته، لكن نُسخ هذا في حق الأمة، وبقي واجباً قائماً في حق نبينا ﷺ.

﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]:

قال ابن عطية: «ظاهر هذه الآية والأحسن فيها أن يكون دعاء في أن يحسن الله حالته في كل ما يتناول من الأمور، ويحاول من الأسفار والأعمال ويتنظر من تصرف المقادير في الموت والحياة، فهي على أتم عموم، معناه: رَبِّ أَصْلَحْ لِي وَرُدِّي فِي كُلِّ الْأُمُورِ وَصَدْرِي، وذهب المفسرون إلى أنها في غرض مخصوص، ثم اختلفوا في تعيينه».

﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ [الإسراء: ٨١]:

لا يزهق (باطل) إلا إذا خنقته يد أهل الحق.. مضى زمن المعجزات.

﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]:

مهما أمدوه بأسباب الحياة، فإن روح الباطل سوف تُزهق، الباطل سيموت! ويشمل هذا كُلَّ باطل في أي زمان ومكان.

﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]:

من صفات الباطل الثابتة أنه زهوق، فإذا غلب، فما هذا لقوته، بل لعب و تقصير أهل الحق الذين يواجهونه.

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ﴾ [الإسراء: ٨٢]:

يشمل ذلك كونه شفاء القلب من أمراضه، كالشك والنفاق، وكونه شفاء للأجسام إذا رُقِّي عليها به، كقصة الذي رقى الرجل اللديغ بالفاتحة، فشفاه الله، وهي قصة صحيحة مشهورة.

القرآن شفاء، فمرضك على قدر بعدك عن مصحفك، وصحتك على قدر أخذك من القرآن.

﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [سورة الإسراء: ٨٢]:

قال الحسن: والله ما جالس القرآن أحدًا إلا قام من عنده بزيادة أو نقصان، ثم قرأ هذه الآية.

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]:
قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «قرأت القرآن من أوله إلى آخره، فلم أر فيه آية أرجى وأحسن من قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾، فإنه لا يشاكل بالعبد إلا العصيان، ولا يشاكل بالرب إلا الغفران».

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]:
الشاكلة تأتي بمعنى الأخلاق. قال ابن القيم:
«أي على ما يشاكله ويناسبه، فهو يعمل على طريقته التي تناسب أخلاقه وطبيعته، وكل إنسان يجري على طريقته ومذهبه وعادته التي ألفها وجبل عليها، فالفاجر يعمل بما يشبه طريقته من مقابلة النعم بالمعاصي والإعراض عن النعم، والمؤمن يعمل بما يشاكله من شكر النعم ومحبة والثناء عليه والتودد إليه والحياء منه والمراقبة له وتعظيمه وإجلاله».

﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ [الإسراء: ٨٤]:
قال ذو الأصبغ العدواني:

كُلُّ امْرِئٍ صَائِرٌ يَوْمًا لِشَيْمَتِهِ وَإِنْ تَخَلَّقَ أَخْلَاقًا إِلَى حِينٍ
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]:

في الآية توجيه تربوي، فهي تردع من يسأل المسائل التي لا يُقصد بها إلا التعنت والجدال، وفيها كذلك إرشاد المسؤول إذا سئل عن أمر لا يفيد السائل، لكي يُعرض عن جوابه، ويدله على ما يحتاج إليه وينفعه.

﴿وَمَا أوتِيتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]:

خاطب النبي ﷺ بهذه الآية المعاصرين له منذ ما يزيد على ألف وأربعمائة عام، ولا تزال الآية تخاطبنا، وستخاطب من بعدنا إلى قيام الساعة مع ما توصلت إليه البشرية من تطور تكنولوجي وعلوم، وكأنه الله سبحانه يقول: يا ابن آدم، تواضع، واعرف قدرك، والزم غرزك.

﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنُدْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾

﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٦-٨٧]:

امتنان عظيم من الله على نبيه وأمه من بعده ببقاء القرآن محفوظاً، بعد المنة العظيمة بتنزيله، وهاتان النعمتان متلازمتان، يلزم على كل عبد القيام بشكرهما.

﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]:

هنا أعظم تحدٍّ على وجه الكون!

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَلَّىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٨٩]:

والتصريف وجهان: أحدهما: كرّرنا في هذا القرآن من المواعظ والأمثال، والثاني: نوّعنا بين المواعظ باختلاف أنواعها.

وقدّم ذكر الناس هنا تنبيها للناس، وليهتموا بتفهم القرآن وتدبره، وسبب

آخر للتقديم: أن الآية وردت بعد قول: ﴿قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ

عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ﴾، فناسب تقديم ذكر الناس وقيام الحجة

عليهم بعجزهم عن الإتيان بمثله.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا

رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]:

كيف تطلبون أيها الجاهلون أن يكون رسولكم ملكاً، وتستبعدون أن يكون

بَشْرًا؟! فَمَا مَنَعَهُمُ مِنَ الْإِيمَانِ إِلَّا اسْتِغْرَابُ أَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ لَهُمْ بَشْرًا مِثْلَهُمْ، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ يُوسُفَ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾.

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشْرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤]:

فِي الْآيَةِ تَسْلِيَةٌ وَمَوَاسَاةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَّهُ لَيْسَ وَحْدَهُ مَنْ كُذِّبَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ، فَالرَّسُلُ الْمُتَقَدِّمُونَ كُلُّهُمْ مِنَ الْبَشَرِ، فَإِذَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِكَ يَا مُحَمَّدٌ، فَيُلْزِمُهُمْ إِلَّا يُؤْمِنُوا بِكُلِّ رَسُولٍ قَبْلَكَ، فَتَكْذِيبُهُمْ لَكَ تَكْذِيبٌ لِّكُلِّ مَنْ سَبَقَكَ مِنَ الرُّسُلِ، فَلَا يَسُوؤُكَ أَمْرُهُمْ.

﴿قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَّمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٥]:

قَالَ الْأَلُوسِيُّ: «يَعْلَمُهُمْ مَا لَا تَسْتَقِلُّ عَقُولُهُمْ بِعِلْمِهِ، وَلَيْسَهُلَّ عَلَيْهِمُ الْاجْتِمَاعُ بِهِ، وَالتَّلَقِّيُ مِنْهُ، وَأَمَّا عَامَّةُ الْبَشَرِ فَلَا يَسْهَلُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ، لِبَعْدِ مَا بَيْنَ الْمَلِكِ وَبَيْنَهُمْ».

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٦]:

مَا أَعْظَمَ هَذِهِ التَّسْلِيَةَ مِنَ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ، فَاللَّهُ هُوَ الشَّهِيدُ وَالْأَعْلَمُ بِالْمَحْقِ مِنَ الْمَبْطَلِ، فَقُلْ لَهُمْ يَا مُحَمَّدٌ: اللَّهُ هُوَ الشَّهِيدُ وَالْحَاكِمُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ يَوْمَ نَلْقَاهُ؛ لِأَنَّ الشَّهَادَةَ تَكُونُ قَبْلَ الْحُكْمِ، وَاللَّهُ شَهِيدٌ لِّي، وَظَرْفُ ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ يَنْسَبُ تَفْسِيرُ مَعْنَى الشَّهَادَةِ بِالْحُكْمِ.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ [الإسراء: ٩٧]:

فِي حَدِيثِ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، الَّذِينَ يَحْشُرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ، أَيَحْشُرُ الْكَافِرُ عَلَىٰ وَجْهِهِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرَّجُلَيْنِ قَادِرًا عَلَىٰ أَنْ يَمْشِيَهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟» قَالَ قَتَادَةُ حِينَ بَلَغَهُ الْحَدِيثُ: بَلَىٰ وَعِزَّةُ رَبِّنَا. أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَٰ وَبُكْمًا وَصُفًا﴾ [الإسراء: ٩٧]:

سين: إن قيل: كيف وصفهم بأنهم عمي وبكم وصم وقد قال: ﴿وَرَاءَ الْمَجْرُمُونَ النَّارَ﴾ [الكهف-٥٣] وقال: ﴿دَعُوا هَٰذَا لَكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان-١٣] وقال: ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان-١٢] أثبت الرؤية والكلام والسمع؟
جيم: يحشرون عميانا، ثم تعاد إليهم حواسهم إذا دخلوا النار.

﴿ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء: ٩٨]:

لا شك أن ذكر العقاب الفظيع في الآية السابقة يثير في النفس استبشاع الجزاء والاستعلام عن السبب، فعرض الله هنا سببان وهما: الكفر وإنكار البعث، لنعلم أن ما حاق بالكافرين كان عدلاً لا ظملاً، ومناسبٌ تمام المناسبة لطبيعة ذنبهم.

كذبوا بالإعادة بعد الإفناء، فجعل الله عقابهم أن سلط النار على أجسادهم تأكلها ثم يعيدها، ولا يزالون على تلك الحال؛ ليزداد تحسرهم على إنكارهم البعث.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَلَىٰ الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الإسراء: ٩٩]:

في قوله: ﴿قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ قولان:

القول الأول: قادر على أن يخلقهم ثانياً بعد موتهم، فعبر عن خلقهم ثانياً بلفظ المثل.
القول الثاني: قادر على أن يخلق عبيداً آخرين يوحدهونه ويقرون بكمال حكمته وقدرته، ويتركون ذكر هذه الشبهات الفاسدة، فهو كقوله: ﴿وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٩].

﴿قُلْ لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَنُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]:

﴿خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾. قال قتادة: مخافة الفقر، فالإنسان جُبِلَ على البخل خوفاً من افتقاره، حتى ولو أُوتِيَ خزائن السماوات والأرض وهي لا نهائية، وتفرد بها دون وجود من يزاحمه عليها.

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]:

والبخل على الغير، فإن كان على النفس فهو التقدير، وهو عيب واضح ونُحْز. يقول الشاعر في التندر على أمثال هؤلاء:

يُقْتَرَّ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ بَبَاقٍ وَلَا خَالِدٍ
فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لَتَقْتِيرَهُ تَنْفَسَ مِنْ مَنْخَرٍ وَاحِدٍ!

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١]:

وهذه الآيات هي: العصا، واليد، والسنون، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم. قال ذلك ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، ولا ينافيه أن موسى أوتي أكثر من ذلك من آيات؛ لأن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد.

﴿فَسَلَّ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ [الإسراء: ١٠١]:

قال الآلوسي: «فاسأل يا محمد مؤمني أهل الكتاب عن ذلك، إما لأن تظاهر الأدلة أقوى - في التثبيت -، وإما من باب التهيج والإلهاب، وإما للدلالة على أنه أمر محقق عندهم ثابت في كتابهم».

﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]:

شأن الطغاة في كل زمان ومكان، حين يرون قوة الحق ونصاعة حجته، وضعف منطقهم وضلاتهم، أن يرموا أهله - زورا وبهتانا - بكل نقيصة.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ بِفِرْعَوْنٍ مُّثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]:

سرعة وقوة رد موسى على كذب فرعون مذهل، فالحق أبلج والباطل لجلج. والمثبور أي هالك مُدْمَر، أو بمعنى: مصروفاً عن الخير، من قولهم: ما تبرك عن هذا الأمر؟ أي: ما الذي صرفك ومنعك عنه؟ والمعنيان صحيحان، والمعنى: كل من صرفه الله عن الحق فهو هالك.

﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ [الإسراء: ١٠٣]:

أراد فرعون أن يطرد موسى وقومه من أرض مصر، وأن يهلكهم، فجاءت

النتيجة بالعكس، فأهلكه الله وجنده بالغرق، وأسكن من أراد طردهم الأرض التي أراد فرعون أن يستفزهم منها، فالآية تحكي سُنَّة من سنن الله في إهلاك الظالمين، وتوريث أرضهم وديارهم للمستضعفين .

قال الإمام ابن كثير عند تفسير هذه الآية:

«وفي هذا بشارة لمحمد ﷺ بفتح مكة؛ مع أن هذه السورة نزلت قبل الهجرة، وكذلك وقع، فإن أهل مكة هموا بإخراج الرسول ﷺ منها، كما قال تعالى: ﴿وَأِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾؛ ولهذا أورث الله تعالى رسوله مكة، فدخلها، وقهر أهلها، ثم أطلقهم حلماً وكرماً، كما أورث الله القوم الذين كانوا مستضعفين من بني إسرائيل، مشارق الأرض ومغاربها. وأورثهم بلاد فرعون».

﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الإسراء: ١٠٣]:

السادة والأتباع يسرون في طريق واحد، بدايته العمل، ونهايته الهلاك.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤]:

مجتمعين مُحْتَلِطِينَ من كل قبيلة، وطعامٌ لفيف: مخلوط من جنسين فصاعداً، فاللفيف هو الجمع من الناس غير المتجانس التي يجتمع من أماكن شتى، وأجناس متعددة، وهو ما عليه اليهود الذين يحتلون فلسطين اليوم .

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الإسراء: ١٠٥]:

والحق: الشيء الثابت الذي لا يطرأ عليه التغيير أبداً.

والمراد بالحق الأول ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ﴾: أنزلنا عليك القرآن متضمناً للحق، ففيه الأمر بالعدل والإنصاف ومكارم الأخلاق، والنهي عن كل ما هو مذموم، وفيه العقائد والأحكام التي لا تتبدل ولا تتغير، فشرعة الإسلام آخر الشرائع ولن تنسخها شريعة أخرى.

والمراد بالحق الثاني ﴿وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾: أي نزل إليك محفوظاً محروساً لم ينله تغيير أو تحريف، ولا زيادة أو نقصان، وخَصَّ القرآن بهذا لأن الكتب الأخرى نالها التحريف.

﴿لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ [الإسراء: ١٠٦]:

لا يكن همك آخر السورة! اقرأ قراءة مسترسلة بتدبر وتمهل، وإلا لم تكن ثمار الوحي، ولم تستخرج درر المعاني.

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾

[الإسراء: ١٠٧]:

العالم ليس بكثرة العلم بل بوجود البكاء. سئل الإمام أحمد عن معروف الكرخي: هل كان معه علم؟! فقال: كان معه أصل العلم، خشية الله عز وجل.

قال عبد الأعلى التيمي: «من أوتي من العلم ما لا يبكيه، لخليق أن لا يكون أوتي علماً ينفعه؛ لأن الله تعالى نعت العلماء ثم قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ﴾» [الإسراء: ١٠٧] إلى قوله ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ [الإسراء: ١٠٩].

﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾

[الإسراء: ١٠٧]:

قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوماً هذه الآية، فسجد وقال: هذا السجود فأين البكاء؟!

﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٨]:

هؤلاء هم الصالحون من أهل الكتاب؛ لأن الوعد ببعثة محمد سبق في كتابهم، فهم في انتظار إنجاز هذا الوعد، ومن هؤلاء: ورقة بن نوفل، ومنهم كذلك من آمن بعد نزول هذه السورة مثل عبد الله بن سلام، ففي الآية إخبار ببعض الغيب.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]:

بمعنى يسقطون على الأرض بدون إرادتهم، واستخدام هذه الكلمة بدلا من السجود ينطوي على إشارة لطيفة، هي أن ذوي القلوب الحية عندما يسمعون آيات القرآن يتأثرون به إلى درجة أنهم يسقطون على الأرض، ويسجدون خشيةً بدون وعي أو اختيار.

﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]

قال ابن عباس: «سمع أبو جهل النبي ﷺ يقول: يا الله يا رحمان، فقال أبو جهل: إنه ينهانا أن نعبد إلهين، وهو يدعو إلهًا آخر». أي أن المدعو إله واحد، وإن تعددت أسماءه الحسنى.

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠]:

قال ابن عباس: «نزلت ورسول الله ﷺ مخفف بمكة، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمع ذلك المشركون، سبوا القرآن، ومن أنزله، ومن جاء به، فأمره الله بالتوسط».

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الدَّلِيلِ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]:

- هذه الآية يسميها بعض العلماء: آية العز، وفيها تحمد الله على ثلاثة أمور:
- كونه سبحانه لم يتخذ ولدا؛ لأن من له ولد يخصه بالرعاية دون باقي خلقه، تنزه سبحانه عن ذلك، فالخلق جميعهم عياله، وكلهم عنده سواء، فليس من بينهم من هو ابن لله أو من بينه وبين الله نسب أو قرابة، بل أحبهم إليه تعالى ألقاهم له.
 - أن الله تعالى ليس له شريك في الملك حاشاه، فكم تكون حيرة العباد عندها، فأيهما يطيعون؟ وأيها يرضون؟
 - أن الله تعالى ليس له ولي أو ناصر ينصره من دُلِّ أصابه أو نزل به؛ لأنه سبحانه أقوى الأقوياء، وقاهر الجبابرة، ومذل الطغاة.



سورة الكهف

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١]:

إنزال القرآن من أعظم النعم التي تستوجب حمد الله؛ لذا حمّد الله ذاته العلية على هذه النعمة تذكيرًا لعباده بالحمد وتعليمًا لهم.

﴿هَذَا هُوَ الْحَمْدُ الْأَوْجِبُ وَالْأَهَمُّ﴾، فلو لا القرآن لزاغت القلوب، وتزلزل الإيمان، وتمكن الشيطان، واشتدت الأحزان.

﴿فَيَمَّا لَيِّنَدِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢]:

وصف الله القرآن بقوله: ﴿فَيَمَّا﴾ أي مستقيمًا لا ميل فيه ولا زيغ، وكل من حمله بحق سيكون مستقيمًا، لا ميل فيه ولا زيغ.

﴿لَيِّنَدِرَ بَأْسًا شَدِيدًا﴾ [الكهف: ٢]:

من أهم حِكَمِ إنزال القرآن الإنذار، فلا تُلغِ هذا الفصل من قاموسك بحجة سماحة الإسلام وعدم التشدد.

﴿فَلَعَلَّكَ بَخِيعُ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَاثِرِهِمَ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ [الكهف: ٦]:

كاد الهُمُّ أن يقتل نبينا لأجل هدايتنا، وبعضنا لا يزال غير مهموم بأمر هدايته!

﴿جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ﴾ [الكهف: ٧]:

كلُّ ما في الكون هو مجرد زينة غرضها الاختبار والابتلاء، وكلما زادت الزينة ازدادت صعوبة الاختبار، ونجاحك الحقيقي ألا تصرفك الزينة الفانية عن الآخرة الباقية.

﴿لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]:

لم يقل: (أكثر) لأن العبرة بالأحسن لا الأكثر!

٤٤٦٩ نَافَسْ أَعْمَالَكَ.. تَحَدَّ إِنجَازَاتِكَ، واحرص كل يوم أن تكون (أحسن) من اليوم الذي قبله، فمن راقب أعماله بغرض التقويم والتحسين، وَفَّقَ للخير كله.

٤٤٧٠ اجعل من دعواتك اليومية: «اللهم اهدي لأحسن الأعمال وأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت».

٤٤٧١ ﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ [الكهف: ٨]: كل ما في هذه الحياة من جمال وطيب أحوال فهو إلى زوال، إما بالقيامة الصغرى بالموت، أو القيامة الكبرى.

٤٤٧٢ ﴿أَمْرٌ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩]: ليس أمرهم عجيبيًا في قدرتنا. قال مجاهد: «قد كان في آياتنا ما هو أعجب من ذلك».

٤٤٧٣ ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٠]: ضيق الكهف أحب إليهم من سعة القصور وفاخر الدور، إن كانت ستنال من دينهم وطاعة ربهم.

٤٤٧٤ ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَبْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠]: الدعاء من أعظم أسباب النجاة من الفتن، وتأمل دعاء أصحاب الكهف، ثم واظب عليه.

٤٤٧٥ ﴿رَبَّنَا ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ [الكهف: ١٠]: واستجاب الله لهم وآتاهم رحمته، فوصلتهم بلا تأخير على العنوان الجديد، داخل الكهف: ﴿فَأَوْدَأَ إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾.

٤٤٧٦ ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى ءَاذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾ [الكهف: ١١]: لهذه الكون نواميس، متى أراد الله أن يخرقها خرقها، فهو لاء الفتية ناموا مئات الأعوام دون طعام أو شراب، ومع هذا ظلوا أحياء، ولم تتأثر حواسهم، أو تبلى أجسامهم؛ لأن الله أراد هذا.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ [الكهف: ١٢]:

أليس الله قد علم كل شيء قبل وقوعه؟! بلى، لكن العلم هنا علم مشاهدة لا مجرد علم غيب، ولا بد من خروج الحدث لعالم الشهادة والواقع لتقوم الحجة على الخلق.

العلم هنا متعلق بأي الحزبين المختلفين من الناس اختلافا في مدة لبث أصحاب الكهف، أيها أدق إحصاء وضبطا لمدة لبثهم.

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾ [الكهف: ١٣]:

قال ابن عباس: «ما بعث الله نبياً إلا وهو شاب، ولا أوتي العلم عالم إلا وهو شاب، وقرأ: ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾، ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ﴾، ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ﴾».

﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]:

ابداً أول خطوة في طريق الهداية، وسيأخذ الله بيدك، وسينعم عليك بالمزيد، فالحركة بركة، والبركة زيادة، ولا أحلى ولا أعظم من زيادة الكريم الوهاب.

﴿وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [الكهف: ١٤]:

قد يخونك قلبك أثناء سيرك، فتتعثر في طريق الحق، وقد يتسرب نور الإيمان من قلبك فيظلم، وما لم يربط الله على قلبك برباط الثبوت، فلا أمل لك في الثبات.

لا تغتر كثيراً بصلاح قلبك، فما سُمِّي القلب قلباً إلا من تقلبه، واجعل خوفاً من الزلل أعظم حافز لك على الأخذ بأسباب الثبات.

الربط على القلوب تصوير لقوة الإيمان، وكأنَّ الله أودع الإيمان في قلوبهم وربط عليه برباط محكم فلا سبيل لخروجه منها أو تزلزله.

﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطٰنٍ بَيِّنٍ﴾

[الكهف: ١٥]:

كل قول ليس عليه دليل مردود، فهلا أقاموا بيّنة على كون أصنامهم التي يعبدون آلهة؟! وهي دعوة لتحكيم العقل، وعدم التسليم للخرافات والأوهام.

﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ﴾ [الكهف: ١٥]:

قال الزمخشري: «وهو دليل على فساد التقليد، وأنه لا بد في الدين من حجة حتى يصحح ويثبت».

﴿وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦]:

مفارقة الأبدان لأماكن المعصية لون من الإنكار، وراحة لقلوب الأبرار، وصيانة لها من التعلق بالأوزار.

﴿فَأَوْدَأَ إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٦]:

سبحان من جعل السعادة في كهف، والشقاء في قصر.. سعادتك من داخلك لا من خارجك!

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ

تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ [الكهف: ١٧]:

من أثر الله في أمره ونبيه أثره الله في جميع شأنه، وهذه كرامة لأصحاب الكهف جزاء تضحيتهم في سبيل الله، فقد خرق لهم النظام الكوني، فكانت الشمس إذا طلعت تميل عنهم يمينًا، وعند غروبها تميل عنهم شمالًا، فلا ينالهم حرها ولا تؤذي أبدانهم، بينما هم نائمون في فجوة من الكهف أي متسع منه، يطرقهم فيه الهواء والنسيم العليل.

﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وََعْدُ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ

فِيهَا﴾ [الكهف: ١٨]:

كان الناس يتنازعون في زمانهم: هل تُعاد الأرواح دون الأبدان أم تُعاد الأرواح والأبدان؟ فجعل الله أمر هؤلاء الفتية آية لإعادة الأبدان، وأعثر عليهم أهل مدينتهم.

﴿مَا هَدَفَ الْعُثُورَ عَلَيْهِمْ؟! لَتَكُونَ آيَةٌ تَغْرُسُ الْيَقِينَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَإِنْ حَالَهُمْ فِي

نومهم وانتباههم بعدها، كحال من يموت ثم يُبعث، ومن توفي نفوسًا

وأمسكها ثلاثمائة سنين، ثم أعاد إليها الحياة، قادر على أن يتوفى أرواح الناس إلى أن يردها على أبدانهم يوم القيامة.

﴿وَكَلْبُهُمْ بَنِيسَطَ ذِرَاعِيهِ﴾ [الكهف: ١٨]:

كلبٌ حرس الصالحين وليس منهم، فخلد الله ذكره في كتابه، والرسالة: سر مع الصالحين وإن لم تكن منهم: «هم القوم لا يشقى جليسهم».

قال القشيري: «كلبٌ خطأ مع أحبائه خطوات، فإلى يوم القيامة يقول الصبيان بل يقول الحق سبحانه: ﴿وَكَلْبُهُمْ بَنِيسَطَ ذِرَاعِيهِ﴾، فهل ترى أن مسلماً يصحب أولياء الله من وقت شبابه إلى وقت مشييه، يرده الله يوم القيامة خائباً؟! إنه لا يفعل ذلك.

﴿وَكَلْبُهُمْ بَنِيسَطَ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨]:

الوصيد هو الباب. قال ابن كثير: «وكان جلوسه خارج الباب؛ لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب كما ورد في الصحيح».

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ﴾ [الكهف: ١٨]:

قال ابن القيم: «الغفلة نوم القلب، ولهذا تجد كثيراً من الأيقاظ في الحس نياماً في الواقع».

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ﴾ [الكهف: ١٨]:

إذا كنت مع الله، فستشملك رعايته في كل لحظة حتى في قلبك أثناء نومك.

الأخذ بالأسباب واجب!

قال السعدي: «وهذا أيضاً من حفظه لأبدانهم؛ لأن الأرض من طبيعتها، أكل الأجسام المتصلة بها، فكان من قدر الله، أن قلبهم على جنوبهم يميناً وشمالاً بقدر ما لا تفسد الأرض أجسامهم، والله تعالى قادر على حفظهم من الأرض، من غير تقليب، ولكنه تعالى حكيم، أراد أن تجري سنته في الكون، ويربط الأسباب بمسبباتها».

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩]:

في الحديث: «استعينوا على إنجاح الحوائج بالكتمان، فإن كل ذي نعمة محسود». صحيح الجامع رقم: ٩٤٣.

﴿أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ [الكهف: ١٩]:

قال ابن عباس: أحل ذبيحة، وكانوا يذبحون للطواغيت أو يذبحون الخنازير.

﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ [الكهف: ١٩]:

لم يقولوا: أيها أشهى طعامًا، ولا أيها أرخص طعامًا؛ لأن المؤمن يقوده إيمانه، لا ملذاته وشهوته، يعلمنا هؤلاء الفتية ترتيب الأولويات عند وجود الشبهات وغزو الشهوات.

﴿أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا﴾ [الكهف: ١٩]:

مطاردون ومهددون بالقتل، ومع هذا (أحرص) على (أزكى) طعام أي أكثره حلالًا، وليس أي طعام حلال.. ما أجمل أن تقتدي بهؤلاء.

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ [الكهف: ٢٠]:

لا تتعجب: هناك في هذا العالم المتحضر من يرغب في قتلك وتمزيقك بأشنع طريقة، فقط لأنك مسلم.

﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ [الكهف: ٢٠]:

نتيجة ظهور أهل الكفر على أهل الإسلام إما القتل أو الردة، وهو ما حدث ويحدث وسيحدث في كل زمان.

﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢]:

لا تهتم كثيرًا بالشكليات، وركّز على جوهر الموضوع وأصله.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]:

قال القرطبي: «عاتب الله نبيه ﷺ على قوله للكفار حين سأله عن الروح والفتية وذوي القرنين: غدا أخبركم بجواب أسئلتكم، ولم يستثن في ذلك،

فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوماً حتى شق ذلك عليه، وأرجف الكفار به، فنزلت عليه هذه السورة مفرجة. وأمر في هذه الآية ألا يقول في أمر من الأمور إني أفعل غداً كذا وكذا، إلا أن يعلق ذلك بمشيئة الله.

﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]:

أي: لا تقولن سأفعل غداً شيئاً إلا مع قولك (إن شاء الله)، وإذا نسيت ذكر المشيئة، ثم تذكرتها، فقلها عند تذكرك واستدرك.

﴿ذَكَرَ اللَّهُ هُنَا مَا يَعِينُكَ عَلَى التَّذَكُّرِ. كَانَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ يَقُولُ كَمَا يَحْدُثُ عَنْهُ أَحَدٌ تَلَامِذَتِهِ: «إِنَّهُ لَيَقِفُ خَاطِرِي فِي الْمَسْأَلَةِ أَوْ الشَّيْءِ أَوْ الْحَالَةِ الَّتِي تَشْكَلُ عَلَيَّ، فَاسْتَغْفِرُ اللَّهَ تَعَالَى أَلْفَ مَرَّةٍ أَوْ أَكْثَرَ أَوْ أَقَلَّ حَتَّى يَنْشُرَ الصَّدْرَ، وَيَنْحَلَّ إِشْكَالُ مَا أَشْكَلُ».

﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمَعْ﴾ [الكهف: ٢٦]:

هذا تعجب من سعة علم الله ومدح قدرته، فكأنه قال: ما أبصر الله وأسمعه. قال قتادة: لا أحد أبصر من الله ولا أسمع!! فلا تقلق والله يرفعك ويسمعك ويراك.

﴿وَأَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧]:

تسلّ - حين تتقلب عليك الأحوال وتتوالى الأحوال - بأنوار الآيات وأضواء الوحي، فخير ما يبذل ظلمة الأحزان أنوار الإيمان، والقرآن هو نبع هذه الأنوار.

﴿وَأَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ

دُونِهِ مُلْتَحِداً﴾ [الكهف: ٢٧]:

كان المشركون يقولون للنبي ﷺ: انت بقرآن غير هذا أو بدله، والتبديل يكون بالزيادة والنقصان، أو بإخفاء بعضه مما لا يرضون سماعه، وكأن أمر الرسالة عملية تفاوضية تهدف للالتقاء في منتصف الطرق! فنودي ﷺ: ﴿وَأَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبْدِلَ لِكَلِمَتِهِ﴾

﴿وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٢٧]:

قال الإمام النووي: «يستحبُّ لتالي القرآن إذا كان منفردًا أن يكون ختمه في الصلاة، ويستحبُّ أن يكون ختمه أول الليل أو أول النهار، وروى الدارمي في سننه عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: إذا وافق ختم القرآن أول الليل، صلّت عليه الملائكة حتّى يُصبح، وإن وافق ختمه أول النهار صلّت عليه الملائكة حتّى يُمسي».

﴿وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ

دُونِهِ مُلْتَحِدًا﴾ [الكهف: ٢٧]:

يشمل التلاوة اللفظية والتلاوة العملية، أما التلاوة اللفظية فمعلومة، وأما التلاوة العملية فأن تعمل بالقرآن، فإذا عملت به فقد تلوته.

﴿وَأَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ [الكهف: ٢٧]:

اقرأ كتاب ربك لتكون معانيه وحقائقه ملازمة لك، مستقرة في قلبك، وإذا كان هذا أمر الله إلى المعصوم الذي لا سبيل إلى زيغ قلبه، فكيف بمن أحاطت به الشبهات وأسباب الزيغ من كل الجهات؟!

﴿وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا﴾ [الكهف: ٢٧]:

الالتحاد من اللحد وهو الميل، والملتحد هو المكان الذي يميل إليه من يطلب ملجأ للنجاة.

وهي جملة تحذير ووعيد في شخص الرسول ﷺ، لكن المراد: كل من قصر في تلاوة كتاب الله، أو حاول تبديل ألفاظه أو أحكامه أو معانيه.

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الكهف: ٢٨]:

صُحبة الصالحين تحتاج إلى صبر، ولا بد من عدم مفارقتهم ولو للحظة: ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، فالالتفات لغير الصالحين قد يؤدي بصلاحك.

﴿مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨]:

أعظم علاج للغفلة: ذكر الله، لكنه ليس أي ذكر، إنما ذكر القلب؛ لأن الغفلة مصدرها القلب، وليس من الحكمة أن تعالج القنوات وتترك العين وأصل الداء.

﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا﴾ [الكهف: ٢٨]:

قال أبو حامد الغزالي: «الفاستق المُصِرُّ على الفسق، فلا فائدة في صحبته؛ لأن من يخاف الله لا يصير على كبيرة، ومن لا يخاف الله لا تُؤْمَنُ غائلته، ولا يوثق بصداقته، بل يتغيَّر بتغيُّر الأغراض».

﴿أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٨]:

ضَيَّقَ الظالمون على المؤمنين في الدنيا، وحاصروهم في أرزاقهم وأوطانهم، وأحاطوهم بسرادقات الإيذاء والعناء، فعاملهم الله بالمثل، وضَيَّقَ عليهم في الآخرة، وأحاطهم بسرادقات النار.

﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾ [الكهف: ٢٩]:

هذا الكلام وإن كان خارجاً مخرج التخيير، إلا أنه غاية التهديد والوعيد، وهي تدل على أن الله لا ينتفع بإيمان المؤمنين ولا يضره كفر الكافرين، بل نفع الإيمان وضرر الكفر يعود على العباد فحسب.

﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]:

هذه قاعدة عامة: الله لا يضيع أجر من أحسن، وهي تصلح أن تكون جارية على المؤمن والكافر؛ لذلك لم يَقُلْ: (إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ)؛ لأن الكافر قد يُحَسِّنُ العمل، فلا يبخسه الله تعالى حَقَّه، بل يوفِّيه حظه من الجزاء والثناء والعطاء في الدنيا.

﴿تُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١]:

من يحلبهم بالأساور؟ أي الحور العين؟ أم الملائكة؟ أم الولدان المخلدون؟ أم هو الله جل جلاله؟ أطلق لها خيالكم!

﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهَا

بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢]:

واضرب مثلاً لفريقين، لإظهار عاقبة حاليتين، عن طريق رجلين.

فالفريقان هما المؤمنون الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي، والكافرون الذين غرتهم الدنيا واستنكفوا عن مجالسة المؤمنين.

والحالتان: العصيان مع الغنى، والطاعة مع الفقر.

والرجلان: قيل هما رجلان من بني إسرائيل؛ أحدهما: كافر، والآخر: مؤمن.

﴿كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا﴾

٤٥٢٣

[الكهف: ٣٣]:

معناه: ولم تنقص منه شيئاً، فالأرض الميتة أخذت الماء فأعطت الثمار، فلم تظلم، وكثير من الأحياء أخذ نعم الله ولم يُعْطِ شيئاً، بل كان ظالماً، أنعم عليه فلم يشكر، فكان الجحاد أفضل منه!

﴿وَكَاثَ لَهُ ثُمَّ فَقَالَ لِمَصْحَبِهِ وَهُوَ مُتَحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ

٤٥٢٤

نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]:

هذا شأن من طمس الله بصائر قلوبهم، تزيدهم نعم الله بطراً لا شكراً، وشراً لا خيراً.

ما أصدق قول قتادة يصف أماني هؤلاء الفجار: «تلك - والله - أمنية الفاجر: كثرة المال وعزة النفس».

٤٥٢٥

افتخر رجلان عند علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: «أنتفخران بأجساد بالية، وأرواح في النار؟ إن يكن لكما عمل فلكما أصل، وإن يكن لكما خلق فلكما شرف، وإن يكن لكما تقوى فلكما كرم، وإلا فالحمار خير منكما، ولستما خيراً من أحد».

٤٥٢٦

بم كانوا يفخرون؟

٤٥٢٧

افتخرت قريش عند سلمان، فقال سلمان:

«لكني خلقت من نطفة قدرة، ثم أعود جيفةً مُتْنَةً، ثم يؤدّي بي إلى الميزان، فإن ثقلت فأنا كريم، وإن خفت فأنا لئيم».

٤٥٢٨

بم افتخروا؟!

افتخر الحيان الأوس والخزرج، فقالت الأوس: مِنَّا غَسِيلُ الملائكة حنظلة بن

أبي عامر، ومنا الذي حمته الدبر: عاصم بن ثابت، ومنا الذي اهتز لموته العرش سعد بن معاذ، ومنا من أُجيزت شهادته بشهادة رجلين: خزيمة بن ثابت، فقالت الخزرج: منا أربعة جمعوا القرآن على عهد رسول الله ﷺ: أبي، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾

[الكهف: ٣٥]:

أكثر ما يدفع إلى الظلم استبعاد الموت مع ظن دوام النعمة وعدم زوالها.

﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾

[الكهف: ٣٦]:

قال السعدي: «فأي تلازم بين عطاء الدنيا وعطاء الآخرة، حتى يظن بجهله أن من أُعطي في الدنيا أُعطي في الآخرة، بل الغالب أن الله تعالى يزوي الدنيا عن أوليائه وأصفيائه، ويوسعها على أعدائه الذين ليس لهم في الآخرة نصيب».

قال الإمام الرازي: «وهذا يدلُّ على أن الشاكَّ في حصول البعث كافر».

﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا﴾

[الكهف: ٣٧]:

أعظم الجحود أن تجحد من خلقك، وأبشع نكران للجميل ما كان تجاه من سَوَّاهُ فعدلك.

﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾

[الكهف: ٣٨]:

الفخر الحقيقي بالإسلام، والنعمة الباقية هي نعمة التوحيد، وكل ما عدا ذلك عرضة للزوال.

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾

[الكهف: ٣٩]:

روى هشام بن عروة عن أبيه أنه كان إذا رأى شيئاً يُعجبه أو دخل حائطاً (بستاناً) من حيطانه، قال: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، فمن أعجبه شيء من

حاله أو ولده أو ماله، فليقل: ما شاء الله لا قوة إلا بالله، وهو مأخوذ من هذه الآية الكريمة.

﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]:

معناها: الحُصُّ على الاعتراف بأن جنته وما فيها تحت مشيئة الله، إن شاء أبقاها، وإن شاء أبادها، وهذا حال المؤمن مع كل نعمة من نعم الله عليه.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَيُتَصَبَّحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ [الكهف: ٤٠]:

الله قادر في لحظة واحدة على أن يقلب حالك، فتصبح جنتك أرضاً «زلقا» أي جرداء ملساء لا تُخرج نباتاً، ولا تثبت عليها قدم، أي تصير عديمة النفع من كل شيء حتى من المشي عليها.

﴿أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٤١]:

لو غار الماء في باطن الأرض، وأراد الله حرمانك منه، فلن تستطيع الوصول إليه ولو طلبته بكل الآلات والمعدات، وإن كان الجسد يستطيع تحمل الحرمان من الطعام حتى ستة أسابيع، فإنه لا يستطيع تحمل الحرمان من الماء إلا من ثلاثة إلى خمسة أيام على الأكثر قبل أن يموت.

﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤]:

﴿خَيْرٌ ثَوَابًا﴾ لأن غير الله يثيب على العمل بمثله، ولكن الله يثيب عليه بعشرة أمثاله إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ﴿وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ جلّ جلاله؛ لأن من تولاه الله فاز في الدنيا والآخرة.

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٦]:

كلمة ﴿زِينَةٌ﴾ أي: ليست من ضرورات الحياة، بل مجرد شكل وزخرف؛ فالمؤمن يعيش سعيداً راضياً بما قسم الله له حتى لو كان بلا مال ولا ولد؛ بينما يشقى بعضهم بهاله أو ولده.

﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦]:

لأن المال والبنين لن يدخلا القبر معك، ولن يمنعا عنك العذاب، ولن ينفعك إلا الباقيات الصالحات.

﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٤٦]:

معنى هذا أن ما قبلها لم يكن من الباقيات بل زائل بزوال الدنيا، ووصف الباقيات لا يستحقه إلا ما ينفع في الآخرة.

﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٤٦]: قال عبد الله بن مسعود عن الصدقة: «من استطاع منكم أن يضع كنزَه حيث لا يأكله السوس، ولا يناله السرَق فليفعل».

﴿وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ﴾ [الكهف: ٤٧]:

أشد الزلازل تدميراً في الدنيا لا تستطع اقتلاع الجبال من جذورها، لكن كل شيء يوم القيامة مختلف، فيوم القيامة هو زلزال الزلازل الذي يفتت أقوى الجمادات، ويجعلها تطير مع السحاب.

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [الكهف: ٤٧]:

فلا بناء فيها ولا حجر ولا شجر، حتى لا يتوارى أحد، بل ينكشف الخلق جميعاً بين يدي الله، للحساب والجزاء.

﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨]:

إنه لم يغب عن الله منهم أحد في الدنيا ولو استتروا، لكنهم يوم القيامة أشد انكشافاً وافتضاحاً في يوم العرض الأكبر!

﴿وَعَرِّضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ [الكهف: ٤٨]:

ما أشبه تلك الحال بحال الجناة عرّضوا على السلطان، فلم يستطع أحد منهم التخفي، ولم يعد له مفرٌّ، وهم في الحقيقة صفوف، لكنه عبّر بالواحد عن الجميع كقوله: «ثُمَّ خَرَجْنَاهُمْ طِفْلاً»، لكنها صفوف لا يُخفي صفٌّ فيها الصف الذي يليه، فالجميع منفضح ومكشوف.

﴿وَيَقُولُونَ يَتَوَلَّاتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا

أُخْصِنَهَا﴾ [الكهف: ٤٩]:

ويلنا من هذا الويل!

قال التابعي عون بن عبد الله: «ضجَّ والله القوم من الصغار قبل الكبار!».

أشار الإمام البقاعي أن لام الجر رُسِمَت مفعولة (في الرسم العثماني: مال)، بدلاً من (ما لهذا)، إشارة إلى أنهم لشدة الكرب والخوف، لدرجة أنهم يقفون على بعض الكلام، فلا يسترسلون بالنطق به.

﴿أَفْتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ

بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠]:

قال ابن رجب:

«أنت المختار من المخلوقات، ولك أعدت الجنة إن اتقيت، فهي إقطاع المتقين، والدنيا إقطاع إبليس، فكيف رضيت لنفسك بالإعراض عن إقطاعك، ومزاحمة إبليس على إقطاعه؟! وأن تكون غداً معه في النار من جملة أتباعه، إنما طردناه عن السماء لأجلك، حيث تكبر عن السجود لأبيك وطلبنا قربك لتكون من خاصتنا وحزبنا، فعاديتنا وواليت عدونا!».

﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ

الْمُضِلِّينَ عَصْدًا﴾ [الكهف: ٥١]:

فن إقناع المخالف!

تخاطب هذه الآية العقل، وتتلطف بكل وسيلة في إقناع الخلق، وذلك بعدم استحقاق إبليس وذريته أن يكونوا أولياء، ففضلاً عن فسقهم عن أمر ربهم، فالله ما أشهدهم خلق السموات والأرض؛ ولا أشهد بعضهم خلق بعض، ولا استعان بهم حين خلق الخلق، فكيف تتخذونهم شركاء من دون الله؟! الله!

﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢]:

والموبق هو المهلك، أي أن الله جعل بين المشركين ومن اتخذوهم شركاء تواصلاً في الدنيا كان سبب هلاكهم في الآخرة، وذكر الإمام الرازي أن بعض المشركين اتخذوا من عيسى عليه السلام والملائكة آلهة، فدعواهم يوم القيامة فلم يستجيبوا لهم، ثم حيل بينهم وبين عيسى والملائكة، وأدخل عيسى الجنة، وصارت الملائكة إلى حيث أراد الله من دار الكرامة، ثم حصل بين أولئك الكفار وبين الملائكة وعيسى عليه السلام هذا الموبق، وهو وادٍ في جهنم.

﴿وَرَأَى الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾ [الكهف: ٥٣]:

رؤية العذاب يبعث في القلب الخوف منه قبل وصوله، فعندها لا يسمع لهم عذر، ولا تنفع لهم حيلة، ولا تقبل فيهم شفاعاة، ولا يؤخذ منهم فداء، وهذا كله يضاعف عليهم أثر العذاب.

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَر شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]:

لا يجوز التعلل بالقدر لتبرير ذنب أو القعود عن طاعة، وفي الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم طرق علياً وفاطمة ليلاً فقال: ألا تصليان؟! فقال علي: يا رسول الله.. إنما أنفسنا بيد الله إن شاء أن يبعثنا بعثنا، قال: فانصرف رسول الله حين قلت له ذلك ولم يرجع إلي شيئاً، ثم سمعته يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَر شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَر شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]:

قال ابن عمر: «ولن يصيب رجل حقيقة الإيمان حتى يترك المراء وهو يعلم أنه صادق، ويترك الكذب في المزاحه».

في النفس رغبة جامحة في الجدال والخصام؛ لذا فقاومها بهذا الحديث: «أنا زعيم بيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محققاً». صحيح الجامع رقم: ١٤٦٤.

٤٥٦ قال مهدي بن ميمون: سمعت محمدًا -يعني ابن سيرين- وماراه رجل في شيء - فقال محمد: «إني أعلم ما تريد؛ وأنا أعلم بالمرء منك؛ ولكني لا أماريك».

٤٥٧ ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَدَسْتَفِرُّوْا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥]:

ما منع الناس من الإيمان ضعف البيان، إنما منعهم العناد، ولو ظلوا على عدم الإيمان لجاءهم العذاب حتما بإحدى صورتين: عذاب الأمم السابقة بعذاب الاستئصال أو عذاب الآخرة.

٤٥٨ ما هي سُنَّةُ الأولين؟

الجواب: هي أخذهم بالعذاب العام، لكن لم يأخذ الله الأمة بعذاب الاستئصال؛ لأن النبي ﷺ دعا ربه ألا يهلك أُمَّته بِسُنَّةِ عامة، فأجاب الله دعاءه.

٤٥٩ ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ [الكهف: ٥٥]:

العذاب قُبُلًا هو الذي يرونه عيانا ومواجهة أو قُبُلًا أي ألوانًا متنوعة، وهذا تهديد وإنذار وتحذير وحثٌّ على المبادرة بالإيمان قبل فوات الأوان.

٤٦٠ لا تتعجب من إعراض الخلق! فبعض الناس لن يؤمنوا ولن يستغفروا إلا إذا نزل بهم عذاب دنيوي مهلك، أو مواجهة عذاب الآخرة وعلى عتبات النار.

٤٦١ ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦]:

* ومن جدال الكافرين بالباطل أنهم قالوا: يا محمد.. أخبرنا عن الشاة إذا ماتت من قتلها؟ قال: الله. قالوا: فتزعم أن ما قتلت أنت وأصحابك حلال، وما قتل الصقر والكلب حلال، وما قتله الله حرام (أي الميتة)؟

* ومن جدالهم: أنهم قالوا لما أنزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾: فالملائكة، وعزير، وعيسى،

يُعبدون من دون الله، فنزلت: ﴿لَوْ كَانَتْ هَتُؤُلَاءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُّوهَا﴾ أي الألهة التي يعبدون.

وغير ذلك كثير.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ [الكهف: ٥٧]:

كلما زاد ظلم العبد زاد نسيانه لذنبه وبعده عن ربه.

﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ﴾ [الكهف: ٥٨]:

تأخير العذاب من علامات رحمة الله، وهو إما إمهال للعبد كي يتوب، أو إقامة للحجة عليه إن أصرَّ على الذنوب.

﴿أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩]: مسألة وقت!!

﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩]: أصدر القرار، وأخفى موعد التنفيذ!!

﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩]: في مسند أحمد والترمذي: «من فرَّق بين والدها وولدها فرَّق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة». صحيح الجامع رقم: ٦٤١٢.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠]:

قوة تصميم وإرادة وتعهد على الاستمرار حتى يبلغ مجمع البحرين، طلباً للعلم، أو يمضي دهرًا طويلاً حتى يجد هذا العالم.

قال الرازي: «وهذا إخبارٌ من موسى بأنه وطَّن نفسه على تحمل التعب الشديد والعناء العظيم في السفر لأجل طلب العلم، وذلك تنبيه على أن المتعلِّم لو سافر من المشرق إلى المغرب لطلب مسألة واحدة لحقَّ له ذلك».

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: ٦١]:

قالوا: إن النبوة ليس من شروطها العصمة من النسيان البشري العادي، وهو نسيان لا يتعلق بالرسالة والوحي.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: ٦١]:

لما بلغا هذا المكان ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ أي نسيا خبر حوتهما، ونسيا تفقد أمره، وكان الله قد أوحى إلى موسى أن فقدان الحوت هو علامة المكان الذي سيلتقي فيه بالرجل الصالح، فأحيا الله الحوت، وسقط في البحر، واتخذ ﴿سَبِيلَهُ﴾ أي طريقه ﴿فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي طريق مثل السَّرب أي النفق في الأرض، حيث سار الحوت فيه، وظل أثره واضحًا مثل النفق.

﴿ءَاتَيْنَا غَدَاءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢]:

فيه استحباب إطعام الإنسان خادمه من طعامه، وأكلهما سويًا؛ لأن هذا ظاهر قوله: ﴿ءَاتَيْنَا غَدَاءَنَا﴾ بصيغة الجمع، مما يدل على أنها أكلا جميعًا.

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]:

قال القرطبي: «وفي هذا دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدح في الرضا، ولا في التسليم للقضاء لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط».

﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣]:

لماذا قال هنا: ﴿عَجَبًا﴾ بينما قال قبلها: ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: ٦١]؟

والجواب:

- ﴿عَجَبًا﴾: الواصف هنا هو الفتى يوشع بن نون، فقد رأى السمكة الميتة تدب فيها الحياة وتقفز في البحر، وهو أعجب ما رأى.
- ﴿سَرَبًا﴾: القائل هو الله سبحانه وتعالى.

﴿إَتَيْنَهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]:

قدّم الرحمة على العلم، فلو لا رحمتنا به ما علم شيئاً، أو المراد أن كل علم لا تصحبه الرحمة بالخلق فهو عين الجهل.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُسَدًا﴾ [الكهف: ٦٦]:

هذا أدب الطلب الذي يجب أن يتعلّمه كل طالب علم.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٦٧]:

قيلت لنبي من أولي العزم من الرسل!

والدرس هنا:

ستظل بعض حكمة الله في الأحداث غائبة عنك، مهما علا شأنك وقوي إيمانك.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨]:

سبب قلة الصبر هو قلة العلم، ولو زاد علم العبد بحكمة الرب ولطفه به لصبر.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٦٨]:

مظهر من مظاهر أدب المعلم مع تلميذه، حيث التمس له العذر مقدّمًا إن اعترض عليه.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩]:

تقديم المشيئة تأدب مع الخالق سبحانه، واستعانة به على الصبر، أدب يعلمنا إياه الأنبياء.

﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠]:

كلمة ﴿شَيْءٍ﴾ نكرة تدل على أن الخضر اشترط على موسى اشتراط العالم على الطالب ألا يبدأه بالسؤال، مهما رأى شيئاً غريباً غير مفهوم حتى يبدأه العبد الصالح بالحديث عنه، ووافق موسى على الشرط.

﴿أَخْرَجْنَاهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧١]:

كم خُرقت لنا في بحر الحياة سفن، فنجانا الرحمن بها من شر أكبر وضرر أعظم! ولم نعرف ذلك إلا بعد حين.

فيه إشارة إلى أن قلوب المؤمنين مجبولة على إنكار المنكر، ولا تتحمل الصبر عليه.

﴿أَحْرَقَتْهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الكهف: ٧١]:

قال القاسمي: «ولم يقل (لتغرقنا) ففسي نفسه واشتغل بغيره، في الحالة التي كل أحد فيها يقول (نفسي نفسي) لا يلوي على مال ولا ولد. وتلك حالة الغرق، فسبحان من جبل أنبياءه وأصفياه على نصح الخلق والشفقة عليهم والرافة بهم».

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧١]، ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤]:

في خرق السفينة استعمل كلمة «إِمْرًا»، وهو الأمر العجب، وفي قتل الغلام استعمل كلمة «نُكْرًا»، والذي لا يستعمل إلا في المذموم الذي يخرج عن المعروف في العقل أو الدين؛ لأن خرق السفينة التي لم يغرق فيها أحد أهون من قتل الغلام الذي هلك.



الجزء السادس عشر

سورة الكهف من الآية ٧٥

إلى سورة طه ١٣٥

عدد الفوائد: ٤٥٠

قال ابن القيم:

«ثواب قراءة الترتيل والتدبر أجل وأرفع قدرًا،
وثواب كثرة القراءة أكثر عددًا.

فالأول: كمن تصدّق بجمهرة عظيمة، أو أعتق عبدًا
قيمته نفيسة جدًا.

والثاني: كمن تصدّق بعدد كثير من الدراهم، أو أعتق
عددًا من العبيد قيمتهم رخيصة».

زاد المعاد ١- ٣٢٨

الجزء السادس عشر سورة الكهف من الآية ٧٥ إلى سورة طه ١٣٥

﴿وَرَاءَ الْمَجْرُمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣]:

عُرِضَ عليهم النار ليروا ما فيها من العذاب والنكال قبل دخولها، فيكون في ذلك عذاب نفسي معجّل بالهم والرعب، قبل العذاب الحسي في النار. قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها». صحيح الجامع رقم: ٨٠٠١.

﴿أَقْتَلْتُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الكهف: ٧٤]:

قال رسول الله ﷺ: «رحمة الله علينا وعلى موسى، لو صبر لرأى من صاحبه العَجَب». صحيح الجامع رقم: ٣٥٠١.. الصبر مفتاح باب العلم، ومن أسباب مزيده.

﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي

عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦]:

يرى القشيري وغيره أن الثلاثة آخر حدِّ القلّة، وأوّل حدِّ الكثرة.

﴿فَلَا تُصَحِّبْنِي﴾ [الكهف: ٧٦]:

إشارة إلى تواضع موسى ﷺ، فقد رأى أن الرجل الصالح أعلى منه منزلة، وإلا لقال: (فلا أصحابك) بدلاً من قوله: (فلا تصاحبني).

﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦]:

وهي أصل المثل السائر: قد أعذر من أنذر.

﴿فَارْتَدْتُ أَنْ أُعِيَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]:

ولم يقل فخرقتها، ليكون ذلك معبراً عن إرادة ونية مبيّنة وتصميم، وليس مجرد مصادفة أو فعل عابر.

﴿فَكَانَ أَبُوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا﴾ [الكهف: ٨٠]:

قال قتادة: «قد فرح به أبواه حين وُلِدَ، وحزنا عليه حين قُتِلَ، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب».

﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الكهف: ٨١]:

حَقَّقَ صفات الابن الصالح:

﴿زَكَاةً﴾: صلاحاً وطهارة واستقامة.

﴿رُحْمًا﴾: رحمة بوالديه.

﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ﴾ [الكهف: ٨١]:

الفقد قد يفتح باباً أروع من أبواب العطاء!

﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا﴾ ، ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾:

كل ما يجري حولك هو تنفيذ لإرادة الله، والواجب عليك أن تتعرف على حكمته في أقداره، ورحمته في أفعاله.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]:

أيها الأب.. اعرف قيمة صلاحك!

قال عمر بن عبد العزيز: «ما من مؤمن يموت إلاَّ حفظه الله في عقبه وعقب عقبه (أولاده وأحفاده)».

قال محمد بن المنكدر: «إن الله تعالى يحفظ المؤمن في ولده وولد ولده، ويحفظه في دويرته وفي دويرات حوله، فما يزالون في حفظ وعافية ما كان بين أظهرهم».

قال سعيد بن المسيب: «يا بني.. إني لأزيد في صلاتي من أجلك، رجاء أن

أحفظ فيك»، وتلا الآية: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾.. اجعل لصلاتك اليوم

نيات عديدة!

٤٥٩٨ تبلى عظامك، وتذروك الرياح، ولا يزال أثر صلاحك باقياً في دنيا الناس عن طريق ذريتك.. اللهم ارزقنا هذا النسل الصالح.

٤٥٩٩ حين أتكاسل عن الطاعة أتذكر أبنائي ومصائب الدنيا، وأتأمل: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾، وكيف أن صلاحه كان سبب حفظ كنزهم وتأمين مستقبلهم، فأرحمهم وأجتهد.

٤٦٠٠ ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣]:

قال البقاعي: «كانت قصة موسى مع الخضر مشتملة على الرحلات من أجل العلم، وكانت قصة ذي القرنين مشتملة على الرحلات من أجل الجهاد في سبيل الله، ولما كان العلم أساس الجهاد تقدمت قصة موسى والخضر على قصة ذي القرنين».

٤٦٠١ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٨٤]:

التمكين منحة إلهية وعطية ربانية، وقد مكّن الله لذي القرنين كما مكّن لبعض أنبيائه ورسله مثل: سليمان وداود، ولم يمكّن لبعض رسله كعيسى ويحيى وزكريا، وذلك لحكمة بالغة؛ أن الأمر كله بيد الله، لا بيد أحد من الخلق.

٤٦٠٢ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤-٨٥]:

الأخذ بالأسباب واجب لمن أراد الوصول. جاء في تفسير الرازي: «السبب في أصل اللغة عبارة عن الحبل، ثم استعير لكل ما يتوصل بها إلى تحصيل ذلك الشيء، وهو يتناول العلم والقدرة والآلة».

٤٦٠٣ ﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٥]:

معناه أن الله لما أعطاه من كل شيء سببه، فإذا أراد العبد شيئاً أتبع سبباً يوصله إليه، وهذا يعني أن ذا القرنين كان يخطط تخطيطاً جيداً، وله مهام محددة ينطلق لتحقيقها بوسائل محددة.

٤٦٠٤ تكرر نفس القول ثلاث مرات: ﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٥]، ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾

[الكهف: ٨٩]، ولا حظ أن كل عبارة هي آية كاملة، لتأكيد أهمية الأخذ بالأسباب.

٤٦٠٥ ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ

عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَبْدَأُ الْفَرْقَنِ إِنَّمَا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦]

الظاهر أن هؤلاء كانوا من أهل الفترة، فألهم الله ذا القرنين أن يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فيما أن تعذب هؤلاء الكافرين بالقتل أو غيره، أو تتخذ فيهم أمرًا حسنًا، والأمر الحسن هو دعوتهم إلى الإيمان.

٤٦٠٦ ﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا

وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧-٨٨]:

حرف الاستقبال في قوله: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ يشير إلى المهلة التي سيمنحهم إياها ليجبوه إلى الإيمان، فمن أصر منهم على الكفر عذبه، فلا عذاب إلا بعد دعوة وبلاغ، ومن آمن فله المثوبة الحسنى واللسان الجميل.

٤٦٠٧ يعلق صاحب الظلال قائلاً:

«هذا هو دستور الحاكم الصالح. فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحق عند الحاكم. والمعتدي الظالم يجب أن يلقي العذاب والإيذاء. وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه حسنًا، ومكانًا كريمًا وعونًا وتيسيرًا، ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة.. عندئذ يجد الناس ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج.

أما حين يضطرب ميزان الحكم فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى الحاكم مقدمون في الدولة، وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون، فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد، ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد».

﴿قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكَرًا﴾

[الكهف: ٨٧]:

الربط بين العذاب الدنيوي البشري وعذاب الآخرة الأشد، يشكّل عبرة لمن كان له قلب، وهو أسلوب يخاطب كل مؤمن بأن الدنيا ليست نهاية المطاف، وأن المحكمة ستعقد للظالمين مرة أخرى في الآخرة.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا

يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٨]:

وهنا يظهر أهمية مبدأ الثواب والعقاب، وما أجمل أن نرصد المكافآت التشجيعية والجوائز، ونقيم حفلات التكريم للتميزين، فذلك مما يشعل روح التنافس بين المجتهدين.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٩]:

لا بد من المداومة ومواصلة الرحلة لتحقيق الهدف، حيث لا راحة في الدنيا، والناس محتاجون لهداية هذا الدين وتعاليم رب العالمين.

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ

قَوْلًا﴾ [الكهف: ٩٣]:

أي لا يكاد هؤلاء القوم يفهمون ما يقوله الناس لهم؛ لغرابة لغتهم أو شدة تخلفهم، لكن كيف ذلك، وقد أثبت لهم القول: ﴿قَالُوا يَنْذَا الْقَرْنَيْنِ﴾.. [الكهف: ٩٤]؟!

يبدو أنه احتال وبذل جهداً كبيراً حتى يفهمهم ويفهمهم، فكان مثال المؤمن المصلح الحريص على دعوته، والذي لا يدخر جهداً للعمل الخير.

﴿قَالُوا يَنْذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ

لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الكهف: ٩٤]:

على الحاكم المسلم أن يتواصل مع رعيته، ولا يقيم بينه وبينهم حواجز وسدوداً، فإن فعل أحبوه وساندوه في تحقق مهامه.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥]:

ما بسطه الله لي من النعم والمال خيرٌ من مالكم الذي تعرضون عليّ، فوفّروا أموالكم.

﴿فَاعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: ٩٥]:

المصلح لا ينوب عن الأمة في الإصلاح، لكن يقودها ويتقدمها.

تلاحم القائد مع الجنود، ومشاركته لهم من أسباب بث الحماسة في صفوفهم وتقديمتهم أفضل ما لديهم.

﴿فَاعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ [الكهف: ٩٥]:

لم يكن موقفه أن يدافع عنهم، بل أن يعلمهم كيف يدافعون عن أنفسهم، ويورّثهم أسباب القوة ليستعملوها إن غاب عنهم.

أعطى ذو القرنين دروساً حضارية رائعة باقية إلى يوم القيامة، ومنها: أنه إذا صلح الرأس صلح الجسد.

﴿فَجَعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٤-٩٥]:

الردم أكبر من السد وأوثق، فلمروءته وكرمه وعدهم بأكثر مما طلبوه، ووفّى بوعد.

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥]:

على الحاكم المسلم أن يعطي أكثر مما يستحقه شعبه، فقد طلب القوم سداً، فبنى لهم ذو القرنين ردماً، وهو بناء أعظم من السد، وعمل فيه بنفسه.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ [الكهف: ٩٥]:

نسب ذو القرنين هذا العمل العظيم الذي قام به إلى رحمة الله، فلم يأخذه غرور وعُجب، بل تبرأ من حوله وقوته، ونسب الفضل كلّ الله.

﴿إِنِّي أَنَا نُزِيرُ الْحَدِيدَ﴾ ﴿حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ أَنفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ إِنِّي أَنفُخُهُ فِطْرًا﴾ [الكهف: ٩٦]:

زُبُر الحديد هي جمع زُبُرَة، وهي القطعة الصّخمة منه، والقطر هو النحاس المذاب، ولا شك أن الابتكار في التقدم الصناعي الذي بلغه ذو القرنين مكّنه

من صنع سبيكة صُلْبَة من الحديد والنحاس، فكان لها الفضل بعد الله في حماية الناس من شر يأجوج ومأجوج حتى اليوم.

﴿فَمَا اسْطَبْعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَبْعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧]:

هنا تبرز قيمة إتقان العمل، والوصول إلى الجودة المطلوبة بنسبة ١٠٠٪، فما استطاع يأجوج ومأجوج أن يرتفعوا على ظهر السد أو يرتقوا فوقه لملاسته وارتفاعه، وما استطاعوا كذلك أن يُحْدِثُوا فيه نقبًا أو خرقًا لصلابته.

أراد يأجوج ومأجوج أن يصعدوا السدَّ صعودًا فما ﴿اسْطَبْعُوا﴾، وأما حين أرادوا أن يُحْدِثُوا فيه نقبًا فما ﴿اسْتَطَبْعُوا﴾، ومعالجة النقب أشدَّ صعوبة من محاولة التسلق؛ ولذا جاءت زيادة المبنى إشارة لزيادة المعنى.

﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ [الكهف: ٩٧]:

- نسب هذا العمل الضخم العظيم لربه لا لنفسه، وهذا له معنيان:
- تواضع ذي القرنين عند الإنجاز، وهو من شكر الله على التوفيق، وهذا سمت المؤمن في كل أحواله.
- تنبيه من ساعده في البناء على عدم الاغترار بمناعة السد، أو الإعجاب والغرور بقوتهم، فما هم إلا أسباب لقدر الله النافذ بهم أو بغيرهم؛ ولذا إذا أذن الله بذلك هذا السد، اندكَّ دكًا.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]:

أي إذا جاء يوم القيامة سواه بالأرض، وذلك من قولهم: ناقة دكَّاء أي مستوية الظهر لا سنام لها، وجمل أدكَّ: منبسط السنام، ووعد الله بذلك هذا الردم، ثم خروج يأجوج ومأجوج على الناس وعدُّ حقٍّ لا يتخلف.

هذه رسالة لمن بنى السد ومن بعدهم من الأمم:

أن السدَّ مع متانته وصلابته لا يمكن أن يقاوم مشيئة الله، فما هو غير سبب، وبقاؤه بإذن الله، فإذا قامت القيامة، وأراد الله لهذا السد أن يندكَّ، اندكَّ.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ [الكهف: ٩٨]:

كان ابتداء هذا الوعد يوم قال النبي ﷺ: «فُتِحَ اليوم من رَدْمِ يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلَّق بأصبعيه: الإبهام والتي تليها» صحيح البخاري رقم: ٣٣٤٦. فهم ينحتون في الجدار، ويوم يأذن الله لهم بالخروج سيكونون قد أتوا عليه.

﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِعَتْهُمْ جُمُوعًا﴾ [الكهف: ٩٩]:

فيه قولان لأهل العلم:

- القول الأول: أن هذا في الدنيا، وأنهم -أي: يأجوج ومأجوج- إذا خرب السد وجعله الله دكًا صار بعضهم يموج في بعض؛ لكثرتهم وإفسادهم في الأرض.
- القول الثاني: أن هذا يوم القيامة، يعني: يموج الجن والإنس يوم القيامة.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ [الكهف: ١٠٠]:

مما يردعك عن مواجهة معاصيك أن تذكر يوم العرض على النار، وأن تتصورها تحت قدميك، يمر المؤمن على الصراط فيعبر، ويمر غيره عليه فيهوي في جهنم.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الكهف: ١٠١]:

قال ابن القيم: «وهذا يتضمن معنيين:

- أحدهما: أن أعينهم في غطاء عما تضمنه الذكر من آيات الله، وأدلة توحيده، وعجائب قدرته.
- والثاني: أن أعين قلوبهم في غطاء عن فهم القرآن وتدبره، والاهتداء به».

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُوْنِ أَوْلِيَائِهِ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزْلًا﴾ [الكهف: ١٠٢]:

تجهيل لكل من اتخذ المسيح أو الملائكة آلهة تُعبد أو أولياء يلجؤون إليها، بينما هم لا يستنكفون أن يكونوا عبادا لله، وسيرونهم أمام أعينهم يوم القيامة، كيف يذلون جميعاً لله ويخضعون.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [١٣] الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]:

قد بُخاطب بهذه الآية كل من صنع صنيعًا، يعتقد أنه حسن، وأنه ناجٍ بذلك العمل، لكنه في الحقيقة هالك.

خذ مثلاً قتلة ذي النورين عثمان رضي الله عنه، منهم رجل اسمه عمرو بن الحُمُق، فقد وثب على عثمان، فجلس على صدره وبه رمق، فطعنه تسع طعنات قائلاً: «فأما ثلاث منهن فإني طعنتهن إياه لله، وأما ست فإني طعنتهن إياه لما كان في صدري عليه».

قال ابن عينة:

لما حضرت محمد بن المنكدر الوفاة جزع فدعوا له أبا حازم فجاء، فقال له ابن المنكدر: إن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَيَذَا هُمْ مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧]، فأخاف أن يبدو لي من الله ما لم أكن أحاسب، فجعلنا يبكيان جميعاً.

وفي بعض الروايات فقال له أهله: دعوناك لتخفف عليه فزدته!

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَخَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَلَا تُقِيمُ هُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]

في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة واطرقوا إن شئتم ﴿فَلَا تُقِيمُ هُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾».

وذلك لأن أوزان القيامة إنما تثقل بالمعاني لا بالصور؛ فإذا كان صاحب جثة ضخمة وليس فيه من معاني الإيمان ما يثقل الميزان لم يكن له وزن.

لم يكن ابن مسعود بطلاً في كمال الأجسام لكنه كان بطلاً بمقياس الإيمان؛ ولذا لما ضحك الصحابة من دقة ساقيه وهو يصعد شجرة، قال النبي ﷺ: «ما تضحكون؟! لرجل عبد الله أثقل في الميزان من أحد».

﴿ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُولًا﴾

[الكهف: ١٠٦]:

ذكر أبو هلال العسكري في الفارق بين السخرية والاستهزاء أن السخرية يسبقها عمل من أجله يُسخر بصاحبه، أما الاستهزاء فلا يسبقه ذلك، وبذا يتضح حقارة الكافرين، فلم يكتفوا بكفرهم، بل أتبعوه باستهزائهم القائم على غير أساس.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾

[الكهف: ١٠٧]:

في الصحيحين: «إذا سألتم الله الجنة، فاسألوه الفردوس، فإنه أعلى الجنة، وأوسط الجنة، ومنه تفجر أنهار الجنة». صحيح الجامع رقم: ٢١٢٦.

قال كعب: «ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس، فيها الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر».

النُّزْل: ما يُعده الإنسان لإكرام ضيفه، فما بالك إن كان المَعِدَّ لِلنُّزْل هو الله تبارك وتعالى، وهو القائل: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر».

﴿لَا يَبْتَغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]:

ساكن شقة سكنية يتمنى التحول إلى (فيلا)، فإذا تملكها تمنى (قصرًا)، فإذا تملك القصر تمنى وتمنى.. أما ساكنو الجنة فهؤلاء ﴿لَا يَبْتَغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْتَغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]:

طبيعة الإنسان أنه ملول، فماذا يفعل مع الخلود؟! اطمئن فالجنة محصنة ضد الملل والسأم والرغبة في التغيير أو التطلع إليه.

﴿لَا يَبْتَغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الكهف: ١٠٨]:

رغم التفاوت العظيم في درجات الجنة حتى تصل إلى مائة درجة، لكن لا أحد يتمنى غير منزلته. في صحيح مسلم: «آخر من يدخل الجنة رجل...»، إلى أن

قال على لسان هذا الرجل: «لقد أعطاني الله شيئاً ما أعطاه أحداً من الأولين والآخرين».

﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]:

المداد: ما يُمدُّ الدواة من الحبر، أي لو كتبت كلمات علم الله وكان البحر مداداً لها، لنفد البحر قبل نفاد علم الله، ولو جئنا بمثله مداداً، وهذا مثل يشير إلى سعة علم الله، وقلة علوم العالمين في جنب علمه.

قال السعدي: «فلو جُمع علم الخلائق من الأولين والآخرين، أهل السماوات وأهل الأرض، لكان بالنسبة إلى علم العظيم، أقل من نسبة عصفور وقع على حافة البحر، فأخذ بمنقاره من البحر بالنسبة للبحر وعظمته».

سبب النزول: قال ابن عباس: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل فقالوا: سلوه عن الروح فسألوه، فنزلت: ﴿وَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فقالوا: لم نؤت من العلم نحن إلا قليلاً، وقد أوتينا التوراة، ومن يؤت التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً؟ فنزلت: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩].

﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]:

عن مجاهد يقول: قال رجل: يا رسول الله.. أرايت الرجل يتصدق بالصدقة، يلمس بها وجه الله، ويجب أن يُقال له خيراً، قال: فنزلت هذه الآية.

قال الفضيل بن عياض: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، الخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنّة، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا﴾.

سورة مريم

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢]:

كلما زادت عبودية العبد تدفقت رحمت الرب.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]:

فيه فضل الدعاء الخفي، وأنه أفضل من الدعاء الجهوري، وهذا عام في جميع العبادات، كالقراءة والصدقة والقيام، فما كان سرًّا فهو أفضل، إلا إذا كان في الإعلان مصلحة.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا﴾ [مريم: ٣]:

قال ابن القيم: «وكم من صاحب قلب وحال مع الله تعالى قد تحدث بها، وأخبر بها، فسلبه إياها الأغيار؛ ولهذا يوصي العارفون والشيخوخ بحفظ السر مع الله تعالى، وألا يطلع عليه أحد».

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤]:

أي أنك عوّدتني إجابتك. قال القرطبي: «وهذه وسيلة حسنة، أن يتشفع إليه بنعمه، ويستدّر فضله بفضله، يروى أن حاتم لقيه رجل فسأله، فقال له حاتم: من أنت؟ قال: أنا الذي أحسنت إليه عام أول (أي العام السابق)، فقال: مرحبًا بمن تشفع إلينا بنا».

لا يشقى مع الدعاء أحد! ولا يجتمع دعاء مع شقاء.

قال سفيان بن عيينة: «سعدت بدعائك وإن لم تعطني!».

قال الإمام الرازي:

«تعليم آداب الدعاء وهي من جهات:

- أحدها: قوله: نداء خفيًا وهو يدل على أن أفضل الدعاء أخفاه؛ ولأن رفع الصوت مشعر بالقوة والجلادة، وإخفاء الصوت مشعر بالضعف

والانكسار، وعمدة الدعاء الانكسار والتبري عن حول النفس وقوتها، والاعتماد على فضل الله تعالى وإحسانه.

- وثانيها: أن يذكر في مقدمة الدعاء عجز النفس وضعفها كما في قوله تعالى عنه: ﴿وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾.

- وثالثها: أن يكون الدعاء لأجل شيء متعلق بالدين لا لمحض الدنيا كما قال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ﴾ [مريم: ٥].

- ورابعها: أن يكون الدعاء بلفظ يا رب.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِ وَكَانَتْ أَمْرًا عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٥]:

كان زكريا يخاف مما سيفعله أقاربه بعد موته من تضييع أمر الدين، وعدم القيام بحقه، فدعا الله بالولد، انظروا نيته في الإنجاب، وهمته العالية التي تناطح السحاب!

﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم: ٦]:

دعاء جامع! أي ترضاه أنت يا رب، ويرضاه عبادك دينًا وخُلُقًا وخلَقًا، أو يرضى هو بقضائك.

﴿يَنْزَكِرَبَا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧]:

أي لم نسم أحدًا قبل يحيى بهذا الاسم، ومن تشریف الله له أنه لم يكَل تسميته إلى أبويه، بل كانت تسميته من الله وحده.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ أَمْرًا عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٨]:

قيل: إن المراد باستفهام زكريا مع علمه بقدرة الله الاستعلام والاستخبار؛ لأنه لم يكن يعلم أن الله سيرزقه بيحيى عن طريق زوجته العاقر، أو عن طريق الزواج بامرأة أخرى.

﴿هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ﴾ [مريم: ٩]:

لا يموت أمل في قلبٍ وعى هذه الآية.

﴿هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ﴾ [مريم: ٩]:

عند دعائك لا تطلب على قدر حاجتك، بل على قدر من تدعوه.

﴿خُرجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمَخْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا﴾ [مريم: ١١]:

مُنِعَ من الكلام، فدعا إلى الله بالإشارة! يا لها من همم!

﴿يَبْحَثِي خِذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢]:

بقوة قلب لا قوة يد!

﴿قوة أخذ الكتاب هي العمل به. قال ابن زيد: القوَّة: أن يعمل ما أمره الله به،

ويجانب فيه ما نهاه الله عنه.

﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢]:

قال ابن عباس: «من قرأ القرآن قبل أن يحتلم، فهو ممن أوتي الحكم صبيًّا».

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٣]:

كان يحيى حنانًا أي ممتلئًا شفقة ورحمة ومحبة للخلق.. كن على خطي يحيى يا حبيب.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ [مريم: ١٤]:

قال وهب بن منبه: «إن البرَّ بالوالدين يزيد في العمر».

﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥]:

قال سفيان بن عيينة: «أحوج ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجًا مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قومًا لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم».

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [مريم: ١٦]:

قال ابن عباس: «إني لأعلم خلقَ الله لأي شيء اتخذت النصارى الشرق قبله، لقوله تعالى: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾»، أي أن ذلك الاستقبال ليس بأمر من الله تعالى».

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [٤٦٦٩]

[مريم: ١٧]:

سمَّى الله جبريل روحاً؛ لأنه يحيي الأرواح بالوحي الذي ينزل به.

﴿أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨]:

لا يُذَكَّرُ بالله إلا من اتقاه!

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]:

تحصيل الأخلاق من طريقين:

الطريق الأول:

طريقٌ موهوب، وهو عطاء من الله سبحانه، وهو الطَّبْع، كما زكى الله سبحانه

عيسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]:

الطريق الثاني:

طريقٌ مكسوب، وهو من فعل الإنسان، وهو ما يُعرَف بالتطبع.

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: ٢٠]:

ما أعظم أدب القرآن!

قال الزمخشري: «جعل المس عبارة عن النكاح الحلال؛ لأنه كناية عنه».

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٢١]:

طلاقة القدرة الإلهية لا تقف على عتبة الأسباب الأرضية.

قال ابن عاشور:

«توجيه بأن ما اشتكتة (مريم) من توقع ضد قولها، وطعنهم في عرضها، ليس

بأمر عظيم في جانب ما أراد الله من هدى الناس لرسالة عيسى عليه السلام،

بأن الله تعالى لا يصرفه عن إنفاذ مراده ما عسى أن يعرض من ضُرٍّ في

ذلك لبعض عبيده؛ لأن مراعاة المصالح العامة تقدم على مراعاة المصالح

الخاصة».

﴿وَلَنَجْجِلَهُنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١]:

آية على كمال قدرة الله الذي نوّع صنوف الخلق، فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق بقية الذرية من ذكر وأنثى، إلا عيسى؛ فإنه خلقه من أنثى بلا ذكر، فتنوعت الآيات الدالة على كمال قدرة الله.

﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم: ٢١]:

اللهم ارزقنا الرضا بعد القضاء! قال ذو النون: «الرضا: سرور القلب بِمُرِّ القضاء».

﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: ٢٢]:

اعتزلت بسبب حملها في مكان بعيد عن قومها، فرارًا من قيل وقال، فما أقسى أن يخون البرئ، فكيف لو كانت الصديقة مريم؟!

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٣]:

ما معنى ﴿فَأَجَاءَهَا﴾؟! قال ابن عباس: أي ألجأها.

﴿يَبْلِغَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ [مريم: ٢٣]:

تمت الموت، ثم أصبحت بعد ذلك أم (نبي)، فَرُبَّ محبوب في مكروه، ومنحة في قلب محنة.

قال الآلوسي: «وتمني الموت لمثل ذلك لا كراهة فيه؛ لأنه يتعلق بأمر ديني، نعم يُكره أن يتمنى المرء الموت لأمر دنيوي كمرض أو فقر، ففي صحيح مسلم، قال رسول الله ﷺ:

(لا يتمنين أحدكم الموت لضرر نزل به، فإن كان لا بد متمنيا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي). ومن ظن أن تمني مريم الموت كان لشدة الوجع، فقد أساء الظن».

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي﴾ [مريم: ٢٤]:

من الذي ناداها؟!

قال ابن عباس: المراد بمن تحتها جبريل، ويرى بعض المفسرين أن المنادي هو عيسى عليه السلام، وقد رجح الإمام ابن جرير هذا الرأي، فقال: «وأولى القولين في ذلك عندنا قول من قال: الذي ناداها ابنها عيسى».

﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]:

قال ابن عباس: «كان ذلك نهرا قد انقطع ماؤه، فأجراه الله تعالى لمريم، والنهر يسمى سريا لأن الماء يسري فيه».

﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ الْجُذْعَ النَّخْلَةَ تَسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: ٢٥]:

لا تحقر جهداً مهما قل، فالمهم أن تبذل ما تستطيع؛ لأن الله يجبر قصور العبد لا تقصيره.

في الآية إشارة إلى لزوم الأخذ بالأسباب في طلب الرزق، وإليه أشار القائل:

ألم تر أن الله قال لمريم وهزى إليك الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أحنى الجذع من غير هزّه إليها، ولكن كل شيء له سبب

﴿يَتَأَخَّتْ هَارُونَ مَا﴾ [مريم: ٢٨]:

قال ابن كثير: «أي يا شبيهة هارون في العبادة». انظر من تشبه اليوم، فسوف تحشر معه غداً!

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْعِدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]:

ما أجل امتثال أمر الله. قال القرطبي: «التزمت مريم عليها السلام ما أمرت به من ترك الكلام، ولم يرد في هذه الآية أنها نطقت».

قالوا: مُنعت من الكلام لأمرين:

- أحدهما: أن يكون عيسى هو المتكلم عنها، ليكون أقوى لحجتها في إزالة التهمة عنها.

- والثاني: قول الإمام الرازي: «كراهة مجادلة السفهاء، وفيه أن السكوت عن السفهاء واجب، ومن أذل الناس سفية لم يجد مُسافِهاً».

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]:

قال الشنقيطي: «إن أول كلمة نطق بها عيسى وهو صبي في مهده أنه عبد الله، وفي ذلك أعظم زجر للنصارى عن دعواهم أنه الله أو ابنه أو إله معه».

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١]:

من الرجل المبارك؟!

قال القشيري:

«أي نافعا للخلق يرشدهم إلى أمور دينهم، ويمنعهم من ارتكاب الزَّلَّة التي فيها هلاكهم، ومن استضاء بنوره نجا، فهذه بركاته التي كانت تصل إلى الخلق، ومن بركاته: إغاثة الملهوف، وإعانة الضعيف، ونصرة المظلوم، ومواساة الفقير، وإرشاد الضال، والنصيحة للخلق، وكفُّ الأذى عنهم، وحمل الأذى منهم».

﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١]:

التعبير بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة: ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ﴾ ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ ﴿وَأَوْصَنِي﴾ باعتبار ما سبق في القضاء المحتوم، أو جعل الآتي لا محالة، كأنه قد وُجد، وذلك ثقة في وعد الله له.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [مريم: ٣٢]:

هل أنت بارٌّ بوالدتك؟!

قال ابن عباس رضي الله عنه: «إني لا أعلم عملاً أقرب إلى الله عز وجل من برِّ الوالدة».

﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣]:

أصعب ثلاثة أيام:

قال سفيان بن عيينة:

«أوحش ما يكون المرء في ثلاثة مواطن: يوم يولد فيرى نفسه خارجاً مما كان فيه، ويوم يموت فيرى قوماً لم يكن عاينهم، ويوم يبعث فيرى نفسه في محشر عظيم».

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمَتُّونَ﴾ [مريم: ٣٤]:

قال ابن عاشور: «والإشارة: (ذلك) لتمييز المذكور (خبر عيسى الذي قصصناه عليك) أكمل تمييز، تعريضا بالرد على اليهود والنصارى جميعاً، إذ أنزله اليهود إلى حضيض الجناة، ورفع النصارى إلى مقام الإلهية، وكلاهما مخطئ مبطل».

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ٣٤]:

هذا اسمه في القرآن: عيسى ابن مريم، والمقصود به إبراز ثبوت بنوته من مريم من غير أب، فليس ابن الله كما يزعم النصارى.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ﴾ [مريم: ٣٥]:

صيغة: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ﴾ تفيد انتفاء الولد عن الله تعالى بأبلغ وجه؛ لأن لام الجحود في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ تفيد مبالغة النفي، وقوله: ﴿مِنْ وَلَدٍ﴾ لتأكيد هذا النفي وتعميمه.

لماذا لم يتخذ الله ولداً؟! الجواب: لأن الولد إنما يتخذه المتعرضون للفناء طمعاً في الامتداد، ويتخذه الضعفاء للنصرة، والله تعالى هو الباقي بقاء أبدياً، والقادر الذي لا يعجزه شيء.

﴿فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥]:

قدرة الله فوق عالم الأسباب، وإذا سبق في علمه وقضائه أمر أو خلق، فلا يحتاج لإنفاذه صاحبة ولا ولداً ولا عوناً ولا مدداً، بل مجرد قول: كن فيكون، ولو أراد به غير هذا القول لكان ما أراد.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ٣٦]:

حُسمت قضية عبودية عيسى لله منذ أول لحظة! فقد أنطق الله عيسى في المهد: أن يكذب ما سيكون من غلو النصارى فيه بعد ذلك، عندما جعلوه إلهاً أو ابن الله أو ثالث ثلاثة، فقال عن نفسه: ربي الله كما هو ربكم، فاعبدوه.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ [مريم: ٣٧]:

قال أبو حيان: «ومعنى: ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ أن الاختلاف لم يخرج عنهم، بل كانوا هم المختلفين دون غيرهم».

كيف دبّ الخلاف بين اليهود والنصارى حول حقيقة عيسى، وقد قال الله لهم بنص صريح: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾؛ لذا استحقوا التهديد بالوعيد والعذاب الشديد.

﴿أَسْمِعْ يَوْمَ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨]:
تعجب من حدة سمعهم وأبصارهم يوم القيامة، فلا أحد أسمع ولا أبصر منهم يومئذٍ، لكن ما ينفع السمع والبصر بعد فوات الأوان وضياع فرصة الإيمان.

﴿فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨]:

قال القرطبي:

«وأي ضلال أبين من أن يعتقد المرء في شخص مثله حملته الأرحام، وأكل، وشرب، وأحدث، واحتاج أنه إله؟!».

﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]:

من أساء يوم القيامة: يوم الحسرة، لكثرة المتحسرين فيه على ما فاتهم من الثواب وحلّ بهم من العذاب، فكأن الله خصّص هذا اليوم للحسرة، وإن كان يوم فرحة للصالحين.

هذه حسرة أهل الجنة، فكيف بأهل النار؟! «ليس يتحسر أهل الجنة على شيء إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله عز وجل فيها». صحيح الجامع رقم: ٥٤٤٦.

في صحيح البخاري ومسلم:

قال رسول الله ﷺ: «يجاء بالموت يوم القيامة، كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة.. هل تعرفون هذا؟ فيشرّبون وينظرون

ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: ويقال: يا أهل النار.. هل تعرفون هذا؟ قال فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال فيؤمر به فيذبح، قال: ثم يقال: يا أهل الجنة.. خلود فلا موت، ويا أهل النار.. خلود فلا موت، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩]، وأشار ﷺ بيده عند قوله: (وهم في غفلة) أي أهل الدنيا في غفلة».

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]:

ازهد في ما ستورثه لغيرك غدا، واستثمره قبل أن تفقده في تعمير قبرك وزيادة أجرك، حتى يرثه في نهاية الأمر الوارث سبحانه.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٤١]:

تسلياة المصلحين بما جرى لمن سبق من النبيين خير ما يعين على مشاق الطريق.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [مريم: ٤١]:

أمر الله حبيبه أن يذكر الخليل إبراهيم، وما من الله عليه به من كريم الخصال وصالح الأحوال، ليستثير في أمته المستعدين للتحلي به بما أمكن من هذه الخصال.

﴿إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ [مريم: ٤١]:

قال القشيري:

«هو الصادق في أقواله وأعماله وأحواله». اللهم اجعلنا منهم.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَأْتِبِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]:

دلّت الآية على استحقاق المعبود الوصف بالسمع والبصر على الكمال، دون أدنى نقصان، وكذلك قدرته -وحده دون غيره- على الضر والنفع.

﴿كُلُّ الْخَلْقِ لَيْسَ لَهُمْ قُدْرَةٌ ذَاتِيَّةٌ إِلَّا مَا خَوَّلَهُمُ اللَّهُ إِيَّاهُ، فَمَنْ عَلَّقَ قَلْبَهُ بِمَخْلُوقٍ، أَوْ تَوَهَّمْ نَفْعًا أَوْ ضَرًّا مِنْهُ، فَقَدْ ضَاهَى عِبْدَةَ الْأَصْنَامِ!﴾

﴿يَتَأْتِبِ إِنْ قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا

سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣]:

العالم أحق أن يُتَّبَعَ ولو كان أصغر سنًا.

الخلاص في اتباع أهل العلم العاملين، والهلاك في الابتداع واتباع الجاهلين.

انظر رقة أسلوب الداعية! أخبره بأنه قد جاءه من العلم ما لم يأتِه، بدلًا من أن يصف أباه بالجهل.

تواضع إبراهيم! ﴿مِّنَ الْعِلْمِ﴾: هكذا على سبيل التبعض، أي شيء من العلم، وليس العلم كله مع أنه نبي يوحى إليه!

﴿لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [مريم: ٤٤]:

طاعة الشيطان لون من عبادته.

لا ريب أن المطيع للعاصي عاصٍ، والاقتصار على ذكر عصيان الشيطان من بين سائر جنائياته، للتحذير من السير في نفس طريق العصيان، مما يورث نفس مصيره والاجتماع معه في لظى النيران.

﴿يَتَأْتِبِ إِنْ أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ﴾ [مريم: ٤٥]:

تعريف قرآني للحب! الحُبُّ أن تخاف على من تُحِبُّ من عذاب الله، أن يستوجهه بتفريط في واجب أو وقوع في ذنب.

قال أبو حيان: «وخوفه إبراهيم سوء العاقبة، وتأدب معه إذ لم يصرح بلحوق العذاب به، بل أخرج ذلك مخرج الخائف، وأتى بلفظ المس الذي هو اللطف من المعاقبة، ونكَّر العذاب، ورَتَّب على مس العذاب ما هو أكبر منه وهو ولاية الشيطان، وصدَّر كل نصيحة بقوله يا أبت توسلاً إليه واستعطافاً».

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنَّا إِلَهِي يَتَذَكَّرُ إِيَّاهُمْ لَئِنْ لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي

مَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٦]:

هذا شأن القلب إذا أفسده الكفر! انظر كيف قابل الأب الكافر أدب ابنه المؤمن وقوله السديد، بالفظاظة والغلظة والتهديد.

﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: ٤٧]:

من الحفاوة وهي الرأفة والرحمة والتكريم، وإن من أسباب إجابة الدعاء حُسْنَ الظن بالله عن طريق استشعار قلبك لهذه الحفاوة الربانية.

﴿قَالَ سَلِمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [٤٧] ﴿وَأَعْتَزَلَكَ﴾

[مريم: ٤٧-٤٨]:

أقصى (عقوبة) - إن جاز التعبير - من الابن لأبيه - ولو كان كافراً محارباً - هو الدعاء له (وليس عليه) واعتزاله.

﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْزُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٤٩]:

من ترك شيئاً لله عوّضه الله خيراً منه، ومن خير من نبيّن مُرسَلين؟

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [الكهف: ٥٠]

يفتخر الناس بهم ويشنون عليهم استجابة لدعوة إبراهيم: ﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾

﴿٤٧/٢٥﴾ أي ثناء حسناً. عَبَّرَ بـ (اللسان) عما يوجد باللسان، كما عَبَّرَ بـ (اليد) عما يُطْلَق باليد، وهي العطية.

﴿٤٧/٢٦﴾ قال ابن جرير: «إنما قال ﴿عَلِيًّا﴾ لأن جميع الملل والأديان يشنون عليهم ويمدحونهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين».

﴿٤٧/٢٧﴾ قال الألوسي:

«ووصّفه بالعلو للدلالة على أنهم أحقّاء بما يشنون عليهم، وأن محامدهم لا تخفى كأنها نار على علم، على تباعد الأعصار وتبدل الدول وتغير الملل والنحل»

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١]:

قال السعدي: «قُرئ بفتح اللام (مُخْلَصًا)، على معنى أن الله تعالى اختاره واستخلصه، واصطفاه على العالمين.

وَقَرِئَ بِكُسْرَها (مُخْلِصًا)، على معنى أنه كان مُخْلِصًا لله تعالى في جميع أعماله وأقواله ونياته، فوصفه بالإخلاص في جميع أحواله. والمعنيان متلازمان، فإن الله أخلصه لإخلاصه، وإخلاصه موجب لاستخلاصه، وأجل حالة يوصف بها العبد: الإخلاص منه، والاستخلاص من ربه».

﴿وَقَرَّتْهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢]:

النداء اصطفاء، والمناجاة اصطفاء بعد اصطفاء! أي قَرَّبناه تقريب تشريف وتكریم عند مناجاته لنا، والمناجاة هي المساررة بالكلام، حيث أسمعناه كلامنا، واصطفيناه من الناس لحمل رسالتنا.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]:

من رحمة الله بك أن يسخر لك من عينك على طاعته، ويشد أزرك في تبليغ رسالته.

﴿أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥٣]:

جاء في حديث الإسراء والمعراج أن النبي ﷺ قال: «ثم صعد بي إلى السماء الخامسة فاستفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، فلما خلصت إذا هارون قال: هذا هارون، فسلم عليه، فسلمت عليه فرد ثم قال: مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح» صحيح الجامع رقم: ٢٨٦٦.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]:

كن إسماعيليا!

صديق الوعد لا تخلفه، دقيقا في مواعيدك لا تتأخر عنها.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ﴾ [مريم: ٥٥]:

إذا أردت أن تفوز بنفس الشاء، فكرر نفس الفعل مع أهلك! ونادهم مع كل أذان: قوموا إلى الصلاة!

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ [مريم: ٥٦]:

قال القرطبي: «إدريس عليه السلام أول من خطَّ بالقلم، وأول من خاط الثياب ولبس المخيط، وأول من نظر في علم النجوم والحساب وسيرها. وسُمِّي إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى، وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة كما في حديث أبي ذر».

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ﴾ [مريم: ٥٦]:

قال القاسمي: «وإدريس هو إلياس الآتي ذكره في سورة الصافات، ويُسمَّى في التوراة: إيليا».

﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]:

هي رفعة النبوة أو الرفعة في درجات الجنة.

روي أن النابغة الجعدي لما أنشد قوله:

بلغنا السماء مجدنا وسناؤنا
وإننا لنرجو فوق ذلك مظهرها
قال له الرسول ﷺ: إلى أين المظهر يا أبا ليلى؟ قال: إلى الجنة. قال: أجل إن شاء الله.

في حديث المعراج: «ثم عرج بنا جبريل إلى السماء الرابعة، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قال: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، ففتح لنا، فإذا أنا بإدريس عليه السلام، فرحب ودعا لي بخير، قال الله عز وجل: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾».

﴿إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨]:

قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مريم فسجد. وقال: هذا السجود فأين البُكي؟!

قال ابن كثير: «قوله تعالى: ﴿إِذَا تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا

وَبُكِيًّا﴾ أي: إذا سمعوا كلام الله المتضمن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربهم خضوعًا واستكانة وشكرا على ما هم فيه من نعم، فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ها هنا اقتداء بهم، واتباعًا لمنوالهم».

﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ [مريم: ٥٩]:

قال ابن تيمية: «قيل لابن مسعود وغيره: ما إضاعتها؟ فقال: تأخيرها عن وقتها، فقالوا: ما كنا نظن ذلك إلا تركها فقال: لو تركوها لكانوا كفارًا».

﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٠]:

التوبة عمل صالح يمحو عملاً سيئاً، وهي تبديل الحركات المذمومة بأخرى محمودة، ويا حبذا لو كانت من نفس جنس المعصية، فتوبة اللسان من الكذب بالتكلم بالصدق وكثرة الذكر، وتوبة العين من النظرة الحرام بالنظر في المصحف وغيض البصر عن الآثام، وهكذا.

﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [مريم: ٦١]:

الجنة غيب لم نره، لكننا نعمل لها بمقدار قوة يقيننا في موعود الله.

﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا﴾ [مريم: ٦١]:

قال الطبري: «الوعد لها هنا الموعود وهو الجنة، أي يأتيها أولياؤه».

﴿وَهُمْ رَزَقُوهَا فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢]:

ليس في الجنة ليل ولا نهار، لكن المقصود مقدار البُكرة ومقدار العشي من أيام الدنيا، أو وقت الغداء ووقت العشاء.

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]:

التقوى درجات يقابلها في الجنة درجات! قوم يتقون السيئات، وقوم يتقون الشبهات، وقوم يتقون الغفلات، وآخرون يتقون في أعماهم رؤية غير الله.

﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]:

أي نبقياها مُلكاً دائماً لمن كان تقياً، كما نُبقي على الوراثة مال من ورثه ونمتعه به، واستعمل تعبير الإرث لا البيع والهبة؛ لأنه أتم أنواع التملك، حيث لا يعقبه فسخ ولا استرجاع ولا إبطال.

﴿وَمَا تَنْتَظِرُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٦٤]:

سبب نزولها: أن رسول الله ﷺ قال لجبريل: «ألا تزورنا أكثر مما تزورنا؟»، فنزلت: ﴿وَمَا تَنْتَظِرُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾.

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]:

كان عبد الله بن رواحة واضعاً رأسه في حجر امرأته، فبكت، فبكت امرأته، قال: ما يبكيك؟ قالت: رأيتك تبكي فبكيت، قال: إني ذكرت قول الله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فلا أدري أنجو منها، أم لا؟

﴿وَأَصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ [مريم: ٦٥]:

زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، يعني: يصبر ثم يزيد فوق الصبر بالاصطبار، فالاصطبار للأشياء التي تتطلب استمراراً ومداومة وقوة؛ لأنّ الهمم قد تتأقل عن أداء النوافل مع مرور الأيام.

﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَنُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أَخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم: ٦٦]:

الإنسان هنا هو أبي بن خلف الذي وجد عظاماً بالية، ففتّتها بيده، وقال: زعم محمد أنا بُعث بعد الموت.

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَنُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٧]:

من رأى بعينه أن الله بدأ الخلق، وجب عليه التسليم بأنه قادر على إعادته، ففي عُرْف البشر أن تنشئ من موجود أسهل من أن تنشئ من العدم، فخاطب الله عباده بما يفهمون، وإلا فالله لا يعجزه شيء.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾ [مريم: ٦٨]:

سنرى يوم القيامة عجباً: كل مُنكِرٍ للبعث مسلسل في قيد واحد مع شيطانه الذي أغواه، قبل الجثو حول النار جميعاً على الرُكَب من شدة الأهوال وفظاعة الأحوال.

﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ [مريم: ٦٩]:

الجزاء من جنس العمل! من كان قائداً إلى الضلالة والإفساد اليوم، فهو قائد نفس الجمع إلى النار غداً..

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾ [مريم: ٧٠]:

يُنْزَلُ فِي كُلِّ دَرَكَةٍ مِنْ دَرَكَاتِهَا مَنْ هُوَ أَهْلٌ لَهَا، فَمَنْ كَانَ ظَلَمَهُ الْيَوْمَ أَعْظَمَ كَانَتْ عَقُوبَتُهُ فِي النَّارِ أَشَدَّ.

قال الزمخشري: «يمتاز من كل طائفة من طوائف الغي والفساد، أعصاهم فأعصاهم، وأعتاهم فأعتاهم، فإذا اجتمعوا طرحناهم في النار على الترتيب، فقدم أولاهم بالعذاب فأولاهم».

﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]:

اختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور، والأظهر والأقوى: أنه المرور على الصراط، يمر الجميع فوق النار على الصراط، ثم ينجي الله الذي اتقوا، ويذر الظالمين فيها جثيًا.

قال بكر بن عبد الله المزني: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] ذهب عبد الله بن ربيعة إلى بيته فبكى، فجاءت امرأته فبكت، فجاءت الخادم فبكت، وجاء أهل البيت فجعلوا يبكون، فلما انقطعت عبرته، قال: «يا أهلاه، ما الذي أبكاكم؟» قالوا: لا ندري، ولكن رأينا بكيت فبكينا، قال: «إنه أنزلت على رسول الله آية يُبَيِّنُ فيها ربي عز وجل أني وارد النار، ولم يُبَيِّنْني أني صادر عنها، فذلك الذي أبكاني».

﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ [مريم: ٧٢]:

التقوى سبب النجاة من كرب النار، ومن باب أولى النجاة من كُرب الدنيا.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم: ٧٣]:

اعتمادك للمقاييس المادية وحدها خطأ!

قال الجمل: «أي قالوا للمؤمنين: انظروا إلى منازلنا، فتروها أحسن من منازلكم، وانظروا إلى مجلسنا عند التحدث ومجلسكم، فترونا نجلس في صدر المجلس، وأنتم جالسون في طرفه الحقيق، فإذا كنا بهذه المثابة وأنتم بتلك،

فنحن عند الله خير منكم، ولو كنتم على حق لأكرمكم الله بهذه الأمور كما أكرمنا بها».

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِعًا﴾ [مريم: ٧٤]:

الأثاث هو متاع البيوت، ورِعًا من الرؤية، أي أحسن منظرا وهيئة.

إعطاء أمثلة من الواقع يجعل حجتك أقوى، وإقناع الخصم أسهل.

﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥]:

عقوبة المعصية المعصية بعدها، والمذنب يحره ذنبه الأول إلى ذنب مثله إلا أن يتوب.

قال الألوسي: «وحاصل المعنى: من كان في الضلالة، فعادة الله تعالى أن يمد له، ويستدرجه ليزداد إثما».

مقيار التمييز بين النعمة الناشئة عن رضا الله، والنعمة التي هي استدراج لمن عصاه، هو النظر إلى حال صاحب نعمة؛ هل هو في حال هدى أو حال ضلال.

﴿حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [مريم: ٧٥]:

البعض غارق في بحر الغرور، فلا تنكشف لديه مكانته عند ربه إلا بالموت! استعينوا بالله من العلم المتأخر! لا يفيدهم هذا العلم شيئا؛ لأنه لا يمكنهم الرجوع إلى الدنيا، ليعملوا غير عملهم الأول.

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]:

قال أبو الحسن المزني: «الذَّنْبُ بَعْدَ الذَّنْبِ عقوبة الذَّنْبِ، والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة».

﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]:

قال ابن القيم: «فالعبد إذا عمل حسنة قالت أخرى إلى جانبها: اعملني أيضا، فإذا عملها قالت الثانية كذلك، وهلم جراً، فتضاعف الربح، وتزايدت الحسنات».

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [مريم: ٧٧]:

أخرج البخاري عن خباب بن الارت قال:

«كُنْتُ قَيْنًا (حَدَّادًا) فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ لِي عَلَى الْعَاصِ بْنِ وَائِلٍ دِينَ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ: لَا أُعْطِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَا أَكْفُرُ بِمُحَمَّدٍ حَتَّى يَمِيتَكَ اللَّهُ ثُمَّ يَبْعَثَكَ، فَقَالَ: وَإِنِّي لَمِيتٌ ثُمَّ مَبْعُوثٌ؟! قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَدَعْنِي حَتَّى أَمُوتَ وَأُبْعَثَ، فَسَأَوْتِي مَا لَا وَوَلَدًا، فَأَقْضَيْكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (٧٧) أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾.

﴿أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٧٨]:

الجرأة العجيبة على الله! قال ابن عباس عن الغيب: «أنظر في اللوح المحفوظ؟!». وقال الكلبي عن العهد: «عاهد الله تعالى عهدًا أن يدخله الجنة».

﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٩]:

كيف قيل: سنكتب بسين التسويف، وقد كتب الله كل شيء من غير تأخير؟! قال الزمخشري: «فيه وجهان:

أحدهما: سنظهر له ونعلمه أنا كتبنا قوله.

والثاني: أن المتوعد يقول للجاني: سوف أنتقم منك، وإن تطاول به الزمان واستأخر».

﴿وَنَزَّهْنُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٠]:

ما أجل قول أبي الدرداء:

«ليس الخير أن يكثر مالك وولدك، ولكنَّ الخير أن يكثر عملك، ويعظم حلمك، وأن تباري الناس في عبادة الله، وإذا أحسنت حمدت الله، وإذا أسأت استغفرت الله».

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ [مريم: ٨١]:

قضت حكمة الله أن من اعتزّ بغير الله ذلّ، وأن العز كل العز في طاعة الله.

قال رجل للحسن: إنّي أريد (بلاد) السّند، فأوصني. قال: أعزّ أمر الله حيث ما كنت، يُعزّك الله. قال: فلقد كنت بالسّند، وما بها أحدٌ أعزّ منّي.

﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢]:

من ظنّهم أعاوناً انقلبوا أعداء، وسيخونونهم أحوج ما يكونون إليهم.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ [مريم: ٨٣]:

قال ابن القيم: «إن الله لم يجعل له عليهم سلطاناً ابتداءً ألبته، ولكن هم سلطوه على أنفسهم بطاعته، ودخولهم في جملة جنده وحزبه، فلم يتسلطن عليهم بقوته، فإن كيده ضعيف، وإنما تسلطن عليهم بإرادتهم واختيارهم».

قال ابن القيم:

«ولا يزال العبد يعانى الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها، حتى يرسل الله سبحانه وتعالى برحمته عليه الملائكة تؤزّه إليها أزًّا، وتحرّضه عليها، وترعجه عن فراشه ومجلسه إليها.

ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها، حتى يرسل الله إليه الشياطين، فتؤزّه إليها أزًّا.

فالأول قوى جند الطاعة بالمدد، فكانوا من أكبر أعوانه، وهذا قوى جند المعصية بالمدد فكانوا أعوانا عليه».

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ [مريم: ٨٤]:

فقط.. راقب كيف ستكون نهاية الظالم!

﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾ [مريم: ٨٤]:

قرأ المأمون هذه السورة، فمرّ بهذه الآية وعنده جماعة من الفقهاء، فأشار برأسه إلى ابن السّمك أن يعظه، فقال: «إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد!».

كان ابن عباس رضي الله عنه إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: «آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخول قبرك».

﴿يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ [مريم: ٨٥]:

هذا هو اليوم الموعود! أصل الوفود هو القدوم على العطاء لنيل العطايا والهدايا، فما بالك إذا كان القدوم على رب العالمين؟

أخرج الطبري عن علي رضي الله عنه في تفسير هذه الآية قوله: «أما والله ما يحشرون على أرجلهم ولا يساقون سوقا، ولكن يؤتون بنوق لم تر الخلائق مثله، عليها رحال الذهب وأزمتها الزبرجد فيركبون عليها حتى يضربوا أبواب الجنة».

﴿وَنُسَوِّقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِثًا﴾ [مريم: ٨٦]:

قال السعدي: «يساقون إلى جهنم وريثا، أي: عطاشا، وهذا أبشع ما يكون من الحالات، سَوِّقَهُمْ على وجه الذل والصغار إلى أعظم سجن وأفظع عقوبة، وهو جهنم، في حال ظمئهم ونصبهم».

﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧]:

قال القرطبي: «قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ﴾ أي: هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لأحد إلا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا، وهم المسلمون فيملكونها، فهو استثناء الشيء من غير جنسه».

﴿إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧]:

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: «العهد: شهادة أن لا إله إلا الله، ويتبرأ إلى الله عز وجل من الحول والقوة، وهي رأس كل تقوى».

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨]:

قال عبد الله بن مسعود: «إن الجبل ليقول للجبل: يا فلان هل مرَّ بك اليوم ذاكر لله؟ فإن قال: نعم، سُرَّ به، ثم قرأ عبد الله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾. قال: «أفترأهن يسمعن الزور ولا يسمعن الخير؟!».

الضمير في ﴿وَقَالُوا﴾ عائد على بعض اليهود حيث قالوا: عزيز ابن الله، وبعض النصارى حيث قالوا: المسيح ابن الله، وبعض مشركي العرب حيث قالوا: الملائكة بنات الله.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ [مريم: ٨٩]:

الإِدُّ والإِدَّة - بكسر الهمزة - الأمر الفطيع والداهية الكبيرة.
قال الألوسي: «ردُّ لمقاتلهم الباطلة، وتهويلٌ لأمرها بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب المنبئ عن كمال السخط وشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع والتقبيح، وتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجهل والجرأة، وقيل: لا التفات، والكلام بتقدير: قل لهم: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾».

﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا ۖ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠-٩١]:

الجمادات أعقل من بعض البشر!
قال ابن عباس: «إن الشُّرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال وجميع الخلائق، إلا الثقلين».

﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]:

هناك فارق بين نَفْيِ الحدث ونفي انبغاء الحدث، فلو أراد الله أن يكون له ولد لكان له ذلك، لكنه ما أراده، وأخبر أن ذلك لا ينبغي له، فكان ادعاء ذلك أفذح جريمة.

﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]:
ارحل إلى الله طوعا، قبل أن تُساق إليه قهراً.

﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٩٤]:

في عَرَصات يوم القيامة، وبين ملايين المخلوقات، وفي أعظم الكربات، سيكون لك اسم وعلامة بارزة ورقم ومكان ومصير، فاستعد!

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٥]:

٤١/٩٥

في الحديث: «ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، ولو بكلمة طيبة» صحيح الجامع رقم ٥٧٩٨.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]:

٤١/٩٦

قال ابن المنكدر لأبي حازم: يا أبا حازم.. ما أكثر من يلقيني فيدعوني بالخير ما أعرفهم، وما صنعت إليهم خيرا قط! قال له أبو حازم: لا تظن أن ذلك من عملك، ولكن انظر الذي ذلك من قبله فاشكره، وقرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ [مريم: ٩٧]:

٤١/٩٧

القرآن نصفه ترغيب وبشارة، ونصفه ترهيب ونذارة، فهو نور للمؤمنين، ونار تحرق أوهام المجادلين والمعاندين.

﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا﴾ [مريم: ٩٧]:

٤١/٩٨

القوم اللد هم صمُّ آذانِ القلوب.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّن قَرْنٍ هَلْ يُحْسِبُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا﴾

٤١/٩٩

[مريم: ٩٨]:

أين الأباطرة والجبابرة؟! أين القياصرة؟ كلهم الآن لا تحس منهم بحركة أو تسمع لهم صوتاً؟ وهذا مصير جميع الخلق، عظماء أو حقراء، طال العمر بهم أو قصر.



سورة طه

﴿طه﴾ [طه: ١]:

من معاني كلمة (طه) ما ذكره القرطبي أن بعض العرب درجت على مناداة من تحب بكلمة طه، ودرجت بعض القبائل كذلك على مناداة الرجل العظيم المحترم بالكلمة نفسها طه، وكأن الله - في ضوء هذين المعنيين - ينادي رسوله الكريم محمداً ﷺ بأحب نداء وألطفه.

﴿مَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾ [طه: ٢]:

الشقاء والقرآن لا يجتمعان.

﴿إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [طه: ٣]:

المحرومون من خشية الله محرومون من الانتفاع بالتذكرة.

﴿تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه: ٤]:

تعظيم القول من تعظيم القائل، وخير ما يقود إلى تعظيم الله التأمل في آثار عظمته، وأعظم آثاره: خلق الأرض والسموات العلا.

تعظيم شأن الله سبحانه هو خير سبيل إلى استئزال المتمردين عن مرتبة العلو والطغيان، واستمالتهم إلى مقام التذكر والإيمان.

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]:

قال مالك بن أنس: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾ [طه: ٦]:

أشار الله إلى ملكه بقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾، والملك لا يتم إلا بالقدرة والعلم، فأما القدرة فهي في هذه الآية؛ لأنه سبحانه مالك هذه الأقسام الأربعة: مالك لما في السموات، ومالك لما في الأرض، ومالك لما

بينهما من الهواء والمخلوقات، ومالك لما تحت الثرى من معادن نفيسة وثروات.

﴿وَأَن تَجْهَرُوا بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]:

الركن الثاني من أركان الملك هو العلم، والعلم هنا كاشف لكل ما خفي. قال ابن عباس: «﴿السِّرَّ﴾: ما أسرَّ ابن آدم في نفسه، «﴿وَأَخْفَى﴾: ما خفي على ابن آدم مما هو فاعله ولا يعلمه، فالله تعالى يعلم ذلك كله، وعلمه في ما مضى من ذلك وما يُستقبل علمٌ واحد، وجميع الخلائق في علمه كنفس واحدة».

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [طه: ٨]:

قال السعدي:

«ومن حُسْنِها: أنها ليست أعلامًا محضة، وإنما هي أسماء وأوصاف. ومن حُسْنِها: أنها دالة على الصفات الكاملة، وأن له من كل صفة أكملها وأعمها وأجلها. ومن حُسْنِها: أنه أمر العباد أن يدعوه بها لأنها وسيلة مقربة إليه، يحبها، ويجب من يحبها، ويجب من يحفظها، ويجب من يبحث عن معانيها، ويتعبد له بها. قال تعالى: «﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾».

﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾ [طه: ٩]:

جرت سُنَّةُ الله أن يذكر نبيه في القرآن بقصة أخيه موسى، فهي أكثر القصص ورودا في القرآن، لحكمة بالغة.

هذا استفهام موجّه للنبي وكل من تبعه، يحث على الإصغاء لما يُلقى إليه، ويدعوه إلى التأسي به، وفيه تسلية للنبي ﷺ عما أصابه من قومه.

﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ

أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠]:

ذهب موسى يلتمس نورًا، فرجع بمناجاة الله.. عطاء الله لا تحدّه الحدود، وفوق ما تتصور من ألوان الجود.

﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَىٰ﴾ [طه: ١١]:

أعظم نداء سمعه بشر؛ ولذا استحق أن يسمّى موسى: كليم الله.. تشريفا وتكريما، وهل هناك أشرف من هذا الاصطفاء!

﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١٢]:

لأن بساط حضرة الملوك لا يوطأ بالنعال.

﴿إِنَّكَ بِالْأَوْدِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢]:

كَلَّمَ الله موسى كلاما غير معتاد، وغَيَّرَ الله عوائد الأكوان، فلم يصدر الكلام عن شخص مشاهد، ولا عن طريق ملك يتولى تبليغ الكلام، بل قال عن هذه المعجزة: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ [طه: ١٣]:

قال سفيان بن عُيينة: «أول العلم الصمت، والثاني الاستماع له وحفظه، والثالث العمل به، والرابع نشره وتعليمه».

﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]:

هل عرفت أهمية الصلاة؟! أول ما أمر الله به الكليم، فخصَّ الصلاة بالذكر الجليل، وأفردها بالأمر بالعبادة دلالةً على التبجيل، ولفضلها على سائر العبادات بلا مثيل.

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]:

قال الآلوسي: «أي: أقم الصلاة لذكري فيها لاشتغالها على الأذكار. وقيل: المراد: أقم الصلاة لذكري خاصة، لا ترائي بها، ولا تشوبها بذكر غيري،

أو لكي أذكرك بالثناء وأثيبك بها.

أو لذكري إياها في الكتب السماوية وأمرى بها.

أو لأوقات ذكري وهي مواقيت الصلاة».

﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ [طه: ١٥]:

فائدة تعريف العباد بقرب الساعة أن يستفيقوا من الغفلات، ويجتهدوا في الطاعات، ويتوبوا من الزلات.

﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]:

قال أبو جعفر الطبري:

«بمعنى: أكاد أخفيها من نفسي، لئلا يطلع عليها أحد، وبذلك جاء تأويل أكثر أهل العلم».

قال الجمل:

«والحكمة في إخفاء الساعة وإخفاء وقت الموت، أن الله تعالى وعد بعدم قبول التوبة عند قربها، فلو عرف وقت الموت لاشتغل الإنسان بالمعصية إلى قرب ذلك الوقت ثم يتوب، فيتخلص من عقاب المعصية فتعريف الموت كالإغراء بفعل المعصية، وهو لا يجوز».

﴿لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه: ١٥]:

لا إفلات من الحساب غدا، فمن أفلت من العقوبة اليوم، فقد تأخرت عقوبته إلى الآخرة، وهي لاشك عقوبة أشد وأعظم.

﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه: ١٦]:

قال الزمخشري:

«يعني أن من لا يؤمن بالآخرة هم الجحيم الغفير، إذ لا شيء أطم على الكفرة ولا هم أشد له نكيراً من البعث، فلا يهولنك وفور (كثرة) دهائهم، ولا عظم سوادهم، ولا تجعل الكثرة مزلة قدمك، واعلم أنهم - وإن كثروا تلك الكثرة - فقدوتهم فيما هم فيه هو الهوى واتباعه، لا البرهان».

﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى﴾ [طه: ١٦]:

في الآية حثٌ عظيم على معرفة الدليل، وزجرٌ بليغ عن التقليد الأعمى، وإنذار بأن الهلاك والردى مع هذا التقليد وأهله.

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَى﴾ [طه: ١٧]:

ما فائدة هذا السؤال والله يعلم كل شيء؟
أجاب الرازي:

«أن من أراد أن يظهر من الشيء الحقير شيئاً شريفاً، فإنه يأخذه ويعرضه على الحاضرين ويقول لهم: هذا ما هو؟ فيقولون: هذا هو الشيء الفلاني، ثم إنه بعد إظهار صفته الفائقة فيه يقول لهم: خذوا منه كذا وكذا، فالله تعالى لما أراد أن يظهر من العصا تلك الآيات الشريفة كانقلابها حية، وكضربه البحر حتى انفلق، وفي الحجر حتى انفجر منه الماء، عرضه أولاً على موسى، فكأنه قال له: يا موسى.. هل تعرف حقيقة هذا الذي بيدك، وأنه خشبة لا تضر ولا تنفع، ثم إنه قلبه ثعباناً عظيماً، فيكون بهذا الطريق قد نبّه العقول على كمال قدرته ونهاية عظمته من حيث إنه أظهر هذه الآيات العظيمة من أهون الأشياء عنده».

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهْشُرُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾ [طه: ١٨]:

قال السعدي:

«ذكر فيها هاتين المنفعتين:

- منفعة لجنس الآدمي، وهو أنه يعتمد عليها في قيامه ومشيه، فيحصل فيها معونة.

- ومنفعة للبهائم، وهو أنه كان يرعى الغنم، فإذا رعاها في شجر الخبط ونحوه، هَشَّ بها، أي: ضرب الشجر، ليتساقط ورقه، فيرعاها الغنم».

﴿وَأَهْشُرُ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي﴾ [طه: ١٨]:

دليل على حسن رعاية موسى للحيوان البهيم، والإحسان إليه، وفي صحيح البخاري: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم»، فقال أصحابه: وأنت؟! فقال: «نعم.. كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة».

قال بعض العلماء: «الحكمة في إلهام الأنبياء رعي الغنم قبل النبوة أن يحصل لهم التمرن برعيها على ما يكلفونه من القيام بأمر أمتهم؛ ولأن في مخالطتها ما يحصل لهم الحلم والشفقة؛ لأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح أحسن، ودفع عدوها من سبع وغيره كالسارق، وعلموا اختلاف طباعها وشدة تفرقها مع ضعفها واحتياجها إلى المعاهدة، ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا اختلاف طباعها، وتفاوت عقولها، فجبروا كسرهما، ورفقوا بضعيفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحملهم لمشقة ذلك أسهل مما لو كلفوا القيام بذلك من أول وهلة».

﴿وَلِي فِيهَا مَقَارِبُ أُخْرَى﴾ [طه: ١٨]:

هذا من الإيجاز، وقد قيل: «البلاغة لمحة دالة»، وأنشد أحمد بن إسماعيل الكاتب:

خير الكلام قليل	على كثير دليل
والعبي معنى قصير	يحويه لفظ طويل
وفي الكلام فضول	وفيه: قال وقيل

﴿قَالَ أَلْقَهَا يَمُوسَى﴾ [طه: ١٩]:

هذا أول تدريب رباني!

قال القرطبي: «لما أراد الله تعالى أن يدرّبه في تلقي النبوة وتكاليفها أمره بإلقاء العصا».

﴿فَأَلْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: ٢٠]:

إبراز انقلاب العصا حية أثناء المحاورة كان بهدف تثبيت قلب موسى وطمأنته، ولدفع الشك عن أن يتسلل إليه إذا أمر بنفس الأمر أمام فرعون دون تجربة سابقة.

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه: ٢١]:

ثق بالله، وخذ الحية من رأسها، بلا خوف ولا وجل، وهي لا شك تربية ربانية عظيمة على التوكل وامتنال أمر الله.

﴿وَأَضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ءَايَةً أُخْرَى﴾ [طه: ٢٢]:

مِنْ غَيْرِ سُوءٍ أَي مِنْ غَيْرِ قَبْحٍ وَعَيْبٍ كَبِيضُ الْبَرَصِ مِمَّا يُنْفَرُ النَّاسُ، وَكَانَ الْبَرَصُ أَبْغَضَ شَيْءٍ إِلَى الْعَرَبِ، وَكَانَ لَهُمْ مِنْهُ نَفُورٌ عَظِيمٌ.

اعتمد الزمخشري أن قوله: ﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ كناية عن البرص، كما كني عن العورة بالسوءة، وكان العرب ينفرون حتى من سماع اسم البرص، فكان جديرًا بأن يُكَنَّى عنه، ولا تكاد ترى أحسن ولا أَلطف من كنايات القرآن.

﴿لِنُرِيكَ مِنْ ءَايَاتِنَا الْكُبْرَى﴾ [طه: ٢٣]:

كُلُّ تَشْرِيفٍ لَا بَدَّ وَرَآءَهُ مِنْ تَكْلِيفٍ! سَنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى، لِيَقْوَى قَلْبُكَ عَلَى مُوَاجَهَةِ الطَّغَاةِ.

﴿أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه: ٢٤]:

مَا أَحْلَمَ الرَّبُّ مَعَ طَغْيَانِ الْعَبْدِ، فَقَدْ عَانَدَ أَمْرَ رَبِّهِ، وَنَازَعَ رَبُّوبِيَّتَهُ، وَمَعَ هَذَا أَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولًا يَدْعُوهُ، وَلِلْهَدَايَةِ يَرْجُوهُ.

فِي الْكَلَامِ حَذَفَ اسْتِغْنِي عَنْ ذِكْرِهِ لِفَهْمِ السَّامِعِ لَهُ، وَتَقْدِيرُ الْمَحْذُوفِ: فَادْعُهُ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ، وَإِرْسَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَكَ.

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾ [طه: ٢٥]:

اجْبُرْ كَسْرَكَ وَاقْهَرْ قَهْرَكَ بِسُؤَالِ الْجَبَّارِ وَالْقَرِّبِ مِنَ الْقَهَّارِ.

قَدَّمَ شَرْحَ الصَّدْرِ عَلَى غَيْرِهِ لِأَهْمِيَّتِهِ؛ فَقُوَّةُ الْقَلْبِ هِيَ سَبَبُ التَّغْلِبِ عَلَى الصَّعَابِ، وَهَمَّةُ رَجُلٍ وَاحِدٍ - إِذَا قُوِيَ - تَهْزِمُ جُمُوعًا كَثِيرَةً.

﴿وَدَسَّرَ لِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٦]:

مَا تَيْسَّرَ أَمْرٌ عَسَّرَهُ اللَّهُ، وَلَا تَعَسَّرَ أَمْرٌ يَسَّرَهُ اللَّهُ.

﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي﴾ [طه: ٢٧]:

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: «ذَلِكَ لَمَّا كَانَ أَصَابَهُ مِنَ اللَّثَغِ، حِينَ عَرَضَ عَلَيْهِ - فِرْعَوْنُ - التَّمْرَةُ وَالْجُمْرَةُ، فَأَخَذَ الْجُمْرَةَ فَوَضَعَهَا عَلَى لِسَانِهِ، وَمَا سَأَلَ أَنْ يَزُولَ ذَلِكَ

بالكلية، بل حيث يزول العي، ويحصل لهم فهم ما يريد منه وهو قدر الحاجة، ولو سأل الجميع لزال! ولكن الأنبياء لا يسألون إلا بقدر الحاجة؛ ولهذا بقيت بقية».

﴿يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٨]:

الداعية الصادق حريص على وقوع البلاغ للناس بأكمل حال؛ ولذا يتوجه إلى الله بمثل هذا السؤال.

﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ [طه: ٢٩-٣٠]:

خير عون تطلبه من ربك، ما يعينك على إنفاذ أمره والقيام بواجباته.

قال ابن عاشور:

«وخصَّ هارون لفرط ثقته به؛ ولأنه كان فصيح اللسان مقوالا، فكونه من أهله مظنة النصح له، وكونه أخاه أقوى في المناصحة، وكونه الأخ الخاص لأنه معلوم عنده بأصالة الرأي».

قال محمد الأمين الشنقيطي:

«فذكر هنا من دواعي العون على أداء الرسالة أربعة عوامل: بدأها بشرح الصدر، ثم تيسير الأمر، وهذان عاملان ذاتيان.

ثم الوسيلة بينه وبين فرعون، وهو اللسان في الإقناع: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي».

ثم العامل المادي أخيرا في المؤازرة: ﴿وَأَجْعَلْ لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ هَرُونَ أَخِي ﴿أَشَدُّ بِمَةِ أَزْرَى﴾».

﴿أَشَدُّ بِمَةِ أَزْرَى﴾ [طه: ٣١]:

آزر الله موسى بأخيه هارون، وأعان عمر بن عبد العزيز بابنه عبد الملك وغلامه مزاحم، وأمد صلاح الدين بالقاضي الفاضل.. حتى أتقى الأتقياء بحاجة لصحبة!

﴿وَأَشْرِكُهُ فِي أَمْرِ﴾ [طه: ٣٢]:

ما أجمل التعاون!

إذا العِبء الثقيل توزَّعته رقاب القوم خفَّ على الرقاب

﴿هَٰرُونَ أَخِي﴾ [طه: ٣٠-٣١]:

موسى وهو من أولي العزم من الرسل احتاج صاحباً يعينه، فكيف بك؟ هل لك صاحب يعينك؟!

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣-٣٤]:

هذه أسمى مقاصد الأخوة، وعلامات الحب في الله، أن تعين أخاك على طاعة الله وذكره.

﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا﴾ [طه: ٣٣-٣٤]:

بيان أن طلبه مشاركة أخيه له هو لأداء حقِّ ربِّه لا لتلبية حظِّ نفسه.

قدَّم التسبيح على الذكر؛ لأنه تنزيه الله سبحانه تحلية، والذكر تحلية، والتخلية قبل التحلية؛ ولأن محل التنزيه القلب، ومحلُّ الذكر اللسان، فقدَّم ما محله القلب على ما محله اللسان.

﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ [طه: ٣٥]:

علمه بحالي أرجى لإجابة سؤالي، وهذا أصوب من قول بعضهم: علمه بحالي يغنيه عن سؤالي، فلا غنى عن سؤال الله.

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ٣٦]:

أعطيناك قبل سؤالك:

حفظناك في اليمِّ، ونجَّينا أمَّك من الغمِّ، وربَّيناك في حجر العدوِّ، وقذفنا الشفقة عليك في قلب امرأة فرعون، وألقينا عليك المحبة حتى أحبك من يعاديك، وربَّاك حتى قتل بسببك ما لا يحصى من الولدان، ومن ابتدأك بهذه النعم دون أن تسأله، لن يجرمك وأنت تسأله.

﴿وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى﴾ [طه: ٣٧]:

تذكرُ نعم الله عليك سبب أساسي في زيادة محبتك، واجتهادك في عبادتك، وتقوية بصيرتك.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى﴾ [طه: ٣٨]:

وحي إلهام لا وحي نبوة، وقد يكون بطريق رؤيا صالحة يقذف في نفس الرائي أنها صدق.

﴿أَنْ أَقْذِفِهِ فِي التَّابُوتِ فَأَقْذِفِهِ فِي أَلِيمٍ فَلْيُلْقِهِ أَلِيمٌ بِالْسَّاحِلِ﴾ [طه: ٣٩]:

مشيئة الله نافذة، فإليهم عبدٌ مأمور، وكأنه ذو تمييز وعقل، يطيع الأمر، وينقاد للرب.

﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ [طه: ٣٩]:

رباه في حجر عدوه، الذي قتل بسببه آلافاً من الولدان، ولكن من مأمنه يؤتى الحذر!

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: ٣٩]:

من أحبه ربه حبه إلى خلقه.

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩]:

وأنا مراعيك ومراقبك وأنت بين يدي عدوك، كما يراعي الرجل الشيء بعينه إذا اعتنى به.

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي﴾ [طه: ٣٩]:

المحبة رزق رباني، وليس بحاجة إلى سبب، فموسى الطفل الرضيع لم يصدر منه ما يوجب المحبة، ومع ذلك أحبه كل من رآه. قال عكرمة: ما رآه أحد إلا أحبه.

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَتَجَبْتَنكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ [طه: ٤٠]:

القاتل مغموم لا يفارقه غمه حتى يموت!

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ [طه: ٤٠]:

كل شيء بقدر جميل ولطف خفي، فلم تمش أخته بجوار القصر إلا بعد أن امتنع موسى عن كل المُرُضعات؛ لذا أقبلوا عليها في لهفة.

﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [طه: ٤٠]:

قال القرطبي: «البلاء بحسب قوة صاحبه وضعفه، فكلما كان المرء أقوى كان بلاؤه أوفى، وكلما كان أضعف كان بلاؤه أخف، وكانت أم موسى ضعيفة فردَّ إليها ولدها بعد أيام، وكان يعقوب أقوى في حاله، فلم يعد إليه يوسف إلا بعد سنين طويلة».

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ [طه: ٤٠]:

قال الألوسي: «وقد حلَّ له هذا الغم من وجهين: خوف عقاب الله تعالى حيث لم يقع القتل بأمره سبحانه وخوف القصاص، وقد نجَّاه الله من ذلك بالمغفرة حين قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ﴾، وبالمهاجرة إلى مدين».

﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]:

امتن الله تعالى على موسى بالفتون، وهي جمع فتن، والفتن: الاختبار والابتلاء، وساقها الله هنا على سبيل الامتنان؛ لأن الله نجَّاه منها ومن ضرورها، فكان له فيها مزيد أجر ورفع قدر.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا عَلَىٰ قَدَرٍ يَمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٠]:

ليس شيء يجري في الكون اتفاقاً من غير قصد ولا تدبير، بل كل شيء محدّد سلفاً، ومقدّر بميعاد لا يتخلف عنه، لا يتقدم عنه ولا يتأخّر، ففيم قلق العبد واضطرابه، ولم استعجاله؟!

﴿وَأَصْطَفَيْنَاكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]:

إذا كان المحب إذا أراد اصطفاء حبيب من البشر، بذل غاية جهده في إيصال الخير إليه، فما ظنك بالرب القدير الكريم؟! اللهم اصطنعنا لنفسك.

﴿أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِهَايَتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤١]:

لا تضعفا ولا تغفرا عن ذكر الله، فإن ذكر الله معونة خفية، يخفف الحمل الثقيل، ويزيح الهَمَّ الجليل، ويقوّي العزم، ويثبت القدم.

﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤١]:

في خضم المعركة وعند ذروة المواجهة لا تنسيا الله، ولا تظنا أمرا من الأمور يتيسر إلا بذكري وإذني.

خير ما يواجهه به العدو كثرة الذكر! في الحديث: «إن عبدي كل عبدي الذي يذكرني وهو مُلاقٍ قرنه». ضعيف الجامع رقم: ١٧٥٠.

﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه: ٤٢]:

لا تترك الذكر في أي حال، وأحوج ما تكون إلى الذكر في مواجهة الشدائد، وعند مقابلة ما تخاف.

﴿أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [طه: ٤٣]:

قال الجمل:

«جمعها في صيغة أمر الحاضر مع أن هارون لم يكن حاضراً محل المناجاة بل كان في ذلك الوقت بمصر - للتغليب فغلب الحاضر على غيره، وكذا الحال في صيغة النهي، أي: قوله: ﴿وَلَا تَنِيَا﴾».

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ [طه: ٤٤]:

قال يحيى بن معاذ في هذه الآية: «هذا رفقك بمن يقول أنا الإله، فكيف رفقك بمن يقول أنت الإله؟!».

﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ [طه: ٤٤]:

دخل رجلٌ من الزهاد على هارون الرشيد يوماً، فقال: يا هارون، اتق الله، فأخذه فخلاً به، وقال: يا هذا.. أنصِفْني، أنا شرُّ أم فرعون؟ قال: بل فرعون، قال: فأنت خير أم موسى؟ قال: بل موسى، قال: أفما تعلم أن الله تعالى لما بعثه وأخاه إليه قال: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا﴾ [طه: ٤٤]

﴿قَالَ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ [طه: ٤٥]:

الخوف شعور فطري، لم يُعصم منه نبي ولا ولي، لكن لم يمنعهما الخوف من تبليغ الرسالة وأداء الواجب.

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]:

معية الله تنفي الخوف من القلب، واستجلاب معية الله يكون بطاعته وترك معاصيه.

﴿فَأَنبَاهُ فُقُولًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِيبَهُمْ﴾ [طه: ٤٦]:

الأهم فالهم! بيان فحوى رسالة رب العالمين، وهي إخلاص العبادة له، والتخلي عن الكفر والطغيان، ثم إطلاق سراح بني إسرائيل من الأسر، فقد كانوا تحت سيطرة القبط، يستخدمونهم في الأشغال الشاقة كالحفر والبناء.

﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا﴾ [طه: ٤٦]:

أعظم ما يطرد الخوف من قلبك استشعار معية الله ومعونته.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: ٤٧]:

إنما يتبع الهدى من نور قلبه بنور الإيمان، فأما من أحاط قلبه بظلمة المعصية، فكيف يتعرف إلى الهدى فيتبعه؟!

قال الزجاج: «أي من اتبع الهدى سلم من سخط الله عز وجل وعذابه، وليس بتحية».

قال السيوطي: «فيه دليل على منع السلام على الكافر، وأنه إذا احتيج إليه في خطاب أو كتاب يؤتى بهذه الصفة».

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٨]:

قال الطبري: «كذب بكتاب الله، وتولى عن طاعة الله».

﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [طه: ٤٨]:

فيه تلطُّف في الوعيد، حيث لم يصرِّح بحلول العذاب بهم صراحة، بل تلميحًا.

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَنُوسَى﴾ [طه: ٤٩]:

قال صاحب الكشف: «ووجه النداء إلى أحدهما وهو موسى؛ لأنه الأصل في النبوة، وهارون وزيره وتابعه، ويحتمل أن يحمله خبثه ودعارته - أي فسقه - على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه، لما عُرف من فصاحة هارون والرنة في لسان موسى».

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]:

أعطى كل شيء من الأشياء الصورة التي تلائمها، وتحقق منفعتها ومصلحته، ثم هداه إلى وظيفته التي خلقه من أجلها.

﴿ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠]:

ثم تفيد التراخي في الرتبة، إذ إن اهتداء المخلوق إلى وظيفته في الحياة هي مرتبة أعلى كثيرًا من خلقه الله دون أن يهتدي لمعرفة سر وجوده.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: ٥٠]:

تأمل المراوغة في الحوار! لما أجابه موسى بجواب مسكت، أراد صرف الحديث إلى منحى آخر، ليفتح منه بابًا لتخطئة موسى وتكذيبه.

﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]:

إنما أنا عبد الله ورسوله! لا يمكنني أن أخبر إلا ما أخبرني به، فما عرّفتني عرّفت، وما ستر عني توقفت.

لم يُستدرج موسى إلى هذا الفخ! قائلًا: سؤالك عن الغيب وقد استأثر الله به، فلا يعلمه إلا هو، وليس هذا من وظيفة الرسالة.

﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢]:

دليل على أهمية التوثيق والكتابة، تعلمناه من كتاب ربنا قبل أن نتعلمه من كتب الإدارة الحديثة.

آفة الإنسان النسيان، وهو أول ما أتي منه أبونا آدم، فإذا قيّد المرء ما أراد بالكتابة لم يضع.

﴿١٩٢﴾ معنى الآية: لم يجعل الله علم ذلك في كتاب لأنه يضل أو ينسى حاشاه، وإنما ليعلمنا وليعلم الملائكة فضل الكتابة.

﴿١٩٣﴾ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى** ﴿طه: ٥٣﴾:

الآية شملت أربع منن امتن الله بها على عباده: تمهيد الأرض، وجعل الطرق فيها، وإنزال المطر من السماء، وإخراج النبات المتنوع من الأرض، فتأمل كيف قابلوا كل هذه النعم بالكفر.

﴿١٩٤﴾ **كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَمَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى** ﴿طه: ٥٤﴾:

النُّهَى: جَمْعُ نُهْيَةٍ، أي العقل، وَسُمِّيَ نُهْيَةً لأنه سبب انتهاء المُتَحَلِّي به عن القبائح؛ ولذلك أيضًا سُمِّيَ بالعقل، وَسُمِّيَ بِالْحَجَرِ.

﴿١٩٥﴾ **مِنْهَا خَلَقْنَكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى** ﴿طه: ٥٥﴾:

ما أجمل قول علي عليه السلام: «إن لله في كل يوم ثلاثة عساكر: عسكر ينزل من الأصلاب إلى الأرحام، وعسكر ينزل من الأرحام إلى الأرض، وعسكر يتنقل من الدنيا إلى الآخرة».

وما نحن إلا رفقة غير أننا أقمنا قليلا بعدهم ونروح

﴿١٩٦﴾ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا ءَايَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَابَى** ﴿طه: ٥٦﴾:

أرسلناه العصا واليد والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والسنين، فكَذَّبَ بها، وَابَى الإيمان.

﴿١٩٧﴾ أكّدت الآية جحود فرعون وطغيانه بأربعة مؤكدات: لام القسم، وقد، والرؤية البصرية، ولفظ **﴿كُلَّهَا﴾** الدال على الشمول والإحاطة، وأفادت الفاء: **﴿فَكَذَّبَ﴾** السرعة، أي: سارع بالكذب بلا تريث أو تمهل.

﴿١٩٨﴾ **قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَکَ مِنَّا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِکَ يَمُوسَى** ﴿طه: ٥٧﴾:

خاطبهم بحديث الآخرة بما فيه من جنة ونار، فأبوا إلا لغة الدنيا ومفردات المتاع الزائل.

٤٩٩ اتهام صريح لموسى بأنه ما جاء إلا ليحتل أرضهم، وينهب أموالهم، ويفرض سلطانه عليهم.

قال الرازي: «وتركيب هذه الشبهة عجيب، وذلك لأنه ألقى في مسامعهم ما يصيرون به مبغضين له جداً، وهو قوله: ﴿أَجِفْنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾، وذلك لأن هذا مما يشق على الإنسان في النهاية؛ ولذلك جعله الله تعالى مساوياً للقتل في قوله: ﴿أَنْ أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ [النساء: ٦٦].»

٤٩٠ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسَحَرٍ مِّثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا تُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ﴾ [طه: ٥٨]:

تأهبوا لمنازعة الحق، وشمروا لمحاربة الوحي، فقصمتهم المشيئة الإلهية، وأطاحت بباطلهم القدرة الربانية، ومن صارع الحق ضرع.

٤٩١ ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٨]: له معنيان:

الأول: مكان تستوي مسافته بين الفريقين. قال قتادة: مُنْصَفًا بَيْنَنَا.

الثاني: مستو لا يحجب العين ما فيه من الارتفاع والانخفاض.

فعلى التقدير الأول هي صفة المسافة، وعلى التقدير الثاني هي صفة المكان.

والمقصود أنهم طلبوا موضعاً يشاهد فيه كل الناس ما يجري.

٤٩٢ ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ تُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]:

كان يوم عيد عظيم عند القبط، أو سوق يتزينون فيه، واشترط موسى أن يساق الناس من كل مكان، والموعِد: (ضُحًى)، فذلك موعد المواجهة، ليكون الأمر مكشوفاً أمام الجميع.

٤٩٣ قال صاحب الكشاف: «وإنما واعدهم موسى ذلك اليوم، ليكون علو كلمة الله، وظهور دينه، وكبت الكافر، وزهوق الباطل على رءوس الأشهاد، وفي المجمع الغاص لتقوى رغبة من رغب في اتباع الحق، ويكلُّ حدُّ المبطلين وأشياعهم، ويكثر الحديث بذلك في كل بدو وحضر، ويشيع في جميع أهل الوبر والمدر».

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ تُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩]:

قالوا: هذا من كلام موسى؛ لأن تعيين يوم المواجهة مما يليق بصاحب الحق الذي يعرف أن الحق معه، لا المبطل الذي يعرف تدليسه.

﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [طه: ٦٠]:

يكيد أهل الباطل الحق وأهله، ويجمعون أشتاتهم ويوحّدون جهودهم للمواجهة، فكيف لا يجتمع أهل الحق، ولماذا يتفرّقون؟

قال ابن عباس: كانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كل واحد منهم حبل وعصا، وقيل: كانوا أربعمائة، وقيل: أكثر من ذلك.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيَلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [طه: ٦١]:

ما الافتراء؟! الافتراء هو عظيم الكذب الذي يُتَعَجَّب منه، ومعنى افتري: افتعل واختلق ما لا يصح أن يكون.

﴿فَيَسْحَتُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه: ٦١]:

احذر الافتراء! قال ميمون بن مهران:

«ما بلغني عن أخ لي مكروهٌ - قطُّ - إلا كان إسقاطُ المكروه عنه أحبَّ إلي من تحقيقه عليه، فإنَّ قال: «لم أقل»؛ كان قوله: «لم أقل» أحبَّ إلي من ثمانية يشهدون عليه!»

﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾ [طه: ٦١]:

من افتري على الله كذبا حصل له أمران: أحدهما: عذاب الاستئصال في الدنيا أو العذاب الشديد في الآخرة، وهو المراد من قوله: ﴿فَيَسْحَتُمْ بِعَذَابٍ﴾.

والثاني: الخيبة والحرمان عن المقصود، وهو المراد بقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى﴾.

﴿٤١٠﴾ في الفارق بين الكذب والافتراء قال الراغب:

«الكذب إما أن يكون اختراعاً لقصة لا أصل لها، أو زيادة في القصة أو نقصاناً

يغيّران المعنى، أو تحريفًا بتغيير عبارة، فما كان اختراعًا يقال له: الافتراء والاختلاق، وكل من أورد كذبًا في غيره، وأعظم الكذب ما كان اختراعًا بحضرة المقول فيه، وهو المعبر عنه بالبهتان».

إعلان خيبة المفترى منشور على صفحات القرآن!

﴿فَتَنَزَّلُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ [طه: ٦٢]:

تفاوضوا وتشاوروا ليستقروا على رأي واحد، وأسروا النجوى عن فرعون، فمنهم من قال: إن غلبنا موسى اتبعناه، ومنهم من قال: إن كان ساحرا فسنغلبه، وإن كان من السماء فله أمر.

﴿قَالُوا إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا﴾

[طه: ٦٣]:

قائمة الاتهامات جاهزة! إنما يريدان عزلي عن ملكي، والانقلاب عليّ، واستقرارهما مكاني، واحتلال أرضكم، وجعل قومهما مكان قومكم، فهل تتركونهم يفعلون؟!

﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ [طه: ٦٣]:

يلجأ أهل الباطل دائما لإثارة حمية قومهم للغيرة على عاداتهم، حتى لو كانت خاطئة، فإن لكل أمة غيرة شديدة على عاداتها وتقاليدها، فاستغل فرعون هذا في إثارة السحرة ضد موسى.

﴿فَاجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوْا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ [طه: ٦٤]:

ثُمَّ اتُّوْا صَفًّا أي مصطفىين، ليكون ذلك أهيب في صدور الحاضرين، وأدعى إلى الترابط وتثبيت بعضهم بعضًا، وأهل الحق أولى بهذا الاجتماع.

﴿قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ [طه: ٦٥]:

كان السحرة كفرة فجرة قبل أن يهديهم الله، ومن هذا إظهار ثقتهم بأنفسهم وسحرهم واعتقادهم أنهم غالبون، يعنون: إن ألقيت قبلنا غلبناك، وإن ألقينا قبلك غلبناك، فإن شئت فتقدم، وإن شئت فتأخر!!

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا^ط فَإِذَا جِبَاهُهُمْ^ط وَعَصِيَّهُمْ^ط تُخِيلُ^ط إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ^ط أَنَّهَا تَسْعَى﴾

[طه: ٦٦]:

الhibال والعِصِيُّ لم تتغير حقيقتها ولم تسع، فالسحر تخيل، والمسحور تتغير رؤيته للشيء، فيراه على غير حقيقته، ويُحِيلُ إليه أنه شيء آخر.

قال ابن القيم:

«يَبْنِ سبحانه أن أعينهم سحرت، وذلك إما أن يكون لتغير حصل في المرئي، وهو الحبال والعصيّ، مثل أن يكون السحرة استغاثت بأرواح حرّكتها، وهي الشياطين، فظنوا أنها تحركت بأنفسها.

وإما أن يكون التغير حدث في الرائي، حتى رأى الحبال والعصيّ تتحرك، وهي ساكنة في أنفسها.

وأما ما يقوله المنكرون: من أنهم فعلوا في الحبال والعصيّ ما أوجب حركتها ومشيتها، مثل الزئبق وغيره، حتى سعت، فهذا باطل من وجوه كثيرة».

﴿فَأَوْجَسَ^ط فِي نَفْسِهِ^ط خِيفَةً^ط مُوسَى﴾ [طه: ٦٧]:

كيف وقع الخوف في قلب موسى رغم ما رأى من آيات؟! قال الرازي:

«والجواب عنه من وجوه.

أحدها: أن ذلك الخوف إنما كان لما طبع الأدمي عليه من ضعف القلب. وثانيها: أنه خاف أن تدخل على الناس شبهة فيما يرونه، فيظنوا أنهم قد ساووا موسى عليه السلام، ويشتبه ذلك عليهم.

وثالثها: أنه خاف حيث بدؤوا وتأخر إلقاؤه أن ينصرف بعض القوم قبل مشاهدة ما يليقه، فيدوموا على اعتقاد الباطل.

ورابعها: لعله عليه السلام كان مأمورا بأن لا يفعل شيئاً إلا بالوحي، فلما تأخر نزول الوحي عليه في ذلك الوقت خاف أن لا ينزل عليه الوحي في ذلك الوقت، فيبقى في الحجالة.

وخامسها: لعله ﷺ خاف من أنه لو أبطل سحر أولئك الحاضرين، فلعل فرعون قد أعد أقوامًا آخرين، فيأتيه بهم فيحتاج مرة أخرى إلى إبطال سحرهم».

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٨]:

وفيه رسائل طمأنة لموسى عن طريق ألوان من التأكيدات: أحدها: ذكر كلمة التأكيد وهي إنَّ. وثانيها: تكرير الضمير (أنت). وثالثها: لام التعريف. ورابعها: لفظ العلو، وهو الغلبة الظاهرة.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا﴾ [طه: ٦٩]:

ولم يقل وألق عصاك، تصغيرا لشأنها، فليست سوى سبب، والله فوق الأسباب.

﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩]:

حُكْم من الله أن الساحر لا يفلح أينما كان، ومهما صنع؛ لأن عمله قائم على التخيل والتزوير وتزييف الحقائق.

﴿فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُبْحًا قَالُوا ءَامَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: ٧٠]:

لماذا سجد السحرة؟ لأن حبالهم وعصيتهم ظلت كما هي حبالًا وعصيًا، ولما ألقى موسى عصاه تحولت إلى حية حقيقية، فعرفوا أنه ليس سحرًا، ولكنها معجزة من الله، فوق طاقة البشر.

﴿قَالَ ءَامَنَّا لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [طه: ٧١]:

حتى الإيمان يحتاج إلى إذن منك أيها الطاغية؟!

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]:

كذابٌ أشر! قد علم أنهم ما اجتمعوا بموسى ولا رأوه من قبل، لكنها صناعة الكذب.

﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [طه: ٧١]:

هكذا شأن الطغاة، يقولون خلاف الحقيقة، ويأمرون الناس أن يصدقوهم بالإجبار، فيصدق الناس كذبهم إيثارا للسلامة.

﴿وَلَا صَلَبْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيْنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧١]:

وله وجهان:

أحدهما: «في» بمعنى «على».

والثاني: أنه نقر جذوع النخل حتى جوفها، ووضعهم فيها فماتوا جوعاً وعطشاً.

﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢]:

استخفوا بوعيده، ولم يبالوا بتهديده، لما علموا أن بلاء الدنيا طارئ يزول، وأن عذاب الآخرة خالد لا يزول.

﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [طه: ٧٢]:

لم يمض على إيمانهم سوى دقائق، ومع هذا عرفوا حقيقة الدنيا، وحقارتها بجوار نعيم الآخرة.

﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣]:

قال ابن عباس رضي الله عنه: «كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخره شهداء».

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ٧٣]:

أيقنوا بالعطاء، فاستعذبوا البلاء، وتحملوا اللأواء.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: ٧٤]:

علموا عن عذاب النار بعد لحظات من إيمانهم ما لا يعلمه بعض المسلمين اليوم بعد أعوام من إسلامهم!

﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾ [طه: ٧٤]:

ما ظنكم بعذاب، أسمى أمنيات صاحبه: الموت، وما هو بميت؟!

﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا تَحْيَى﴾ [طه: ٧٤]:

حياة أهل النار: لا مع الأموات فيستريحون، ولا مع الأحياء فيسعدون!

﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه: ٧٥]:

درجات الجنة مائة، يتقاسمها أهل الجنة بحسب اجتهادهم في أعمالهم.

﴿جَنَّتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴾

[طه: ٧٦]:

قال مجاهد: «إن الله تعالى غرس جنات عدن بيده، فلما تكاملت أغلقت، فهي تُفتح كل سحر، فينظر الله إليها فيقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾».

قال ابن القيم: «جنة عدن اسم لموضع من الجنان مخصوص، وقد يطلق على جملة الجنات، إما حقيقة لوجود الحقيقة وهي الإقامة والدوام والاستمرار، وإما مجازاً من باب إطلاق البعض على الكل».

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ

يَبْسًا﴾ [طه: ٧٧]:

العصا التي تحولت أفعى، هي نفسها التي فتحت طريقاً في البحر يبساً.. قدرة الله فوق إدراك العقول.

﴿لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧]:

إذا طمأنك ربك، فكيف ينتابك خوف؟!

طمأن الله موسى بأن فرعون وجنوده لن يدركوه من خلفهم، وأن البحر لن يغرقهم من أمامهم.

﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَبَنُو دَاوُدَ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا عَاشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]:

أي غشيهم من الأمور الهائلة، والخطوب الفادحة ما لا يعلم كنهه إلا الله، ولا يحيط به غيره. قال الزمخشري: «هو من جوامع الكلم التي تستقل مع قلتها بالمعاني الكثيرة».

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه: ٧٩]:

أضل فرعون قومه عن طريق الحق، فقادهم إلى الهلاك في الدنيا، فضلاً عما ينتظرهم غداً من عذاب الآخرة، وفراغة اليوم يقودون أتباعهم لنفس المصير.

﴿يَبْنِي إِسْرَءِيلَ قَدْ أَجْبَيْنَكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدَنَّاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوى﴾ [طه: ٨٠]:

ما أكرمه من رب! يذكرهم آلاءه، ويُعَدِّد عليهم نعماءه، ويرغبهم في طاعته والقيام بشكره لما أسبغ عليهم من فنون النعم، ثم يذكرهم بما منَّ به على أجدادهم من إنزال المن والسلوى.

﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ [طه: ٨١]:

فيه وجوه. أحدها: أي لا يظلم بعضكم بعضاً فيأخذه من صاحبه. وثانيها: لا تتجاوزوا حد الإباحة. وثالثها: لا تستعينوا بنعمتي على معصيتي، ولا تعدلوا عن الحلال إلى الحرام.

﴿وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى﴾ [طه: ٨١]:

قال الحسن: «خصلتان من العبد إذا صلحتا صلح ما سواهما: الركون إلى الظلمة، والطغيان في النعمة. قال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ [هود: ١١٣]، وقال الله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ [طه: ٨١].»

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: ٨٢]:

قال أبو حامد الغزالي: «إذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راجٍ، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور».

٤٤٧ قال الزمخشري:

«الاهتداء هو الاستقامة والثبات على الهدى المذكور؛ وهو التوبة والإيمان والعمل الصالح».

٤٤٨ ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَى﴾ [طه: ٨٣]:

تقدّم موسى النقباء الذين اختارهم لمناجاة الله في جبل الطور، واستعجل شوقاً منه إلى كلام ربه ومناجاته.

٤٤٩ قيل:

تعجّل موسى إلى ميقات ربه، ليبدأ بنفسه، ويكون أول مَنْ يُنفذ ما أمرهم به، مثل فاتح الأندلس طارق بن زياد حين قال لجنوده: «واعلموا أني أول مجيب ما دعوتكم إليه، وإني عند ملتقى الجمعين حاملٌ بنفسي على طاعة القوم لذريق، فقاتله إن شاء الله تعالى، فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره».

٤٥٠ هياً غياب موسى المناخ لإثارة الفتنة داخل بني إسرائيل، وكشف أن إيمان بني إسرائيل كان مرتبطاً بشخص موسى لا رسالته، وانكشف أنه إيمان هش، لم يتحرّر بعد من مادية القوم ووثنية من عاشروهم.

٤٥١ ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤]:

قال ابن القيم: «سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يذكر ذلك قال: إن رضا الرب في العجلة إلى أوامره».

٤٥٢ ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٥]:

انتهز السامري فرصة غياب موسى، واستغل روااسب الشرك عند بني إسرائيل، وهشاشة إيمانهم، واستعدادهم لتقبل خرافاته، فأمرهم بعبادة العجل فأطاعوه.

٤٥٣ غياب الدعاة = ضياع الأمة.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا ۖ قَالَ يَتَقَوَّمُ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا ۚ﴾ [طه: ٨٦]:

حَسَنًا ﴿طه: ٨٦﴾:

ومن الوعد الحسن: أنزل عليكم التوراة، وأهلك عدوكم أمامكم، فكيف أعرضتم عن عبادته إلى عبادة غيره؟!

﴿أَفُطِّلَ عَلَيْكُمْ الْوَعْدُ أَمْ أَزِدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمُ ۖ﴾ [طه: ٨٦]:

مَوْعِدِي ﴿طه: ٨٦﴾:

قال ابن جرير: «كان إخلافهم موعده: عكوفهم على عبادة العجل، وتركهم السير على أثر موسى للموعد الذي كان الله وعدهم، وقولهم لهارون إذ نهاهم عن عبادة العجل ودعاهم إلى السير معه في أثر موسى: ﴿لَنْ نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾».

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾ [طه: ٨٧]:

حكى الله أعتابهم الواهية التي تدل على بلادة عقولهم، وانتكاس إيمانهم، فقالوا: ما أخلفنا موعدك فعبدنا العجل بأمرنا واختيارنا، فلولا إغواء السامري ما عبدنا العجل، ولبقينا على العهد الذي عاهدناك عليه.

التعلل بالضعف، والتهرب من التبعات، والتبرير الواهي للعمل الفاسد، وإلقاء اللوم على الغير، وعدم تحمل المسؤولية، وتعليق الأخطاء على شاعات الآخرين.. كل هذه خصال فاسدة تعلّمنا الآية أن نجتنبها.

﴿وَلَكِنَّا حُمَلَاءُ ۖ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧]:

قال ابن كثير: «وحاصل ما اعتذر به هؤلاء الجهلة أنهم تورعوا عن زينة القبط (كانوا استعاروها من القبط في عيد لهم قبل خروجهم من مصر)، فألقوها عنهم، فعبدوا العجل، فتورّعوا عن الحقيير، وفعلوا الأمر الكبير».

استغلال العاطفة الإيمانية الساذجة! قال لهم في خبث بنبوة الناصح الشفيق: إن ما حملتموه من ذهب قوم فرعون إثم يجب عليكم التخلص منه، والتطهر من وزره، فاقدفوا هذه الزينة في النار.

﴿فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٧]:

فَقَذَفْنَاهَا فِي النَّارِ بِتَوْجِيهِهِ مِنَ السَّامِرِيِّ، ﴿فَكَذَلِكَ﴾ أَي: فَكَمَا أَلْقَيْنَا مَا مَعَنَا أَلْقَى السَّامِرِيُّ مَا مَعَهُ مِنْ تِلْكَ الزِينَةِ.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى

فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]:

كَانَ نَتِيجَةً مَا قَذَفُوهُ مِنَ الْحَلِيِّ فِي النَّارِ، أَنْ أَخْرَجَ السَّامِرِيُّ لَهُمْ مِنْ ذَلِكَ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ، أَي صَوْتُ كَصَوْتِ الْبَقَرِ.

قِيلَ: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْحَيَاةَ فِي ذَلِكَ الْعِجْلِ عَلَى سَبِيلِ الْإِخْتِبَارِ لَهُمْ.

وَقِيلَ: لَمْ تَكُنْ بِهِ حَيَاةٌ، وَلَكِنَّ السَّامِرِيَّ صَنَعَهُ لَهُمْ بِدَقَّةٍ، وَجَعَلَ فِيهِ مَنَافِذَ إِذَا دَخَلَتْ فِيهَا الرِّيحُ أَخْرَجَتْ مِنْهُ صَوْتًا كَصَوْتِ خُورِ الْبَقَرِ.

الْعِجْلُ رَمَزَ لَا اسْتِعْدَادَ الْأُمَّةِ لِلضَّلَالِ، وَانْظُرْ كَيْفَ أَظْهَرَ بَعْضُ أَبْنَاءِ شُعُوبِنَا الْقَابِلِيَّةَ لِمِثْلِ هَذَا الضَّلَالِ، وَوَقَّوعَهَا فِي خِرَافَاتِ الْعَقَائِدِ، وَتَأْيِيدَهَا لِمَنْ جَهَرَ بِمَعَادَاةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ؟!

﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]:

تَشِيرُ الْآيَةُ بِصَيَغَةِ الْجَمْعِ إِلَى أَنَّ الْمُتَوَرِّطَ فِي عَمَلِيَّةِ الْإِضْلَالِ لَيْسَ السَّامِرِيُّ وَحْدَهُ، بَلْ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمَغْفَلِينَ أَوْ الْمُنَافِقِينَ الْمُتَتَفِعِينَ، تُكْرِّرُ كَلَامَهُ وَتَنْشُرُ ضَلَالَهُ.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى

فَنَسِيَ﴾ [طه: ٨٨]:

لَمَّا رَأَى بَنُو إِسْرَائِيلَ الْعِجْلَ الَّذِي صَنَعَهُ لَهُمُ السَّامِرِيُّ قَالُوا: هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَاعْبُدُوهُ، فَإِنَّ مُوسَى نَسِيَ إِلَهَهُ هُنَا، وَذَهَبَ يَبْحَثُ عَنْهُ فِي مَكَانٍ آخَرَ!

هَذَا دَلِيلٌ فَجُورِ الْيَهُودِ وَبِلَادَةِ فَهْمِهِمْ وَسُوءِ أَدْبِهِمْ مَعَ رَبِّهِمْ وَنَبِيِّهِمْ، فَلَمْ يَكْتَفُوا بِعِبَادَةِ الْعِجْلِ، بَلْ زَعَمُوا أَنَّ نَبِيَّهُمْ كَانَ يَعْبُدُهُ، وَأَنَّهُ نَسِيَ مَكَانَهُ، فَذَهَبَ

لِلْبَحْثِ عَنْهُ!

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩]:

تقريع لهم على غبائهم وسوء أدبهم وبلادة تفكيرهم، فكيف بمن لا يقوى على دفع ضر ولا جلب نفع، أن يتخذ إلها؟

﴿يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠]:

قال الرازي :

«واعلم أن هارون عليه السلام سلك في هذا الوعظ أحسن الوجوه؛

لأنه زجرهم عن الباطل - أولاً - بقوله: ﴿يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾

ثم دعاهم إلى معرفة الله - ثانيًا - بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾

ثم دعاهم - ثالثًا - إلى معرفة النبوة بقوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾

ثم دعاهم - رابعًا - إلى الشرائع بقوله: ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾

وهذا هو الترتيب الجيد؛ لأنه لا بد قبل كل شيء من إماطه الأذى عن الطريق وهو إزالة الشبهات، ثم معرفة الله تعالى هي الأصل، ثم النبوة، ثم الشريعة: فثبت أن هذا الترتيب على أحسن الوجوه».

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَنكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١]:

لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يرجع إلينا موسى، فننظر: هل يعبدنا كما عبدناه، فتوهموا أن موسى كان عابدا للعجل!

﴿قَالَ يَهْرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ أَلَا تَتَّبِعُنَا ۚ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ [طه: ٩٣]:

سكت هارون عن عبادة العجل تأليفاً للقلوب ولعدم بث الفرقة وشق الصف.

﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ﴾ [طه: ٩٤]:

عدل هارون عن ندائه بـ (يا أخي) إلى ﴿يَبْنَؤُمْ﴾؛ لأن ذكر الأم فيه تذكير بأواصر الأخوة، وهذا من شأنه أن يهدئ من غضب موسى.

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٤]:

الجزء من جنس العمل، فكما أن السامري مسّ ما لا يحل له من أثر الرسول جبريل عليه السلام، فقد عوقب بأن لا يمسّ أحدًا من الناس ولا يمسّه أحد، وكما أراد بالعجل الذي صنعه أن يجمع الناس حوله، فعاقبه الله بعكس مقصوده، فلا يتواصل معه أحد.

سواء كان السامري رجلًا طامحًا في قيادة بني إسرائيل، أو يرغب أن تكون له سيادة دينية عليهم، أو طامعًا في سرقة ذهب الناس، فقد طُرد من حياتهم، وصار منبوذًا، وهذا أفضل علاج لمن فُتِنوا به، فعبدوا العجل، أن يفرّ منهم عاجزًا ملعونًا حقيرًا.

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَنْسَمِرِي﴾ [طه: ٩٥]:

قال ابن عاشور: «ولعل موسى لم يغلظ له القول كما أغلظ لهارون؛ لأنه كان جاهلًا بالدين فلم يكن في ضلاله عجب، ولعل هذا يؤيد ما قيل: إن السامري لم يكن من بني إسرائيل، ولكنه كان من القبط، ولما كان موسى مبعوثًا لبني إسرائيل خاصة، كان اتباع غير الإسرائيليين لشريعة موسى أمرًا غير واجب على غير الإسرائيليين، ولكنه مرغب فيه لما فيه من الاهتداء، فلذلك لم يُعَنِّفه موسى؛ لأن الأجر بالتعنيف هم القوم الذين عاهدوا الله على الشريعة».

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا

وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: ٩٦]:

نقل الفخر الرازي عن أبي مسلم الأصفهاني عن أن المراد بالرسول هو موسى عليه السلام، وبأثره: سنته، والتقدير: أن موسى لما أقبل على السامري بالتوبيخ، رد عليه: بصرت بما لم يبصروا به، أي عرفت أن الذي أنتم عليه ليس الحق، وقد كنت قبضت قبضة من أثرك يا موسى، أي أخذت شيئًا من دينك فنبدته، لما تبين لي أنك على ضلال، وسوّلت لي نفسي أن أصنع للناس عجلا لكي يعبدوه؛ لأن أرى عبادته هي الحق.

﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَوةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [طه: ٩٧]:

لماذا لم يقتل موسى السامري؟ ألم يكن ذلك أسهل وأسرع في التخلص من سمومه وشروره؟

والجواب: فارق كبير بين الانتقام والعقوبة، فالعقوبة لها هدف تربوي، تصدر من مسئولية تجاه المجتمع لتنقيه من شوائب الجريمة، وهو ما فعله موسى.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ [طه: ٩٧]:

موعد الآخرة لا مفر منه، فموعدك هناك للعذاب الأشد، كما سبق لك في الدنيا العذاب الأخف، وهو موعد لا تستطيع التخلف عنه أو الهروب منه.

﴿وَأَنْظِرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧]:

نَفَذَ موسى ﷺ عملية نسف العجل الذهبي على الفور، ليظهر للأغبياء الذين عبدوا العجل أنه لا يستحق العبادة، وإنما يستحق النسف والتذرية.

﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٩٨]:

تعريض بمن عبدوا العجل! قال مقاتل: يعلم من يعبده ومن لا يعبد.

﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]:

فيه ذكر نعمة عظيمة، وهي إعلام النبي ﷺ بأخبار الأمم السابقة؛ ليتسلى بذلك، ويعلم أن ما صدر من الأمم لرسولهم، ليس أمرًا جديدًا.

﴿وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا﴾ [طه: ٩٩]:

قال الفخر الرازي: «وفي تسمية القرآن بالذكر وجوه:

أحدها: أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم.

وثانيها: أنه يذكر أنواع آلاء الله ونعمائه على الناس، ففيه التذكير والوعظ.

وثالثها: أنه فيه الذكر والشرف لك ولقومك، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ

لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤].»

﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ [طه: ١٠٠]:

الإعراض عن القرآن بعدم الإيمان به أو عدم اتباع ما فيه، يستحق صاحبه عقوبة شديدة يوم القيامة.

﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾ [طه: ١٠١]:

أعظم ما حملته الظهور: الأوزار! وأساس هذا البلاء: الإعراض عن القرآن: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا﴾ ﴿خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا﴾.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]:

هي نفخة إسرائيل في الصور النفخة الثانية، عن ابن عباس أن رجلاً أتاه فقال: رأيت قوله: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾، وأخرى ﴿عُمِيًّا﴾، قال: إن يوم القيامة فيه حالات يكونون في حال زرقا، وفي حال عميا.

﴿يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا﴾ [طه: ١٠٣]:

يستقصرون أعمارهم في الدنيا كأنها عشرة أيام، وذلك لأسباب:

- إما لما يعاينون من الشدائد التي تذكّرهم أيام النعمة والسرور، فيتأسفون عليها ويصفونها بالقصر.
- أو لأنها ذهبت عنهم وانقضت، وكل ذاهب وإن طال مدته، قصير بالانتهاء.
- أو لاستطالتهم الآخرة، وأنها أبد، فيستقصرون إليها عمر الدنيا.

﴿إِذْ يَقُولُ امْكُثْهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٤]:

أي يقول أعلمهم بالأمور إن لبثتم في الدنيا إلا يوماً.. ما أحقر هذه الدنيا وأقصرها.

﴿وَدَسَّلُونَاكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا﴾ [طه: ١٠٥]:

عبر بصيغة المضارع: ﴿يَنْسِفُهَا رَبِّي﴾ لإثبات أنه حقيقة لا استعارة، فيجعل الله الجبال كالرمال، ثم تذروها الرياح.

﴿فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۖ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٦-١٠٧]:

الجبال وحدها لا تتغير في الدنيا أمام العيون، فالنباتات تذبل، والبشر يموتون، حتى يوم القيامة، فإن الجبال تُنسف، فكيف بها دونها؟!

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ﴾ [طه: ١٠٨]:

يصطفون بلا اعوجاج، كما يصطف المجرمون تبعاً لأوامر من يقودهم إلى السجن، وداعيهم يوم القيامة هو إسرافيل النافخ في الصور، وقيل: الداعي هو الرسول، أي يتبع كل قوم رسولهم.

﴿وَحَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: ١٠٨]:

كل الخلائق تحشر في جو من الصمت الرهيب خوفاً من الحساب. قال سعيد ابن جبير عن الهمس: «سِرُّ الحديث وصوت الأقدام».

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]:

أبشروا بالشفاعة! والشفاعة أنواع! منها شفاعة النبي ﷺ، وشفاعة الشهيد في سبعين من أهله، وشفاعة المؤمنين بعضهم في بعض، ففي الحديث: «يدخل الجنة بشفاعة رجلٍ من أمتي أكثر من بنى تميم». صحيح الجامع رقم: ٨٠٦٩.

﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]:

رضي الله قول الشافع في شأن المشفوع فيه.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]:

إذن الله بالشفاعة يجري على ما يقتضيه علمه سبحانه بأعمال العباد الظاهرة والباطنة، فعبر عن الأعمال الظاهرة بما بين أيديهم؛ وعبر عن السرائر بما خلفهم؛ فالعبارة كناية عن أعمالهم الظاهرة والخفية.

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١]:

العاني هو الأسير، والعناء هو الذلُّ، وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء الظاهرة، وآثار الذل أول ما تظهر فيها، وهو تمثيل لحال المجرمين يوم القيامة.

﴿فَلَا تَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ [طه: ١١٢]:

الفرق بين الظلم والهضم: أن الظلم يكون بمنع الحق كله، أما الهضم فهو منع بعض الحق، والآية بَشَّرَت المؤمنين أن الله سيوفِّيهم أجورهم يوم القيامة دون أدنى نقص، فالتنكير في قوله ﴿ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ للتقليل.

﴿وَصَرَفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ [طه: ١١٣]:

كَرَّرْنَا ونَوَّعْنَا ألوان الوعيد، وهذا من رحمة الله بعباده، ليزجرهم عن التماادي في عصيانه، وفيه ردُّ على من يجتنب من الدعاة خطاب الترهيب والوعيد.

قال السعدي: «أي: نوَّعناها أنواعا كثيرة، تارة بذكر أسماؤه الدالة على العدل والانتقام،

وتارة بذكر المثالات التي أحلَّها بالأمم السابقة، وأمر أن تعتبر بها الأمم اللاحقة.

وتارة بذكر آثار الذنوب، وما تكسبه من العيوب.

وتارة بذكر أهوال القيامة، وما فيها من المزعجات والمقلقات.

وتارة بذكر جهنم وما فيها من أنواع العقاب وأصناف العذاب».

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ﴾ [طه: ١١٤]:

تمهَّل في قراءتك، وعلى رسلك، فلربما تجد في طيات حروفه رسالة ربانية خاصة، تشفي صدرك، وتمحو قلقك.

كان ﷺ إذا ألقى عليه جبريل ﷺ القرآن يتبعه عند تلفظ كل حرف وكل

كلمة خوفا أن يصعد ﷺ ولم يحفظه ﷺ، فنُهي عليه الصلاة والسلام عن

ذلك، إذ ربما يشغل التلفظ بكلمة عن سماع ما بعدها، ونزل عليه أيضًا: ﴿لَا

تُخْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾.

﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]:

من شرف العلم أن النبي ﷺ ما أُمِر بطلب الزيادة من شيء سوى العلم،

وكان ﷺ يقول: «اللهم انفعني بما علَّمتني، وعلمني ما ينفعني، وزدني علما».

كان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: «اللهم زدني إيماناً و يقيناً».

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥]:

يستزِلُّ الشيطان العبد من أحد طريقين: النسيان، أو ضعف العزم. قال ابن القيم: «وتأمل أول نقص دخل على أبي البشر وسرى إلى أولاده؛ كيف كان من عدم العلم والعزم».

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِئَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾ [طه: ١١٦]:

منعه داء الكبر والحسد من السجود، فكان الطرد من رحمة الله عقوبة هذا الجحود.

﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٧]:

الشقاء كل الشقاء في الحرمان من الجنة.

من أصغى إلى قول عدوّه، تجرّع كأس النَّدَم، وفي ما جرى للآباء عبرة لأولي الألباب وأصحاب الهمم.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ۖ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩]:

لم قابل الجوع بالعري، والظمأ بالضحى؟!

قال ابن القيم: «لأن الجوع ألم الباطن، والعري ألم الظاهر، فهما متناسبان في المعنى، وكذلك الظمأ مع الضحى؛ لأن الظمأ موجب لحرارة الباطن، والضحى موجب لحرارة الظاهر، فاقتضت الآية نفي جميع الآفات ظاهراً وباطناً».

﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّادِمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ

لَا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠]:

طول الأمل وحياسة الملك من أشهر الفخاخ الإبليسية التي يصطاد بها إبليس ضحاياه.

﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]:

ترك المأمور أشدَّ خطراً من فعل المحذور؛ وفعل المأمور أحب إلى الله من ترك المحذور، وذنب آدم عليه السلام كان بفعل المحذور، فكان عاقبته أن اجتباه ربه، فتاب عليه وهدي، وذنب إبليس كان بترك المأمور، فكان عاقبته ما ذكر الله سبحانه من معاقبته.

﴿ثُمَّ أَجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢]:

الذنب ليس نهاية المطاف، فبعد اعتراف آدم بالذنب اصطفاه ربه، ثم قبل توبته، ثم هداه إلى الثبات على توبته.

﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣]:

قال ابن عباس: «فضمن الله لمن اتبع القرآن ألا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة».

﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤]:

قال الإمام ابن كثير: «أي في الدنيا، فلاطمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق لضلاله، وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء، وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة».

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥]:

من عاش على حالة لقي الله بها، فمن كان في الدنيا أعمى القلب حشر يوم القيامة أعمى البصر.

كيف الجمع بين هذه الآية وبين آيات أخرى تدل على أن الكفار يبصرون ويسمعون، ومنها قوله: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتَنَّا﴾؟

والجواب: عماهم وصممهم في وقت، وبصرهم وسمعهم في وقت آخر. قال الجمل: «والمراد عمى البصر، وذلك في المحشر، فإذا دخل النار زال عنه عماه ليرى محله وحاله، فهو أعمى في حال، وبصير في حال أخرى».

﴿كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٦]:

النسيان في الآية هو الترك، أي تُترك في العذاب وكأنك منسي.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٧]:

لما توعد من أعرض عن ذكره بعقوبة دنيوية: المعيشة الضنك في الدنيا.

وأخروية: وهي حشره أعمى يوم القيامة، ختم هذا الوعيد بقوله:

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾، وكأنه قال:

وللحشر على العمى الذي لا يزول أشدُّ من ضيق العيش الذي يزول بالموت.

﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٧]:

أو أراد: ولتركنا إياه في عذاب العمى أشدُّ وأبقى من تركه لآياتنا.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ﴾ [طه: ١٢٨]:

ليس الخبر كالمعاينة، وما راء كمن سمع، ومن شاهد ما حصل للأمم الماضية،

ورأى آثارها البائدة، حصل له العبرة البالغة.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩]:

ما هي هذه الكلمة السابقة؟ قال القاشاني: «هو القضاء السابق ألا يستأصل

هذه الأمة بالدمار والعذاب في الدنيا؛ لأن محمداً عليه الصلاة والسلام نبي

الرحمة، فقد قضى الله سبحانه وتعالى ألا يهلك أمته إهلاكاً عاماً يستأصل شأفة

المكذبين منهم، كما حصل في الأمم السابقة».

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]:

أرشد الله نبيه إلى ما يشرح صدره، ويجلو همّه، ويفرّج كربه.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ

فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ [طه: ١٣٠]:

ارتباط (التسبيح) و(الرضا) ارتباط وثيق، فالتسبيح سائر اليوم من

أسباب الرضا النفسي، ويؤكد قول الله في آخر سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ

أَنْتَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿١٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ، ولم يبقَ إلا أن
تَجَرَّبَ ؟!

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [طه: ١٣١]:

تشبيه الحياة الدنيا بالزهرة إشارة إلى قصر الدنيا، فكم تعيش الزهرة قبل أن
تذبل وتموت ؟!

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]:

مدُّ النظر هو تطويله فلا يكاد صاحبه يرده استحساناً للمنظور إليه، وإعجاباً
به، وتمنياً أن يكون له، فلا تمد نظرك لنعيم الدنيا، وانظر إلى ما زادك الله في
الدين.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١]:

كان عروة بن الزبير إذا رأى شيئاً من أخبار السلاطين وأحوالهم بادر إلى منزله
فدخله، وهو يقرأ الآية: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾، ثم ينادي بالصلاة: الصلاة
يرحمكم الله، ويصلي.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١]:

قال ابن رجب:

«مجالسة المساكين توجب رضا من يجالسهم برزق الله عز وجل، وتُعْظَمُ عنده
نعمة الله عز وجل عليه بنظره في الدنيا إلى من دونه، ومجالسة الأغنياء توجب
السخط بالرزق، ومدَّ العين إلى زينتهم وما هم فيه، وقد نهى الله عز وجل نبيه
عن ذلك، فقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ

زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].»

﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]:

قال القشيري: «القليل من الحلال - وفيه رضاء الرحمن - خير من الكثير من الحرام والحطام، ومعه سخطه، ويُقال: قليلٌ يُشهِدُكَ رَبُّكَ خَيْرٌ من كثيرٍ يُنْسِيكَ رَبُّكَ».

﴿وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٣١]:

سين: لم قال رزق ربك مع أن الرزق كله رزق الله؟!
جيم: إضافة الرزق لله إضافة تشريف، وإلا فالرزق كله من الله، لكن رزق الكافرين والفاسقين لما صاحبه غضب الله ومخالفة أمره، جُعِلَ كالمنكور انتسابه إلى الله، وجُعِلَ رزق الله هو السالم من ملابسة الكفران والعصيان.

﴿وَأُمِرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢]:

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يصلي من الليل ما شاء الله أن يصلي حتى إذا كان آخر الليل أيقظ أهله للصلاة ويقول لهم: الصلاة، الصلاة، ويتلو هذه الآية: ﴿وَأُمِرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾.

﴿لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا﴾ [طه: ١٣٢]:

قال ابن جزي:
«أي لا نسألك أن ترزق نفسك ولا أهلك، فتفرغ أنت وأهلك للصلاة فنحن نرزقك، وكان بعض السلف إذا أصاب أهله خصاصة (فقر) قال: قوموا فصلوا.. بهذا أمركم الله، ويتلو هذه الآية».

﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۖ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَّا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه: ١٣٣]:

ليس القصور في الأدلة والآيات، بل العمى في البصائر والخلل في التصورات.

جاء صلى الله عليه وسلم بالكثير من المعجزات، فإن كان عيسى عليه السلام كلّم الأموات وأحياهم بإذن

الله، فقد كلم محمد صلى الله عليه وسلم الجماد، فحنّ الجذع إليه، وكانت أنواع الحيوانات تسلم عليه، وكان الشجر يتكلم بين يديه، فهل آمنوا بعد ما رأوا الآيات؟!

﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾ [طه: ١٣٤]:

ما كان الله ليعذب قوما إلا بعد إقامة الحجة عليهم، فعذر الله مطلق.

قال ابن حزم: «ولا خلاف في أن امرءا لو أسلم، ولم يعلم شرائع الإسلام، فاعتقد أن الخمر حلال، وأن ليس على الإنسان صلاة، وهو لم يبلغه حكم الله تعالى، لم يكن كافرا بلا خلاف».

قال ابن القيم في طريق الهجرتين:
«إنَّ العذاب يُستحقُّ بسببين:

أحدهما: الإعراض عن الحجة وعدم إرادتها والعمل بها وبموجبها.
الثاني: العناد لها بعد قيامها وترك إرادة موجبها.

فالأول كفر إعراض، والثاني كفر عناد، وأمَّا كفر الجهل مع عدم قيام الحجة وعدم التمكن من معرفتها، فهذا الذي نفى الله التعذيب عنه حتى تقوم حجة الرسل».

﴿قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبِّصُوا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنِ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ١٣٥]:

قوة أهل الحق! كلُّ من أهل الحق وأهل الباطل متربص بالآخر، ومنتظر لما سيؤول إليه أمر صاحبه، وصيغة الأمر في الآية (فتربصوا) هي للإنذار الشديد، أي انتظروا ما يؤول إليه حالنا وحالكم، فستعلمون عن قريب ﴿مَنِ أَصْحَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ أي من منا على الحق.



من روائع المتدبرين



خرج عمر يعسُ (يطوف بالليل) بالمدينة ذات ليلة، فمرَّ بدار رجل من المسلمين، فوافقه قائماً يصلي، فوقف يستمع قراءته فقرأ: ﴿وَالطُّورِ ..﴾ حتى بلغ: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ﴿[الطور: ٧-٨]﴾. قال: قَسَمُ وربِّ الكعبة حق، فنزل عن حماره، واستند إلى حائط، فمكث ملياً، ثم رجع إلى منزله، فمكث شهراً يعود الناس لا يدرون ما مرضه، رضي الله عنه (١).

وعلى سيد قطب على هذه الحادثة بقوله:

«وعمر رضي الله عنه سمع السورة قبل ذلك، وقرأها، وصلى بها، فقد كان رسول الله ﷺ يصلي بها المغرب، وعمر يعلم ويتأسى، ولكنها في تلك الليلة صادفت منه قلباً مكشوفاً، وحساً مفتوحاً، فنفذت إليه وفعلت به هذا الذي فعلت، حين وصلت إليه بثقلها وعنفها، وحقيقتها اللدنية المباشرة؛ التي تصل إلى القلوب في لحظات خاصة، فتدخلها وتعمقها، في لمسة مباشرة كهذه اللمسة، تلقى فيها القلب الآية من مصدرها الأول كما تلقاها قلب رسول الله ﷺ فأطاقها لأنه تهيأ لتلقيها، فأما غيره فيقع لهم شيء مما وقع لعمر رضي الله عنه حين تنفذ إليهم بقوة حقيقتها الأولى» (٢).

(١) تفسير ابن كثير ٧-٤٠٠ - ط دار الكتب العلمية

(٢) في ظلال القرآن ٦ / ٣٣٩٤



الجزء السابع عشر

سورة الأنبياء آية ١
إلى سورة الحج آية ٧٨
عدد الفوائد: ٣١٠

قال ابن القيم:

«فقرائه (القرآن) بغير تدبر ولا تفهم ولا اتباع ولا
تحكيم له وعمل بموجبه، كحمار على ظهره زاملة
أسفار لا يدري ما فيها، وحظُّه منها حملها على ظهره
ليس إلا؛ فحظُّه من كتاب الله كحظِّ هذا الحمار من
الكتب التي على ظهره».

إعلام الموقعين ص ١٢٧

الجزء السابع عشر سورة الأنبياء آية ١ إلى سورة الحج آية ٧٨

سورة الأنبياء

﴿أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١]:

احذر.. الموت يقترب والغفلة كما هي.

﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ﴾ [الأنبياء: ٢]:

أتاك الذكر دون أن تتعب في الوصول إليه، وصلك وأنت متكئ على سريرك، أو مستريح على أريكتك، مع أنه الذي ينبغي أن يؤتى، وتقطع إليه المسافات، فأني تدليل هذا وأي عناية؟!

﴿لَا هِيَ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]:

السير سير القلب، لو صفا لصفا العمل، ولو كان لاهياً لفسد العمل.

﴿وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الأنبياء: ٣]:

حين يعجز الجبان عن المواجهة، ويفشل عند التحدي، لا بد وأن يلجأ إلى النجوى.

سين: النجوى لا تكون إلا خفية، فما فائدة قوله: ﴿وَأَسْرُوا﴾ النجوى.

جيم: معناه: بالغوا في إخفائها، بحيث لا يفتن أي أحد لمنجاتهم.

﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّخَرَ وَتُبْصِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣]:

كيف عرف النبي ﷺ ما أسروه في أنفسهم، وهو قولهم: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ

مِثْلُكُمْ﴾؟!

والجواب:

إن الله -الذي لا تخفى عليه خافية- أخبره، فكيف لم يؤمنوا بعد ما شهدوا معجزة هذا الإخبار؟!

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنبياء: ٤]:

اطلع الله على نجواهم، فأطلع عليها رسوله، فلم يتم لهم ما أرادوه من الإسرار من الكيد للإضرار، ولا عجب، فهو السميع لكل ما يتكلمون به، والعليم بما تنطوي عليه الضمائر.

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمٌ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]:

حملات إعلامية مضادة! هؤلاء عرفوا الحق، لكنهم ردّدوا هذه الافتراءات كحملات تشهيرية منظّمة، لينفّروا الناس عن الحق، وهؤلاء لا يخلو منهم زمان ولا مكان.

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٦]:

طلبوا منك آية كونية كالتي جاء بها الأنبياء الذين سبقوك، ولما لم يؤمن بها أقوامهم أهلكتناهم، ولو أعطيناك نفس الآيات ولم يؤمنوا بها لأهلكناهم كما أهلكنا السابقين؛ لذا كان من رحمتنا أن نمنع عنهم ما طلبوه، وإلا هلكوا.

﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء: ٦]:

أي أن الكافرين من أمتك - يا محمد - لن يؤمنوا بالخوارق التي طلبوها متى جاءتهم؛ لأنهم لا يقلون عتوّاً وعناداً عن من سبقهم، فأهلكهم الله.

﴿فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]:

قال البيضاوي:

«جوابٌ لقولهم: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾، فأمرهم أن يسألوا أهل الكتاب عن حال الرُّسل المتقدمة؛ ليزيل عنهم الشبهة.

والإحالة عليهم إما للإلزام، فإن المشركين كانوا يشاورونهم في أمر النبي عليه الصلاة والسلام ويثقون بقولهم، أو لأن إخبار الجُم الغفير يوجب العلم وإن كانوا كفارًا».

﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]:

السؤال مفتاح العلم، والجاهل لا يُعَدَّر في جهله؛ لأن السؤال دواء الجهال.

﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨]:

يقول جمال الدين القاسمي:

«وفي هذا التعريف الرباني عن حال المرسلين، أكبر رادع لأولئك المنزوين عن الناس؛ إذ يرون تناول الطعام في المحافل وتكثر سواد الناس في المجمع، والخروج للأسواق لقضاء الحاجات، من أعظم الهوادم لصروح الاعتقاد فيهم، فتراهم يأنفون من شراء حوائجهم بأيديهم، وهو السنة. ومن المشي بالأسواق، وهو المأذون فيه.

ومن إجابة الدعوة، وهي واجبة.

لأوهام في أنفسهم شيدوها، ومحافظة على السمعة حموا جانبها، فتباً لهم من قوم مبتدعين، يعبدون قلوب الخلق ولا يعبدون الله، ويريدون حالة فوق ما عليه رسل الله».

﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩]:

يحقق الحق وعده مهما تأخر، ووعدته أكيد بنصرة أهل الحق، وإعلاء كلمة الدين، وإرغام أنوف المجرمين.

﴿وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء: ٩]:

قال ابن عاشور: «وهذا من لطف الله بعباده في ترغيبهم في الإيثار؛ ولذلك لم يقل: ونهلك المسرفين، بل عاد إلى صيغة الماضي الذي هو حكاية لما حلَّ بالأُمم السالفة، وبقي المقصود من ذكر الذين أهلكوا، وهو: التعريض بالتهديد، والتحذير أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك، مع عدم التصريح بالوعيد».

﴿لَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]:

أي شرفكم وعزكم، يعلمنا الله أن العز الحقيقي بالقرآن والإيمان لا بالأموال والتطاول في البنيان.

﴿لَقَدْ أُنزِلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠]:

بقدر عنايتك بالقرآن تزداد عزا وشرفا عند الله وعند الناس.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾

[الأنبياء: ١١]:

﴿وَكَمْ﴾ تقتضي الكثير، لكن كثيرًا من الناس ينسى مصارع الظالمين!

القسم هو أفضع الكسر، فالمعنى أن كثيرًا من أهل القرى أهلكتهم أشد الإهلاك بسبب ظلمهم، فاحذروا الظلم لسوء عاقبته.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الأنبياء: ١١]:

تهديد للظالمين المعاصرين بما جرى لأسلافهم السابقين.

﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الأنبياء: ١٢]:

الهروب من الموت، هل نجح فيه أحد؟!

﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾

[الأنبياء: ١٣]:

قال صاحب الكشف:

«قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ تهكم بهم وتوبيخ، أي:

- ارجعوا إلى نعيمكم ومساكنكم، لعلكم تسألون غدا عما جرى عليكم، ونزل بأموالكم ومساكنكم، فتجيبوا السائل عن علم ومشاهدة.

- أو ارجعوا واجلسوا كما كنتم في مجالسكم، حتى يسألكم حشمكم وعبيدكم: بم تأمرون؟

- أو يسألكم الناس في أنديتكم ويستشيرونكم.

- أو يسألكم الوافدون عليكم، ويستمطرون سحائب أكمكم.
 قيل لهم ذلك تهكمًا إلى تهكم، وتوبيخًا إلى توبيخ».

﴿قَالُوا يَبُولْنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٤]:

لا يندم ظالم إلا في الوقت الضائع، ولا يعرف الحق إلا عند نزول الموت.

﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَمِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٥]:

هول المفاجأة وشدة العذاب جعلتهم يستمرون في صيحة: ﴿يَبُولْنَا إِنَّا﴾ ،
 فلم تختص فقط بوقت الدهشة، بل ردّوها بهستيرية تنمُّ على فزع شديد، ما
 أمكنهم النطق بها حتى تمام هلاكهم.

أخي..

هل تتأخر توبتك حتى تعاین الموت؟!

أتطول غيبتك حتى تكتمل خسارتك؟!

ألا إن أشد بلاء أهل العصيان هو في حصول الإيمان بعد فوات الأوان.

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ [الأنبياء: ١٦]:

لم يخلق الله شيئًا إلا لحكمة بالغة، عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها.

قال الآلوسي:

«وإنما سويناها للفوائد الدينية والحكم الربانية؛ كأن تكون سببًا للاعتبار،
 ودليلاً للمعرفة مع منافع لا تُحصى، وحكم لا تُستقصى، وحاصله: ما خلقنا
 ذلك خالياً عن الحكم والمصالح، إلا أنه عبّر عن ذلك باللعب».

﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَؤَآ لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧]:

سبحان الحليم! يخاطبهم بقدر فهمهم، ويتلطف في الردّ على هذه العقول
 الصغيرة لإقناعهم، وذلك بكافة أساليب الإقناع مع سفاهاتهم، وكما قال
 القشيري: «فالذي لا يعتريه سهو لا يستفزه لهو».

احتج الإمام ابن تيمية بهذه الآية في الردّ على النصارى، مبطلًا لدعوى ألوهية
 المسيح، «فأخبر أن هذا الذي أضافه من نسبة الولد إلى الله من مشركي العرب

والنصارى غير سائغ في العقول، ولو أراد الله أن يفعل هذا لكان يصطفي لنفسه ويجعل هذا الولد المتخذ من الجوهر الأعلى السماوي الموصوف بالخلوص والنقاء، لا من جوهر هذا العالم الفاني الكثير الأوساخ والأدناس والأقذار».

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨]:

الحق قذيفة تمزق الباطل وتجهز عليه، بشرط أن يكون الحق حقًا كاملاً، والباطل باطلاً كاملاً.

الباطل يحمل بذور فثائه! قال الألوسي: «وفي (إذا) الفجائية، والجملة الاسمية: ﴿هُوَ زَاهِقٌ﴾ من الدلالة على كمال المسارعة في الذهاب والبطلان ما لا يخفى، فكأنه زاهق من الأصل».

﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: ١٩]:

هم الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي لا يأنفون من عبادته، ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ أي لا يتعبون، مأخوذ من الحسير، وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب.

﴿يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠]:

قال عبد الله بن الحرث:

سألت كعباً، فقلت: أما لهم شغل عن التسبيح؟ أما يشغلهم عنه شيء؟! فقال: «يا ابن أخي.. هل يشغلك شيء عن النفس؟! إن التسبيح لهم بمنزلة النفس».

﴿أَمْ آتخذُوا إِلَهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢١]:

تفرّد الله بالخلق والإيجاد، وتقدّس عن الأمثال والأنداد، فمقصود الاستفهام هنا الإنكار والاستهزاء، فهل آلهتهم التي يعبدونها تحيي الأموات، حتى يلتبس عليهم الأمر؟! تعلموا الحوار المنطقي والجدال بالحسنى!

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۖ فَسُبْحَنَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا

يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]:

﴿إِلَّا﴾ هنا صفة بمعنى غير، وليست إلا الاستثنائية كما يتبادر إلى الذهن.

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]:

لَا يُسْأَلُ..

لكمال علمه، فله العلم المطلق الذي لا يغيب عنه شيء.
ولكمال حكمته، فلا يُتَوَجَّه إليه بسؤال فيه شك أو اعتراض.
ولكمال قدرته، فلا يقدر على معارضته أحد.

﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]:

المسؤول دائماً في مرتبة أدنى من السائل؛ لذا يسأل الله الخلق عن أعمالهم، ولا يسأله أحد منهم، حاشاه.

يسأل الطفل والديه: كيف جئت إلى الدنيا؟ ومهما حاول والده الشرح، ومهما كانت صراحتهم، فلا يستطيع الطفل فهم وإدراك الحقيقة إدراكاً كاملاً، لوجود فارق بين علم الطفل وإدراكه وعلم الوالدين وإدراكهم، فإذا كان هذا حال طفل صغير، مع أن الفارق بين العُلَمَين ليس كبيراً، فما بالك بالفارق بين علم الله اللا محدود وحكمته المطلقة، وعلم الإنسان المحدود وحكمته القاصرة؟!

﴿أَمْ آتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٢٤]:

بشاعة جريمتهم هي سبب تكرار الكلام! كرّر نفس الاستفهام استعظاماً لكفرهم، واستفظاعاً لأمرهم، وتبكيّاً لهم، وإظهاراً لجهلهم.

لم كرّر هذا الاستفهام؟! ليس هناك تكرار.

- أنكر عليهم أولاً ما قد يتخذونه دليلاً عقلياً، بأن آلهتهم يُنْشِرُونَ الموتى من قبورهم، وهذا غير حاصل.

- وأنكر عليهم ثانيًا ما قد يتخذونه دليلًا نقليًا، بأن يكونوا وجدوا في الكتب السابقة أمرًا بإشراكهم، فاتخذوهم آلهة تنفيذًا للأمر. فردَّ الله عليهم في الآية الأولى بما يدل على فساد عقلهم، وفي الآية الثانية بما يدل على فساد نقلهم.

﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي﴾ [الأنبياء: ٢٤]:

كل الكتب والشرائع السابقة جاءت لإبطال الشرك وتوحيد الله. قال ابن عاشور: «فأفاده تعميمه في شرائع سائر الرسل، سواء من أنزل عليه كتاب ومن لم ينزل عليه كتاب، وسواء من كان كتابه باقيا مثل موسى وعيسى وداود، ومن لم يبقَ كتابه مثل إبراهيم».

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٤]:

ليس عدم علمهم بالحق بسبب خفائه وغموضه، وإنما لإعراضهم عنه بعد معرفته ووضوحه، وهكذا دائماً قلوب المجرمين، ومتبعي الأهواء من المستكبرين.

قال القشيري: «عدموا العلم لإعراضهم عن النظر، ولو وضعوا النظر موضعه لوجب لهم العلم لا محالة، والأمر يدل على وجوب النظر، وأن العلوم الدينية كلها كسبية».

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]:

قال قتادة:

«لم يُرسل نبي إلا بالتوحيد، والشرائع مختلفة في التوراة والإنجيل والقرآن، وكل ذلك على الإخلاص والتوحيد».

قال ابن تيمية:

«التوحيد هو أصل الدين الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين دينًا غيره، وبه أرسل الله الرسل وأنزل الكتب».

﴿فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]:

قال ابن تيمية: «العبادة تجمع كمال المحبة وكمال الذل، فالعابد محب خاضع، بخلاف من يحب من لا يخضع له، بل يحبه ليتوسل به إلى محبوب آخر. وبخلاف من يخضع لمن لا يحبه كما يخضع للظالم، فإن كلاً من هذين ليس عبادة محضة، وإن كل محبوب لغير الله ومعظم لغير الله، ففيه شوب من العبادة».

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ﴾ [الأنبياء: ٢٦]:

قال القرطبي:

«نزلت في خزاعة، حيث قالوا: الملائكة بنات الله، وكانوا يعبدونهم طمعاً في شفاعتهم لهم».

﴿مَاذَا عَلَّمْتَكَ هَذِهِ الْآيَةَ؟﴾

عود لسانك دائماً قول: (سبحانه) إذا سمعت أي قول أو رأي يقدر في كماله! ولما كان اتخاذ الولد نقصاً عقّب على مقالته فوراً: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيهاً له عن ذلك.

﴿لَا يَسْئَلُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ [الأنبياء: ٢٧]:

الأنبياء.. لا يقولون قولاً حتى يقول الله، ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم به الله.

﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧]:

كن ملائكة! لا يعملون قط ما لم يأمر به الله، ولا يشتغلون إلا بطاعته وتنفيذ أوامره، وتقديم ﴿بِأَمْرِهِ﴾ على ﴿يَعْمَلُونَ﴾ لإفادة القصر.

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]:

دليل على شفاعاة الملائكة لأقوام، وأن الله يقبل شفاعتهم.. اللهم اجعلنا منهم.

﴿وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨]:

ليس للملائكة ذنب ويخشونه، فكيف بأصحاب الذنوب؟!

أصل الخشية خوف مع تعظيم؛ ولذا خصَّ الله بها العلماء، ومن لم يعرف الله حقًا فكيف يعظمه؟ ومن لم يعظمه فكيف يحشاه؟!

﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٩]:

بعد أن وصف الله كرامة الملائكة عليه، فاجأنا بهذا الوعيد الشديد، وإن كان على سبيل الفرض والتقدير، مع إحاطة علمه سبحانه بأن هذا لا يكون، لكن قُصِدَ به تفضيع أمر الشرك، وتعظيم شأن التوحيد.

﴿أُولَئِكَ يَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠]:

الفتق هو الفصل بين الشيئين، والرَّتْق: عكس الفتق وهو الالتئام، فإن قيل: لم ير الكافرون السماوات والأرض حين كانتا رَتْقًا؟ فالجواب: أن القرآن -وهو المعجزة الخالدة- قام إخباره بذلك مقام المرئي المشاهد، وهذه الآية من آيات الإعجاز العلمي التي قررت مسألة لم تكن معروفة يومئذٍ.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾:

الجبال أوتاد لثبيت الأرض كما أثبتت الدراسات الحديثة، حيث أشاروا إلى أن الجبال تمتلك جذورًا تمتد داخل الغلاف الصخري، بهدف تأمين توازن الأرض.

﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١]:

فيها قولان:

أحدهما: أنها عائدة إلى الجبال، أي وجعلنا في الجبال فجاجا، أي طرقا واسعة. الثاني: عائدة إلى الأرض، أي وجعلنا في الأرض فجاجا، وهي المسالك والطرق.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]:

محفوظ عن السقوط على الأرض، أو أن تقع بعض أجرامها على الأرض، أو حفظناها من الانشقاق حتى ميعة يوم القيامة، أو حفظناها من استراق الشياطين للسمع بالشهب الحارقة.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢]:

كل سقف لا بد له من أعمدة، لكن بناء السماء ليس له أي أعمدة! فكيف أعرضوا عن الإيمان بعد هذه الآية العظيمة؟!

﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]:

لو تأمل الناس في ما تكشفه وكالة الفضاء NASA كل يوم عن النجوم والمجرات، لآمنوا بخالق هذا الكون العظيم.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾

[الأنبياء: ٣٣]:

ما أجمل القائل:

تأمل سطور الكائنات فإِنَّهَا إلى الملك الأعلى إليك رسائلُ
وقد خطَّ فيها لو تأملت خطها ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]:

قال القرطبي: «نزلت حين قالوا: نتربص بمحمد ريب المنون، وذلك أن المشركين كانوا يدفعون نبوته ويقولون: شاعر نتربص به ريب المنون، ولعله يموت كما مات شاعر بنى فلان، فقال الله تعالى: قد مات الأنبياء قبلك يا محمد، وتولى الله دينه بالنصر والحيطة، فهكذا نحفظ دينك وشرعك».

﴿أَفَلَيْنَ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]:

للإنكار والنفي، ورحم الله الإمام الشافعي حيث قال:
تمنى أناس أن أموت، وإن أمتُ فتلك سبيلُ لستُ فيها بأوحدٍ
فقل للذي يبغى خلاف الذي مضى تبيهاً لأخرى مثلها، وكأن قد

﴿وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]:

قال صاحب الظلال:

«إن الابتلاء بالخير أشد وطأة، فكثيرون يصمدون أمام الابتلاء بالشر، ولكن القلة القليلة هي التي تصمد للابتلاء بالخير.

كثيرون يصبرون على الابتلاء بالمرض والضعف، وقليلون هم الذين يصبرون على الابتلاء بالصحة والقدرة.

كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان، فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذلل، وقليلون هم الذين يصبرون على الثراء ومغرياته وما يثيره من أطماع.

كثيرون يصبرون على الكفاح والجراح، وقليلون هم الذين يصبرون على الدعة، ولا يصابون بالحرص الذي يذل أعناق الرجال».

قال ابن زيد: «نبلوهم بما يحبون وبما يكرهون، نختبرهم بذلك لننظر كيف شكرهم فيما يحبون، وكيف صبرهم فيما يكرهون».

البلاء ليس بالضرورة أن يكون شراً، فالبلاء امتحان، فإن نجحت فيه كان خيراً، وإن لم تنجح كان شراً، ولما نجح إبراهيم في الامتحان كافأه الله بالإمامة فقال: ﴿وَإِذْ

أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الأنبياء: ٣٦]:

كل من استهزئ به لاستمساكه بالحق، فله نصيب من ميراث رسول الله ﷺ.

أن يهزأ أهل الباطل بأهل الحق، وأن يسخر السفیه من العاقل، فتلك والله أذية كبيرة، وقعها على صدور المؤمنين كوقع الصخر، لكن لنا تسلية بما جرى لرسول الله ﷺ.

﴿سَأُورِيكُمْ ءَايَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧]:

لما ذكر الله المستهزئين برسوله ﷺ وقع في نفوس الصحابة سرعة انتقام الله من المستهزئين، فأخبرهم بسنته في الإمهال، وأنه سيرهم آيات انتقامه ممن خالف أمره وعصاه.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنبياء: ٣٨]:

استعجال العذاب واستبطاء وعد الله خصلة من خصال الكفار.

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٩-٤٠]:

رفع الله الحزن عن قلب رسوله ﷺ والتابعين له بأن كشف ما أعدّه لصاحب الاستهزاء من العذاب الشديد.

﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٠]:

من صفات عذاب نار الآخرة: المباغتة!

وفي الآية خوف وترقب وألم نفسي يفوق أثر العذاب الحسي.

العقوبة إذا أتت فجأة كانت أشد، وسنة الله في انتقامه من أعدائه أن يياغتهم وقت انغماسهم في النعم.

﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنبياء: ٤١]:

سبب ثانٍ لرفع الحزن عن قلب رسول الله ﷺ بعد استهزائهم به، وذلك بتسليته بما جرى للرسول من قبله، والإخبار عن عاقبة المستهزئين بهم، والمعنى: فكَذلك سيحقيق بهؤلاء وبال استهزائهم.

﴿قُلْ مَنْ يَكْلَأُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢]:

ذكر الله هو الذي يحفظك، ومن أعرض عن الذكر فقد نزع حماية الله عنه.

﴿أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٤٣]:

من لا يقدر على نصر نفسه، فكيف ينصر غيره؟!

﴿وَلَا هُمْ مِنَّا يُضْحَبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٣]:

قال ابن جرير: «وقوله: ﴿يُضْحَبُونَ﴾ بمعنى يجارون، تقول العرب: أنا لك جار وصاحب من فلان، بمعنى أُجيرُك وأمنعك منه».

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ [الأنبياء: ٤٤]:

أخرج مسلم عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربها، وإن أمتي سيلغ ملكها ما رُوي لي منها».

﴿وَلَا يَسْمَعُ الصَّهْءُ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥]:

قال قتادة: «إن الكافر قد صُمَّ عن كتاب الله لا يسمعه، ولا ينتفع به، ولا يعقله، كما يسمعه المؤمن وأهل الإيمان».

﴿وَلَيْنَ مَسْتَهْمُهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَوَلَّيْنَا إِنَّا كُنَّا

ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٦]:

هذا ألم نفحة، فكيف بألم من غَمَسَ في النار غمسا؟!

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧]:

قال القرطبي: «يدل بظاهره على أن لكل مكلف ميزانا توزن به أعماله، فتوضع الحسنات في كفة، والسيئات في كفة».

وقيل: يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد، يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله».

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيََاءَ ذِكْرٍ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٨]:

ثلاث وظائف للوحي الإلهي: أن يُفرِّق بين الحق والباطل، وأن يستضيء به الناس في ظلمات الحيرة والجهالة، وأن يكون ذكرا يتعظ به المتقون ويتقوون.

﴿الَّذِينَ تَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩]:

ما أغلى كنز اليقين! في الآية مدح الله المتقين الذين يخافون عذاب الله رغم أنهم لم يشاهدوه، ويخشون ربهم رغم أنهم لم يروه، ويشفقون من القيامة رغم أن ما بلغهم من نبئهم عنها غيب.

﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]:

وصف الله للقرآن بأنه «مُبَارَكٌ» هو إخبار عن دوامه وحفظه.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]:

كان رُشد إبراهيم غير مرتبط ببلوغ ولا نبوة، بل رُشد سابق لأوانه منذ كان صغيراً، فجنبه الله ما كان عليه قومه من كفر وضلال.

الهداية نعمة ربانية ومنحة إلهية، يمنحها الله لصاحب كل قلب تقي، وليس شرطاً أن ينالها صاحب العقل الذكي.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٢]:

ما أقبح التقليد الأعمى، والقول بغير دليل، وما أعظم كيد الشيطان للمقلدين حين استدرجهم إلى تقليد الآباء في عبادة التماثيل.

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٣]:

كفى أهل التقليد الأعمى سُبَّةً أن عبدة الأصنام منهم.

﴿قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤]:

شجاعة في إعلان الحق ومهاجمة الباطل! وذلك بإعلامهم أن كلا من المقلدين والمقلدين على ضلال واضح أكيد.

هذا إعلان أن الباطل لا يصير حقاً بسبب كثرة المتمسكين به أو طول إقامتهم عليه.

﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٥]:

هذه حياة أكثر البشر؛ يظنون الحياة لعباً وهواً، ويتناولون أمر الدين بلا جدية، ووصل الأمر ببعض أن تناول ثوابت الدين بالاستخفاف والمزاح، فحذار أن تكون منهم.

﴿قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذِكْرِكُمْ مِنَ

الشَّاهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٦]:

أعرّض إبراهيم عن اتهامهم له بكونه من اللاعِينَ، ليعيد الحوار إلى جوهر القضية بإقامة البرهان على توحيد الله الذي خلق السماوات والأرض، بل وخلق حتى الأصنام التي عبدوها بالباطل.

﴿وَتَأْتِيهِ لَآكِيْدَنَ أَصْنَمَكُم بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]:

هذا فعل الواثق بربه، وعَزَمَ من وطن نفسه على مقاساة المكروه في سبيل نصره دينه.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٥٨]:

الأفعال تتحدث بصوت أعلى من الأقوال! كانت حيلة إبراهيم أن حطم الأصنام بفأسه إلا الصنم الأكبر، فلم يحطّمه، لعلهم إليه يرجعون، فيسألون الصنم: كيف لم تدفع عن إخوانك الصغار؟!

﴿قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٩]:

أصنام كثيرة في أعراف الناس تحتاج اليوم إلى تحطيم، لكنها تحتاج لصاحب حجة قوية، وجدال عقلي، وإقناع منطقي.

﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠]:

الشباب والفتيات عماد تقدم الأمم وازدهار الدعوات.

قال ابن عباس: «ما أرسل الله نبياً إلا شاباً. ثم قرأ: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾».

﴿قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ عَيْنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١]:

قال القرطبي:

«كرهوا أن يأخذوه بغير بينة، فقالوا: اتتوا به ظاهراً بمرأى من الناس حتى يروه ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه بما قال، ليكون ذلك حجة عليه.

أو لعل قوما ﴿يَشْهَدُونَ﴾ بأنهم رأوه يكسر الأصنام.

أو ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ طعنه على آلهتهم، ليعلموا أنه يستحق العقاب.

قلت: وفي هذا دليل على أنه كان لا يؤاخذ أحد بدعوى أحد في ما تقدم.

وهكذا الأمر في شرعنا، ولا خلاف فيه».

﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا ابْنِ الْهَيْمِ﴾ [الأنبياء: ٦٢]:

كان من مروءتهم أن واجهوه قبل أن يتهموه.

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَعَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]:

لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ!

قال الإمام الرازي ما ملخصه: «هذا من معاريض الكلام، وقصد إبراهيم عليه السلام لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه، وإثباته لها على أسلوب تعريضي، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم.

وهذا كما لو قال لك صاحبك، وقد كتبت كتابا بخط رشيق - وأنت شهير بحسن الخط -: أأنت كتبت هذا؟ وصاحبك أمي لا يُحَسِّن الخط، فقلت له: بل كتبه أنت، كان قصدك بهذا الجواب، تقرير أن هذه الكتابة لك، مع الاستهزاء به».

﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤]:

أُسْقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ، وَأَجْمَعَتْهُمْ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ، فَاتَّهَمُوا أَنْفُسَهُمْ بِالظُّلْمِ؛ إِذْ كَيْفَ يَعْبُدُونَ مَنْ لَا يَنْطِقُ بِكَلِمَةٍ، وَكَيْفَ يَدْفَعُ عَنْ غَيْرِهِ الْبَأْسَ، مَنْ لَا يَرُدُّ عَنْ رَأْسِهِ الْفَأْسَ؟!

﴿ثُمَّ نَكْسُوْا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]:

وَالنَّكْسُ: قَلْبَ أَعْلَى الشَّيْءِ أَسْفَلَهُ وَأَسْفَلَهُ أَعْلَاهُ، فَكَانَ قَوْلُهُ: ﴿نَكْسُوْا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ تَمْثِيلًا لِتَغْيِيرِ رَأْيِهِمْ عَنِ الصَّوَابِ، وَرَجُوعِهِمْ إِلَى الْإِنْتِصَارِ لِلْأَصْنَامِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «أَدْرَكَهُمُ الشَّقَاءُ، فَعَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ».

﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٦]:

طَلَبَ الْمَحْتَاجَ مِنَ الْمَحْتَاجِ سَفَهَ فِي الرَّأْيِ وَضَلَالٍ فِي الْعَقْلِ.

قال حمدون القصَّار: «استعانة الخلق بالخلق كاستعانة المسجون بالمسجون».

﴿أَفِ لَكُمْ وَلَمَّْا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧]:

قال الزمخشري: «أضجره ما رأى من ثباتهم على عبادتها بعد انقطاع عذرهم، ووضوح الحق وزهوق الباطل، فتأفَّف بهم».

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلَ الْهَتَكُمُ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]:

هذا سمت أهل الباطل، حين يعجزون عن مقابلة الحجة بالحجة، فيلجأون إلى فرض رأيهم بالقوة، وينزعون إلى الاستبداد، ويعلنون الحرب على الحق ويناصبونه العداة.

﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]:

عناية الله حين تطال عبداً! قال كعب: «ما أحرقت النار من إبراهيم إلا وثاقه».

﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]:

أتى جبريل عليه السلام إلى إبراهيم، فقال له: ألك حاجة؟ فقال إبراهيم: أما إليك فلا، وأما إلى الله فنعم!!

﴿قُلْنَا يَنْتَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]:

قال ابن عطاء:

«وكن أيها الأخ إبراهيمياً إذ رُجَّ به في المنجنيق، فتعرَّض له جبريل فقال: ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا، وأما إلى ربي، فبلى.

فانظر كيف رفع همته عن الخلق، ووجهها إلى الملك الحق، فلم يستغث بجبريل، ولا احتال على السؤال، بل رأى ربه تعالى أقرب إليه من جبريل ومن سؤاله، فلذلك سلَّمه من نمرود ونكاله، وأنعم عليه بنواله وأفضاله».

﴿وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٠]:

من حفر لأولياء الله حفرة وقع فيها، ومن كان مشغولاً بالله لم يتولَّ الانتقام عنه إلا الله.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١]:

هي أرض الشام. قال القرطبي:

«بورك فيها بكثرة الأنبياء، وإنزال الشرائع التي هي طريق السعادتين، وبكثرة النعم والخصب والثمار وطيب عيش الغني والفقير».

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الأنبياء: ٧٢]:

قال القرطبي: «أي زيادة؛ لأنه دعا في إسحاق، وزيد يعقوب من غير دعاء، فكان ذلك نافلة، أي زيادة على ما سأل»، فاصدق مع الله في الطلب، وسيعطيك فوق ما تمنيت.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣]:

وصية لكل قدوة!

قال صاحب الكشاف: «قوله سبحانه: ﴿يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ فيه أن من صلح ليكون قدوة في دين الله، فالهداية محتومة عليه، مأمور بها من جهة الله، ليس له أن يُخِلَّ بها، ويتثاقل عنها، وأول ذلك أن يهتدى بنفسه؛ لأن الانتفاع بهداه أعم، والنفوس إلى الاقتداء بالمهدى أميل».

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فَعَلِ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا

عَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٣]:

استحقاق الإمامة بين الناس تكون باستجماع الخصال المحمودة المذكورة، فمن لم تجتمع فيه هذه الخصال المحمودة لم يستحق الإمامة، ولو تسمى بين الناس إمامًا.

﴿وَلَوْ طَاءَ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٤]:

حكمة تهديه إلى ما يجب فعله أو تركه، وعلمًا كثيرًا لما ينبغي علمه وفهمه، ومن أوتي حكمة وعلمًا، فقد حاز بعض ميراث النبوة.

﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ﴾ [الأنبياء: ٧٤]:

قرية سدوم هي القرية التي كانت تعمل الأعمال الخبيثة، وعلى رأسها الشرك بالله، وقطع الطريق، لكن الذنب الأشهر: فاحشة قوم لوط.

﴿وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٥]:

الصلاح سبب النجاة! والرحمة هنا هي إنجاؤه من قومه بفضل صلاحه.

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ

الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء: ٧٦]:

دعوة صادقة من قلب خاشع كانت سبب النجاة من هذا الكرب العظيم.

﴿فَاسْتَجَبْنَا﴾ ؛ الاستجابة أمر محسوم لكل داع الصادق، لكن متى وكيف؟

الله وحده أعلم وأحكم في تدبيره؛ وتدبيره كله خير.

﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ

فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٧]:

قال البيضاوي:

«لا اجتماع الأمرين: تكذيب الحق والانهاك في الشر، ولعلهما لم يجتمعا في قوم

إلا وأهلكهم الله تعالى».

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾ [الأنبياء: ٧٨]:

ذكر المفسرون رجلين دخلا على داود، أحدهما صاحب زرع، والآخر صاحب

غنم، فقال صاحب الزرع لداود: إن غنم هذا قد نفشت في حرثي، فلم تُبق

منه شيئا، فحكم داود لصاحب الزرع أن يأخذ غنم خصمه في مقابل إتلافها

لزرعه، ثم التقيا بسليمان عليه السلام فأخبراه بحكم أبيه، فدخل سليمان على أبيه

فقال له: يا نبي الله، إن القضاء غير ما قضيت، ادفع الغنم إلى صاحب الزرع

ليتنفع بها، وادفع الزرع إلى صاحب الغنم ليقوم عليها حتى يعود كما كان، ثم

يعيد كل منهما إلى صاحبه ما تحت يده، فيأخذ صاحب الزرع زرع، وصاحب

الغنم غنمه، فقال داود: القضاء ما قضيت يا سليمان.

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]:

هو صاحب الحكم الأنسب في هذه القضية؛ لأن داود اتجه في حكمه إلى مجرد

التعويض لصاحب الحرث، وهذا عدل فحسب.

أما حكم سليمان فقد تضمن مع العدل البناء والتعمير، وهذا هو العدل

الإيجابي في صورته الهادفة البانية.

﴿فَفَهَّمْنَهَا سُلَيْمَنَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]:

الله هو سبب كل خير! كان بعض الصالحين يدعو: يا مُعَلِّمَ إِبْرَاهِيمَ عَلِّمْنِي،
ويا مُفَهِّمَ سُلَيْمَانَ فَهِّمْنِي.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]:

مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، وَهُوَ يَتْلُو الْقُرْآنَ مِنَ اللَّيْلِ، فَوَقَفَ
وَاسْتَمَعَ إِلَيْهِ وَقَالَ: «لَقَدْ أُوتِيتَ مَزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «أَمَا
إِنِّي لَوْ عَلِمْتُ بِمَكَانِكَ لَحَبَّرْتُ لَكَ تَحْيِيرًا».

والتحجير: التحسين والتزيين، وفي هذا جواز تحسين الصوت وتجويد التلاوة
لأجل انتفاع السامعين.

﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ [الأنبياء: ٨٠]:

قال صاحب الكشف: «فإن قلت: لم قَدَّمَ الجبال على الطير؟ قلت: لأن
تسخيرها وتسييحها أعجب، وأدل على القدرة، وأدخل في الإعجاز؛ لأنها
جماد، والطير حيوان، إلا أنه غير ناطق، رُوِيَ أَنَّهُ كَانَ يَمُرُّ بِالْجِبَالِ مُسَبِّحًا وَهِيَ
تجاوبه، وقيل: كانت تسير معه حيث سار».

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا

بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨١]:

لا تظن تخصيص الله لعبد بنعمة يقع بغير حكمة، فالله أعلم بمن يصلح
لمشيئته، ومن هو أهل لنعمته وسيقوم بشكرها؛ ولذا غالبًا ما يذكر صفة العلم
بعد ذكر التخصيص، حيث ذكر علمه عقب تخصيصه سليمان بتسخير الريح
له: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ﴾.

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ

﴿وَكُنَّا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٢]:

سَخَّرَ اللَّهُ الْجِنَّ لِسُلَيْمَانَ، فَكَانُوا أَوَّلَ مَنْ اسْتَخْرَجَ اللَّوْلُؤَ مِنَ الْبَحْرِ، وَيَعْمَلُونَ
له ما شاء غير ذلك، وفوق ذلك: حفظهم الله من أن يهربوا منه، أو يمتنعوا
عن تنفيذ أوامره.

﴿مَسْنَى الضُّرِّ﴾ [الأنبياء ٨٣]:

تعلم أدب الطلب وفن الخطاب، وكأنه قال: علمه بحالي يغنيه عن سؤالي.

﴿أَنِي مَسْنَى الضُّرِّ﴾ [الأنبياء ٨٣]:

نسب الضر والمرض للمجهول تأدبا مع الله، ولما أراد الخير نسبه إلى رحمة الله: ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾.

﴿أَنِي مَسْنَى الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء ٨٣]:

قال صاحب الكشاف: «ألطف أيوب في السؤال، حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب. ويحكى أن عجوزاً تعرضت لسليمان بن عبد الملك فقالت: يا أمير المؤمنين، مشيت جردان - أي فئران - بيتي على العصا!! فقال لها: ألطفت في السؤال، لا جرم لأجعلنها تثب وثب الفهود، وملاً بيتها حباً».

﴿أَنِي مَسْنَى الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء ٨٣]:

قال ابن القيم: «جمع في هذا الدعاء بين حقيقة التوحيد وإظهار الفقر والفاقة إلى ربه، ووجود طعم المحبة في المتملق له، والإقرار له بصفة الرحمة، وأنه أرحم الراحمين، والتوسل إليه بصفاته سبحانه، وشدة حاجته وهو فقره، ومتى وجد المبلى هذا كشف عنه بلواه، وقد جُرب أنه من قالها سبع مرات ولا سيما مع هذه المعرفة كشف الله ضره».

﴿وَذَكَرَى لِلْعَبِيدِينَ﴾ [الأنبياء ٨٤]:

لم خص العابدين بالذكر؟! قال ابن كثير: «وجعلناه في ذلك قدوة، لئلا يظن أهل البلاء أننا فعلنا بهم ذلك لهوانهم علينا، وليتأسوا به في الصبر على مقدورات الله وابتلائه لعباده بما يشاء، وله الحكمة البالغة في ذلك».

قال القرطبي: «ابتليناه ليعظم ثوابه غدا، ﴿وَذَكَرَى لِلْعَبِيدِينَ﴾ أي وتذكيراً للعباد؛ لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وصبره عليه ومحتته له - وهو أفضل أهل زمانه - وطمّنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا نحو ما فعل أيوب، فيكون هذا تنبيهاً لهم على إدامة العبادة، واحتمال الضرر».

﴿٥١٦٨﴾ وخص - سبحانه - العابدين بالذكرى؛ لأنهم أكثر الناس بلاء وامتحاناً، ففي الحديث الشريف: «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل».

﴿٥١٦٩﴾ **﴿وَأَسْمِعِلْ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ﴾** [الأنبياء: ٨٥]:
قال السعدي:

«والصبر: هو حبس النفس ومنعها، مما تميل بطبعها إليه، وهذا يشمل أنواع الصبر الثلاثة: الصبر على طاعة الله، والصبر عن معصية الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة، فلا يستحق العبد اسم الصبر التام، حتى يُوفي هذه الثلاثة حقها».

﴿٥١٧٠﴾ **﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾** [الأنبياء: ٨٦]:
رحمة الله تنزل على الصالحين، بل وعند ذكر الصالحين.

﴿٥١٧١﴾ **﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾** [الأنبياء: ٨٧]:
قال النبي ﷺ:

«ألا أخبركم بشيء إذا نزل برجل منكم كرب أو بلاء من أمر الدنيا دعا به ففرج عنه؟ دعاء ذي النون: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».

صحيح الجامع رقم: ٢٦٠٥.

﴿٥١٧٢﴾ **﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾** [الأنبياء: ٨٧]:

في ظلمة بطن الحوت وظلمة البحر وظلمة الليل، ومع هذا: **﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾**.. لا مستحيل مع الله!

﴿٥١٧٣﴾ **﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾** [الأنبياء: ٨٨]:

ليست ليونس وحده، بل لكل مؤمن دعا بدعاء يونس، وافتقر افتقار يونس، ليس الدعاء كلاماً باللسان بل حالاً بالجنان.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]:

صحَّ عن حذيفة رضي الله عنه موقوفاً عليه: «يأتي عليكم زمان لا ينجو فيه إلا من دعا دعاء الغريق».

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ﴾ [الأنبياء: ٨٨]:

الغمُّ داء، دواؤه التسبيح.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩]:

هذا الدعاء من أعظم ما يدعو به من حُرِّم من الذرية، ولينو بذلك أن يقتدي بذكرى، وليتفأل بأن يحبيه الله كما أجاب عبده ذكرى.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا

لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]:

جاءت هذه الآية بعد ذكر دعاء الأنبياء واستجابة الله لهم، إرشاداً لنا إلى طريق إجابة الدعاء الذي سلكوه: المسارعة إلى الخيرات، مع الدعاء وخشوع القلب.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [الأنبياء: ٩١]:

كانت مريم صوامة قوامه، لكن الله أخبرنا هنا أن أعظم كراماتها: عفتها، فلتفخر بوسام العفة كل فتاة مؤمنة.

﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]:

أما مريم فأياتها ظهور الحمل من غير زوج، وأن رزقها كان يأتيها من الجنة عن طريق الملائكة.

وأما آيات عيسى، فكلامه في المهد، وإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وغيرها كثير.

﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٩٢]:

الرابطه الأولى التي تربطنا جميعاً: رابطه الدين. قال ابن عباس: «دينكم دين واحد».

﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٣]:

كان مقتضى السياق أن يُقال: (وتقطعتم)، إلا أن الكلام صُرف إلى الغيبة عن طريق الالتفات، كأن الله يقص ما أفسدوه على الآخرين، ويقبَح عندهم أفعالهم، ويقول لهم: ألا ترون إلى عظيم ما ارتكبوه! جعلوا أمر دينهم بينهم قطعاً وتفرّقوا فيه، كما تتوزع الجماعة الشيء ويقسّمونه.

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [الأنبياء: ٩٤]:

عمل الصالحات الذي ينفع في الآخرة هو ما صاحبه الإيمان، وأما العمل الصالح للكافر من صدقات وأعمال برّ، فينال أجره عليه في الدنيا، ولا يجد منه في الآخرة شيئاً.

﴿وَإِنَّا لَهُدْ كَتِيبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤]:

تسجيل الملائكة لعملك الصالح عملية في غاية الدقة، فلن يبخسك الله من حَقِّك مثقال ذرة، ليُثَبِّك عليه أحوج ما تكون إليه.

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٥]:

الكل سيرجع إلى الله تعالى ليجازيه بما يستحق يوم القيامة، وقد نفت الآية عن الأذهان ما قد يتبادر من أن هلاك الكافرين بالعذاب في الدنيا، قد ينجيهم من عقاب الآخرة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]:

لا أحد يعلم أين هم الآن؟! فقد حجبهم الله منذ عهد ذي القرنين، لكنهم موجودون يقيناً لأن الله أخبر بهذا.

﴿فِي الْكَلَامِ بِلَاغَةٌ بِالْحَذَفِ، أَي حَتَّى إِذَا فُتِحَ سَدُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «مِنْ كُلِّ شَرَفٍ يُقْبَلُونَ»، أَي لِكثَرَتِهِمْ يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، وَالْحَدَبُ هُوَ مَا ارْتَفَعَ مِنَ الْأَرْضِ.﴾

﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ [الأنبياء: ٩٧]:

أي يوم القيامة، أو وعد الله بدك سدّ يأجوج ومأجوج، وخروجهم على الناس، فلا يخلف الله وعده مهما تأخر، ولا يكون إلا ما وعد الله أن يكون.

﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٩٧]:

شخصت أبصارهم كما يقع للمبهوتين، وسببه رؤية ما لم تتوقعه، ولم يحسبوا حسابه، حتى لم يستطع أحدٌ منهم حتى أن يطرف بجفنه، فما أقساها من لحظة!

﴿يَوَلِّينَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٧]:

الويل: هو الدعاء بالهلاك، فهل يطلب أحدٌ الهلاك، ويدعو به على نفسه؟ والجواب: نعم، إذا رأى سوء عاقبة عمله في الآخرة، فيلوم نفسه أنها هي التي أوقعته في هذه الورطة.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا

وَرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]:

قال السعدي: «والحكمة في دخول الأصنام النار، وهي جماد لا تعقل، وليس عليها ذنب، بيان كذب من اتخذها آلهة، وليزداد عذابهم».

﴿لَوْ كَانَ هَتُولَاءِ إِلَهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٩]:

الآن فقط تنكشف لهم الحقائق، فلو كان المعبودون من دون الله من أصنام وحن وبشر آلهة، لما دخلوا النار مع من عبدتهم.

﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٩]:

العابد والمعبود في النار، والسؤال: لم قرنوا بآلهتهم؟
والجواب: سبيان:

- أن هذا الاقتران يزيدهم غما وحسرة، فقد أصابهم العذاب بسبب هذه الآلهة، والنظر إلى وجه العدو هو عذاب فوق العذاب.

- أنهم يستشفعون بآلهتهم في الآخرة، فإذا خذلتهم، لم يكن شيء أبغض إليهم منهم.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٠]:

أي وهم في جهنم لا يسمعون ما يريهم، وإنما يسمعون ما فيه توبيخهم وعذابهم، فحتى السماع في النار لون من ألوان العذاب!

﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]:

قال ابن عباس:

لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا

وَرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، فقال المشركون: الملائكة وعيسى وعزير يُعبدون من

دون الله؟ فقال: لو كان هؤلاء الذين يعبدون آلهة ما وردوها، فنزلت: ﴿إِنَّ

الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١]

عيسى وعزير والملائكة.

سبب فوزهم هو سابق تقدير الله الهداية لهم، فاللهم اجعلنا ممن سبقت لهم

منك الحسنَى.

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠٢]:

وفي المقابل.. لا كدر للمؤمن في الجنة ولو بأدنى صوت، فالجنة انتهاء الألم

وانتهاء الحزن وانتهاء الهم وانتهاء كل ما ينال من راحتك.

﴿لَا تَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]:

المؤمنون غدا في أمان وبلا أحزان!

قال ابن عباس: الفزع الأكبر أهوال يوم القيامة والبعث، وقال الحسن: هو

وقت يؤمر بالعباد إلى النار، وقال سعيد بن جبير والضحاك: هو إذا أطبقت

النار على أهلها، ودُبِحَ الموت بين الجنة والنار.

﴿لَا تَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]:

تنمحي كلمة الحزن من قاموس أهل الجنة ابتداء من يوم القيامة ووصولاً إلى

حياة الأبد في الجنة.

﴿وَتَتَلَقَّيْنَهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [الأنبياء ١٠٣]:

هذا حفل استقبال ملائكي يليق بأهل الجنة، جاري الإعداد له من الآن!

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء ١٠٤]:

عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة، فقال: «يا أيها الناس.. إنكم تحشرون إلى الله حفاة عراة غرلا، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُمْ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾».

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ

الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]:

وعدٌ إلهي لا يتخلف، لكن المهم ألا تتخلف أنت عن ركب الصالحين.

﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٦]:

لم يجعل الله القرآن بلاغاً لجميع عبادِهِ، بل خصَّ بالبلاغ قوما عابدين، فهم المتفعون بتوجيهات القرآن؛ لأن العبادة تورث صاحبها خشوع القلب، ونقاء النفس، والاستعداد لتلقي العلم للعمل.

ما البلاغ؟

البلاغ ما يتبلغون به في الوصول إلى ربهم، وإلى دار كرامته وجنته، فأخبر الله أن القرآن يوصل إلى أجل المطالب، وأعظم العطايا.

من العابدون؟!

قال الإمام الرازي: «وقيل في العابدين: إنهم العالمون، وقيل: بل العاملون، والأولى أنهم الجامعون بين الأمرين؛ لأن العلم كالشجر، والعمل كالثمر، والشجر بدون الثمر غير مفيد، والثمر بدون الشجر غير كائن».

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء ١٠٧]:

قال: «تمت الرحمة لمن آمن به في الدنيا والآخرة، ومن لم يؤمن به عوفي مما أصاب الأمم قبله».

٥٢٠٦

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]:

قال ابن القيم: «عموم العالمين حصل لهم النفع برسالته. أما أتباعه: فنالوا بها كرامة الدنيا والآخرة. وأما أعداؤه المحاربون له: فالذين عَجِّلَ قتلهم وموتهم خير لهم لأن حياتهم زيادة لهم في تغليظ العذاب عليهم في الدار الآخرة. وأما المعاهدون له: فعاشوا في الدنيا تحت ظله وعهده وذمته. وأما المنافقون فحصل لهم بإظهار الايمان به حقن دمائهم وأموالهم وأهليهم واحترامها وجريان أحكام المسلمين عليهم. وأما الأمم النائية عنه: فإن الله سبحانه رفع برسالته العذاب العام عن أهل الأرض، فأصاب كل العالمين النفع برسالته».

٥٢٠٧

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

[الأنبياء: ١٠٨]:

صيغة الحصر أفادت أن رسالة الوحي ليست إلا التوحيد، والسبب: أن التوحيد أصل الشريعة الأعظم، وكل ما تشتمل عليه الشريعة هو متفرع منه.

٥٢٠٨

قال صاحب «الكشاف»:

«إنما يقصر الحكم على شيء أو يقصر الشيء على حكم، كقولك: إنما زيد قائم، أو إنما يقوم زيد، وقد اجتمع المثالان في هذه الآية؛ لأن: ﴿إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ﴾ مع فاعله بمنزلة: إنما يقوم زيد.

٥٢٠٩

﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ بمنزلة: إنما زيد قائم.

وفائدة اجتماعهما: الدلالة على أن الوحي إلى رسول الله ﷺ مقصور على إثبات وحدانية الله تعالى».

٥٢١٠

﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنبياء: ١٠٩]:

شبه الله أمر النبي ﷺ مع الكفار برجل بينه وبين أعدائه هدنة، فأحس منهم غدراً، فنبد إليهم عهدهم، وأشهر هذا النبد وأشاعه على رؤوس الخلائق، وهذا من أبلغ صيغ التهديد والوعيد.

﴿وَإِنْ أَدْرِىَ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدُ مَا تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٩]:

حتى رسول الله ﷺ غير مأذون له في معرفة متى نصر الله.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٠]:

لا يخفى على الله ما يجهر به الطاعنون في الإسلام، وما تكتتم صدورهم من أحقاد ومؤمرات على المسلمين، وإخبار الله بعلمه بهذا للإشارة إلى أنه سيبتل كيدهم، ويجازيهم عليه.

﴿وَإِنْ أَدْرِىَ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتْنَعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الأنبياء: ١١١]:

تأخير عذاب الظالمين وإمهالهم ما هو إلا فتنة لهم؛ يظنون به أنهم على الحق، فيتمادون في الطغيان، ويزدادون في إيذاء أهل الإيمان.

﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢]:

بعد أن بلغ النبي ﷺ في البيان لهم الغاية، وبلغ المشركون في إيذائه وتكذيبه النهاية، دعا ربه أن يحكم بينه وبينهم.

﴿قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢]:

قال العلامة رشيد رضا:

«وإنما حكمه تعالى بين الأمم بنصر أقربها إلى العدل والإصلاح في الأرض، وحكمه هو الحق، ولا معقب لحكمه، فليعتبر المسلمون بهذا قبل كل أحد، وليعرضوا حالهم وحال دولهم على القرآن وعلى أحكام الله لهم وعليهم، لعلهم يثوبون إلى رشدهم، ويتوبون إلى ربهم، فيعيد إليهم ما سلب منهم، ويرفع مقتته وغضبه عنهم».

﴿وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢]:

استعن بالله على كل من يفترى عليك الكذب والبهتان، وستدرك رحمة الله بالوقاية من أضرار ما افتري عليك.



سورة الحج

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ آتِفُقُوا رِبْكُمُ إِن زَلَزَلَةُ السَّاعَةِ شَيْ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]:

بدأت سورة الحج بذكر يوم القيامة؛ لأن الحج أشبه مشاهد الدنيا بيوم الحشر.

﴿يَوْمَ تَرُونَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: ٢]:

قال صاحب الكشاف: «فإن قلت: لم قيل مُرْضِعَةٍ دون مرضع؟ قلت: المرضعة التي هي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي، والمرضع: التي من شأنها أن ترضع وإن لم تباشِر الإرضاع في حال وصفها به، فقيل: مرضعة، ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه، وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة عن إرضاعها».

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الحج: ٣]:

هناك ارتباط عكسي بين العلم والجدال، كلما قلَّ (العلم) زاد (الجدال).

﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤]:

سئل الحسين بن الفضل: إنك تُخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد في كتاب الله: (من أعان ظالماً سلط عليه)؟ فقال: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَكُم مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عِلْقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: ٥]:

التأمل في عظمة الخلق من أعظم ما يغرس في النفس اليقين، وينفي الشك من قلوب المرتابين.

﴿لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ﴾ [الحج: ٥]:

نُبيِّن لكم أن من قدر على الخلق أول مرة قدر عليه ثانياً.

﴿وَنُقَرِّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥]:

لماذا ذكر المشيئة هنا؟

لأن منهم من يشاء الله أن يبلغ حد الولادة، ومنهم من يموت جنيناً في بطن أمه قبل ولادته.

﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ [الحج: ٥]:

من الناس من يعود إلى هيئته الطفولية الأولى من سخافة العقل وقلة الفهم، فينسى كل ما علمه، والآية استدلال ثانٍ على إمكانية البعث بما يعترى الإنسان من الأحوال المختلفة في رحلة عمره، فإنَّ من قدر على تغيير هذه الأحوال، قدر على نظائرها.

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْبِتَتْ مِنْ

كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥]:

استدلال بمشهد واقعي حيٍّ نراه جميعاً عياناً؛ لتدلُّ على إمكان إحياء الأموات، مثل إنبات النبات.

﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦]:

قال ابن تيمية:

«الله خلق كل شيء، وهو على كل شيء قدير، ومن جعل شيئاً من الأعمال خارجاً عن قدرته ومشيئته، فقد أُلْحِدَ في أسماؤه وآياته».

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ [الحج: ٧]:

هذان الدليлан القاطعان: (أنشأ آدمي من ما وصف لكم، وإحياء الأرض بعد موتها)، يدلان على مطالب خمسة، وهي:

﴿يَأْتِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ﴾.

﴿وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ .

﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾ .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج: ٨]:

الآية دليل على فضل المجادلة في دين الله إذا كان صاحب المجادلة على علم وحجة ليستطيع الدفاع عن دينه في وجه المعاندين والمبطلين.

كّرر الله الإخبار بالمجادلة على وجه التوبيخ، فكأنه يقول: هذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان ومن الناس مع ذلك من يجادل في الله!

قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى حال الضلال الجهال المقلدين لغيرهم في الآية الثالثة من هذه السورة، وهي قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ ، ذكر في هذه حال الدعاة إلى الضلال من رؤوس الكفر والبدع، فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أي: بلا عقل صحيح. ولا نقل صحيح صريح بل بمجرد الرأي والهوى».

﴿ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج: ٩]:

ثاني من الشئ بمعنى الليّ، والميل عن الاستقامة، والعطف -بكسر العين- الجانب، وهذا التعبير كناية عن غروره وصلفه مع جهله.

﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [الحج: ١٠]:

صيغة المبالغة تقتضي بظاهرها نفي الظلم الشديد، لكن الله لا يظلم لا ظلماً شديداً ولا يسيراً، والقرآن يكمل بعضه بعضاً، وقد قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ .

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]:

حرف: أي على حال واحدة، فإذا تغيّرت ترك ما كان عليه من عبادة ربه.

﴿مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ﴾ [الحج: ١١]:

قال ابن جزي: «نزلت في قوم من الأعراب، كان أحدهم إذا أسلم فاتفق له ما يعجبه في ماله وولده قال: هذا دين حسن، وإن اتفق له خلاف ذلك تشاء به، وارتد عن الإسلام».

﴿يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ﴾ [الحج: ١٣]:

قال ابن القيم: «إذا تعلّق بغير الله وكله الله إلى ما تعلّق به، وخذله من جهة ما تعلّق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل بتعلّقه بغيره والتفاتة إلى سواه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمّله ممن تعلّق به وصل».

قال ابن جزي: «فيها إشكالان: الأول كونه وصف الأصنام بأنها لا تضر ولا تنفع، ثم وصفها بأن ضرّها أقرب من نفعها، فنفى الضرّ ثم أثبتته، فالجواب: أن الضر المنفي أولاً يراد به ما يكون من فعلها وهي لا تفعل شيئاً، والضر الثاني: يراد به ما يكون بسببها من العذاب وغيره».

﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٤]:

ثقّ تمام الثقة أن لو أراد الله بك أمراً، فأرادت الدنيا بأسرها منعه ما استطاعوا، ولو أراد الله أن يمنعك منه، فأرادته الدنيا كلها ما استطاعوه.

إرادته متعلقة بحكمته، وحكمته مرتبطة برحمته، فأبشّر واطمئن بأن إرادة الله دائرة بين الحكمة والرحمة.

﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥]:

المعنى: إن الله ناصر رسوله في الدنيا والآخرة، فمن كان يظن من أعدائه أن الله لا يفعل، فليستفرغ جهده في إزالة غيظه، بأن يفعل فعل من بلغ به الغيظ منتهاه، حتى مد حبلاً إلى سماء بيته فشقق به نفسه، فلينظر إن فعل ذلك هل يذهب غيظ قلبه؟ كلا، فإن ما فعله بنفسه من الاختناق والغيظ، لن يغير شيئاً من نصر الله تعالى لنبيه، فليمت بغيظه وكمده.

﴿وَكَذَٰلِكَ أُنزِلَتْهُ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ [الحج: ١٦]:

قد يسمع العبد الآيات ويراها لكن لا يهتدي بها، وتكون حجة عليه لا حجة له؛ لأن الهداية معلقة بإرادة الله وحده، فهو الهادي لا هادي سواه.

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصْرَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ

أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الحج: ١٧]:

الفصل بين أهل الأديان جميعاً فيما اختصموا فيه إنما يكون يوم القيامة، إذ لم تفدهم حُجَجهم التي ساقوها في الدنيا شيئاً.

قال الجمل ما ملخصه: «ولهذه الآية قيل: الأديان ستة، واحد للرحمن وهو الإسلام، وخمسة للشيطان، وهي ما عداه».

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ [الحج: ١٨]:

لم ذكر هذه الثلاثة؟! قال ابن كثير: «إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عبدت من دون الله، فبيّن أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة».

﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ [الحج: ١٨]:

كل هذه الجمادات والحيوانات بلا استثناء تسجد لله، وهي بلا عقل، فكيف لعقل أن يُسلَب عقله، فلا يسجد لمن خلقه؟! ولذا وُصف هؤلاء أنهم أضل من الأنعام.

﴿قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ﴾ [الحج: ١٩]:

قال الألوسي: «وكأنه شبه إعداد النار المحيطة بهم بتقطيع ثياب وتفصيلها لهم على قدر جثثهم، ففي الكلام استعارة تمثيلية تهكمية، وليس هناك تقطيع ثياب ولا ثياب حقيقة، وكأن جمع الثياب للإيذان بتراكم النار المحيطة بهم، وكون بعضها فوق بعض، وعبر بالماضي ﴿قُطِعَتْ﴾؛ لأن الإعداد قد وقع».

﴿يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ﴾ [الحج: ٢٠]:

من فرط حرارة الحميم يؤثر في باطنهم نفس تأثيره في ظاهرهم، فتذاب به أحشائهم كما تذاب به جلودهم.

﴿وَلَهُمْ مَقْعٌ مِّنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١]:

إحباط كل محاولات الهروب من النار! كلما أرادوا الهروب من جهنم، ضربت الخزنة رؤوسهم بها حتى تردّهم إليها.

﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢٢]:

قرأها الفضيل بن عياض فبكى، وقال: «والله ما طمعوا في الخروج، وإن الأيدي لموثوقة، والأرجل لمقيّدة، وكلما رفعهم لهيها يصيرون في أعلاها، فردّتهم الزبانية بمقامع من حديد إلى أسفلها».

﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢]:

جواب لقول محذوف تقديره: (وقيل لهم) على لسان خزنة النار: ذوقوا العذاب الحارق لأبدانكم.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الحج: ٢٣]:

لبس الحرير في الجنة له شرط! قال رسول الله ﷺ: «من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة». صحيح الجامع رقم: ٦٥٢٥.

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤]:

الطيب من القول لا يصدر إلا من صاحب الطيب من القلب.

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤]:

طيب كلامك وحلاوة لسانك وإعجاب الناس بأقوالك، ليس منك، بل من الهادي سبحانه.

﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الحج: ٢٤]:

هذه بتلك! طابت أقوالهم في الدنيا، فطابت أقوالهم يوم القيامة، حتى قالوا على أبواب الجنة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [الن: ١٠] الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا

يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿[فاطر: ٣٤، ٣٥].

﴿وَهْدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤]:

صراط واحد، محمود في نفسه، لاحتوائه على كل حكمة وخير، ومحمود في عاقبته؛ لأنه يؤدي إلى الجنة.

لماذا ذكر اسم الله الحميد هنا؟

ليبين أنهم نالوا الهداية بحمد ربهم وفضله عليهم، ولهذا يحمدونه بعد دخول الجنة قائلين: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا﴾.

﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نَذَقْهُ مِنْ عَذَابِ الْيَمْرِ﴾ [الحج: ٢٥]:

تفيد أن من أراد سيئة في مكة ولم يعملها يحاسب على مجرد الإرادة، وهو قول ابن مسعود وعكرمة. سئل ابن عمر وكان منزله في الحِلِّ ومسجده في الحرم: لم تفعل هذا؟ فقال: لأن العمل في الحرم أفضل، والخطيئة فيه أعظم.

﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [الحج: ٢٦]:

أصل الدين هو نفي الشرك بالله، سواء بالشرك الجلي بعبادة غيره، أو الشرك الخفي بالرياء وابتغاء غير وجه الله في الأقوال والأعمال.

﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]:

شارك في تطهير البيت الحرام إن قمت بزيارته! وتطهير البيت هو من كل خبث معنوي كالبدع والمعاصي وظلم الناس وبث الخصال الذميمة، ومن كل خبث حسي كالأفذار ونحوها، ليكون مجهّزاً للطائفين والقائمين فيه.

﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧]:

رجالاً أي على أقدامهم، بمعنى مشاة، وليس المراد الذكور.

قال ابن عباس: «ما آسى على شيء فاتني إلا أن لا أكون حججت ماشياً، فإني سمعت الله يقول: ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾».

﴿لَيْشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨]:

جاء لفظ «منافع» بصيغة التنكير، للتعميم والتعظيم والتكثير، أي منافع

عظيمة شاملة لأمر الدين والدنيا، فمن مظاهر منافعهم الدينية: غفران ذنوبهم، وإجابة دعائهم، ورضا الله عنهم.

ومن مظاهر منافعهم الدنيوية: اجتماعهم في هذا المكان الطاهر، وتعارفهم وتعاونهم على البر والتقوى، وتبادلهم المنافع فيما بينهم عن طريق البيع والشراء.

﴿فَكُلُوا مِنْهَا﴾ [الحج: ٢٨]:

والأمر هنا للإباحة بناء على أن الأكل كان منهياً عنه شرعاً؛ لقوله ﷺ: «إني نهيتمكم عن أكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث، فكلوا وادخروا»، وقيل: لأن أهل الجاهلية كانوا يتحرجون عن الأكل منها، أو للحث على مواساة الفقراء ومساواتهم في الأكل منها.

﴿وَلَيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]:

قال ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وقتادة: «سُمِّيَ عَتِيقاً لأن الله أعتقه من أيدي الجبابرة أن يصلوا إلى تخريبه، فلم يظهر عليه جبار قط».

﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]:

لم يعطف قول الزور على الرجس، بل أعاد النهي: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ لمزيد العناية والتحذير من قول الزور.

﴿حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج: ٣١]:

كيف أكون حنيفاً؟

قال القشيري: «الحنيف: المائل إلى الحق عن الباطل في القلب والنفس، في الجهر وفي السر، في الأفعال وفي الأحوال، وفي الأقوال».

﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [الحج: ٣١]:

حين تسقط من ارتفاع عال ستشعر أن قلبك سقط في رجلك من شدة الخوف، وكذلك المشرك، يتملكه الخوف من أشياء كثيرة، كالخوف من الفقر، ومن المستقبل، ومن المرض، وعلى الأولاد، مما يسبب القلق والأمراض النفسية، بعكس المؤمن الواثق بحكمة ربه والراضي بقضائه.

﴿فَتَخَطَّفُهُ الطَّيْرُ﴾ [الحج: ٣١]:

الشرك تَوَجَّهَ إلى غير الله، وتعلَّق القلب بغير الله، فيرجو العبد ويخاف غير الله، ويظن الآجال والأرزاق والمنع والعطاء بيد من أشركه مع الله، فقلبه مَتَخَطَّف من كل جانب، وغير مستقر ولا مطمئن.

﴿فَتَخَطَّفُهُ الطَّيْرُ﴾ [الحج: ٣١]:

تتخطفه الشياطين التي يرسلها الله عليه تؤزّه آزا، وتدفعه إلى مظان هلاكه، فكل شيطان يَخْطَف قطعة من دينه، كما لو أن كل طير يَخْطَف قطعة من لحمه وأعضائه.

﴿أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]:

ما المكان السحيق؟

هل هو هاوية الإلحاد، أم هاوية المخدّرات، أم هاوية الأمراض النفسية؟ لعله بعض هذا أو كله.

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ شَعْبِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]:

ومن شعائر الله: المصحف، فلا تضعه على الأرض، ولا خلف ظهرك، ولا تضع فوقه كتابا، ولا تضع فيه ورقة مهمة، فليس هناك ما هو أهم منه.

﴿ثُمَّ مَحَلُهَا إِلَى آلَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٣٣]:

المعنى: أن شعائر الحج كلها من الوقوف بعرفة ورمي الجمار والسعي ينتهي إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق، فقلوله: ﴿مَحَلُهَا﴾ مأخوذ من تحلل المحرم من إحرامه.

﴿وَنَشَرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الحج: ٣٤]:

قال ابن عاشور: «وقد أتبع صفة المخبتين بأربع صفات وهي: وجل القلوب عند ذكر الله، والصبر على الأذى في سبيله، وإقامة الصلاة، والإنفاق، وكل هذه الصفات الأربع مظاهر للتواضع، فليس المقصود من جمَع تلك الصفات؛ لأن بعض المؤمنين لا يجد ما ينفق منه، وإنما المقصود من لم يُحِلَّ بواحدة منها عند إمكانها».

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٥]:

قال القشيري: «الوجل عند الذكر على أقسام:

إما لخوف عقوبة ستحصل، أو لمخافة عاقبة بالسوء تختم، أو لخروج من الدنيا على غفلة من غير استعداد للموت، أو لإصلاح أهبة، أو حياء من الله سبحانه».

قَلَّتْ ذُنُوبُهُ فَوَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، ولو كثرت الذنوب لقست القلوب وما أَحَسَّتْ.

﴿وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ [الحج: ٣٥]:

قال الرازي:

«وعلى ما يكون من قِبَلِ الله تعالى؛ لأنه الذي يجب الصبر عليه كالأمراض والمحن والمصائب، فأما ما يصيبهم من قبل الظلمة، فالصبر عليه غير واجب، بل إن أمكنه دفع ذلك لزمه الدفع ولو بالمقاتلة».

﴿وَالْمُقِمِّي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الحج: ٣٥]:

الارتباط بين الصلاة والإنفاق وثيق في معظم الآيات، وهذه إشارة إلى التكامل بين حق الخالق (الصلاة)، وحق الخلق (الإنفاق).

﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ﴾ [الحج: ٣٦]:

أي: قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن استعداداً للذبح! أي: إذا ما هيأتم هذه الإبل للذبح، فاذكروا اسم الله عليها عند نحرها.

﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ [الحج: ٣٦]:

ليس الوجوب الذي بمعنى الإلزام؛ بل المعنى: سقطت جنوبها بعد نحرها أي الإبل.

﴿وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ﴾ [الحج: ٣٦]:

وهو الفقير المتعفف الذي لا يُعْلَمُ حاله، فمن مهام الأتقياء في الحياة البحث عن هؤلاء الفقراء.

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]:

لا تحرق سفينة التقوى بذنوبك، فهي مركبك الذي يحمل أعمالك الصالحة إلى شطّ القبول.

﴿كَذَلِكَ سَخَرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْتُكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]:

قال القرطبي: «كان ابن عمر رضي الله عنه يجمع بين التسمية والتكبير إذا نحر هديه، فيقول: بسم الله والله أكبر، وهذا من فقهه رضي الله عنه».

﴿وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٧]:

إحسانك إلى غيرك من أسباب إحسان الله لك.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الحج: ٣٨]:

الله معك بقدر إيمانك، فإيمانك صام أمانك.

حين يدافع الله عنك، ما مصير من يعاديك؟!

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَتِّلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]:

الله قادر على تعجيل نصره للمظلومين، لكنه يريد من المظلوم أن يأخذ بأسباب النصر ليعينه.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩]:

قال الإمام ابن كثير: «أي: هو قادر على نصر عباده المؤمنين من غير قتال، ولكنه يريد من عباده أن يبذلوا جهدهم في طاعته».

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ هَلْدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ

وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج: ٤٠]:

قال القرطبي: «ولولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداء لاستولى أهل الشرك، وعطلوا ما بناه أهل الديانات من مواضع العبادات، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة، فالجهاد أمر متقدم في الأمم، وبه صلحت الشرائع، واجتمعت المتعبدات، ولولا الجهاد والقتال لتغلب أهل الباطل على أهل الحق في كل أمة».

﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]:

يقول محمد الأمين الشنقيطي:

«ومثالهم مثال العامل الذي عاقده رَجُلٌ ليعمل له، فامتنع مِنْ أَنْ يعمل، ثم لما جاء الوقت جاء لصاحب العمل، وقال: أعطني أجرتي.

قال: كيف تطلب مني أجرتك وأنت لم تعمل شيئاً؟ أنت رجل مجنون!! فهو لاء مثل هذا يعصون الله ويناصبونه بالعداء، ويغيرون مَعَالِمَ دينه، ويتحاكمون إلى الطاغوت، ثم يقولون: نحن مؤمنون ينصرنا الله!! هذا جنونٌ وهوسٌ وقلْبٌ للحقائق».

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَنِقَبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١]:

تميز أهداف المؤمنين عن غيرهم من الدنيويين! طلبوا التمكين لا لمصالحهم الشخصية أو تطلعاتهم الدنيوية، لكن للقيام بواجبات دينهم.

﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ ﴿١٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى﴾ [الحج: ٤٤]:

هذه الآيات تسلية للنبي ﷺ ومن تبعه إلى يوم الدين، وتذكير بأن ما يجري لهم من صنوف البلاء هو سُنَّةٌ ماضية لا تتخلف، فاصبروا كما صبر هؤلاء، واقتدوا بهم.

يا كل داعية صادق:

ألا تشعر بالفخر أنك تسير في موكب العظماء من سادة الأنبياء، فيه نوح وإبراهيم وموسى وكثيرون ممن سار في نفس طريقك الذي تسير فيه اليوم، فيا لروعة هذا الشرف والمجد!

﴿فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الحج: ٤٤]:

في الصحيحين عن أبي موسى الأشعري أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لِيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ». صحيح الجامع رقم: ١٨٢٢.

﴿فَكَانَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥]:

خذوا العبرة منهم يا ظلمة!

كم من بئرٍ جفَّ ماؤها، وقرى بقصورها المشيدة هجرها سكانها، وقد كانت بالبنيان مشهورة، وبالسُّكان معمورة، لكن لعنة الظلم حلت بهم، وأنزلتهم من عليائهم.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦]:

ليست الهداية بالعقل الذي في الرأس، بل بالقلب الذي في الصدر.

﴿فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]:

لا يُعْتَبَرُ فقدان البصر عمى إذا قورن بفقدان البصيرة، فهو العمى الذي ليس بعده عمى، بل لا عمى إلا عمى القلب!

﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]:

قال مجاهد:

«لكل عين أربع أعين، يعني لكل إنسان أربع أعين: عينان في رأسه لدنياه، وعينان في قلبه لآخرته؟! فإن عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه فلم يضره عماه شيئاً، وإن أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه فلم ينفعه نظره شيئاً».

﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧]:

الله لا يخلف وعده، فلا بد منه وهو آتٍ، لكن يأتي به الله في الوقت الذي يريد لا الوقت الذي نريد، وبها تقتضيه حكمته لا ما تقتضيه آمالنا.

﴿وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الحج: ٤٧]:

الوعد هنا هو الوعيد، والكريم لا يخلف وعده، لكنه قد يُخْلِفُ وعيده؛ لأن الله قد يهدي من توعده وأنذره، ومن هنا قال شاعر العرب:

وإني إذا أوعدته أو وعدته لمخلفٍ إيعادي ومُنجزٍ مواعيدي

٥٢٩

﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]:

ما أطول العذاب وما أطول النعيم! قال أبو هريرة: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمقدار نصف يوم». قيل: وما مقدار نصف يوم؟ قال: أو ما تقرأ القرآن؟ قال الله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

٥٣٠

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ أَمَلَتْ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ﴾ [الحج: ٤٨]:

لما استعجل المشركون العذاب، أخبرهم الله أن مقدار اليوم عنده ألف سنة، ثم أخبرهم عن إملائه لكثير من القرى الظالمة، وعدم معاجلتهم بالعذاب، لينفي بذلك العجلة عن نفسه سبحانه، ويبين أنه حلیم لا يعجل بالعقوبة.

٥٣١

﴿قُلْ يَتَّيِبُهَا لِنَاسٍ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الحج: ٤٩]:

لم اقتصر على النذارة في الخطاب دون البشارة؟! والجواب: لأن الخطاب هنا موجّه إلى من استعجل العذاب، بأني أنذركم دون أن لي دخل في إتيان ما توعدون به من العذاب حتّى تستعجلوني به.

٥٣٢

﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الحج: ٥٠]:

الرزق الكريم يجمع بين أمرين: وفرته، وصفائه من المنغصات، والرزق نوعان: ما هو حاصل لهم في الدنيا، فالمؤمنون متمتعون به لرضاهم عن ربهم، وأعظمه: الحاصل في الآخرة بدخول الجنة.

٥٣٣

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِيْ ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [الحج: ٥١]:

كم يتسابق اليوم أقوام ويتفننون في التشكيك في القرآن وبث الشبهات وسوق المجادلات، للوصول إلى إبطال تأثيره في الناس، وهيهات.

٥٣٤

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى الْشَّيْطَانُ فِيْ أُمْنِيَّتِهِ﴾ [الحج: ٥٢]:

قال الألوسي: «ألقي الشيطان الشبه والتخيلات فيما يقرؤه على أوليائه،

ليجادلوه بالباطل، وهذا كقولهم عند سماع قراءة الرسول ﷺ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ﴾: إن محمداً يحل ذبيحة نفسه ويحرم ما ذبحه الله. وكقولهم عند سماع قراءته لقوله - تعالى - ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾: إن عيسى قد عُبد من دون الله، وكذلك الملائكة قد عُبدوا من دون الله.

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٣]:

الحكمة من إلقاء الشيطان لهذه الشبهات هو امتحان الناس.

يلقي الشيطان من تلك الشبهات في القلوب ما يعدُّ فتنة واختباراً وامتحاناً للذين في قلوبهم مرض، وهم المنافقون، وللذين قست قلوبهم، وهم الكافرون المجاهرون بالجحود والعناد.

﴿وَلْيَعْلَمْ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤]:

ما كان سبب فتنة الذين في قلوبهم مرض من المنافقين، والقاسية قلوبهم من المشركين، هو نفسه ما جعله الله سبب تثبيت المؤمنين وخضوع قلوب المتقين.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥]:

سيظل الكافرون في جدال وشك من هذا القرآن، بسبب ما طبعه الكفر على قلوبهم، ولن يفيقوا حتى تأتيهم الساعة، أو يأتيهم الموت.

﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ [الحج: ٥٥]:

قال قتادة:

«بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرهم ونعمتهم، فلا تغتروا بالله، إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون».

﴿عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٥]:

من أسماء يوم القيامة: اليوم العقيم، وسُمِّي بذلك لأنه اليوم الذي لا يوم مثله، ولا يوم بعده.

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ يَخْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الحج: ٥٦]:

لا يختص ملك الله سبحانه بيوم، لكن كل الدعاوى يوم القيامة تنقطع، فلا ينزع الله في ملكه كاذب، ولا يزعم مشاركته مُدَّعٍ.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [الحج: ٥٦-٥٧]:

هذا نصُّ الحكم النهائي الذي يحكم الله به غدا بين العباد.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الحج: ٥٨]:

الآية بشارة عظيمة لكل من هاجر في سبيل الله، فخرج من وطنه وولده وماله، فرارًا بدينه أو نصرة لدينه، فقد وَجَبَ أجره على الله، سواء مات على فراشه، أو قُتِلَ في سبيل الله.

لا فارق بين من مات ومن قُتِلَ في سبيل الله!

أخرج ابن جرير عن فضالة بن عبيد الأنصاري الصحابي، إنه كان برودس، فمروا بجنازتين: أحدهما قتيل، والآخر مُتَوَقِّ، فمال الناس على القتل، فقال فضالة: ما لي أرى الناس مالوا مع هذا وتركوا هذا؟! فقالوا: هذا لقتيل في سبيل الله، فقال: والله ما أبالي من أي حفرتيها بُعِثْتُ، اسمعوا كتاب الله:

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا﴾

﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [الحج: ٥٨]:

تكفل الله برزق المهاجر في سبيله، رزقًا واسعًا حسنًا، فلا يتوهم من خرج من داره وماله في سبيل الله أنه سيفتقر، فإن رازقه هو خير الرازقين.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الحج: ٥٨]:

لم سمى الله نفسه خير الرازقين؟!

لأن الله سبحانه خير من رزق، وأفضل من أعطى.

ولأن رزق الله باعتبار إفادته للعبد وشدة احتياج العبد له هو خير الأرزاق على الإطلاق.

ولأن الله يرزق من آمن به وعبده، ومن كفر به وجحد، ويعطي من سأله، ومن لم يسأله.

ولأن ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ هو من ينفق من خزائن لا تنفد منها.

ولأن ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وحده من يُخرج الرزق من العدم، وأما غيره فما هم إلا وسطاء في توصيل رزقه.

ولأن ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ يُعطي عطاءً لا يدخله عدٌّ، ولا يحويه حدٌّ.

ولأن ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ يعلم ما يصلح كل عبدٍ من رزقٍ وما يفسده، فيعطيه ما يعلم أنه يناسبه.

ولأن ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ يَسْخَطُ ومع ذلك لا يقطع رزقه! بعكس المخلوق.

ولأن ﴿خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ يرزق الخلق بأصول الرزق من تربة وماء وهواء، ولو حرمهم أصول رزقه، لما وصل إليهم من أرزاقهم شيءٌ.

﴿لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَآ يَرْضَوْنَهُ﴾ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ [الحج: ٥٩]:

ليدخلن الله المقتول في سبيله من المهاجرين والميت منهم مدخلا يرضونه، وهل هناك مدخل أحسن من الجنة؟!

﴿لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَآ يَرْضَوْنَهُ﴾ [الحج: ٥٩]:

الرضا أعلى نعيم الجنة، ناله المهاجر حين بذل أغلى ما يملك من دنياه، من هجره لوطنه أو بذله لروحه.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٩]:

علِيمٌ بمن يهاجر في سبيله ممن يخرج طلباً للغنيمة أو لعرض من الدنيا، وحليمٌ لا يعجل بالعقوبة لمن يُقدِّم على معصيته، بل يمهله ليتوب.

﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ [الحج: ٦٠]:

سبب النزول: قال مقاتل: نزلت هذه الآية في قوم من مشركي مكة. لقوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم: فقالوا: إن أصحاب محمد يكرهون القتال في الشهر الحرام، فاحملوا عليهم، فناشدهم المسلمون ألا يقاتلوهم في الشهر الحرام، فأبى المشركون إلا القتال، فحملوا عليهم، فثبت المسلمون ونصرهم الله على المشركين، وحصل في أنفس المسلمين شيء من القتال في الشهر الحرام، فأنزل الله هذه الآية.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾

[الحج: ٦٢]:

ذلك الذي رأيت في هذا الكون من مخلوقات، ومن نصر مظلوم، ومن إدخال الليل في النهار، وإدخال النهار في الليل، سببه أن الله هو الإله الحق، وأن كل ما عُبد من دونه، فهو باطل.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ [الحج: ٦٢]:

من العليُّ؟!

قال ابن القيم: «العلي الذي علا عن كل عيب وسوء ونقص».

أوجز ابن القيم اسم العلي بمعانيه الثلاثة: «من لوازم اسم العلي: العلو المطلق بكل اعتبار، فله العلو المطلق من جميع الوجوه: علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات».

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الحج: ٦٣]:

ألا تفتح عينك؟ ألا تقلب ناظريك؟ هذه دلائل القدرة حاضرة بين يديك، فمتى الرجوع إلى رحاب ربك هاتفا: لبيك لبيك!

﴿٥٣٢٥﴾ ماء السماء يحيي الأرض بعد موتها، وماء الوحي يحيي القلوب بعد موتها، فمن أحيأ الأرض المجدبة، لا تستبعد أن يحيي القلوب الميتة.

﴿٥٣٢٦﴾ **لَهُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** [الحج: ٦٤]:

له كل شيء، ومستغنٍ عن كل شيء، ومع هذا يحمذك على فعل أدنى شيء، ويوفّقك لحمده، ثم يضاعف مثوبتك عليه.

﴿٥٣٢٧﴾ **وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** [الحج: ٦٤]: أحب ربي الحميد!

في الحديث: «من أكل طعاماً، ثم قال: الحمد لله الذي أطعمني هذا الطعام، ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة؛ غُفر له ما تقدّم من ذنبه، ومن لبس ثوباً، فقال: الحمد لله الذي كساني هذا، ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة؛ غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر». صحيح الجامع رقم: ٦٠٨٦.

﴿٥٣٢٨﴾ **وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ** [الحج: ٦٥]:

جمع بين الرجاء في قوله: **﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ﴾** ، والخوف في قوله: **﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾**.

﴿٥٣٢٩﴾ **وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ** [الحج: ٦٤]:

تأمل روعة القياس! ذكّر الخلق بالموتة الأولى حين كانوا نطفة ثمناً، ثم بالحياة الأولى مع الولادة وهذه لا يرتاب فيها أحد، ثم بالإماتة التي يرونها بأعينهم كل يوم، فكيف لا يصدّق أحد بعد كل هذا أن بعد الموت إحياء آخر؟!

﴿٥٣٣٠﴾ كان بلال بن سعد يقول:

«إنكم لم تُخلّقوا للفناء، وإنما تُنقلون من دار إلى دار، كما نُقلتم من الأصلاب إلى الأرحام، ومن الأرحام إلى الدنيا، ومن الدنيا إلى القبور، ومن القبور إلى الموقف، ومن الموقف إلى الخلود في جنة أو نار».

﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَأَدْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧]:

لا ينزع عنك أحد من الأمم؛ لأن عليهم جميعاً اتباعك وترك مخالفتك بعد أن استقر الأمر على شرعك، وأنه ناسخ لما قبله، فهذا نهي لكل أمة أن تستمر على منسكها ودينها، وإلزام لها بالتحول إلى اتباع محمد ﷺ.

﴿وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧]:

دعوة الإسلام عالمية! لا تخص بالدعوة أمة دون أمة، فكل الناس أمتك، فادعهم إلى شريعتك، إنك لعلى هدى مستقيم.

﴿وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحج: ٦٨]:

قال القرطبي: «في هذه الآية أدب حسن، علّمه الله عباده في الرد على من جادل تعنتاً ومراء، ألا يجاب، ولا يُناظر، ويُدفع بهذا القول الذي علمه الله لنبيه ﷺ».

﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الحج: ٦٩]:

تعلم من نبيك ﷺ!

ترفع أثناء الحوار مع مخالفيك عن أسلوب الطعن والتجريح والتعنيف والسخرية والاحتقار والاستفزاز، واستعمل هذا الخلق مع عدوك قبل صديقك.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]:

قابل كل مصيبة بقولك: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

مات ولد لأنس بن مالك ؓ، فقال أنس عند قبره:

«الحمد لله، اللهم عبدك وابن عبدك، وقد رُدَّ إليك؛ فازأف به، وارحمه، وجاف الأرض عن بدنه، وافتح أبواب السماء لروحه، وتقبله بقبول حسن»، ثم انصرف، فأكل، وشرب، وادّهن، وأصاب من أهله، ولسان حاله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾

[الحج: ٧١]:

قال الإمام الرازي: «فَيَبَيِّنُ أَنَّ عِبَادَتَهُمْ لِغَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى لَيْسَتْ مَأْخُوضَةٌ عَنْ دَلِيلٍ سَمْعِيٍّ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، وَلَا عَنْ دَلِيلٍ عَقْلِيٍّ، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾، وَإِذَا لَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، فَهُوَ عَنْ تَقْلِيدٍ أَوْ جَهْلٍ أَوْ شَبْهَةٍ، فَجَوَّبَ فِي كُلِّ قَوْلٍ هَذَا شَأْنَهُ أَنْ يَكُونَ بَاطِلًا».

﴿وَإِذَا تَنَتَلَى عَلَيْهِمْ ءَايَتُنَا يَبْتَغُونَ تَعْرِفًا فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا

الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٧٢]:

للكلام تأثير عظيم في القلوب، ويبدو أثره على الوجوه بالاستبشار والبهجة، أو الإنكار والوحشة، وما تخفيه السرائر لا بد أن يلوح على الظاهر.

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرِ﴾ [الحج: ٧٢]:

يُنْكِرُونَ الْحَقَّ وَيَغْضَبُونَ لظهوره، فكيف لا ننكر نحن المنكر ونغضب لشيوعه؟!

﴿يَكَادُونَ يَسْطُوبُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَتِنَا﴾ [الحج: ٧٢]:

قال في (فتح البيان): «وكذلك أهل البدع المضلة، إذا سمع الواحد منهم ما يتلوهُ العالم عليه، من آيات الكتاب العزيز أو من السنة الصحيحة، مخالفا لما اعتقده من الباطل، رأيت في وجهه من المنكر، ما لو تمكن من أن يسطو بذلك لفعل به ما لا يفعله بالمشرّكين».

﴿قُلْ أَفَأَنْتُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكُمْ النَّارِ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الحج: ٧٢]:

الشر هنا على وجهين:

- الأول: الذي ينالكم من النار التي ستقتحمونها بسوء فعالكم أعظم مما ينالكم من ثورة وغضب عند تلاوة هذه الآيات.
- الثاني: ما تُهمون به من البطش بمن يتلو عليكم آياتنا، أهون ما يكون، فإن مصيره إلى الجنة إن قتلتموه، وأنتم مصيركم النار الدائمة بما فعلتموه.

﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣]:

في الحديث القدسي كما في البخاري ومسلم: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقا كخَلْقِي فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة».

﴿وَإِنْ يَسْلُبْهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الحج: ٧٣]:

قال القرطبي:

«وخصَّ الذباب لأربعة أمور تخصه: لمهنته، وضعفه، ولاستقذاره، وكثرته، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره، لا يقدر من عبوده من دون الله تعالى على خلق مثله، ودفع أذيته، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين، وأربابا مطاعين».

﴿مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الحج: ٧٤]:

معرفة الله هي سرُّ تعظيمه!

والقَدْر: العظمة، فالمعنى: ما عظموا الله حق تعظيمه، وعدم التعظيم سببه عدم المعرفة، فمن لم يعرف الله، كيف يعظمه؟!

حيث تركوا عبادة العزيز الوهاب، وأشركوا معه ما يعجز عن ردِّ ما يسلبه منه الذباب!

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥]:

النبوة اصطفاء لا يُنال بالكسب.

الدعوة إلى الله اصطفاء رباني!

هنيئاً لكل داعية اشتغاله بوظيفة الأنبياء، وهذا تشريف من الله واصطفاء، فليشكر هذه النعمة بإخلاص النية وإصلاح العمل ومضاعفة الجهد.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الحج: ٧٦]:

يعلم ما عملت، ويعلم ما سوف تعمل، وعلمه علم إحاطة لا علم إجبار، وسوف يحاسبنا عليه جميعاً حين نرجع إليه.

﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الحج: ٧٧]:

ربط الله فعل الخير بالفلاح، فلا تجلس فارغاً، أعِن محتاجاً، اكتب تغريدة مفيدة، اتصل بأمك لتؤنس وحدتها، تصدّق على مسكين، لا تكن طاقة معطلة في عالم أحوج ما يكون إلى فعل الخير.

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨]:

الجهاد هو استفراغ الوسع في مدافعة العدو، ولا يجب أن يخلو منه مسلم، وهو على ثلاثة وجوه: مجاهدة العدو الظاهر كالكفار، ومجاهدة المنافقين بالحجة والبيان، ومجاهدة النفس والشیطان.

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: ٧٨]:

قال الحسن البصري: «إن الرجل ليجاهد في الله حق جهاده وما ضرب بسيف». ويعني بها: جهاد الحجة والبيان.

﴿هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ [الحج: ٧٨]:

فهم الكثيرون خطأ أن إبراهيم عليه السلام هو الذي سمانا المسلمين، والصحيح أن الله هو الذي سمانا المسلمين من قبل نزول هذا القرآن في ملأ الأنبياء المتقدمين والكتب السابقة: الزبور والتوراة والإنجيل، وسمانا كذلك مسلمين في هذا القرآن.

﴿هُوَ أَجْتَبَاكُمْ﴾ [الحج: ٧٨]:

اصطفانا نحن أمة محمد، فكنا خير الأمم، ونبينا خير الأنبياء، وديننا أتم الأديان وآخرها، وفي مقابل هذا التشریف كان التكليف، والتكليف هو دعوة الناس وأن نكون شهداء عليهم.

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]:

هذه الآية أصل قاعدة فقهية مهمة وهي: (المشقة تجلب التيسير).

﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]:

رحم الله الإمام القرطبي حين قال: «رفع الحرج إنما هو لمن استقام على منهاج الشرع، وأما السُّراق وأصحاب الحدود فعليهم الحرج، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدين».

الجزء الثامن عشر

سورة المؤمنون آية ١
إلى سورة الفرقان آية ٢٠
عدد الفوائد: ٣٦١

قال النووي:

«قراءة القرآن في المصحف أفضل من القراءة من حفظه، وهذا ليس على إطلاقه، بل إن كان القارئ من حفظه يحصل له من التدبر والتفكير وجمع القلب والبصر أكثر مما يحصل من المصحف، فالقراءة من الحفظ أفضل، وإن استويا، فمن المصحف أفضل».

الأذكار للنووي ص ١٠٧

الجزء الثامن عشر سورة المؤمنون آية ١ إلى سورة الفرقان آية ٢٠

سورة المؤمنون

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١]:

هذه الآية من جوامع الكلم، فإن الفلاح غاية كل ساعٍ إلى عمله، فالإخبار بفلاح المؤمنين دون ذكر في أي شيء فلهذا لقصد التعميم، فالمؤمنون قد أفلحوا في كل ما رغبوا فيه، وفيه وعد من الله أن الله متم ما طلبه المؤمنون وسعوا فيه من خير.

لماذا التأكيد بقول: ﴿قَدْ﴾ ؟

طمأنة لقلب المؤمن الذي يخاف أن يكون فرط في الأخذ بأسباب الفلاح، فبشره الله بالفلاح معاملة له بالفضل.

في الحديث:

«خلق الله تبارك وتعالى الجنة لبنة من ذهب، ولبنة من فضة، وملاطها المسك، فقال لها: تكلمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾»، فقالت الملائكة: طوبى لك، منزل الملوك». السلسلة الصحيحة رقم: ٢٦٦٢.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ ٢ ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ ٣
﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ ٤ [المؤمنون: ٢ - ٤]:

أدرج الله الإعراض عن اللغو بين ركنين من أركان الإسلام، وهما الصلاة والزكاة، وهذا دليل على أهمية الإعراض عن اللغو.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣]:

قال ابن الجوزي:

«وفي المراد باللغو هنا خمسة أقوال: أحدها: الشُّرك، والثاني: الباطل، والثالث: المعاصي، والرابع: الكذب، والخامس: الشتم والأذى، واللغو: كل لعب ولهو، وكل معصية فهي مطرحة مُلغاة، فالمعنى شغلهم الجِدُّ فيما أمرهم الله به عن اللغو».

ومن اللغو: تكلم الرجل في ما لا يعنيه، ومنه الخوض في ذكر أخبار الفجار والفجور، ومنه التوسع في الحديث لغير حاجة.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٥]:

غُضُّ البصر مفتاح حفظ الفرج، وبدء الوقوع في الزنى من نظرة.

قال السيوطي في (الإكليل): «في الآية تحريم النظر إلى النساء، وعورات الرجال، وتحريم كشفها».

﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَلَهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٥]:

غير ملومين، بل ومن المأجورين! قال رسول الله ﷺ: «وفي بُضْعٍ أحَدكم صدقة». قالوا: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر». صحيح مسلم ٨٢/٣.

﴿فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ [المؤمنون: ٧]:

ذكرها الله بعد ذكر الزوجة وملك اليمين لتشمل هذه الآية كل صور الانحرافات الأخلاقية والشهوانية.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَسَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: ٨]:

قال القرطبي: «والأمانة والعهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه، قولاً وفعلاً»، وهذا يشمل معاملة الخالق ومعاملة الخلق، وحق الله وحقوق العباد.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ سُحَافُطُونَ﴾ [المؤمنون: ٩]:

في تصدير أوصاف المفلحين بالصلاة، وختمها بالصلاة، تعظيم لشأن الصلاة، وتنبيه على علو قدرها.

﴿أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١]:

لم سمى الله الجنة ميراثاً؟

قال الإمام الرازي: «الجواب من وجوه:

الأول: ما رُوي عن الرسول ﷺ أنه لا مُكَلَّف إلا أعد الله له في النار ما يستحقه إن عصى، وفي الجنة ما يستحقه إن أطاع، فإذا آمن منهم البعض، ولم يؤمن البعض، صار منزل من لم يؤمن كالمَنْقول إلى المؤمنين، فسُمِّي ذلك ميراثاً لهذا الوجه.

وثانيها: أن انتقال الجنة إليهم بدون محاسبة ومعرفة بمقاديره يشبه انتقال المال إلى الوارث.

وثالثها: أن الجنة كانت مسكن أبينا آدم ﷺ، فإذا انتقلت إلى أولاده صار ذلك شبيهاً بالميراث».

﴿الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون: ١١]:

في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا سألتكم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، ومنه تَفْجَرُ أنهار الجنة».

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]:

عرَّفك بأصلك كي لا تُعْجِب يوماً بعملك!

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]:

هذا الحفظ في قرار الرحم آية من آيات الله، وهي أعظم من آية الخلق من طين؛ لذا أشار إليه بحرف: ﴿ثُمَّ﴾ إشارة للبعد.

٥٣٧٢

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا أَلْعَلَقَةَ مَضْغَةً فَخَلَقْنَا أَلْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾

[المؤمنون: ١٤]:

ما أظهر هذه القلوب! سمع عمر هذه الآيات حتى قوله: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ ، فقال: فتبارك الله أحسن الخالقين، فنزلت: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾.

٥٣٧٣

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥]:

بعد مراحل الخلق والحياة انتقل مباشرة إلى ذكر الموت، وهي رسالة لكل من هو على حب الدنيا متهالك: إنك عما قريب هالك.

٥٣٧٤

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ [المؤمنون: ١٥]:

أين العتاة المتجبرون؟ أين الفراعنة المتكبرون؟ ما نفعتهم الأموال والحصون، وأتاهم ما هم عنه غافلون.

٥٣٧٥

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٦]:

قال القشيري:

«ويوم القيامة يوم خَوْفٍ به العالم، حتى لو قيل للقيامة: ممن تخافين؟ ل قالت: من القيامة».

٥٣٧٦

ولم يَقُلْ بصيغة التأكيد: (لتبعثون) كما قال: ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ ؛ لأن قضية البعث أوضح من أن يقف العقل فيها أو ينكرها، بحيث لا تحتاج إلى تأكيد، فعدم التأكيد هنا أكد من التأكيد.

٥٣٧٧

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾

[المؤمنون: ١٥-١٦]:

يرى الإمام الرازي استعمال التأكيد في نزول الموت، لتماذي المخاطبين في الغفلة، فكأنهم نزلوا منزلة المنكرين للموت.

﴿وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ [المؤمنون: ١٧]:

ما كنا غافلين عن القيام بمصالحكم وحفظكم ولو مقدار لحظة، وإلا سقطت السماء عليكم فأهلكتكم، أو انقطع الهواء عنكم فاختنقتم، فما أشمل هذه العناية الإلهية التي تحفظ الكون من الزوال أو الاختلال.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون: ١٨]:

قال ابن كثير: «بقدر: أي بحسب الحاجة، لا كثيرًا فيفسد الأرض والعمران، ولا قليلًا فلا يكفي الزروع والثمار، بل بقدر الحاجة إليه من السقي والشرب والانتفاع به».

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِمْ لَقَادِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨]:

هل شكرت نعمة الماء! قال الزمخشري: «فعلى العباد أن يستعظموا النعمة في الماء، ويقيدوها بالشكر الدائم، ويخافوا نفارها، إذا لم تشكر».

﴿فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاقٍ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٩]:

قال الرازي: «وإنما ذكر تعالى النخيل والأعناب لكثرة منافعتها، فإنها يقومان مقام الطعام، ومقام الإدام، ومقام الفواكه رطبًا ويابسًا».

﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْأَكْلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]:

خصَّ الله شجرة الزيتون بالذكر؛ لأنها من أكثر الأشجار فائدة بزيته وطعامها وخشبها، ومن أقل الأشجار تكلفة في زراعتها. وخصَّ طور سيناء بإنباتها فيه، مع أنها تنبت منه ومن غيره؛ لأنها أكثر ما تكون انتشارًا في تلك الأماكن، أو لأن منبتها الأصلي كان في هذا المكان.

﴿وَصِبْغٍ لِلْأَكْلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]:

الصَّبْغُ يُطْلَقُ عَلَى الشَّيْءِ الَّذِي يَصْبِغُ بِهِ الثَّوْبُ، لَكِنِ الْمُرَادُ بِهِ هُنَا: الْإِدَامُ لِأَنَّهُ يَصْبِغُ الْخُبْزَ، وَيَجْعَلُهُ كَأَنَّهُ مَصْبُوغٌ بِهِ، وَفِي الْحَدِيثِ: «كُلُوا الرِّيتَ، وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مَبَارَكَةٍ». صحيح الجامع رقم: ٤٤٩٨.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۚ نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَسْفَعٌ كَثِيرٌ ۚ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢١]:

إعجاز أن يخرج اللبن مستخلصاً من بين الفرث والدم بقدرة الله، فيتحول إلى طهارة وإلى طعام تشتهيهِ النفوس، ويصير من أنفع الأغذية.

هل تعلم أن تناول نصف لتر من الحليب يومياً قد يحمي الرجال من الإصابة بداء السكري وأمراض القلب بنسبة ٥٠٪ وفق دراسة قامت بها جامعة Cardiff University استغرق إجراؤها ٢٠ عاماً، وشملت ٢٣٧٥ رجلاً.

﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكِ تَحمَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٢]:

الأنعام سفائن البر كما أن الفلك سفائن البحر؛ لذا قرنهما ببعض، ممتناً بهما على عبادته.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُومِرِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٢٣]:

كرّر ذكر قصة نوح لما فيها من عظيم العبر من طول مقامه في قومه لمئات السنين، ومقاساته منهم البلاء المبين، وكمال صبره على دعوتهم رغم قلة المستجيبين.

﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٤]:

مشكلة الملاء في كل زمان! الملاء هم عليّة القوم وأغنياءهم، وهم دائماً المتنفعون بالفساد في المجتمع، ومن مصلحتهم أن يستمر الوضع على ما هو عليه لتظل لهم سلطتهم ومكانتهم؛ لذلك هم أول من يقابلون أصحاب الرسالة بالإيذاء والكران.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَكًا﴾ [المؤمنون: ٢٤]:

يؤمنون بالملائكة، ولا يؤمنون برب الملائكة!

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٤]:

استبعدوا رسالة البشر واعتقدوا ألوهية الحجر!

﴿مَا أَقْبَحَ كَذِبُهُمْ!﴾ وإلا فنبوة إدريس وآدم عليهما السلام لم تكن المدة بينها وبينهم طويلة بحيث تُنسى، لكنها معاندة الحق.

﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِمِثْلِ جِنَّةٍ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٥]:

لو اتهم بالجنون رجل عادي لكان جديرا به أن يشتاط غضباً، فكيف وهذه التهمة الفظيعة موجّهة إلى نبي من أولي العزم من الرسل؟!

﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَبُونِ﴾ [المؤمنون: ٢٦]:

الدعاء دائماً طوق النجاة للأنبياء والأتقياء والأتقياء، بل ولكل من صوّب وجهه نحو السماء.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا﴾ [المؤمنون: ٢٧]:

ما أحوجك أن تحوطك عناية الله ورعايته في كل أعمالك، فتأخذ بيدك نحو ساحل التوفيق.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [المؤمنون: ٢٧]:

خرج الماء من موضع النار (التنور)؛ لأن عالم الأسباب يتوقف إذا أراد رب الأسباب.

﴿فَأَسْأَلُكَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]:

صحّح مفهومك عن الأهل، من آمن فهو من أهلك، ومن كفر فليس من أهلك.

﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٢٧]:

قال الألوسي: «وجيء بـ (على) في قوله: ﴿إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ لكون السابق ضاراً، كما جيء باللام في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا

الْحُسْنَى﴾ لكون السابق نافعاً».

﴿إِذَا أَسْتَوَيْتِ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: ٢٨]:

لا تشغلك فرحتك مهما عظمت عن أن تنسب الفضل لربك، وقل دائماً: فقل الحمد لله.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٨]:

الحمد لله على نعمة الإنجاء! ولم يقل: فقل الحمد لله الذي أهلك القوم الظالمين؛ لأن نعمة الإنجاء أتم.

قال الخفاجي: «إشارة إلى أنه لا ينبغي المسرة بمصيبة أحد ولو اعتدوا، من حيث كونها مصيبة له، بل لما تضمنته من السلامة من ضرره، أو تطهير الأرض من وسخ شركه وإضلاله».

﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩]:

قال القرطبي: «فالأية تعليم من الله عز وجل لعباده إذا ركبوا وإذا نزلوا أن يقولوا هذا، بل وإذا دخلوا بيوتهم وسلموا قالوا. روي عن علي ؓ أنه كان إذا دخل المسجد قال: اللهم أنزلني منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين».

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٠]:

الكل يُبتلى! والابتلاء كما يكون انتقاماً من الكافرين والظالمين، فإنه تمحيص لإيمان المؤمنين، ورفع لدرجاتهم.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١]:

هم قوم عاد، وإليهم أرسل الله نبيه هود، فتتابعت القرون على طريقة واحدة في الإعراض والتكذيب.

﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٢]:

دعوتك في أهلك وقومك أقرب للقبول، والغريب بعيد، ومن عرف نسبك وتاريخك كان أكثر قبولاً لقولك.

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَاتَّرفَنَّهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ [المؤمنون: ٣٣]:

أبعد الناس عن قبول دعوات الإصلاح هم أهل الترف.

﴿وَلَيْنَ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤]:

لو كان الرسول ملكاً أو من جنس غير البشر، لقال الناس: لا نطيع ما كلفتنا به يا رب؛ لأن رسولك فوق مستوى البشر، ومقهور على طاعتك؛ لذا كانت بشرية الرسول حتمية، ومن شروط الرسالة.

﴿أَيَعِدُّكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْتُمْ تُخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٥]:

رد ابن الجوزي على هذه الشبهة، فقال: «الله سبحانه تعالى لم يخلق شيئاً مستحسناً إلا من مادة سخيفة، فإنه أخرج هذا الآدمي من نطفة، والطاووس من البيضة المدرة، والشجرة الخضراء من الحبة العفنة، فالنظر ينبغي أن يكون إلى قوة الفاعل وقدرته، لا إلى ضعف المواد».

﴿هَيَّاتِ هَيَّاتِ لِمَا تُوَعَّدُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٦]:

أنكروا قدرة الله على إحياء الموتى، ونسوا أنه خلقهم أول مرة، وأنشأهم من العدم، فأعادته لهم بعد أن تبلى أجسامهم أهون عليه، وكلاهما هين لديه، فلم لا ينكرون أول خلقهم حتى يسلم لهم إنكار بعثهم؟

﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون: ٣٧]:

قال القرطبي:

«كيف قالوا نموت ونحيا، وهم لا يُقَرَّون بالبعث؟ ففي هذا أجوبة، منها:

— أن يكون المعنى: نكون موتاً، أي نُطْفَأُ ثم نحيا في الدنيا.

— وقيل: فيه تقديم وتأخير، أي إن هي إلا حياتنا الدنيا نحيا فيها ونموت، كما

قال: ﴿وَاسْجُدْ وَازْكِبْ﴾ [آل عمران: ٤٣].»

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [المؤمنون: ٣٨]:

الكاذب يرى الناس من منظوره، فلا يرى حوله صادقاً.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٩]:

لولا الله ما تيسر أمر!

قالت عائشة: «سلوا ربكم حتى الشسع، فإنه إن لم ييسره والله لم يتيسر».

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٠]:

والله ليصبحن نادما كل من عاند الله، وخالف هداه، واتبع هواه، وسيبدأ ندمه وقت نزول العذاب في الدنيا، أو رؤية ملك الموت على مشارف الآخرة.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَهُمْ غُثَاءً ۚ فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾

[المؤمنون: ٤١]:

هي نهاية قصة كل ظالم ومعاند، ستجد الحكم القرآني عامًا، فالدعاء هنا على ثمود وأمثالهم من القوم الظالمين؛ لأن القصص القرآني ليس للتسلية والأسفار، بل للظة والاعتبار.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ۖ آخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٢]:

القليل من يعتبر بغيره! قال ابن عباس: يريد بني إسرائيل، وفي الكلام حذف تقديره: فكذبوا أنبياءهم فأهلكناهم.

﴿مَا تَسْقِي مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَخِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٣]:

كل شيء بقدر، لا يتقدم لحظة من الزمان ولا يتأخر لحظة، بل الكل هالك في الوقت الذي أراده الرب سبحانه، فهو العالم بكل شيء قبل أن يخلق أي شيء، ولا يقع شيء إلا وفق علمه وإرادته.

قال الرازي: «هذه الآية تدل على أن المقتول ميت بأجله، إذ لو قُتل قبل أجله، لكان قد تقدّم الأجل أو تأخر، وذلك ينافيه هذا النص».

﴿كُلُّ مَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُوهَا كَذَبُوهُ ۚ فَاتَّبَعَنَا بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ ۚ فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

[المؤمنون: ٤٤]:

رغم أنا جعلناهم أحاديث، يتحدث الناس بها في أسماهم، ويتعجبون منها في أنديتهم، إلا أن كثيرًا منهم مع هذا التعجب لا يؤمنون، فبُعْدًا لهم!

لَنْ يَبْقَىٰ بَعْدَ مَوْتِكَ إِلَّا الْحَدِيثُ عَنْكَ، فَكُنْ ذَكْرًا طَيِّبًا، وَحَدِيثًا حَسَنًا:
وَإِنَّمَا الْمَرْءُ حَدِيثٌ بَعْدَهُ فَكُنْ حَدِيثًا حَسَنًا لِمَنْ وَعَى

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [المؤمنون: ٤٥]:

هي التسع آيات المشهورات: العصا، واليد، والسنون، والبحر، والطوفان،
والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

في الآية إشارة إلى أن تواتر الآيات منذرٌ بشدة عذاب من كَذَّبَ بها؛ لأن في
كثرة الآيات مزيد حجة.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦]:

الاستكبار غير التعالي، فالمستكبر يعلم الحكم، لكن يأبى أن يطيعه، أما المتعالي
فهو المتمرد على الأمر ابتداءً، غير المعترف به؛ ولذا قال الله لإبليس:
﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾.

﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٦]:

أكثر ما يصد عن اتباع الحق: التعالي والكبر.

﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]:

يقول الطبري: «﴿لَنَا عَبِيدُونَ﴾»: يعنون أنهم لهم مطيعون متذللون، يأتمرون
لأمرهم، ويدينون لهم، والعرب تسمي كل من دان للملك عابداً له.

﴿وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]:

ليست العبادة ركوعاً وسجوداً فحسب! بل الطاعة المطلقة عبادة!

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٨]:

ولا يظلم ربك أحداً! قال ابن القيم:

«وقد رتب الله سبحانه حصول الخيرات في الدنيا والآخرة، وحصول الشرور
في الدنيا والآخرة في كتابه على الأعمال، ترتيب الجزاء على الشرط، والمعلول
على العلة، والمسبب على السبب، وهذا في القرآن يزيد على ألف موضع».

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون: ٤٩]:

قال أبو حيان الأندلسي: «ولا يصح عود هذا الضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ على فرعون وقومه؛ لأن الكتاب لم يؤته موسى إلا بعد هلاك فرعون لقوله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾.»

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رِبْوَةٍ ذاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾

[المؤمنون: ٥٠]:

قال رشيد رضا:

«لفظ الإيواء الذي لم يستعمل في القرآن إلا في الإنقاذ من المكروه، كما علم من الأمثلة المذكورة آنفاً، ومثلها قوله تعالى في الأنصار **﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا﴾** [٨: ٧٢]، وفي يوسف **﴿آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾** قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ **﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [يوسف: ٦٩]، وفي آية أخرى: **﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾** [يوسف: ٩٩].»

﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [المؤمنون: ٥١]:

قدواتنا هم الأنبياء، وهم أساتذة الأجيال في مدرسة أكل الحلال.

﴿يَا يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾

[المؤمنون: ٥١]:

قال رسول الله ﷺ: «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُّوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء.. يا رب يا رب، ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك.»

﴿كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: ٥١]:

قال ابن كثير: «يأمر الله تعالى عباده المرسلين بالأكل من الحلال، والقيام بالصالح من الأعمال، فدلّ هذا على أن الحلال عون على العمل الصالح».

قال الآلوسي: «وتقديم الأمر بأكل الحلال؛ لأن أكل الحلال معين على العمل الصالح».

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [المؤمنون: ٥٢]:

أمتنا الإسلامية واحدة، فلا تمزّقوها تحت رايات القومية والوطنية والأعراق والأجناس.

ماذا يجمعنا كأمة؟! قال رشيد رضا: «أمة تربطها رابطة قريية هي رابطة الاهتداء بنور الله، والدعوة إلى توحيده، والقيام على شرعه، وحمل الناس على اتباع أحكامه، فهي مجتمعة على أمر واحد لا تعدد فيه؛ هو الحق والعدل، فهي جديرة بأن تكون أمة واحدة».

﴿فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣]:

التفرق عقوبة ربانية على الفرع بالأفكار الشخصية والآراء الذاتية بدلاً من الفرع بالحق ولو كان مع غيرك.

﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]:

لا يضيق صدرك بتأخر عذاب الظالمين، فلكل شيء أوان، ولكل أجل كتاب، فالآية وعيد وتهديد لا توقيت، كما يقول العوام: لك يوم يا ظالم.

﴿أَتَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥-٥٦]:

كل نعمة تباعد عن ربك ليست خيراً، بل شر! الخير: ما قربك من الله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧]:

قال الحسن البصري: «إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة، وإن الكافر جمع إساءة وأمن».

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٨]:

قال ابن كثير: «أي يؤمنون بآياته الكونية والشرعية، كقوله تعالى إخباراً عن مريم عليها السلام: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا﴾ [التحریم: ١٢] أي أيقنت أن ما كان، إنما هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه».

﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٩]:

لا شركاً جلياً بعبادة غيره والتوسل به، ولا شركاً خفياً بالرياء وتعلق القلب بغيره خوفاً وطمعاً.

قال القشيري: «الشرك الخفي: ملاحظة الخلق في أوان الطاعات، والاستبشار بمدح الخلق وقبولهم، والانكسار والذبول عند انقطاع رؤية الخلق».

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]:

قال الحسن: «كانوا يعملون ما يعملون من أعمال البر وهم مشفقون ألا ينجيهم ذلك من عذاب الله».

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]:

قال الحسن:

«لقد أدركنا أقواماً كانوا من حسناتهم أن تُردَّ عليهم أشفق منكم على سيئاتكم أن تعذبوا عليها».

﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠]:

قال القشيري:

«يُخْلِصُونَ فِي الطَّاعَاتِ مِنْ غَيْرِ الْإِمَامِ بِتَقْصِيرٍ، أَوْ تَعْرِيجٍ فِي أَوْطَانِ الْكَسَلِ، أَوْ جَنُوحٍ إِلَى الْإِسْتِرَاحِ بِالرَّخْصِ، ثُمَّ يَخَافُونَ كَأَنَّهُمْ أَلْتُوا بِالْفَوَاحِشِ، وَيَلْحَظُونَ أَحْوَالَهُمْ بَعِينَ الْإِسْتِصْغَارِ، وَالْإِسْتِحْقَارِ، وَيَخَافُونَ بَغَاتِ التَّقْدِيرِ، وَقَضَايَا السَّخَطِ».

﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦١﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾

[المؤمنون: ٦٠-٦١]:

هناك ارتباط وثيق بين الخوف والمسارة إلى الخيرات، فالخوف سوط دافع إلى كثرة العمل.

﴿وَلَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [المؤمنون: ٦٢]:

ادعُ ربك أن يقوِّي ظهرك، لا أن يخفف حملك.

﴿وَلَدَيْنَا مِكْتَبٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظَاهَمُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٢]:

يجب ألا تمر سيئاتك بذاكرتك مرورًا عابرًا، فغدا ترى لكتابك لسانًا ناطقًا يشهد عليك، ويتكلم بما عملت بكلتا يديك.

﴿لَوْلَا غَفْلَةُ قُلُوبِنَا عَنْ مِرَاقِبَةِ اللَّهِ لَنَا، لَمَا خَوَّفْنَا بِكُتَابَةِ الْمَلَائِكَةِ لِأَعْمَالِنَا، فَاللَّهُمَّ انتشلنا من بر غفلاتنا.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [المؤمنون: ٦٣]:

قال ابن تيمية: «القلب قد يغمره، فيستولي عليه ما يريده العبد ويحبه وما يخافه ويجذره كائنًا من كان»، فإما أن نغمر قلوبنا بذكر الله والدار الآخرة، وإما أن نغمرها بحب المال والبنين الصارف عن ذكر الله والدار الآخرة.

﴿وَهُمْ أَعْمَلُ مِمَّنْ دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَمِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣]:

يعلم الله أعمالنا قبل أن نعملها.

﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْعَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٤]: غالبًا ما

تأتي توبة المسرف على نفسه في الوقت الضائع!

﴿لَا تَجْعَرُوا الْيَوْمَ إِنَّا نُنْصَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٥]:

حتى التهديد رحمة! تهديدٌ شديد بعذاب قريب، يحل بهم فيجأرون منه ولا يجأرون! فخافوني واحذروني وأطيعوني!

﴿مَنْ يَجَارِ إِنَّمَا يَنَادِي مَنْ يَنْصُرُهُ، وَأَنْتُمْ لَنْ تُنْصَرُوا مِنْ جِهَةِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يَنْصُرُ أَوْلِيَاءَهُ، وَلَنْ تُنْصَرُوا مِنْ جِهَةِ أَعْدَاءِ اللَّهِ؛ لِأَنَّهُمُ الْيَوْمَ مَعَكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ!﴾

٥٤٥٣ قد أعذر من أنذر!

هذا إنذار مبكر! وهو أعظم باعث في الدنيا على ترك الكفر والعصيان، والإقبال على الإيمان، فإنه اليوم ينفعكم، وغدا لا ينفعكم.

﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٦]:

من أهم أسباب عدم الهداية ترك تدبر القرآن والتهرب من سماعه.

٥٤٥٤ ﴿مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ﴾ [المؤمنون: ٦٧]:

الضمير يعود إلى البيت الحرام، أي متكبرين على الناس بسبب البيت الحرام، تقولون: نحن أهل الحرم، فنحن أفضل من غيرنا وأعلى، ويفتخرون به، ويعتقدون أنهم أولياؤه وليسوا كذلك.

٥٤٥٥ ﴿سَمِرًا تَهْجُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٧]:

كانوا يسمرون ليلا بذكر القرآن والطعن فيه، ويسمون النبي ﷺ ساحرا وشاعرا، وهكذا سمر أهل الباطل في مكايده ومحاربة أهل الحق.

٥٤٥٦ ليس الهَجْر بمعنى الفراق، بل هو الهَجْر بِضَمِّ الهاء وسكون الجيم، وهو اللغو والسبُّ وسيئ الكلام.

٥٤٥٧ رُوي عن عمر ؓ أنه كان يضرب الناس على الحديث بعد العشاء، ويقول: «أَسْمَرًا أَوَّلَ اللَّيْلِ، وَتَوَمَّا آخِرَهُ! أَرِيحُوا كُتَابَكُمْ».

٥٤٥٨ ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]:

قال قتادة: «أفلم يدبروا القول؟! إذ والله يجدون في القرآن زاجرا عن معصية الله، لو تدبره القوم وعقلوه».

٥٤٥٩ يقول الشيخ رشيد رضا يصف بعض مجالس استماع القرآن:

«إنهم يلغطون في مجلس القرآن، فلا يستمعون ولا ينصتون، ومن أنصت واستمع فإنما ينصت طربا بالصوت، واستلذاذا بتوقيع نغمات القارئ، وإنهم ليقولون في استحسان ذلك واستجادته ما يقولونه في مجالس الغناء، ويهتزون

للتلاوة، ويصوتون بأصوات مخصوصة، كما يفعلون عند سماع الغناء بلا فرق، ولا يلتفتون إلى شيء من معانيه إلا ما يرونه مدعاة لسرورهم مع الغفلة عما فيها من العبرة، أليس هذا أقرب إلى الاستهانة بالقرآن منه بالأدب اللائق الذي ترشد إليه هذه الآية الكريمة وأمثالها، وتتوعد على تركه بجعله مجاورًا للكفر الذي يسوق صاحبه إلى العذاب الأليم: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾؟!..

يقول الشيخ رشيد رضا:

«وضرب الأستاذ (محمد عبده) مثلاً رجلاً يرسل كتاباً إلى آخر، فيقرؤه المرسل إليه هزيمة أو يترنم به، ولا يلتفت إلى معناه، ولا يكلف نفسه إجابة ما طلب فيه، ثم يسأل الرسول أو غيره: ماذا قال صاحب الكتاب فيه، وماذا يريد منه؟ أيرضى المرسل من المرسل إليه بهذا أم يراه استهزاء به؟ فالمثل ظاهر وإن كان الحق لا يقاس على الخلق، فإن الكتاب لا يرسل لأجل ورقه، ولا لأجل نقوشه، ولا لأجل أن تكيف الأصوات حروفه وكلمه، ولكن ليعلم مراد المرسل منه ويعمل به».

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩]:

قال ابن عباس: «أليس قد عرفوا محمداً ﷺ صغيراً وكبيراً، وعرفوا نسبه وصدقه وأمانته ووفاء بالعهود، وهذا على سبيل التوبيخ لهم».

﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩]:

إشارة إلى أن الناس تستنكر دعوة الغريب ومن لا يعرفونه، وأن هذا أمرٌ فطري، مما يستدعي من كل داعية أن يزيل الحواجز بينه وبين الناس قبل دعوتهم.

﴿بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠]:

قال ابن عاشور: «وإنما أسندت كراهية الحق إلى أكثرهم دون جميعهم إنصافاً لمن كان منهم من أهل الأحلام الراجحة الذين علموا بطلان الشرك وكانوا

يَجْنَحُونَ إِلَى الْحَقِّ، وَلَكِنَّهُمْ يَشَايِعُونَ طَعَاةَ قَوْمِهِمْ مَصَانِعَةً لَهُمْ، وَاسْتِبْقَاءَ عَلَى حَرَمَةِ أَنْفُسِهِمْ». مَا أَجْمَلَ إِنْصَافَ الْقُرْآنِ!

﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨١]:

لعنة التقليد! ساروا في طريق سلفهم، وأسرفوا في العناد مثل إسرافهم، فأصابهم مثل هلاكهم وتلفهم.

﴿قَالُوا أءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَعِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٢]:

كيف يحاسب الله في قبره من أكله السَّبع؟ أو كيف يعذب من افترسته سمكة قرش؟! أو من أصبح رمادًا بعد احتراقه؟! يجيب أبو حامد الغزالي: «فإن قلت: فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة ونراقبه ولا نشاهد شيئًا من ذلك؟! فاعلم أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا.

إحداها: وهو الأظهر والأصح والأسلم: أن تصدق بأنها موجودة، وهي تلدغ الميت، ولكنك لا تشاهد ذلك، فإن هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور الملكوتية، وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من علم الملكوت، أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل، وما كانوا يشاهدونه، ويؤمنون بأنه الملكوت يشاهده، فإن كنت لا تؤمن بهذه، فتصحيح أصل الإيمان بالملائكة والوحي أهم عليك، وإن كنت آمنت به وجوّزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة، فكيف لا تجوّز هذا في الميت؟!!

وكما أن الملك لا يشبه الآدميين والحيوانات، فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا، بل هي جنس آخر، وتُدرك بحاسة أخرى».

﴿لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾

[المؤمنون: ٨٣]:

لما طال عليهم وقت البعث، وتأخر ما توعدهم الله به من العذاب بعد الحشر والنشر زاد ذلك في ارتيابهم، وجعلوا ذلك حجة في اضطرابهم.

﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿٨٥﴾

[المؤمنون: ٨٤-٨٥]:

في الآية مبالغة في الاستهانة بالكافرين وتقرير لفرط جهلهم، فقد أجاب الله عنهم قبل أن يجيبوه: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، وما أعجب اعترافهم بهذا، ثم تجويزهم عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر.

﴿قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٥]:

ترغيب إلهي في أعمال العقل والتفكير والتدبر، ليصلوا إلى أن من بدأ الخلق، قادر على إعادته.

﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]:

تأملوا العظمة الربانية!

في الحديث: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل تلك الفلاة على تلك الحلقة». السلسلة الصحيحة: ١٠٩.

﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٧]:

ما التقوى؟! قال الإمام أحمد: «التقوى هي ترك ما تهوى لما تحشى».

﴿وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]:

يُؤْمِنُ الله مَنْ شاء من عباده، ولا يستطيع أحد أن يؤمن مَنْ أخافه الله.. أمانك بيد الله وحده!

﴿قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٩]:

يَرُوجُ الباطل على بعض الناس، فينجذبون إليه، وينشطون للترويج له والعمل له كأنهم مسحورون.

﴿بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٠]:

القرآن هو الحق، وهو أفضل ما يدحض كذب المفتريين الذين يفترون على الله، فيدعون له الشريك والولد والنسب.

﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَذَاهُ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ ﴾ [المؤمنون: ٩١]:

مناقشة عقلية وبرهان منطقي، فلو كان هناك إلهان في هذا الكون لتنازعا واختلفا، واضطرب الكون بسبب هذا الاختلاف.

﴿ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٢]:

كيف تشركون مع الله من لا يعلم الغيب؟! بل ولا يعلم حتى كل علم الشهادة، وبعض علم الشهادة الذي يعلمه لا يكتمل نفعه إلا بمعرفة الغيب وما هو كائن، فكيف تشركون مع الله غيره؟

نزه الله نفسه عن شركهم، فلا ولد له، ولا شريك، ولو احتاج لشيء من هذا- حاشاه- لاضطرب الكون كله بسبب تنازع الشركاء؛ ولأن هذا الاضطراب لم يحدث؛ فقد دلّ هذا على أن مالك الأكوان وخالقها واحد، لا شريك له سبحانه.

﴿ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩٣]:

قد يرى النبي عذاب عدوّه في الدنيا، وقد يؤخّر الله عذابهم إلى الآخرة، فلاحتملان قائمان، حسب إرادة الرحمن.

﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ٩٤]:

قال القرطبي: «وكان عليه السلام يعلم أن الله تعالى لا يجعله في القوم الظالمين إذا نزل بهم العذاب، ومع هذا أمره الرب بهذا الدعاء والسؤال ليعظم أجره، وليكون في كل الأوقات ذاكرًا لربه تعالى».

﴿ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [المؤمنون: ٩٤]:

المؤمن يهضم نفسه! قال أبو حيان: «ومعلوم أنه عليه السلام معصوم مما يكون سببًا لجعله معهم، ولكنه أمره أن يدعو بذلك إظهارًا للعبودية وتواضعًا لله، واستغفار رسول الله ﷺ إذا قام من مجلسه سبعين مرة من هذا القليل. وقال أبو بكر: وليتكم ولست بخيركم. قال الحسن: كان يعلم أنه خيرهم، ولكن المؤمن يهضم نفسه».

﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون: ٩٤]:

هذا يشبه ما جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد والترمذي:
«وإذا أردت بقوم فتنة فتوفني إليك غير مفتون» سنن الترمذي رقم: ٣٢٣٣.

﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَدِيرُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٥]:

ما أيسره على الله: تعجيل عذاب من عاداه، ونصر وعُلو من والاه، وما نوّخره
إلا لأجل معلوم.

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]:

قال ابن عباس: «الصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند
الإساءة».

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [المؤمنون: ٩٦]:

قال ابن القيم: «كان بعض أصحاب ابن تيمية يقول: وددت أني لأصحابي
مثله لأعدائه وخصومه، وما رأيته يدعو على أحد منهم قط، وكان يدعو لهم.
وجئت يوماً مبشراً له بموت أكبر أعدائه، وأشدّهم عداوة وأذى له، فنهرني
وتنكر لي واسترجع. ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم، وقال: إني لكم
مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه!».

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٦]:

فن التفويض لله والتوكل عليه!

قال ابن عاشور: «والتخلق بهذه الآية هو أن المؤمن الكامل ينبغي له أن
يفوض أمر المعتدين عليه إلى الله، فهو يتولى الانتصار لمن توكل عليه، وأنه إن
قابل السيئة بالحسنة كان انتصار الله أشفى لصدوره وأرسخ في نصره».

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ [المؤمنون: ٩٦]:

قال ابن عقيل: «ومن أظهر الجميل والحسن في مقابلة القبيح ليزول الشر،
فليس بمنافق لكنه يستصلح، ألا تسمع إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِذَا الَّذِي

بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤].

فهذا اكتساب استمالة، ودفع عداوة، وإطفاء لنيران الحقائد، واستنماء الود، وإصلاح العقائد، فهذا طب المودات واكتساب الرجال».

﴿أَدْفَعْ بِآلَتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ﴾ [المؤمنون: ٩٦]:

قال أنس بن مالك: «يقول الرجل لأخيه ما ليس فيه، فيقول له: إن كنت كاذبًا، فإني أسأل الله أن يغفر لك، وإن كنت صادقًا فإني أسأل الله أن يغفر لي».

﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ [المؤمنون: ٩٧]:

استعاذة بالله من أصل الشر كله، ويدخل فيها الاستعاذة من جميع نزغات الشيطان ووساوسه، وإذا أعاذ الله عبده من هذا الشر، سلم من كل الشرور، ووُفِّق لكل خير.

في الحديث:

«إذا فزع أحدكم من النوم فليقل: أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده، ومن همزات الشياطين وأن يحضرون، فإنها لن تضره». صحيح الجامع رقم: ٧٠١.

﴿مَا فَائِدَةُ اسْتِعَاذَةِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الشَّيْطَانِ وَهُوَ الْمَعْصُومُ؟!﴾

الفائدة: تعليم للمؤمنين وإرشادهم إلى دوام الاعتصام بالله رب العالمين، فهو القادر وحده على دفع وساوس الشياطين.

﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ تَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٨]:

أعوذ بالله أن يحضرون مجرد حضور، حتى وإن لم يهمزوا لي ويوسوسوا إليّ، فهذا طلب وقائي إضافي، وصمام أمان رباني.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]:

قال القرطبي:

«ودلّت الآية على أن أحدا لا يموت حتى يعرف اضطرابًا أهو من أولياء الله أم من أعداء الله، ولولا ذلك لما سأل الرجعة».

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾

[المؤمنون: ١٠١]:

قال قتادة: «ليس أحد أبغض إلى الإنسان في ذلك اليوم ممن يعرف؛ لأنه يخاف أن يكون له عنده مظلمة»

﴿وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١]:

الكل مشغول بكربه، خائف من ذنبه، قلق من مصيره ومستقره، فلا يسأل أحداً أحداً عن أي شيء.

في صحيح البخاري أن رجلاً قال لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف علي، قال: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ، وقال: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصفات: ٢٧]، فقال ابن عباس:

«أما قوله: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ﴾، فهو في النفخة الأولى، فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله، فلا أنساب بينهم عند ذلك، ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة، أقبل بعضهم على بعض يتساءلون».

رسالة إلى المتفخرين بالأنساب! قال رجل لزهير بن نعيم: ممن أنت؟ قال: ممن أنعم الله عليه بالإسلام. قال: إنما أريد النسب؟! قال: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾.

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ [المؤمنون: ١٠٢]:

الميزان واحد، وإنما أطلق عليه اسم الجمع لكثرة ما يُوزن فيه من أنواع الأعمال. قال ابن عباس: «الموازين: جمع موزون، وهي الموزونات من الأعمال: أي الصالحات، التي لها وزن وقدر عند الله».

﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢]:

قال ابن عباس: «أي من رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة». بعض الناس سيدخل النار بسبب نقصان حسنة!

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ

خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣]:

الخسارة الوحيدة المؤكدة هي الخلود في جهنم.

قال ابن عباس: «عُنيوها بأن صارت منازلهم للمؤمنين».

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤]:

استعينوا بالله من هذا المصير! اللفح هو الإحراق الشديد، والكلوح هو أن تتقلص الشفتان، وتتكشف الأسنان؛ لأن النار قد أحرقت الشفتين، كما يحدث لرأس الشاة بعد شويها.

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ تُتَلَّىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٥]:

التبكيك وتوجيه اللوم إلى أهل النار أشد وقعا عليهم من عذاب النار.

﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]:

نطقوا بالحق، لكن للأسف! يوم لا ينفع الإقرار، ولا تُقبل الأعذار!

التعلل بالأقدار وسوء الحظ هو سمة الفاشلين من أهل الدنيا ومن أهل الآخرة.

﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]:

معلوم أن ردهم إلى الدنيا لا يكون، لكن الله علم أنه لو كان، فكيف كان يكون.

﴿قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]:

انقطع عند ذلك الدعاء، وتبدد الرجاء، وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون، وأطبقت عليهم النار فهم فيها يتصارخون.

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنه: «إن أهل النار نادوا: ﴿يَمْلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ

قَالَ﴾ [الزخرف: ٧٧] قال: فخلى عنهم أربعين عاما ثم أجابهم: ﴿إِنْكُمْ

مَكِيدُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧]. فقالوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا

ظَلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ [المؤمنون: ١٠٧] قال: فخلى عنهم مثل الدنيا ثم أجابهم: **﴿أَخْسَعُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ﴾** [المؤمنون: ١٠٨]. قال: فلم ينبس القوم بعد ذلك بكلمة، إن كان إلا الزفير والشهيق.

﴿رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩]:
احفظ هذا الدعاء القرآني، وحفظه أولادك، وحافظ عليه.

﴿٥٥٠٩﴾ في الآية إشارة إلى مشروعية التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة، كأن يقول العبد مثلاً: اللهم بإيماني بك، واتباعي لرسولك، اغفر لي وارحمني.

﴿فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٠]:

صفة متكررة في القرآن لأهل النار، فالويل للمستهزئ بالدين وأهله!

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [المؤمنون: ١١١]:

لم يقل بما صلوا أو صاموا أو أنفقوا؛ لأن الصبر عبادة تؤديها متألماً، وغيره من العبادات تؤديها متلذذاً.

﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [المؤمنون: ١١٢-١١٣]:

سئلوا عن السنين فأجابوا بالأيام؛ لأن فزع يوم القيامة أطار عقولهم، وأراهم عشرات السنين أقل من يوم في جوار الخلود.

﴿قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٤]:
ما علموا حقارة الدنيا إلا بعد أن عاينوا أهوال الآخرة!

﴿٥٥١٤﴾ الدنيا مهما طالت وطابت قليلة بالإضافة إلى خلود الآخرة، فكيف لو كان هذا الخلود في أصل العذاب؟!

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]:
لم يخلقنا الله للعبث ولا للهو، ولم يأمرنا بذلك، ومع هذا فأكثر الخلق عابثون، وفي اللهو غارقون.

٥٥١٦ قال الحكيم الترمذي: «إن الله تعالى خلق الخلق عبداً ليعبدوه، فيشبههم على العباد، ويعاقبهم على تركها، فإن عبده فهم اليوم له عبيد أحرار كرام من رِقِّ الدنيا، ملوك في دار الإسلام، وإن رفضوا العبودية فهم اليوم عبيد أباقٍ سقاط لئام، وغداً أعداء في السجون بين أطباق النيران».

٥٥١٧ قال الرازي: «لولا القيامة لما تميز المطيع من العاصي، والصديق من الزنديق، وحينئذ يكون خلق هذا العالم عبثاً (حاشاه)».

٥٥١٨ قال الآلوسي: أخرج ابن السني وابن منده وأبو نعيم من طريق محمد بن إبراهيم بن الحارث التميمي عن أبيه قال: «بعثنا رسول الله ﷺ في سرية وأمرنا أن نقول إذا أمسينا وأصبحنا: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، فقرأناها، فغنمنا وسلمنا».

٥٥١٩ قال يونس بن سليمان البلخي: «كان إبراهيم بن أدهم من الأشراف، وكان أبوه كثير المال والخدم، فخرج إبراهيم يوماً إلى الصيد مع الغلمان والخدم، فبينما إبراهيم في ذلك وهو على فرسه يركضه، إذا هو بصوت من فوقه: يا إبراهيم، ما هذا العبث ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] اتق الله، وعليك بالزاد ليوم الفاقة، قال: فنزل عن دابته، ورفض الدنيا (زهدها فيها)، وأخذ في عمل الآخرة».

٥٥٢٠ ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]:
التعالى هو المبالغة في العلو، وقد تعالى الله عن الولد والشريك، وتعالى عن أن يخلق شيئاً عبثاً، وتعالى أن يقضي أمراً لغير حكمة، وتعالى عن أي ظن باطل يظنه الخلق به ويقدر في حكمته.

٥٥٢١ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]:
وإذا سألت: ما الدليل على هذا العلو أو ما أسبابه؟!
فالجواب: انفراده بالألوهية، وبأنه مالك أعظم المخلوقات وهو العرش، وذلك من أعظم أدلة العظمة.

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]:

لماذا وصف الله العرش بأنه كريم؟ قال الإمام الرازي: «وإنما وصفه بالكريم؛ لأن الرحمة تنزل منه والخير والبركة، ولنسبته إلى أكرم الأكرمين، كما يقال: بيت كريم، إذا كان ساكنوه كراما».

﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]:

قال الرازي: «نبه تعالى بالآية، على أن كل ما لا برهان فيه، لا يجوز إثباته، وذلك يوجب صحة النظر وفساد التقليد».

﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨]:

قال الألوسي: «وفي تخصيص هذا الدعاء بالذكر ما يدل على أهمية ما فيه، وقد علم النبي ﷺ أبا بكر أن يقول نحوه في صلاته، فقد أخرج الشيخان عن أبي بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله، علّمني دعاء أدعوه به في صلاتي، فقال له قل: (اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا، وإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، فاعفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم)».



سورة النور

﴿سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا﴾ [النور: ١]:

كتب عمر رضي الله عنه إلى أهل الكوفة: «علموا نساءكم سورة النور»؛ لأن مقصود هذه السورة ذكر أحكام العفاف والستر وصون العرض..

﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ [النور: ١]:

فرضنا ما فيها من الأحكام، وشددنا ابن كثير وأبو عمر رضي الله عنهما ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ لكثرة فرائضها أو المفروض عليهم، أو للمبالغة في إيجابها.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا﴾ [النور: ٢]:

بدأ الله سورة النور بذكر عقوبة الزنى، فمن زنى محاً الله نور الإيمان من وجهه وقلبه وعمله، فيسير متخبطاً في ظلمات الذنب.

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [النور: ٢]:

بدأ بالمرأة لأنها الداعي الأول إلى جريمة الزنى، فلو تعففت لتعفف الرجل، بعكس السرقة التي فيها ذكر الرجل أولاً ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ إذ الرجل مكلف بالإنفاق والحصول على المال.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [النور: ٢]:

ليس في إقامة الحدود شدة أو غلظة، بل فيها الخير الكثير لأنها تردع من تسوّل له نفسه بالعدوان، ففي الحديث: «حدٌّ يُعمل في الأرض خير لأهل الأرض من أن يُمطروا أربعين صباحاً». صحيح الجامع رقم: ٣١٣٠.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢]:

مشاهدة تنفيذ أحكام الله مقصود شرعي يُحدث الردع المطلوب في قلوب المشاهدين.

﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرَكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾

[النور: ٣]

هذا يماثل المثل القائل: (الطيور على أشكالها تقع).

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ [النور: ٤]:

الرمي بالأقوال لا يقل خطراً عن رمي السهام.

جراحات السنان لها الثام ولا يلتأم ما جرح اللسان

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ [النور: ٤]:

يستوي أن يكون المقذوف رجلاً أو امرأة، فإن الحكم واحد، وإنما خص المحصنات بالذكر؛ لأن قذف المرأة أشد ضرراً من قذف الرجل.

﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً

أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤]:

شروط شديدة وضعها الشارع حفاظاً على الأعراض وصونا للأبرياء من الافتراء: أربعة شهود من الرجال، ولا تقبل شهادة النساء مطلقاً، لا وحدهن ولا مع الرجال، واشترط في الشهادة الرؤيا التامة لفعل الفاحشة: (كما يغيب المروء من المكحلة، والحبل في البئر).

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٥]:

وتوبة القاذف لا بد أن تكون علانية كما كان قذفه لإياه علانية، وذلك تبرئة لِعَرَضِ أَخِيهِ، فإن من شروط التوبة إذا تعلقت بحق آدمي أن يُردَّ إليه حقه، وهو هنا: تبرئته.

﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَدَةُ

أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٦]:

في صحيح البخاري عن ابن عباس أن هلال بن أمية، قذف امرأته عند النبي ﷺ بِشَرِيكِ بْنِ سَحْمَاءَ، فقال النبي ﷺ: «البينة أو حدٌ في ظهرك»، فقال: يا

رسول الله، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة، فجعل النبي ﷺ يقول: «البينة وإلا حد في ظهرك»، فقال هلال: والذي بعثك بالحق إني لصادق، فليزلن الله ما يبرئ ظهري من الحد، فنزلت الآية.

﴿وَالْخَمْسَةَ أَنْ لَعَنَتِ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النور: ٧]:

قال ابن كثير: «فإن قال ذلك، بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعي وطائفة كثيرة من العلماء، وحرمت عليه أبداً، ويعطيها مهرها ويتوجب عليها حد الزنى، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعِن، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، أي فيما رماها به، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين».

﴿وَيَذَرُوهَا عَنْهَا الْعَذَابُ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾
﴿وَالْخَمْسَةَ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [النور: ٨-٩]:

قال ابن كثير: «فخصّها بالغضب، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنى إلا وهو صادق معذور، وهي تعلم صدقه فيما رماها به، ولهذا كانت الخامسة في حقها أن غضب الله عليها، والمغضوب عليه هو الذي يعلم الحق ثم يجحد عنه».

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٠]:

جواب الشرط محذوف تقديره: لأنزل بأحد المتلاعنين -وهو الكاذب منهما- ما دعا به على نفسه، ومن رحمته وفضله: ثبوت هذا الحكم الخاص بالزوجين لشدة الحاجة إليه.

قال المراغي:

«أي ولولا تفضله سبحانه ورحمته بكم، وأنه قابل لتوبتكم في كل آن، وأنه حكيم في جميع أفعاله وأحكامه التي منها ما شرعه لكم من اللعان -لفضحكم وعاجلكم بالعقوبة، ولكنه ستر عليكم ودفع عنكم الحد باللعان، إذ لو لم يشرع لكم ذلك لوجب على الزوج حد القذف، مع أن قرائن الأحوال تدل

على صدقه؛ لأنه أعرف بحال زوجه، وأنه لا يفترى عليها، لاشتراكهما في الفضيحة.

ولو جعل شهادته موجبة لحد الزنى عليها لأهمل أمرها، وكثر افتراء الزوج عليها لضغينة قد تكون في نفسه من أهلها، وفي كل هذا خروج من سبق الحكمة والفضل والرحمة؛ ومن ثم جعل شهادات كل منهما مع الجزم بكذب أحدهما دراة عنه العقوبة الدنيوية، وإن كان قد ابتلي الكاذب منها في تضاعيف شهادته بأشد مما دراه عن نفسه، وهو العقاب الأخروي.

﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النور: ١٣]:

حتى لو تيقن الشهود بالزنى ورأوه بأعينهم، فإنهم كاذبون في حكم الله؛ لأن الله حرم عليهم التكلم بذلك من غير أربعة شهود؛ ولذا قال: ﴿فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾، ولم يقل (فأولئك هم الكاذبون)، فلا يجوز الإقدام على رمي مسلم بالزنى إلا مع بلوغ نصاب الشهادة.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٤]:

لولا فضل الله ورحمته بأن شرع التوبة، لنزل بكم عذاب شديد ما تحملتموه بها فعلتموه.

قال ابن سلام: «فضله الإسلام، ورحمته الكتان»، فلما بين الله حكم رمي المحصنات، كان من فضله ورحمته أن جعل اللعان سبيلاً إلى الستر، وإلى درء الحد، وجواب: ﴿لَوْلَا﴾ محذوف، تقديره: لهلكتم أو لفُضحتم أو لعاجلكم بالعقوبة.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بِهَتْنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]:

المستمع مغتاب، وإذا سمع المؤمن غيبة مسلم، فالواجب عليه أن يردَّ على

قائله، ولا يكتفي بالسكوت دون إنكار، بل يجب الردُّ على المغتاب بالطف نصيحة، فإن أبى إلا الاستمرار في الغيبة، فليرد عليه دون أن يستحي منه؛ لأنه إن لم يستح المغتاب من قوله وهو مذنب، فلا ينبغي أن يستحي المستمع من الردِّ عليه وهو مثاب.

﴿مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا مَبْتَنٍ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]:

تربية ربانية راقية لعباده المؤمنين بأن ينزَّهوا أسماهم عن مجرد الاستماع إلى ما يسيء إلى المؤمنين، وأن ينزَّهوا ألسنتهم عن ترديد أي اتهامات غير ثابتة، وأن يستنكروا هذا من كلِّ من ينطق به.

﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ١٧]:

قال هشام بن عمار:

«سمعتُ مالكا يقول: من سبَّ أبا بكر وعمر أدب، ومن سبَّ عائشة قُتِلَ لأنَّ الله يقول: ﴿يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فمن سبَّ عائشة، فقد خالف القرآن، ومن خالف القرآن قُتِلَ»، ويرى الشافعية أن ذلك ليس بكفر.

﴿وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ١٨]:

يبين الله آياته التي تسعد عباده دنيا وآخرة إذا اتبعوا ما شملته من آداب وأحكام، والله ﴿عَلِيمٌ﴾ بأحوال خلقه وما يصلحهم، ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع ما أمر به أو نهى عنه.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٢٠]:

لكان أمر آخر، ولكنه تعالى رؤوف بعباده رحيم بهم، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية، وطهر من طهر منهم بالحد الذي أقيم عليهم، وهذا دليل رأفته ورحمته، وأما في الملاءنة فظهرت حكمته في معالجة هذا الأمر فقال:

﴿تَوَاتَبَ حَكِيمٌ﴾.

﴿وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢١]:

طلب مرثد بن أبي مرثد من النبي ﷺ أن يتزوج امرأة اسمها عناق، فهو ما يزال يحبها، وهي بغية كان يأتيها في الجاهلية، وما زالت على فجورها وجاهليتها، فنزلت هذه الآية.

﴿وَالَّذِينَ يَزُمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شَهَدَاءَ﴾ [النور: ٤]:

عاقب الله من قذف محصنة بثلاث عقوبات: حسية ومعنوية ودينية، فالحسية جلد ثمانين جلدة، والمعنوية: عدم قبول شهادته ليكون في المجتمع كالمنبوذ، والدينية: وصف الله له بالفسق، وسر تغليظ عقوبة القذف: حماية أعراض المسلمين من السنة السوء.

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١]:

حزنك أو فرحك، وتشاؤمك أو تفاؤلك هو قرارك الشخصي واختيارك الذاتي.

﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [النور: ١١]:

قال الزرخشري:

«ومعنى كونه خيراً لهم أنهم اكتسبوا فيه الثواب العظيم؛ لأنه كان بلاء ومحنة ظاهرة، وأنه نزلت فيه ثماني عشرة آية، كل واحدة منها مستقلة، بما هو تعظيم لشأن رسول الله ﷺ وتسليته له، وتنزيهه لأُم المؤمنين رضوان الله عليها، وتطهير لأهل البيت، وتهويل لمن تكلم في ذلك، أو سمع به فلم تمجّه أذناه، وعدة ألطاف للسامعين والتالين إلى يوم القيامة، وفوائد دينية وأحكام وآداب لا تخفى على متأمليها».

﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢]:

بقدر إيمانك يكون حسن ظنك بالمؤمنين!

رُوي أن أبا أيوب الأنصاري لما بلغه خبر الإفك قال لزوجته: ألا ترين ما يقال؟

فقلت له: لو كنتَ بدل صفوان أكنتَ تظن بحرمة رسول الله سوءاً؟

قال: لا.

قالت: ولو كنتُ أنا بدل عائشة ما خُنتُ رسول الله، فعائشة خير مني، وصفوان خير منك. قال: نعم.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ [النور: ١٥]:

وقت الإشاعات والتربص يكون مصدر التلقي هو اللسان لا السمع ولا العقل، فلا تثبت من الأخبار، ولا رويّة في نشرها.

﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [النور: ١٥]:

قال المتنبي:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدّق ما يعتاده من توهم
وعادى محبيه بقول عداته وأصبح في ليل من الشك مظلم

﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٥]:

كلمة واحدة قد تهوي بصاحبها في قعر جهنم، فإياك ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل فيهلكنه.

﴿كَلِمًا عَظِيمًا﴾ [النور: ١٥]:

﴿كَلِمًا عَظِيمًا﴾ [النور: ١٥]:

«إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب»، ومعنى «ما يتبين فيها»: أي لا يتأملها أخير هي أم شر، ولا يحسب تبعاتها.

﴿كَلِمًا عَظِيمًا﴾ [النور: ١٥]:

﴿كَلِمًا عَظِيمًا﴾ [النور: ١٥]:

﴿كَلِمًا عَظِيمًا﴾ [النور: ١٥]:

وأنت لا تشعر!

﴿مُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ١٩]:

مجرد حب إشاعة الفاحشة يستحق صاحبه العذاب الأليم، فكيف بمن نشرها وحضّ الناس عليها؟!

﴿مُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [النور: ١٩]:

استدل العلماء بهذه الآية على أن الله يؤاخذ ببعض أعمال القلوب، حيث رتب الله العذاب على فعل القلب وهو (حبُّ) إشاعة الفاحشة.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١]:

هذه الآية فيها أربعة تأكيدات على أن الفضل لله في طاعة العبد، فقوله ﴿وَلَوْلَا﴾ للامتناع، وقوله ﴿مَا﴾ للنفي التام، وقوله ﴿مِنْكُمْ﴾ معناه أي أحد، وقوله ﴿أَبَدًا﴾: لإطلاق النفي.

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]:

بشارة للمذنبين!

الجزاء من جنس العمل، فكما تعفو عن الناس سيعفو الله عنك، وكما تغفر زلاتهم سيغفر الله زلتك.

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢]:

أذن خادم لعبد الله بن عمر، فأراد ابن عمر أن يعاقبه على ذنبه فقال: يا سيدي.. أما لك ذنب تخاف من الله فيه؟ قال: بلى، قال بالذي أمهلك لما أمهلتنى!

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ٢٣]:

وصفُ المحصنات بالغفلة ليس على سبيل الذم، لكن لبيان تباعدهن عما قيل فيهن، وإشارة إلى قسوة أن تهاجم دون سابق إنذار وبغير سبب.

﴿٥٥٦٨﴾ من أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية: إنها عامة لجميع الناس، سواء أكان من قُذِفَ ذكراً أم أنثى.

﴿٥٥٦٩﴾ **يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** [النور: ٢٤]: في الحديث:

«يقول العبد يوم القيامة: يا رب ألم تجرني من الظلم؟ فيقول: بلى فيقول: إني لا أجزى على نفسي إلا شاهداً مني فيقول: **﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾**، وبالكرام الكاتبين شهوداً، فيُخْتَمَ على فيه (فمه)، ويُقال لأركانها: انطقي، فتتلق بآعماله، ثم يخلي بينه وبين الكلام، فيقول: **بُعْدًا لَكُنَّ** وسحقاً، فعنكُنَّ كُنْتُ أناضل». صحيح الجامع رقم: ٨١٣٤.

﴿٥٥٧٠﴾ كان اللسان في الدنيا أداة لإعلان كفر، لكنه يتحول يوم القيامة إلى شاهد يشهد على الكافر.

﴿٥٥٧١﴾ **يَوْمَ يُوفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ** [النور: ٢٥]:

الدين هنا بمعنى الجزاء لا بمعنى الإسلام، من قولهم: (كما تدين تُدان)، أو الدين هو الحساب، كقوله: **﴿ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾** أي الحساب الصحيح، ومعنى قوله: **﴿الْحَقُّ﴾** أي أن الذي نوفيهم من الجزاء هو القدر المستحق؛ لأنه الحق، وما زاد عليه هو الباطل.

﴿٥٥٧٢﴾ **الْخَيْثُوتُ لِلْخَيْثِثِينَ وَالْخَيْثُوتُ لِلْخَيْثِثِ** [النور: ٢٦]:

قال أبو السائب القاضي: «كنت يوماً بحضرة الحسن بن زيد الداعي بطبرستان، وكان بحضرته رجل ذكر عائشة بذكر قبيح من الفاحشة، فقال: يا غلام.. اضرب عنقه، فقال له: العلويون: هذا رجل من شيعتنا، فقال: «معاذ الله هذا رجل طعن على النبي ﷺ. قال الله تعالى: **﴿الْخَيْثُوتُ لِلْخَيْثِثِينَ وَالْخَيْثُوتُ لِلْخَيْثِثِ وَالطَّيِّبُ لِلطَّيِّبِ وَالطَّيِّبُ لِلطَّيِّبِ أُولَٰئِكَ**

مَبْرُوءَاتٍ مِّمَّا يَقُولُونَ»، فإن كانت عائشة خبيثة فالنبي خبيث فهو كافر، فاضربوا عنقه» فاضربوا عنقه وأنا حاضر».

وَالطَّيِّبَتُ لِلطَّيِّبِينَ [النور: ٢٦]:

قال ابن عباس: «والطيّبات من الأقوال للطيّبين من الرجال»، فمقياس طيب العبد بحسب ألفاظ لسانه وكلماته.

الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَتِ [النور: ٢٦]:

لن يرتاح زوجان إلا حين يكونان متوافقين أخلاقياً ودينياً، وإلا انقلبت الحياة الزوجية ساحة قتال بدلاً من السكن والمودة والرحمة.

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ [النور: ٢٧]:

روى الطبري وغيره عن عدي بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد، لا والد ولا ولد، فيأتي الأب، فيدخل عليّ، وإنه لا يزال يدخل عليّ رجلاً من أهلي، وأنا على تلك الحال، فكيف أصنع؟ فنزلت الآية.

قال قتادة في قوله **«حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا»**: «هو الاستئذان ثلاثاً، فمن لم يؤذن له منهم فليرجع، أما الأولى فليسمع الحي، وأما الثانية فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة فإن شاءوا أذنوا، وإن شاءوا ردّوا، ولا تقفن على باب قوم ردوك عن بابهم، فإن للناس حاجات ولهم أشغال، والله أولى بالعذر».

في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «من اطلع في بيت قوم بغير إذنهم فقد حلّ لهم أن يفتقروا عينه» صحيح مسلم رقم: ٢١٥٨.

عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال: «إذا دخل الرجل بيته استحبّ له أن يتنحى، أو يحرك نعليه».

﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اَرْجِعُوا فَاَرْجِعُوا هُوَ اَزْكٰى لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨]:

قال قتادة: قال رجل من المهاجرين: «لقد طلبتُ عمري كله هذه الآية، فما أدركتها: أن أستاذن على بعض إخواني، فيقول لي: ارجع، فأرجع وأنا مغتبط، لقوله: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ اَرْجِعُوا فَاَرْجِعُوا هُوَ اَزْكٰى لَكُمْ﴾».

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ اَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَّكُمْ﴾

[النور: ٢٩]:

نزلت هذه الآية: ﴿لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا﴾ الآية، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله.. أفرأيت الخانات والمساكن في طرق الشام، ليس فيها ساكن؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ اَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ الآية.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]:

قدّم غض البصر على حفظ الفرج لأن النظر بريد الزنى، ومفتاح الفواحش.

﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: ٣٠]:

قال الإمام القرطبي: «البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته. ووجب التحذير منه، وغضه واجب عن جميع المحرمات، وكل ما يخشى الفتنة من أجله».

﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١]:

نستنبط منها قاعدة سد الذرائع، فالضرب بالأرجل مباح للنساء، لكنه قد يفضي إلى الحرام، وهو لفت الأنظار إلى زينة المرأة؛ ولذا نهى الله عنه.

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]:

قال الضحاك: «البرُّ والفاجر»، فالتوبة تلزم الجميع.

قال ابن القيم: «وهذه الآية في سورة مدنية، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار

خلقه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم، وهجرتهم وجهادهم، ثم علّق

الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه، وأتى بأداة **لَعَلَّ** المشعرة بالترجي،
إيذاناً بأنكم إذا تبتم كنتم على رجاء الفلاح، فلا يرجو الفلاح إلا التائبون،
جعلنا الله منهم».

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: ٣١]:

التوبة درجات!! قال عبد الله بن علي بن محمد التميمي: «شتان بين تائب
يتوب من الزلات، وتائب يتوب من الغفلات، وتائب يتوب من رؤية
الحسنات».

قال ابن الجوزي في حقيقة التوبة: «أعتقد أن التوبة قول باللسان؟! إنما التوبة
نار تحرق الإنسان، جرد قلبك من الأقدار، ثم ألسه الاعتذار، ثم حلّه حلة
الانكسار، ثم أقمه على باب الدار».

لماذا أتوب؟! قال ابن جزى: «والبواعث على التوبة سبعة: خوف العقاب،
ورجاء الثواب، والخجل من الحساب، ومحبة الحبيب، ومراقبة الرقيب
القريب، وتعظيم المقام، وشكر الإنعام».

﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]:

ملاحظة دقيقة! قال ابن تيمية: «أمره لجميع المؤمنين بالتوبة في هذا السياق
تنبيه على أنه لا يخلو مؤمن من بعض هذه الذنوب التي هي: ترك غض البصر
وحفظ الفرج وترك إبداء الزينة، وما يتبع ذلك، فمُسْتَقِلٌّ ومُسْتَكْتَرٍ».

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنكُمُ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]:

لما ذمَّ الله الزنى ونهى عنه، أمر بإشباع الغريزة من طريق حلال؛ لأن الله لا
يغلق الله باباً أمام العبد إلا فتح له أبواباً.

أمرٌ بالتزويج واجب التنفيذ! زوّجوا أيها المؤمنون من لا زوج له، زوّجوا
أحرار رجالكم ونسائكم، وزوّجوا الصالحين من عبيدكم ومماليككم.
والأياىمى: جمع أيم، وهو من لا زوج له رجلاً كان أو امرأة، سواء تزوج ثم
فارق، أو لم يتزوج.

يكثر استعمال (أيم) في المرأة، وخاصة من فقدت زوجها، ففي الحديث: «الأيمن أولى بنفسها من وليها، والبكر تُستأذن في نفسها، وإذنها صماتها». صحيح مسلم رقم: ١٤٢١.

في صحيح البخاري:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب، حين تآيمت حفصة بنت عمر، قال عمر: فلقيت عثمان بن عفان، فعرضت عليه حفصة، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، قال: سأنظر في أمري، فلبثت ليالي، فقال: قد بدا لي ألا أتزوج يومي هذا، قال عمر: فلقيت أبا بكر، فقلت: إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر، فصمت أبو بكر فلم يرجع إليّ شيئاً، فكنت عليه أوجد مني على عثمان، فلبثت ليالي ثم، خطبها رسول الله ﷺ، فأنكحتها إياه، فلقيني أبو بكر، فقال: لعلك وجدت عليّ حين عرضت عليّ حفصة فلم أرجع إليك؟ قلت: نعم، قال: فإنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت، إلا أني قد علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها، فلم أكن لأفشي سر رسول الله ﷺ، ولو تركها لقبيلتها. صحيح البخاري رقم: ٤٠٠٥.

﴿وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]:

لا تعارض بين الآية وبين حديث النبي ﷺ: «لا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي»؛ لأن النهي في الحديث أن يضيف السيد العبودية والأموة إلى نفسه على سبيل التعظيم والتكبر على مملوكه، وما في ذلك من إشعاره بالإهانة.

﴿وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]:

الأمر للوجوب. عن موسى بن أنس أن سيرين (وكان عبداً) سأل أنسا، المكاتبه - وكان كثير المال - فأبى، فانطلق إلى عمر رضي الله عنه، فقال: كاتبه فأبى، فضربه بالدرّة، ویتلو عمر: ﴿فَكَاتِبُهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣] فكاتبه.

﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢]:

النكاح من أسباب الغنى وسعة الرزق. قال بعض السلف: «التمسوا الغنى في النكاح».

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «أطيعوا الله فيما أمركم به من النكاح، يُنجز لكم ما وعدكم من الغنى. قال تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢].»

﴿وَلَيْسَتَعْفَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣]:

بشرى للمتعفين! قال السعدي: «وعدٌ للمستعفف أن الله سيغنيه، ويسر له أمره، وأمر له بانتظار الفرج، لئلا يشقَّ عليه ما هو فيه».

﴿وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣]:

المكاتبة هي عقد عتق على مال يدفعه المملوك أقساطا أو دفعة واحدة. قال السعدي: «في الكتابة تحصيل المصلحتين، مصلحة العتق والحرية، ومصلحة العوض الذي يبذله فداء نفسه، وربما جدَّ واجتهد، وأدرك لسيده في مدة الكتابة من المال ما لا يحصل في رِقِّه».

﴿وَأَتَوْهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَيْنَاكُمْ﴾ [النور: ٣٣]:

فيه استحباب التخفيف عن صاحب الدَّيْنِ كما في التخفيف هنا عن العبد المكاتب.

عن ابن عباس رضي الله عنه أن عمر رضي الله عنه كاتَّب عبدا له يُكَنَّى أبا أمية، فجاء بنجمه (قَسَط من المال الذي عليه) حين حَلَّ، فقال: يا أبا أمية.. اذهب فاستعِن به في مكاتبَتِكَ، فقال: يا أمير المؤمنين، ولو تركته حتى يكون من آخر نجم (قَسَط)؟!!

قال: أخاف ألا أدرك ذلك، ثم قرأ: ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَكُمْ﴾، فكان أول نجم أُدِّي في الإسلام.

﴿وَءَاتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَكُمْ﴾ [النور: ٣٣]:

مالك ليس مالك، لكنه مال الله أعاره لك، ويسترده منك طوعا بالإنفاق أو كرها بالموت.

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَّتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِيَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النور: ٣٣]:

قال ابن كثير:

«كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة أرسلها تزني، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كل وقت، فلما جاء الإسلام نهى الله المؤمنين عن ذلك، وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة في شأن عبد الله بن أبي ابن سلول، فإنه كان له إماء، فكان يكرههن على البغاء طلبا لخراجهن».

﴿وَمَنْ يُكْرِهْنَهُنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور: ٣٣]:
المكره لا مؤاخذه عليه!

قال ابن عباس: «ولا تكرهوا إماءكم على الزنى، فإن فعلتم فإن الله سبحانه لهن غفور رحيم، وإثمهن على من أكرههن».

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ ءَايَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ﴾ [النور: ٣٤]:

قال ابن تيمية: «من تدبر القرآن طالباً الهدى منه، تبين له طريق الحق».

﴿وَمَثَلًا مِنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [النور: ٣٤]:

ما أكثر الأمثلة التي ضربها الله في القرآن للسابقين من المؤمنين والمجرمين، وما جرى ليس بدعاً من التاريخ، فالتاريخ يتكرر، وطبائع البشر واحدة.

﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤]:

لا تُحدث الموعظة أثرها إلا في قلوبٍ فيها قدرٌ من تقوى الله وخشيته.

﴿وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [النور: ٣٤]:

القرآن كما أنه موعظة للمتقين، فهو أيضاً موعظة لغير المتقين، إلا أن الله ذكر المتقين مدحاً لهم، ليبين أنهم هم الذين انتفعوا بالموعظة كما قال: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّن تَحْشَنَهَا﴾.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]:

النور من أسماء الله الحسنى، والنور نوعان: النور الذي هو من أوصاف الله، ومنه اشتق اسم الله النور، ونور آخر مخلوق؛ حسي في ضوء الشمس والقمر والنجوم، ومعنوي في قلب كل مؤمن.

﴿مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]:

قال ابن عباس: «مثل هداه في قلب المؤمن»، ولا يصح أن نقول: مثل نور الله، أي نور ذاته وصفاته كمشكاة؛ لأن الله لا مثل له في ذاته ولا صفاته: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

في مسند أحمد: «إن الله خلق خلقه في ظلمة، ثم ألقى عليهم من نوره، فمن أصابه من نوره يومئذ، فقد اهتدى، ومن خطأه منه ضلّ، فلذلك أقول: جفّ القلم على ما علم الله عز وجل».

﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ

مُبْرَكَةٍ ۖ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥]:

هذا تشبيه مُرَكَّب، وفيه عدة عناصر:

- المشكاة، وهي الكوة في جدار البيت، ويقابلها الصدر، فكل منهما يحيط بالنور.
- فالمشكاة تحيط بالنور الحسي، والصدر يحيط بنور الإيمان المعنوي.
- والمصباح في المشكاة يحصل به الاهتداء والرؤية الحسية، ونور الإيمان في مشكاة الصدر يحصل به الاهتداء الإيماني ورؤية طريق الحق.

- والزجاجة التي تحيط بالمصباح (أي بفتيلة المصباح) يقابلها القلب الذي يحوي نور الإيمان، ووجه التشابه: صفاء كل منهما وصلابته.
- ومادة نور الصباح هي زيت من شجر زيتون نبت في أعدل الأماكن؛ لذا زيتها أنقى الزيوت، ومادة نور الإيمان في قلب المؤمن من شجرة الوحي المباركة المتضمنة للهدى والحق، وآياتها أعظم وأصدق وأعلى الآيات.

﴿الْمُصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾ [النور: ٣٥]:

- قال ابن القيم: «وشبه قلبه بالزجاجة لرقتها وصفائها وصلابتها، وكذلك قلب المؤمن، فإنه قد جمع الأوصاف الثلاثة؟ فهو:
- يرحم ويحسن ويتحنن ويشفق على الخلق برقته.
 - وبصفائه تتجلى فيه صور الحقائق والعلوم على ما هي عليه، ويباعد الكدر والدرن والوسخ بحسب ما فيه من الصفاء.
 - وبصلابته يشتد في أمر الله تعالى، ويتصلب في ذات الله تعالى، ويغلظ على أعداء الله تعالى، ويقوم بالحق لله تعالى».

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]:

- قال ابن القيم: «نور الوحي، ونور العقل، ونور الشريعة، ونور الفطرة، ونور الأدلة السمعية، ونور الأدلة العقلية»، فنور المصباح مستمد من نور هذا الزيت، وتضاعفه المشكاة والزجاجة، وكذلك نور الإيمان في قلب المؤمن، مستمد من القرآن والسنة، ويضاعفه العلم النافع والعمل الصالح.

﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥]:

- ليست هداية الدلالة والإرشاد، فهذه تقع لكل العباد، لكنها هداية التوفيق والإلهام والقبول والرشاد، وهذه لا تكون إلا للمؤمنين.

﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾ [النور: ٣٥]:

- فائدة ضرب المثل للناس تقريب الصورة المعنوية الغائبة بأخرى حسية حاضرة، فيتم البلاغ، ويقع الإفهام، وتقوم الحجة.

﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]:

ومن علمه: علمه بمن يستحق الهداية والنور، ومن لا يستحقها من خلقه، فهو سبحانه يعلم ما كان، وما سيكون، وما هو كائن، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ﴾ [النور: ٣٦]:

قال قتادة: «وهي هذه المساجد، أذن الله في بنائها ورفعها، وأمر بعمارها وتطهيرها».

﴿فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ﴾ [النور: ٣٦]:

وليس من رفعها زخرفتها. قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد». صحيح الجامع رقم: ٧٤٢١.

عن علي عليه السلام أنه قال: «يأتي على الناس زمان لا يبقى من الإسلام إلا اسمه، ولا من القرآن إلا رسمه، يعمرن مساجدهم وهي من ذكر الله خراب، شر أهل ذلك الزمن علماءهم، منهم تخرج الفتنة وإليهم تعود، يعني أنهم يعلمون، ولا يعملون بواجبات ما علموا».

﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [النور: ٣٦]:

دليل على فضل هذين الوقتين، والغدو أول النهار ما قبل زوال الشمس، والآصال: جمع أصيل، وهو آخر النهار ما بعد الزوال، ويدخل في هذا صلاة الفجر، وصلاة العصر، وأذكار الصباح والمساء.

﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ [النور: ٣٧]:

عن ابن عمر أنه كان في السوق فأقيمت الصلاة، فأغلقوا حوانيتهم فدخلوا المسجد، فقال ابن عمر: فيهم نزلت: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾.

ما الفرق بين التجارة والبيع؟ التجارة هي العمل برؤوس الأموال بحثاً عن الأرباح، وأما البيع فهو أخص من التجارة، فلا يلزم أن يكون فيه ربح، فقد تضطر لبيع شيء غالٍ لا تحتاجك إلى المال، فتبيعه بأقل من قيمته.

﴿لِيَجْزِيََهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٨]:

لذا من جميل الدعاء: اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل، وبالإحسان لا بالميزان، وبما أنت أهله لا بما نحن أهله.

﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٨]:

يستفاد من هذه الآية أن العبد لا ينبغي أن يدقق كثيراً في عدد وحساب ما ينفق في سبيل الله حتى يبارك له في رزقه.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلْتُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ مَّحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءٌ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ [النور: ٣٩]:

مثلَّ ضربه الله لرجل عطش، فاشتدَّ عطشه، فرأى سراباً، فحسبه ماء، فظن أنه قدر عليه، فلما أتاه لم يجده شيئاً، وكذلك الكافر لا يكون على شيء، حتى يأتيه الموت، فيكتشف ذلك.

﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: ٤٠]:

ذكر الله ثلاث ظلمات: ظلمة البحر، وظلمة الأمواج، وظلمة السحاب؛ وكذلك الكافر له ظلمات ثلاث. قال ابن عباس: شبه قلبه وسمعه وبصره بهذه الظلمات الثلاث، وقال غيره: الكافر لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري، ويعتقد أنه يدري، فهذه المراتب الثلاث شبه تلك الظلمات الثلاث.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْطَّيْرُ صَافَّتٍ﴾ [النور: ٤١]:

استح أن يكون الكون كله مُسَبِّحاً لله وأنت غير مُسَبِّح.

قال بعضهم: التسبيح هنا ليس على الحقيقة، إنما هو تسبيح دلالة وحال، أي هذه المخلوقات تدل بحالها على تسبيح الله وتنزيهه، وهذا خطأ؛ لأنها تُسَبِّح على الحقيقة بالمقال، ولها لغة ولسان، لكنك لا تفهمها، بدليل أن الله أطلع بعض خلقه على هذه اللغات، ففهم سليمان عليه السلام لغة النمل، وكلام الهدد عن ملكة سبأ.

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ [النور: ٤١]:

كل المخلوقات تصلي وتسبح إلا من تمرد من بني آدم!

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [النور: ٤٢]:

قال الرازي:

«فيه دلالة على تمام علم المبدأ والمعاد.

فقوله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تنبيه على أن الكل منه؛ لأن كل ما سواه مُمكنٌ ومُحدث، فدخل في هذه القضية: جميع الأجرام والأعراض وأفعال العباد وأقوالهم وخواطهم.

وأما قوله: ﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾، فهو عبارة تامة في معرفة المعاد، وهو أنه لا بد من مصير الكل إليه سبحانه».

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ

يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾ [النور: ٤٣]:

قال ابن كثير:

«يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهي ضعيفة، وهو الإزجاء ثم يؤلف بينه أي يجمعه بعد تفرقه، ثم يجعله ركامًا أي متراكمًا، أي يركب بعضه بعضًا، فتري الودق أي المطر يخرج من خلاله أي من خلله».

لا تنافي الظواهر الكونية الحقائق الغيبية، ومنها ما قاله ابن عباس: «إن الرعد مَلَكٌ يَنْعَقُ بِالْغَيْثِ، كما ينطق الراعي بغنمه».

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾ [النور: ٤٣]:

ما معنى ﴿مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾؟

قال الزمخشري: «فيه معنيان:

أحدهما: أن يخلق الله في السماء جبال برد، كما في الأرض جبال حجر.

والثاني: أن يريد الكثرة بذكر الجبال، كما يقال: فلان يملك جبالاً من ذهب».

﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ﴾ [النور: ٤٣]:

يوصل الله إلى كل موضع في الأرض قدرا معلوما من ماء المطر والبرد، لا ينزل بجهد المخلوقين، ولا يُستنزَل على المكان الذي لا يُمطر بحيلة المجتهدين، فالإصابة بالمطر وصرفه بمقتضى حكمة الله وحده ووفق إرادته.

﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ﴾ [النور: ٤٣]:

يكاد ضوء البرق الشديد الذي يُحدثه السحاب أن يخطف الأبصار إذا اتبعته. في البرق تتولد النار من الماء؛ وهذا دليل قدرة الله، ويوم القيامة سيتكرر الأمر كما قال ربنا: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير: ٦]، فمن شك في صدق هذه الآية الغيبية؛ فليتأمل مثلها في خلق البرق.

﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [النور: ٤٤]:

التقليب حسي ومعنوي: فالحسي بتعاقب الليل والنهار، وبالزيادة في أحدهما والنقصان من الآخر مع اختلاف الفصول. والمعنوي بتغيير الأحوال بينهما، من خوف وأمن، وحر وبرد، وشدة ورخاء، ومنع وعطاء.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤]:

خصَّ الله أصحاب الأبصار والبصائر بالانتفاع بالآيات، وأما من سواهم، فإن عقولهم أشبه بالأنعام، بل هم أضل.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور: ٤٤]:

تشير الدراسات العلمية إلى أن جسم الإنسان لا يستطيع العيش لأكثر من ٨-١٠ أيام بدون ماء؛ ففي حال فقد الإنسان ٥٪ من الماء الموجود في جسمه، فإن عضلاته تبدأ بالتمزق، وإذا وصلت نسبة الفقد إلى ٧٪ فإنه قد يفقد الوعي، وإذا بلغت نسبة الفقد ٢٠٪، فقد يؤدي ذلك لموته.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور: ٤٤]:

- تشكّل نسبة الماء لدى الشخص البالغ ٧٠-٩٠٪ من جسمه الكلي، وتختلف من عضو لآخر، فيُشكّل الماء ما يقارب من:
- ٩٩٪ من الجسم الزجاجي للعين.
 - ٩٠٪ من الدم.
 - ٧٩٪ من القلب.
 - ٧٥٪ من عضلات الجسم وأعضاؤه الداخلية، و ٧٥٪ من المخ.
 - ٣٠٪ من العظام.

﴿فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٤]:

قدّم الله ذكر من يمشى على بطنه؛ لأنه أدل على باهر القدرة وعجيب الصنعة من غيره، ثم أتبعه بذكر من يمشى على رجلين؛ لأنه أبلغ في الإعجاب ممن يمشي على أربع، فقدّم ذكر الأعجب في القدرة فالأعجب.

﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور: ٤٥]:

ولأن قدرة الخلق لا تساوي شيئاً إلى قدرة الخالق، فلم يخلقوا في هذا الكون ذرة أو خلية واحدة من العدم.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ﴾ [النور: ٤٦]:

كثرة الآيات لا تنفع الأموات!

وما انتفاع أخي الدنيا بمقلته إذا استوت عنده الأنوار والظلم

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا ءَايَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦]:

من رحمة الله بعباده أن أنزل آيات مبينات في كتابه المقروء (القرآن)، وكتابه المنظور (الكون)، يهدينا بها للخروج من الشبهات والضلالات والفتن.

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النور: ٤٦]:

سين:

ما ذنب مَنْ لم تشمله هذه المشيئة فلم يهتد؟!

جيم:

الهداية نوعان: هداية الدلالة، وهداية المعونة، وقد هدى الله الجميع هداية الدلالة، ويُنَّ لكل أسباب الخير وسُبل النجاة، فمَنْ استجاب لهداية الدلالة أعانه بهداية المعونة، ومن امتنع عن هداية الدلالة، امتنعت عنه هداية المعونة.

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ [النور: ٤٧]:

قال الطبري:

إن رجلاً من المنافقين اسمه بِشْر كانت بينه وبين رجل من اليهود خصومة في أرض، فدعاه اليهودي إلى التحاكم عند رسول الله ﷺ، وكان المنافق مبطلاً، فأبى ذلك وقال: إن محمداً يحيف علينا، فلنحكّم كعب بن الأشرف، فنزلت الآية فيه.

وكان كعب يأخذ الرشوة، فإذا أعطاه الرشوة حكم له، والنبي ﷺ يحكم بالحق، وهو مبطل.

﴿وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النور: ٤٨]:

﴿وَرَسُولُهُ﴾: دُعوا إليه في حياته، وإلى سُنَّته بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

لا بأس من العطف بين طاعة الله وطاعة رسوله، فكلاهما واحد، وهذا غير المشيئة، فنقول: ما شاء الله ثم شاء رسوله.

عن حذيفة قال: أتى رجل النبي ﷺ، فقال: إني رأيت في المنام أني لقيتُ بعض أهل الكتاب، فقال: نِعَم القوم أنتم، لولا أنكم تقولون ما شاء الله وشاء محمد، فقال النبي ﷺ: «قد كنتُ أكرهها منكم، فقولوا: ما شاء الله، ثم شاء محمد». صحيح الجامع رقم: ٤٣٧٨.

﴿وَإِنْ يَكُنْ هُمْ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور: ٤٩]:

المنافقون أصحاب إيمان مصلحي، وتدين نفعي، فلا يستفتون العلماء إلا إذا عرفوا أن الحكم في صالحهم، ولا يسترشدون بأحكام الشرع إلا إذا حكم لهم.

قيّم عبوديتك!

قال السعدي: «فليسوا ممدوحين في هذه الحال، ولو أتوا إليه مذعنين؛ لأن العبد حقيقة، من يتبع الحق فيما يحب ويكره، وفيما يسره ويحزنه، وأما الذي يتبع الشرع عند موافقة هواه، وينبذه عند مخالفته، ويقدم الهوى على الشرع، فليس بعبد على الحقيقة».

بعض الناس يأتي إلى العالم ليستفتيه، ويتبع منه جواباً محدداً قد بيّنه قبل أن يعرض سؤاله، فإن لم يحصل على هذه الفتوى انطلق في طلب عالم آخر، ولا يزال كذلك حتى يسمع ما يريد!

من طريف ما يُروى: خاصمت امرأة جميلة زوجها إلى الإمام الشعبي، فحكم الإمام للمرأة دون الرجل، فلما وجد الرجل أن الشعبي لم يحكم له اتهمه بالجور قائلاً:

فَتِنَ الشَّعْبِيَّ لَمَّا	رَفَعَ الطَّرْفَ إِلَيْهَا
سَحَرْتَهُ بِنَانٍ وَخ	ضَابَ فِي يَدَيْهَا
كَيْفَ لَوْ أَبْصَرَ مِنْهَا	نَحْرَهَا أَوْ سَاعِدَيْهَا
لَصَبَا حَتَّى تَرَاهُ	سَاجِدًا بَيْنَ يَدَيْهَا

فَوُلِعَ النَّاسُ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ وَتَنَاشَدَوْهَا، حَتَّى اضْطَرَّ الشَّعْبِيُّ إِلَى الْإِسْتِعْفَاءِ مِنَ الْقَضَاءِ، وَقَالَ: أَوْجَعْتُ ظَهْرَهُ (بالعدل) حِينَ جَوَّرَنِي فِي شَعْرِهِ.

فما أقبح هذه الصف المتأصلة في نفوس المنافقين: ﴿وَإِنْ يَكُنْ هُمْ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾.

﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ تَخَافُونَ أَنْ تَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾

[النور: ٥٠]:

فهذه الثلاث مجتمعة فيهم، وليس المقصود التساؤل: هل فيهم مرض أم ارتياب أم خوف من الجور؟ بل المقصود التدرج في وصف أخلاق المنافقين، فهذه الصفات الثلاث موجودة فيهم، ففي قلوبهم مرض النفاق والكفر؛ ولذا فهم مرتابون شاكون في نبوة النبي ﷺ وعدله؛ ولذا يخافون أن يجور عليهم، وصيغة الاستفهام هنا أشد في التوبيخ.

﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٥٠]:

﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الانتقالي أي للانتقال من الاستفهام إلى خبر آخر مهم، وليست ﴿بَلْ﴾ للإبطال؛ لأنه لا يستقيم إبطال المرض أو الارتياب أم الخوف من الجور، فهذا ثابت في حق المنافقين، وفائدة ﴿بَلْ﴾ ترقب ماذا سيؤول إليه تحقيق حالهم، فكان قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بياناً لما يترقبه المستمعون، وإفادة اتصافهم بالظلم دون غيرهم.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١]:

سمعنا وأطعنا: شعار المؤمنين، وكلما زاد الإيمان زاد التسليم لرب العالمين.

﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَّقِ اللَّهَ فَإُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢]:

قال القرطبي:

«ذكر أسلم أن عمر رضي الله عنه بينما هو قائم في مسجد النبي ﷺ، وإذا رجل من دهاقين الروم قائم على رأسه، وهو يقول: أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فقال له عمر: ما شأنك؟ قال: أسلمت لله. قال: هل لهذا سبب؟! قال: نعم! إني قرأت التوراة والزبور والإنجيل وكثيراً من كتب الأنبياء، فسمعت أسيراً يقرأ آية من القرآن، جمع فيها كل ما في الكتب

المتقدمة، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت. قال: ما هذه الآية؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ﴾ في الفرائض، ﴿وَرَسُولِهِ﴾ في السنن، ﴿وَيَخْشِ اللَّهَ﴾ في ما مضى من عمره، ﴿وَيَتَّقِهِ﴾ في ما بقي من عمره، ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾، والفائز من نجا من النار، وأدخل الجنة، فقال عمر: قال النبي ﷺ: «أوتيت جوامع الكلم».

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ﴾ [النور: ٥٣]:

أقسم المنافقون بالأيان المؤكدة أنه متى أمرهم رسول الله ﷺ بالجهاد ليخرجن، فأمر الله نبيه أن يردّ عليهم في تهكم: ﴿قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةَ مَعْرُوفَةٍ﴾: أي معروف أن طاعتكم طاعة باللسان فحسب، وتكذبها الأفعال والأحوال.

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ أَلْمِينٍ﴾ [النور: ٥٤]:

لاحظ صرف الكلام عن النبي بصيغة الغائب ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ على طريقة الالتفات، وهذا أبلغ في تبيكتهم، وفيه تسلية للنبي ﷺ عن إعراض قومه وتكذيبهم.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]:

قال الإمام ابن كثير: «هذا وعد من الله تعالى لرسوله ﷺ بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض أي: أئمة الناس والولاية عليهم، وبهم تصلح البلاد، وتخضع لهم العباد، وقد فعل تبارك وتعالى ذلك، فإنه لم يمّت رسول الله ﷺ حتى فتح

عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب، ولهذا ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال:

(إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها)).

الشروط الأربعة مترابطة مع بعضها، بحيث لو تخلف أحدها عن الآخر لما تحقق موعود الله لأتمته بالتمكين:

الشرط الأول: قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا﴾.

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

الثالث: قوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾.

الرابع: قوله تعالى: ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [النور: ٥٦]:

روعة الإسلام في التكامل بين حق الله (الصلاة)، وحق الخلق (الزكاة).

﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦]:

طاعتك للرحمة المهداة من أهم أسباب رحمتك.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ وَلَئِشَ الْأَمْصِرِ﴾ [النور: ٥٧]:

الكافرون لا يُعْجِزون الله، ولو أراد إهلاكهم لفعل، لكنه يؤخّرهم لحكمة بالغة، فإما أن يعجل عذابهم في الدنيا، أو يؤخّرهم إلى الآخرة حيث العذاب الأشد والأخزى.

﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ [النور: ٥٨]:

منع الأولاد من الدخول على الوالدين في بعض الأوقات حفظاً للأبصار، فكيف تركنا أولادنا سائر الأوقات فريسة لما هو أخطر من الشاشات والصفحات والمجلات؟!

﴿وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَفْذِنُوا كَمَا اسْتَفْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النور: ٥٩]:

قال صاحب الكشاف: «والمعنى أن الأطفال مأذون لهم في الدخول بغير إذن إلا في العورات الثلاث، فإذا اعتاد الأطفال ذلك، ثم خرجوا عن حد الطفولة، بأن يحتلموا، أو يبلغوا السن التي يحكم عليهم فيها بالبلوغ، وجب أن يفظموا عن تلك العادة، ويحملوا على أن يستأذنوا في جميع الأوقات، كما هو الحال بالنسبة للرجال الكبار الذين لم يعتادوا الدخول عليكم إلا بإذن. وهذا مما الناس منه في غفلة، وهو عندهم كالشريعة المنسوخة».

﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ ۚ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٠]:

عن عاصم الأحول قال: «كنا ندخل على حفصة بنت سيرين وقد جعلت الجلباب هكذا: وتنقبت به، فنقول لها: رحمك الله.. قال الله تعالى: ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ - هو الجلباب - قال: فتقول لنا: أي شيء بعد ذلك؟ فنقول: ﴿وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ﴾».

﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ﴾ [النور: ٦٠]:

مُنِعَتِ الْعَجُوزُ مِنَ التَّبَرُّجِ، فَكَيْفَ بِالشَّابَةِ الْجَمِيلَةِ؟!!

﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [النور: ٦١]:

اعرف قدر الصديق!

قال ابن عباس: «الصديق أوكد من القرابة، ألا ترى استغاثة الجهنميين: ﴿فَمَا

لَنَا مِنْ شَفِيعِينَ﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠٠، ١٠١].».

﴿أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾ [النور: ٦١]:

قال مَعْمَرُ:

«دخلت بيت قتادة فأبصرت فيه رطباً فجعلت آكله، فقال: ما هذا؟ فقلت: أبصرتُ رطباً في بيتك فأكلت، قال: أحسنت. قال الله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقَكُمْ﴾».

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ [النور: ٦١]:

نزلت في بني ليث بن بكر، وكان الرجل منهم لا يأكل وحده، ويمكث أياماً جائعاً حتى يجد من يؤاكله! وكانت هذه السيرة موروثاً عندهم عن إبراهيم التيميؒ، فإنه كان لا يأكل وحده، فكونوا مثل أبي الضيفان إبراهيم.

﴿وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾ [النور: ٦٢]:

العمل الجماعي والقيادة الموحدة هدي نبوي وأمر رباني.

﴿فَأَذِّنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [النور: ٦٢]:

أذن لهم، ومع هذا استغفر لهم؛ لأن الإذن في التخلف لا يبرؤك من التقصير، بل يفرض عليك مراجعة نفسك لتعرف سبب حرمانك من الثواب الجزيل.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]:

قال ابن عباسؓ:

«لا تتعرضوا لدعاء الرسول عليكم بإسقاطه، فإن دعوته موجبة»، وقد لعن النبي ﷺ (أي دعا بالطرد من رحمة الله) آكل الربا وشارب الخمر والراشي والمرتشي والمتشبّهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]:

المراد بالدعاء هنا:

الدعاء، أي لا تقيسوا نداء النبي ﷺ إياكم بنداء بعضكم على بعض، بل عليكم إذا دعاكم لأمر أن تلبوا فوراً بلا تقاعس أو تباطؤ.

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ

٥٦٧٧

أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]:

مخالفة واحدة قد تؤدي لانتكاستك وانهيار إيمانك ومناعتك، وقد تكون عقوبتها معجلة أو مؤجلة.

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]:

٥٦٧٨

قال الطاهر بن عاشور:

«وهذه الآية أصل من نظام الجماعات في مصالح الأمة؛ لأن من السنة أن يكون لكل اجتماع إمام ورئيس يدير أمر ذلك الاجتماع. وقد أشارت مشروعية الإمامة إلى ذلك النظام.

ومن السنة أن لا يجتمع جماعة إلا أمروا عليهم أميرا، فالذي يترأس الجمع هو قائم مقام ولي أمر المسلمين، فهو في مقام النبي ﷺ، فلا ينصرف أحد عن اجتماعه إلا بعد أن يستأذنه؛ لأنه لو جعل أمر الانسلا لشهوة الحاضر لكان ذريعة لانفراض الاجتماعات دون حصول الفائدة التي جمعت لأجلها، وكذلك الأدب أيضا في التخلف عن الاجتماع عند الدعوة إليه كاجتماع المجالس النيابية والقضائية والدينية أو التخلف عن ميقات الاجتماع المتفق عليه إلا لعذر واستئذان».

﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٦٤]:

٥٦٧٩

قال أبو جعفر الطبري:

«فلا ينبغي لمملوك أن يخالف أمر مالكة فيعصيه، فيستوجب بذلك عقوبته، يقول: فكذلك أنتم أيها الناس، لا يصلح لكم خلاف ربكم الذي هو مالكم فأطيعوه، وأتمروا بأمره».

٥٦٨٠

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور: ٦٤]:

قال قتادة: «ما كان قومٌ قط على أمر ولا على حال، إلا كانوا بعين الله، وإلا كان عليهم شاهد من الله».

٥٦٨١

﴿قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ [النور: ٦٤]:

(قد) هنا لتوكيد علمه بما هم عليه من النفاق؛ لأنهم كانوا يسترون نفاقهم، وليست (قد) بمعنى (ربما)، وتوكيد العلم هنا إشارة إلى توكيد الوعيد.



سورة الفرقان

﴿وَأَنْزَلَ الْفَرْقَانَ﴾ [الفرقان: ١]:

لم يُسمَّ الفارق، بل زاده بالألف والنون ليصبح أكثر قوة وتأثيراً، وكأنه آلة مادية حادة تفصل بين الأمور الملتبسة والمتشابكة، فالقرآن العظيم كقاض يحكم بين طرفين أو فكرتين؛ لذا لا يصل إلى قوم إلا فرقهم إلى قسمين وفريقين: الحق والباطل.

﴿لِيَكُونَ لِلْعَلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]:

الرسول العالمي! أي لعالم الإنس وعالم الجن، فكل الخلق مخاطبون برسالته، ومطالبون بالإيمان به.

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]:

قدَّر كل شيء مما خلق بحكمته على ما أراد، لا عن سهوة وغفلة، بل جرت المقادير على ما خلق الله إلى يوم القيامة، بل وما بعد القيامة.

﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا تَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٣]:

ليست فقط الآلهة هي التي لا تملك مصيرها، بل سائر البشر لا يملكون، فكيف تلجأ إليهم، وتتوكل عليهم؟!

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا﴾ [الفرقان: ٤]:

ستظل السخافات والافتراءات تلاحق أصحاب الدعوات الذين يقتفون آثار النبوات، ولو نجا من ذلك أحد لنجا رسول الله ﷺ.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ﴾ [الفرقان: ٤]:

رمتني بدائها وانسلت! اتهموه بالإفك وهم الأفاكون المفترون، فقد كانوا أشد الناس علماً بحاله، وأنه أمي لا يكتب، ولا يجتمع بمن يكتب.

﴿وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]:

هم اليهود أو غيرهم، كعداس - مولى حويطب بن عبد العز - ويسار - مولى العلاء بن الحضرمي - وأبي فكيهة الرومي، وكان هؤلاء من أهل الكتاب الذين أسلموا.

﴿وَقَالُوا أَأَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾

[الفرقان: ٥]:

زعموا لسخافتهم أن رسول الله ﷺ أمر غيره بكتابتها له، ثم أُلقيت عليه بعد اكتتابها ليحفظها؛ لأنه أمي لا يقدر أن يكرّر الكتاب من نفسه، وفعل ذلك خفية في الأوقات التي يكون الناس فيها نائمين أو غافلين.

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الفرقان: ٦]:

الله يعلم كل سرّ خفي في السموات والأرض، ومن جملة الأسرار التي يعلمها: ما يُسرّه أهل الباطل من كيد وافتراء على أهل الحق، وبراءة أهل الحق من ذلك؛ ولأن الله يعلم، فسيجازي بعمله، المفتري بعقوبة، والمُفترى عليه بمثوبة.

﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]:

لذا لا يعجل في عقوبة المذنب مع كمال قدرته عليه، ولو عامله بما يستحق لصبّ عليه العذاب صبًّا.

﴿إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٦]:

لا أحد خارج دائرة المغفرة والرحمة، ولو كان ممن كذب وافتري على رسول الله ﷺ، فليُشر كل من أذنب وأسرف على نفسه!

﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٧]:

حين يُفلس الخصم، يلجأ إلى الطعن في الشخص لا الفكرة.

﴿أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنُزٌ﴾ [الفرقان: ٨]:

المال فتنه، والافتتان بالأغنياء سمة كل العصور.

﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨]:

ذكر أصحاب السير أن هذه المقولة صدرت من كبراء المشركين، وفي مجلس لهم مع رسول الله ﷺ، وأن هذه الأباطيل التي ذكروها تداولها أهل المجلس، وأشاعوها في الناس، فنزلت هذه الآية.

﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَلَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٩]:

من كثرة كذبهم وتضارب أقوالهم صاروا كالتائه الذي لا يثبت على رأي، فهو متخبط في أمره، وهذا حال أعداء الحق عندما يفقدون الحجة في مواجهة أهل الحق.

﴿ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ﴾ [الفرقان: ٩]:

افتروا الأكاذيب، فعاقبهم الله بالضلال؛ ولذا لم يروا شمس الحق بازغة في رابعة النهار.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيجعل لَكَ قُصُورًا﴾ [الفرقان: ١٠]:

ما أهون أن يهب الله نبيه في الدنيا خيرًا مما اقترحوه، فيجعل له مئات الجنات والقصور، لكن المال ليس علامة كرامة، بل الكرامة هي ربح الآخرة، فاختص الله بها أوليائه، وهي النعيم الأغلى والأبقى.

﴿٥٦٩﴾ لا تبتس بها حُرمت منه وحازه غيرك، ﴿إِنْ شَاءَ جَعَلْ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ﴾، لكنها حكمته في المنع والعطاء، ولو علم أن العطاء يُصلحك لأعطاك، لكنه كثيرًا ما يمنع وقاية وتهديبا، كما أنه قد يعطي ابتلاء وتعذيبًا.

﴿٥٧٠﴾ ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١]: أصل البلاء في ضعف اليقين بالآخرة؛ لذا لا ينتفع صاحب هذا الداء بما يرد عليه من الدلائل والآيات؛ لأن قلبه قد مات.

﴿٥٧١﴾ ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيْظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]: النار كائن حي يرى ويسمع ويتكلم وله شهيق وزفير، وقد قال الله عن كلام النار: ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَّزِيدٍ﴾، وقال ﷺ: «شَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: رَبِّ.. أَكُلُ بَعْضِي بَعْضًا..».

﴿٥٧٢﴾ ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ [الفرقان: ١٣]: المكان الذي يلقون فيه ضيق، ليزداد كربهم وعذابهم، ولا يكون لهم أدنى مهرب، وشبهوا ضيق النار بالوتد حين يُدْخَلُ في الحائط بقوة.

﴿٥٧٣﴾ ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ١٤]: الثبور: الهلاك. ودعاؤه أن يقال: واثبوره، أى: تعال يا ثبور فهذا حينك وزمانك.

﴿٥٧٤﴾ قال الرازي: «ومعنى: ﴿وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾، أنكم وقعتم فيما ليس ثبوركم منه واحدا، إنما هو ثبور كثير.

- إما لأن العذاب أنواع وألوان، لكل نوع منها ثبور لشدته وفضاعته.
- أو لأنهم كلما نضجت جلودهم بدّلوا غيرها.
- أو لأن ذلك العذاب دائم، فلهم في كل وقت من الأوقات التي لا نهاية لها ثبور.

- أو لأنهم ربما يجدون بسبب ذلك القول نوعاً من الخفة، فإن المعذب إذا صاح وبكى وجد بسببه نوعاً من الخفة، فيزجرون عن ذلك، ويخبرون بأن هذا الثبور سيزداد كل يوم، ليزداد حزنهم وغمهم».

﴿قُلْ أَذِلَّكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ [الفرقان: ١٥]:

لا مجال للمقارنة بين الجنة والنار، وإنما يغزو الشيطان قلوبنا حين تغيب هذه المقارنة عن الأذهان، فتؤثر لذة حقيرة تورث عذاباً طويلاً، ونزهد في طاعة يسيرة تورث نعيماً مقيماً.

﴿قُلْ أَذِلَّكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ﴾ [الفرقان: ١٥]:

وأخبرني: أي لقاء هنا لم يعقبه فراق؟! أي لذة ليس بعدها ألم؟! أي زيادة لم يلحقها نقصان؟! أهذه دار تُشتري على حساب الجنة؟!

﴿هَلُمَّ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خُلْدِينَ كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ [الفرقان: ١٦]:

المسؤول هو الذي يسأله من له حق عنده ويطلب به، فمن الذي له حق عند الله حتى يسأل ويطلب بحقه؟ الحقيقة أن هذه مبالغة في تحقيق وعد الله، كما يشكرك شاكراً على إحسانك، فتقول له: لا شكر على واجب، وإلا فلا حق لأحد على الله.

﴿هَلُمَّ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خُلْدِينَ﴾ [الفرقان: ١٦]:

من أهم مزايا نعيم الجنة أنه دائم، إذ لو انقطع لكان ممزوجاً بلون من الغم؛ ولذا قال المتنبي:

أشدُّ الغمِّ عندي في سُرورٍ
تَيَقَّنَ عنه صاحبه انتقلا

﴿كَانَتْ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ [الفرقان: ١٦]:

كم مرة سألت الله فيها الجنة اليوم؟ عشرة؟! عشرون؟ مائة مرة؟! أكثر؟ أقل؟! ألا إنه كلما زاد الشوق، زاد الإلحاح في الطلب، وطرق المحب باب الدعاء بلا ملل.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧]:

يحشر الله العابد والمعبود، فتتعقد بينهم المواجهة، فمن المعبودون؟! قال مجاهد: «هو عيسى والعزير والملائكة»، فيسألهم الله: أنتم دعوتهم عبادي لعبادتهم من دوني؟ فيتبرأون ممن عبدتهم، فتقوم عليهم الحجة.

قال الإمام الرازي ما ملخصه:

«فإن قيل: إنه - سبحانه - عالم في الأزل بحال المسؤول عنه، فما فائدة السؤال؟ والجواب: هذا استفهام على سبيل التقرير للمشركين، كما قال سبحانه لعيسى:

﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]؛ ولأن أولئك المعبودين لما برءوا أنفسهم، وأحالوا ذلك الضلال عليهم، صار تبرؤ المعبودين عنهم أشد في حسرتهم وحيرتهم».

﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨]:

نسيان الذكر بوار!

قال قتادة: «والله ما نسي قوم ذكر الله عز وجل إلا باروا وفسدوا».

﴿فَقَدْ كَذَبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ١٩]:

انظر سوء عاقبة التقليد الأعمى!

تكذيب على الملاء، وعذاب شديد لا يستطيعون صرفه، ولا يجرؤ أحد على التقدم لنصرتهم.

﴿وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠]:

هذا حال الأنبياء، فأين الدعاة من هذه الآية؟! وكيف وصولهم وانتشارهم إلى الشرائع التي لا تغشى المساجد، اهدم صومعتك أخي الداعية.

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ [الفرقان: ٢٠]:

قال البغوي:

«أي بلية، فالغني فتنة للفقير، يقول الفقير: ما لي لم أكن مثله؟ والصحيح فتنة للمريض، والشريف فتنة للوضيع».

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠]:

اجتمعا في آية واحدة!

﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾ هذه سنة كونية.

﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ هذا أمر تكليفي: أي اصبروا.



الجزء التاسع عشر

سورة الضرقان آيت ٢١
إلى سورة النمل آيت ٥٥
عدد الفوائد : ٣٩٨

قال محمد بن كعب القرظي:

«لأن أقرأ في ليلتي حتى أصبح بإذا زلزلت والقارعة،
لا أزيد عليهما، وأتردد فيهما وأفكر، أحب إلي من أن
أهذ (أقرأ بسرعة) القرآن ليلتي هذا - أو قال - أنشره
نثرا».

الزهد لابن المبارك ص ٩٧

الجزء التاسع عشر سورة الفرقان آية ٢١ إلى سورة النمل آية ٥٥

﴿لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]:

الكِبَر من أعظم أسباب رد الحق؛ ولذا عَرَفَ النبي ﷺ الكِبَر بأنه دفع الحق وإنكاره وعدم قبوله ترفعاً وتجبراً، فقال: «الكِبَر بَطَرُ الحق».

سئل الفضيل بن عياض عن التواضع، فقال: «يخضع للحق وينقاد له، ويقبله ممن قاله، ولو سمعه من صبيِّ قبله، ولو سمعه من أجهل الناس قبله».

﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٢٢]:

أي حراماً محرماً، والقائلون هم الملائكة، فيكون المعنى: تقول الملائكة للكفار حجراً محجوراً. أي: حراماً محرماً أن تكون لكم اليوم بشرى، أو يغفر الله لكم، أو يدخلكم جنته.

أو القائل الكفار: ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ أي: حراماً محرماً عليكم أن تُنزلوا بنا العذاب، فنحن لم نرتكب ما نستحق بسببه العذاب.

﴿وَقَدْ مَنَّا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]:

ما صفة هذا العمل؟! قال ابن المبارك: «كل عمل صالح لا يراده وجه الله».

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤]:

استنبط بعض العلماء من هذه الآية أن حساب أهل الجنة يسير، وينتهي في وقت قصير، وهو نصف نهار، ووجه ذلك أن ﴿مَقِيلًا﴾ أي مكان قيلولة، وهي الاستراحة في منتصف النهار.

﴿وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّمْ وَتُزَلُّ الْمَلٰٓئِكَةُ تَزِيْلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]:

تذكر أحوال يوم القيامة إذا أحسست بالتقصير، وأن الشيطان يجرُّك إلى سكك الغواية.

﴿وَتُزَلُّ الْمَلٰٓئِكَةُ تَزِيْلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]:

تنزل الملائكة - على كثرتهم وقوتهم وطاعتهم لرَبِّهم وعصمتهم - مذعنين لأمر الله، ولا يتكلم منهم أحد إلا بإذن ربه، فما ظنك بالآدمي الضعيف الذي بارز ربه بالذنوب، وتجراً على ما يُسَخِّطُ علام الغيوب؟

﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمٰنِ﴾ [الفرقان: ٢٦]:

لم يتخصص مُلك الله بذلك اليوم فحسب، لكنه اليوم الذي تبطل فيه ادعاءات المبطلين، ممن نازع الله ملكه، ويحصل اليقين للجميع يوم القيامة بأن الله مالك كل شيء على الحقيقة.

حقائق لا تنكشف للبعض إلا يوم القيامة!

في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك.. أين الجبارون؟! أين المتكبرون؟! ثم يطوي الأرضين بشماله، ثم يقول:

أنا الملك.. أين الجبارون؟! أين المتكبرون؟!». صحيح مسلم رقم: ٢٧٨٨.

﴿وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلَيَّتَنِیْ اَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيْلًا﴾ [الفرقان: ٢٧]:

ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآيات أن عقبه بن أبي معيط دعا النبي ﷺ لحضور طعام عنده، فقال له النبي ﷺ: لا أكل من طعامك حتى تنطق بالشهادتين.

فنطق بهما، فبلغ ذلك صديقه أمية بن خلف أو أخاه أبي بن خلف، فقال له: يا عقبه.. بلغني أنك أسلمت، فقال له: لا، ولكن قلت ما قلت تطييباً لقلب

محمد حتى يأكل من طعامي، فقال له: فوجهي من وجهك حرام حتى ترجع إليه، وتتفل في وجهه، وترجع عما دخلت فيه، ففعل الشقي ما أمره به صديقه، فنزلت هذه الآيات.

﴿يَوَيْلَ لِيَتَنَّى لَمْ أَخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٨]:

تأمل كيف كان الصاحب سبباً في إهلاك صاحبه؟! ألا يدفعك هذا إلى مراجعة معايير اختيار الصديق وتصحيح الطريق!

﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ۚ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ

خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٩]:

قال ابن تيمية:

«فكل من اتخذ خليلاً غير الرسول، يترك لأقواله وآرائه ما جاء به الرسول؛ فإنه قائل هذه المقالة لا محالة: ﴿يَوَيْلَ لِيَتَنَّى لَمْ أَخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا﴾».

لكل من فقد الصحبة الصالحة:

قال ابن الجوزي:

«وليكن جلسائك الكتب، وانظر في سير السلف، وتلمّح سير الكاملين في العلم والعمل، ولا تقنع بالدون».

﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]:

كل من هجر القرآن بأي لون من ألوان الهجر: سواء بتلاوته، أم بتدبره، أم بالعمل به، أم بتحكيمة والتحاكم إليه.

﴿يَرَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠]:

هذا قول نبينا يشتكينا إلى ربنا، فما ردُّنا على هذه الشكوى؟!

إن في الآية إشارة إلى التحذير من هجر المصحف وعدم تعاهده بالقراءة فيه.

وكذا قال أبو السعود: فيه تلويح بأن من حق المؤمن أن يكون كثير التعاهد للقرآن، كيلا يندرج تحت ظاهر النظم الكريم. ثم قال: وفيه من التحذير ما لا

يخفى؛ فإن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، إذا شكوا إلى الله تعالى قومهم، عَجَّلَ لهم العذاب ولم يُنظَرُوا.

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]:

ما أجمل هذه التسلية والمواساة والوعد بالنصرة لكل نبي، ولكل من سار على خطى النبي!

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١]: سيكون لك أعداء بحسب ما معك من ميراث النبوة.

قديمًا قالوا:

«كلُّ ولي على قدم نبي»، فلا بد لكل ولي من عدوٍ يتظاهر بعداوته، وفيه إشارة إلى سوء حال من يفعل ذلك مع أولياء الله. ذكره الألوسي.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]:

الهداية قبل النصر؛ لأنها أهم من النصر!

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ۖ كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]:

العقبات في طريق الدعوة كثيرة، ولا تقع مرة واحدة، وكل عقبة تحتاج إلى تثبيت، والتثبيت يكون بنزول آية من القرآن، تنير الطريق وتزيل الضيق، ولو نزل القرآن جملة واحدة لما تم هذا الدور.

﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: ٣٢]:

تزداد الحاجة إلى تثبيت القرآن في هذا الزمن، وهو زمن الاختلاف الكثير، والهجمة على الدين، ورواج فتن الملحدين والماديين.

﴿كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٢]:

القرآن أشد تأثيرًا على القلب إذا قرأته مُرَتَّلًا بأناة ومن غير استعجال.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٣]:

لا يأتي أهل الباطل بطعن أو شبهة في الدين إلا كان في القرآن «الحق» الذي يُزهق باطلهم، وبما هو أحسن تفسيرًا وبيانًا من أمثالهم وشبهاتهم.

قال ابن تيمية: «عامة ما يأتي به حُذّاق النظار من الأدلة العقلية يأتي القرآن بخلاصتها، وبما هو أحسن منها».

﴿الَّذِينَ تَحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٣٤]:

في الصحيح عن أنس: أن رجلاً قال: يا رسول الله، كيف يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ فقال: «إن الذي أمشاه على رجله قادر أن يُمشيه على وجهه يوم القيامة».

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٥]:

لا بد مع هداية الكتاب من إعانة الأصحاب.

﴿فَقُلْنَا أَذْهَبَ إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا فَدَمْزَلْنَاهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٦]:

تسليّة للمصلحين في ما يقاسونه من صنوف البلاء، ووعد إلهي بأن الله سيهلك أعداءهم ويدمّرهم.

﴿فِي الْآيَةِ تَعْرِیْضٌ بِالْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ كَذَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وتهديد خفي لكل مكذّب ومعاوند لآيات الله.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ [الفرقان: ٣٧]:

تكذيب رسول واحد - وهو نوح - هو تكذيب لجميع الرسل؛ لأن أصل الرسالة واحد، وما من نبي إلا يصدّق سائر أنبياء الله، فمن كذّب نبياً فقد كذب كل من صدّقه من النبيين.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً﴾ [الفرقان: ٣٧]:

التعبير بـ«آية» بصيغة التنكير، يشير إلى عظم هذه الآية وشهرتها، ولا شك أن الطوفان الذي أغرق الله به قوم نوح من الآيات المشهورة المتواترة التي تعرفها كل الأمم.

﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان: ٣٧]:

ليست العقوبة لقوم نوح وحدهم، بل عقوبتي هي سُنتي مع كل ظالم.

﴿وَعَادًا وَثُمُودًا وَأَصْحَبَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٨]:

ما أكثر الهالكين، وأقلّ المعترين!

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَرْنَا تَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٩]:

كل من انتقم الله منه، قد أعذر إليه أولاً.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا ۖ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾

[الفرقان: ٣٩]:

القرية هي قرية قوم لوط، ومطر السوء هي الحجارة التي أمطروا بها. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كانت قريش في تجارتها إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط، كما قال الله

تعالى: ﴿وَأَنكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ﴾

﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠]:

لو آمنت بالبعث والنشور لتطهرت من كثير من الآفات والشرور.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَخَذُوا نَكَاحًا إِلَّا هَزْؤًا ۚ أَلَمْ يَكُنْ لَكَ بَعَثُ اللَّهِ رَسُولًا﴾ [الفرقان: ٤١]:

لا تتعجب من تغير الناس نحوك إذا سرت في موكب الحق، فقد شنع المشركون على خير الخلق واتخذوه هزواً، بعد أن كانوا يلقّبونه بالصادق الأمين!.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢]:

يصبرون على الباطل وعبادة غير الله، أفلا نصبر نحن على الحق ابتغاء وجه الله؟!.

﴿إِن كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الفرقان: ٤٢]:

يُسمّون الهداية أضلالاً لانطماس بصائرهم وفساد ضمائرهم، وهو داء مستمر، وأصحابه يعيشون حولنا.

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢]:

ما أسوأ أن يعرفوا الحق بعد فوات الأوان، حين لا فرصة للإيمان، ولا النجاة بالإمكان!

﴿إلى أصحاب الباطل: لا يغرنكم الإمهال والتأخير، غدا تنكشف الحقائق على أبواب السعير!﴾

﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣]:

قال حكيم العرب أكثم بن صيفي: «آفة الرأي الهوى».

﴿من اتخذ إلهه هواه شقي، ولا سبيل لهدايته ولو كانت دعوته عن طريق نبي!﴾

﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۚ

بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]:

البحود والحسد والهوى تسدُّ الآذان، وتُفسد الأفهام، وتجعل أصحابها في منزلة أدنى من الأنعام!

﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۚ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]:

قال الحسن البصري: «لا تكن شاة الراعي أعقل منك!! تزجرها الصيحة وتطردها الإشارة».

وأنت! كم زجرتك آيات الله، من النار تخوِّفك فلا تخاف، وإلى الجنة تدعوك فلا تشاق، ومن الله تحذرك فتعرض لغضبه.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا

الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٥]:

جعل الظل يمتدُّ وينبسط فينتفع به الناس، ولو شاء لجعله ساكنًا ملتصقًا بأصل كل مظلة من جبل أو بناء أو شجرة، فلم ينتفع به أحد.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٥]:

لولا الشمس الحارقة ما عرفنا نعمة الظلال الوارفة!

قال القرطبي:

«لأن الأشياء تعرف بأضدادها، ولولا الشمس ما عُرف الظل، ولولا النور ما عُرفت الظلمة».

﴿ثُمَّ قَبْضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٤٦]:

ترتفع الشمس فيزداد نقصان الظل شيئاً فشيئاً، وفي القبض التدريجي من المنافع ما لا يُحصى، ولو قبضه الله دفعة واحدة لتعطلت أكثر مصالح الناس، فاختلاف الليل والنهار، وتعاقب فصول العام، ومعرفة الأوقات، ومواسم الزروع والحصاد، وتناوب انتفاع الأقطار بأشعة شمس النهار، ومنافع الظل، كل هذه نعم قليلا ما يُنتبه إليها، أو أن تُشكر.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾

[الفرقان: ٤٧]:

لا تقلب ليلك نهاراً بالسَّهَر، ولا تقلب نهارك ليلاً بالنوم.

من بديع خلق الله في الإنسان أن جسده بمجرد استقبال أشعة النهار، يبدأ إفراز هرمون النهار المعروف باسم (السيروتينين)، فينشط للحركة، فإذا جاء الليل، بدأ إفراز هرمون (الميلاتونين)، المعروف باسم هرمون النوم أو هرمون الظلام، حيث ينشط إفرازه ليلاً ويقل نهاراً، فيُحدث زيادة الرغبة في النوم.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الفرقان: ٤٨]:

لولا الرياح، لما جاءت السُّحُب، ولولا السُّحُب ما كان مطر، ولولا المطر ما وصلتنا رحمة الله، فانظر كيف يسوق الله إلينا رحمته.

﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨]:

قال ثابت البناني:

«دخلت مع أبي العالية في يوم مطير وطُرق البصرة قذرة، فصلى، فقلت له: فقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨] قال: طَهَّرَهُ ماء السماء».

﴿لَنُخَيِّ بِهٖ بَلَدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِي كَثِيرًا﴾

[الفرقان: ٤٩]:

قدّم الله إحياء الأرض على سقي الأنعام والناس؛ لأن خروج النبات من الأرض بسبب المطر تتوقف عليه حياة الناس والأنعام، وقدّم سقي الأنعام لأنها سبب حياة الناس.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَكَّرُوا فَأَلَّى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الفرقان: ٥٠]:

كم كرّر الله لعباده القول وذكرهم بما أنعم عليهم من نعم، ليُقبلوا عليه فأعرضوا عنه، وليشكروه فكفروا به.

قال عكرمة: «ما أنزل الله من السماء قطرة إلا أنبت بها في الأرض عشباً أو في البحر لؤلؤة». أو كما قال غيره: «في البرّبر، وفي البحر دُرٌّ».

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١]:

زيادة أعبائك من الخير نعمة! قال القرطبي: «ولكننا لم نفعل، بل جعلناك نذيراً لكل؛ لترتفع درجاتك، فاشكر نعمة الله عليك».

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ ﴿فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ﴾

[الفرقان: ٥١-٥٢]:

كل تشريف بعده تكليف!

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١]:

قال الطيبي:

«ومدار السورة على كونه ﷺ مبعوثاً إلى الناس كافة؛ ولذلك افتتحت بما يثبت

عموم رسالة محمد ﷺ إلى جميع الناس بقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ

نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

﴿فَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١]:

في الآية تهيج كل مؤمن على عدم طاعة الكافر في كفره واتباع باطله.

﴿وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١]:

ليس الجهاد جهاد السيف فحسب! بل الجهاد أنواع، ومنه: الجهاد بالقرآن، والحجة والبيان، والدعوة باللسان.

كيف تجاهد بالقرآن؟!

والجواب: بتبليغ ما فيه. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «بتلاوة ما فيه من البراهين والقوارع والزواجر والمواعظ، وتذكير أحوال الأمم المكذبة».

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ [الفرقان: ٥٣]:

بين كل بحرین حاجز وكأنه جدار، ومياه كل بحر لا تختلط بالبحر المجاور له، والدراسات الحديثة تؤكد اكتشاف بحار عذبة تحت البحار المالحة، وأن بينهما حاجزاً، وهذا من إعجاز القرآن وإبلاغه بما لم يُعرف إلا حديثاً.

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: ٥٤]:

الصَّهر يطلق على أقارب المرأة، كالأبوين والإخوة والأعمام والأخوال. قال صاحب الكشف: «قسم سبحانه البشر قسمين: ذوي نسب، أي: ذكورا ينسب إليهم، فيقال: فلان بن فلان وفلانة بنت فلان. وذوات صهر: أي: إناثا يُصاهر بهن».

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥]:

بعد تعداد النعم، سرد الله أحوال أهل الكفر، لنشتمز من هذا العقوق، فبدلاً من أن يشكروا الله على ما أنعم به عليهم، كان الكفر به وإشراك غيره معه.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الفرقان: ٥٥]:

ومن الذي يعبد من يضره؟ من يجب من ينزل به الضر؟ إن الناس تحب الذي ينفعها، وتكره من يضرها، إلا الضرر الذي يصيب العبد بقدر الله، لا يخلو من فوائد، كآلم البدن الذي ينبه للمرض، والمرض الذي يحطُّ الوزر، والهَمُّ الذي يمحو الخطايا.

﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٥]:

هنا تعرف معنى حزب الشيطان! فالكافر دائماً مع شيطانه على ربه، وهذا معنى كونه من حزب الشيطان.

قال ابن القيم: «هذا من ألطف خطاب القرآن وأشرف معانيه، فالمؤمن دائماً مع الله على نفسه وهواه وشيطانه، وهذا المعنى كونه من حزب الله وجنده وأوليائه، والكافر مع شيطانه ونفسه وهواه على ربه، وعبارات السلف على هذا تدور».

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا﴾ [الفرقان: ٤٠]:

المراد بالقرية هنا قرية سدوم، وهي أكبر قرى قوم لوط، والتي جعل الله عاليها سافلها، والمراد بها أمطرت به الحجارة التي أنزلها الله عليها.

﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢]:

عجيبٌ تواصي الكفار بالصبر على الباطل وجلدهم في الذود عنه، مع ما نرى من جزع بعض أهل الحق وتحاذلهم عن نصرة الحق.

﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٢]:

بعض الناس لن يكتشف حقيقة ضلاله وفساد سعيه إلا على عتبة جهنم.

﴿فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ [الفرقان: ٥٢]:

قال الألوسي: «السورة مكية ولم يشرع في مكة الجهاد بالسيف، ومع هذا لا يخفى ما فيه، ويستدل بالآية على الوجه المأثور على عظم جهاد العلماء لأعداء الدين بما يوردون عليهم من الأدلة، وأوفرهم حظاً: المجاهدون بالقرآن منهم».

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٦]:

البشارة قبل النذارة، والترغيب قبل التهيب.

التبشير بالجنة والتحذير من النار هما كفتا ميزان، فلا تميلوا إلى أحدهما كل الميل.

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: ٥٧]:

سؤال الداعية للمقابل المادي من المدعويين أو حتى أخذه بغير سؤال، يُضعف أثر دعوته.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]:

إنما قال: على الحي الذي لا يموت؛ لأن من توكل على الحي الذي يموت، فإذا مات المتوكل عليه ضاع المتوكل، أما الله سبحانه، فإنه حي لا يموت، فلا يضع من توكل عليه أبداً.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨]:

أي اقرن بين حمده وتسبيحه؛ ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك».

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الفرقان: ٥٨]:

نزه الله تنزيهاً مقترناً بحمده، واحمده على كماله، وكمال صفاته كعلمه وحلمه وحكمته، ففي ظل هذا الإيمان وقوة هذه العقيدة لا يطغى قوي على ضعيف، ولا غني على فقير، فتسعد ويسعد غيرك.

﴿وَكَفَىٰ بِهِ بَذُنُوبٍ عِبَادَةٍ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٨]:

كفي بهذه الآية وعيداً وتهديداً! كأنه قال: إن أقدمتم على مخالفة أمره، فكفاكم علمه الذي يعني مجازاتكم بما تستحقون من العقوبة.

﴿الرَّحْمَنُ فَسَقَلْ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٨]:

من تسأل عن الله؟! قال ابن كثير: «استعلم عنه من هو خير به عالم به، فاتبعه واطق به، وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله، ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه».

﴿فَسَقَلْ بِهِ خَيْرًا﴾ [الفرقان: ٥٨]:

قال ابن عاشور:

«وهذا يجري مجرى المثل، ولعله من مبتكرات القرآن، نظير قول العرب: (على الخبير سقطت)، يقولها العارف بالشيء إذا سئل عنه.
والمثلان وإن تساويا في عدد الحروف المنطوق بها، فالمثل القرآني أفصح، لسلامته من ثقل تلاقي القاف والطاء والتاء في (سقطت).
وهو أيضاً أشرف لسلامته من معنى السقوط.
وهو أبلغ معنى لما فيه من عموم كل خير، بخلاف قولهم: على الخبير سقطت؛ لأنها إنما يقولها الواحد المعين».

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠]:

كان كفار قريش ينكرون اسم الرحمن، ويقولون: ما نعرف الرحمن إلاّ رحمن اليمامة، وهو مسيلمة الكذاب، وكان مسيلمة تسمى بالرحمن، والأقرب أن المراد إنكارهم لله لا للاسم.

في صلح الحديبية أمر ﷺ علي بن أبي طالب - وكان كاتب هذا الصلح -: «اكتب باسم الله الرحمن الرحيم»، فقال سفير قريش: ما الرحمن؟! لا نعرف الرحمن ولا الرحيم.. اكتب ما كنت تكتب قبل: باسمك اللهم.

﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠]:
قال الضحّاك: «فسجد رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعثمان ابن مظعون وعمرو بن عبسة، ولما رأهم المشركون يسجدون تباعدوا في ناحية المسجد مستهزئين»، فهذا هو المراد من قوله: ﴿وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ أي فزادهم سجودهم نفورا.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الفرقان: ٦١]:

الضياء للشمس لأن فيها نوراً وحرارة، على خلاف نور القمر الذي ما هو غير انعكاس لضياء الشمس، مما يدل على دقة التعبير القرآني وإعجازه.

التفكر عبادة جليلة يُثاب عليها العبد كما يثاب على الصيام والقيام والصيام، ومع هذا فأكثر الناس عنها نيام.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]:

قال عمر بن الخطاب والحسن وابن عباس رضي الله عنهم: معناه لِمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ ما فاته من الخير والصلاة ونحوه في أحدهما (أي الليل أو النهار)، فيستدركه في الذي يليه.

القلوب المتيقظة يتجدد فيها الإيمان كلما دارت عجلة الزمان، وتتوَّثَّب للارتقاء في المراتب كلما سارت الكواكب.

أطال عمر بن الخطاب رضي الله عنه صلاة الضحى فقليل له: صنعتَ اليوم شيئاً لم تكن تصنعه! فقال: إنه بقي عليّ من وردي شيء، وأحببت أن أتمه -أو قال أقضيه- وتلا هذه الآية: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنۢ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾.

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]: أي يمشون بتواضع وسكينة. قال الإمام الشافعي: «أرفع الناس قدراً من لا يرى قدره، وأكثرهم فضلاً من لا يرى فضله».

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ [الفرقان: ٦٤]: قدّم السجود على القيام مع أن القيام يقع قبله إشارة إلى الاهتمام بالسجود؛ لأن العبد أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد، وقال ﴿سُجَّدًا﴾ ولم يقل ساجدين للمبالغة في كثرة السجود.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥]:

قال الحسن البصري: «اعلموا أن كل غريم مفارقٌ غريمه إلا غريمَ جهنم».

٥١٠٩ قال محمد بن كعب: «طالبهم الله بثمر النعيم في الدنيا فلم يأتوا به، فغرمهم ثمنها بإدخالهم النار».

٥١١٠ من الذين يدعون بهذا الدعاء؟! هم المجتهدون غاية الاجتهاد، ومن استفرغوا غاية الوسع في طاعة رب العباد، لكنهم عند السؤال أنزلوا أنفسهم منازل العصاة، ووقفوا موقف أهل الاعتذار.

٥١١١ **«إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا»** [الفرقان: ٦٦]: قال الإمام الرازي: «أما الفرق بين المستقر والمقام، فيُحتمل أن يكون المستقر للعصاة من أهل الإيمان، فإنهم يستقرون في النار ولا يقيمون فيها، وأما الإقامة للكفار».

٥١١٢ لم يبتهلوا إلى الله هذا الابتهاال، ولم يتعوذوا من النار وسوء المآل، إلا لعلمهم بما فيها من الأهوال، فلم يكن دعاؤهم مجرد قلقلة لسان، بل انتفاضة جنان.

٥١١٣ **«وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا»** [الفرقان: ٦٧]:

حسن التدبير والاقتصاد في النفقة من الإيمان. قال النحاس: «ومن أحسن ما قيل في معناه: أن من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف، ومن أمسك عن طاعة الله عز وجل فهو الإقتار، ومن أنفق في طاعة الله تعالى فهو القوام».

٥١١٤ **«وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا»** [الفرقان: ٦٨]: أعظم ثلاث جرائم!

الآية مطابقة لما رواه الشيخان عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب أكبر؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزاني حليلة جارك».

٥/١١٦

﴿يُضَعِفُ لَهُ الْعَذَابَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَنَحْلُدُ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٩]:

عن ابن عباس رضي الله عنه: أن ناسا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وأكثروا، وزنوا وأكثروا، فأتوا محمدا صلى الله عليه وسلم، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لحسن، لو نُخْبِرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾، ونزل: ﴿قُلْ يِعْبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾.

٥/١١٧

﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]:

التائبون الصادقون موعودون من الله بأن يبدل سيئات أعمالهم بمحاسن الأعمال، فبدلاً من الزنى تكون العفة والإحصان، وبدلاً من السرقة وأكل حقوق الناس يبذل الصدقات والزكوات، وبدلاً من الغيبة وفحش القول يتلو القرآن والذكر والطيب من القول.

٥/١١٨

﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]:

تقلب السيئات الماضية بالتوبة النصوح إلى حسنات، فكلما تذكر ما مضى ندم واسترجع واستغفر، فانقلبت السيئة إلى حسنة بهذا الاعتبار.

٥/١١٩

﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١]:

كيف قال من تاب فإنه يتوب؟

قال القرطبي:

«أي من تاب بلسانه، ولم يحقق ذلك بفعله، فليست تلك التوبة نافعة، بل من تاب وعمل صالحاً، فحقق توبته بالأعمال الصالحة، فهو الذي تاب إلى الله متاباً، أي تاب حق التوبة، وهي النصوح؛ ولذا أكد بالمصدر».

٥/١٢٠

﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢]:

هؤلاء ليس فقط لا يقترون شهادة الزور، بل لا يحضرون مجالسه، ولا يجالسون أهله، فالشهادة تشمل هنا القول والمخالطة.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]:

قال الرازي:

«الأصح أن اللغو كل ما يجب أن يلغى ويترك، ومنهم من فسّر اللغو بكل ما ليس بطاعة، وهو ضعيف لأن المباحات لا تُعدّ لغوا، فقوله: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ﴾ أي بأهل اللغو».

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾

[الفرقان: ٧٣]:

قال الحسن البصري عن آيات القرآن: «كم من رجل يقرؤه، ويخرّ عليها أصمّ وأعمى».

﴿وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]:

﴿إِمَامًا﴾ وهو مفرد مع أن الأولى من حيث الظاهر أن يكون واجعلنا للمتقين أئمة؛ وفي هذا إشارة أن يكون كل واحد منهم إماما يُقتدى به.

قال إبراهيم التّحعي:

«لم يطلبوا الرياسة، بل بأن يكونوا قدوة في الدين».

﴿أُولَئِكَ﴾ [الفرقان: ٧٥]:

المقصود بهم:

مَنْ حازوا مجموع إحدى عشرة خصلة وهي: التواضع، والحلم، والتهجد، والخوف، وترك الإسراف، وترك الإقتار، والتنزه عن الشرك، وترك الزنى، وترك قتل النفس، والتوبة، وترك الكذب، والعفو عن المسيء، وقبول دعوة الحق، وإظهار الافتقار إلى الله بالدعاء.

﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرَّةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥]:

الغُرّة هي الدرجة العالية من منازل الجنة، وسُمّيت بذلك لارتفاعها، فسبحان من يقبل من العبد القليل، ويكافئه عليه بالكثير، صبروا قليلا وأَجَرُوا نعيمًا مقيمًا عظيمًا.

﴿وَيُلْقُونَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]:

يسمعون التحية من الله مباشرة بلا واسطة، بعد أن تجلى لهم ليروه لأول مرة من غير حجاب، فأَي نعيم ينتظرنا غداً؟!

﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦]:

قال جمال الدين القاسمي:

«لسلامة أهلها عن الآفات، وخلودهم أبد الآباد».

﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُنَا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧]:

اعرف قيمة الدعاء!

لا قيمة لك عند ربك، لولا دعاؤك في سرِّك وجهرك.

﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الفرقان: ٧٧]:

العذاب ملازم لأهل التكذيب، ولا ينجو منه إلا أهل التصديق، فاللهم اجعلنا من الموقنين المصدقين.



سورة الشعراء

﴿طسّم﴾ [الشعراء: ١]:

الحروف المقطّعة تحدّ للإتيان بمثل هذا القرآن باستعمال نفس هذه الحروف.

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [الشعراء: ٢]:

الإشارة بالبعد ﴿تِلْكَ﴾ ، لعلو بيان آيات القرآن، وارتفاع مكانتها، وعظيم شأنها مع عجز الخلق عن الإتيان بمثلها.

﴿لَعَلَّكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣]:

يا محمد.. لعلك من شدة حرصك على إيمانهم تُزهِقُ روحك.. ارفق بنفسك!

﴿إِنْ دُشًّا نُزِّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ ءَايَةٌ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]:

الإيمان اختيار لا إجبار، والله يريدنا أن نؤمن طوعاً لا كرهاً؛ لذا لم يُنزل الله آية تضطر عباده إلى الإيمان قهراً، ولو شاء لفعل.

﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥]:

هذا الذكر رحمة، يريد الرحمن أن يرحمنا به، لكن لشدة جهل بعضنا وقلة عقولهم يُعْرِضُونَ عن آياته ورحماته، ويتعرضون للعناته.

﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِيهِمْ أَنْبَتُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الشعراء: ٦]:

إما أن يأتيهم عاقبة استهزائهم في الدنيا أو في الآخرة، والله أعلم متى يُنزل عقوبته.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٧]:

آيات الله في خلق النبات أُلْفَتْ فيها مجلّدات! فتتنوع النباتات لا تُحصى أنواعها، ما بين معمرٌ وحولي، وحلو ومر، وحر وبارد، وما له ثمر بنوى أو بغير نوى، وثمر ظاهر على الأرض أو في باطن الأرض، وما هو في البر أو في البحر، وما هو رطب أو يابس، ومنه ما نعلمه وما لا نعلمه.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٨]:

أولم يكن لهم في إنبات النبات من بذرة ميتة وبأرض ميتة دليلاً على قدرة الله؟! فمن أنبت النبات لن يُعجزه أن يبعث الأموات.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩]:

تكرّرت هاتان الآيتان في السورة ثماني مرات، تأكيداً على حقيقة أن المؤمنين دائماً قلة، وأن أهل الغفلة والكفر كثرة، وأن الله هو صاحب العزة والغلبة والقهر، وهو واسع الرحمة بعباده؛ لذا لم يعاجلهم بعقوبة كفرهم لعلهم يرجعون.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩]:

الرحمة إذا كانت عن قدرة، كانت أعظم وقعاً وأشرف قدراً.

﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنْ أَنْتَ الْقَوْمُ الظَّالِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]:

ذكر قصص السابقين ومعاناة النبيين خير ما يثبّت قلوب السائرين في موكب النبيين.

﴿قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلا يَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١١]:

لم الحديث عن قوم فرعون أولاً، قبل الكلام عن فرعون نفسه، وهو أصل الفساد؟

والجواب: لولا سيرهم في ركابه وطاعتهم له، لما صار طاغية ولا ارتدع.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ [الشعراء: ١٢]:

الخوف من الفشل من دوافع النجاح بشرط التوكل على الله والإقدام!

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي﴾ [الشعراء: ١٣]:

يضيق الصدر فيعتقل اللسان، فيفزع العبد إلى طلب الغوث من الرحمن.

﴿وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَرُونَ﴾ [الشعراء: ١٣]:

الأخوة الصادقة مفتاح انشراح الصدور الضيقة.

﴿وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤]:

حتى موسى بن عمران خاف، لكن خوفه لم يمنعه من القيام بالواجب والإقدام.

قال القرطبي:

«وَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْخَوْفَ قَدْ يَصْحَبُ الْأَنْبِيَاءَ وَالْفُضَلَاءَ وَالْأَوْلِيَاءَ، مَعَ مَعْرِفَتِهِمْ بِاللَّهِ، وَأَنَّ لَا فَاعِلَ إِلَّا هُوَ، إِذْ قَدْ يُسَلِّطُ مَنْ شَاءَ عَلَى مَنْ شَاءَ».

﴿قَالَ كَلَّا فَإِذْ هَبَا بِفَأَيَّتِنَا أَنَا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ١٥]:

ما أحلى أن تصحبك معية الله بالعلم والعناية، وقوله: ﴿مُسْتَمِعُونَ﴾ أشد مبالغة من (سامعون)، لتفيد علمًا خاصًا بما يجري بينهما وبين فرعون، وهو علم يصاحبه اللطف الإلهي والرعاية الربانية.

﴿فَأْتِنَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]:

ورد أيضًا: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [طه: ٤٧]، فخاطبهم مرة بالمفرد، ومرة بالمشني، والسبب أن الاثنين رسالتهم واحدة، والرسول قد يكون بمعنى الرسالة، فيكون المعنى إنا ذوو رسالة رب العالمين.

قال أبو عبيدة: رسول بمعنى رسالة والتقدير على هذا، إنا ذوو رسالة رب العالمين.

﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٧]:

يا فرعون.. أطلق سراح بني إسرائيل من ظلمك وبغيك، وهكذا كل الرسائل السماوية، هدفها تحرير العباد، وإخراجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد.

﴿قَالَ أَلَمْ نُزَكِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨]:

شاء الله ألا يكون تقويض ملك فرعون إلا على يد من رباه بنفسه وفي قعر بيته.

تَعْلَمُ مِنْ مُوسَى أَلَا تَجَامِلُ أَحَدًا عَلَى حَسَابِ الْحَقِّ؛ وَكَانَتِ الْعَدَاوَةُ لِفِرْعَوْنَ هِينَةً لَوْ كَانَتْ مِنْ جَانِبِ مُوسَى وَحْدَهُ، لَكِنْ مُوسَى لَنْ يَجَابِي مِنْ عَادَى اللَّهِ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ فِرْعَوْنَ بِأَنَّهُ عَدُوهُ حِينَ قَالَ: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّ لَهٗ﴾ [طه: ٣٩]

﴿وَفَعَلْتَ فَعَلْتَنِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩]:
قاتل الآلاف النفوس ذبحًا وعمدًا يعير من قتل نفسًا واحدًا خطأ! هكذا يتبجح الطغاة.

﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]:
كن شجاعا في اعترافك بخطئك، ولا تقع أسيرًا لذنبك، وتعلم من نبي الله موسى.
﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١]:

وما أجمل ما أنشد أبو سعيد الضرير:

رُبَّ أَمْرٍ تَتَّقِيهِ جَرَّ أَمْرًا تَرْتَجِيهِ
خَفِيَ الْمَحْبُوبُ مِنْهُ وَبَدَا الْمَكْرُوهُ فِيهِ

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ٢٢]:
نسائم الحرية لا جحيم استعبادك!
هل العبودية نعمة حتى تمنَّ بها علي يا فرعون؟! إن ما مننت به عليّ -من تعبيد قومي واتخاذهم خدماً- هو في الحقيقة نقمة.

* الاعتراف بالخطأ شأن الكبار.

* سرعة اعترافك بالخطأ يحرم خصومك مما ظنوه نقطة ضعفك.

* لا تقع أسيرًا لخوفك، فبعد الخوف أمن، وبعد الحرمان عطاء.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]:
نظر اللعين بكبره، وسأل سؤالاً يليق بجهله، فسأل بلفظ ﴿مَا﴾ الذي يُسْتَخْبَرُ به عما لا يعقل، وهو يعلم جيّدًا من هو رب العالمين.

﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤]:

ربنا هو رب هذا الكون العظيم، فهذه المحسوسات لا بد لها من صانع، والصانع لا يمكن معرفته إلا من آثاره، وأظهر آثاره هي السموات والأرض وما بينهما، فإن أيقنتم بذلك -مع ظهوره- لزمكم الإيمان.

﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَبْعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥]:

ضعيف الحجة دائماً يستكثر بمن حوله لتقوية كلامه.

﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]:

الجمهور هو الهدف!

أعرض فرعون عن مخاطبة موسى، وتجاوزه إلى مخاطبة من حوله، فكان خطاب موسى موجّهاً إلى هذا الجمهور.

هذه الحجة أكثر إقناعاً من الحجة السابقة!

فلا يمكن لعقل أن يعتقد أنه أوجد نفسه وأباه وأجداده، وهو يشاهد مواليد كل يوم من العدم، ويشهد عدّمها بالموت بعد الوجود، بعكس السماوات والأرض التي لم يشاهد أحد خلقها ولا عدمها، فكان التعريف بهذا الأثر أقوى في الاحتجاج وأظهر.

﴿قَالَ إِن رُسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧]:

عند انقطاع حجج الخصم تنطلق شتائمهم!

﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨]:

فلتعكس أنت يا فرعون الأمر إن كنت إلها بحق، ولتجعل المشرق مغرباً، والمغرب مشرقاً.

﴿إِن كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨]:

ردّ قوي من موسى على سفاهة فرعون حين قال: إن رسولكم لمجنون؛ لأن الجنون يقابله العقل، فكأن موسى قال لهم: لا تكونوا أنتم المجانين.

٥١٦٩

﴿قَالَ لَئِنْ أَخَذْتُ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]:

طبيعة الطغاة واحدة في كل العصور، إذا انقطعت حجتهم في مواجهة أهل الحق؛ كان اللجوء إلى سلاح البطش.

٥١٧٠

لم قال: لأجعلنك من المسجونين، ولم يقل لأسجننك مع أنه أكثر اختصاراً؟ قال الرازي:

«جوابه: لأنه لو قال لأسجننك لا يفيد إلا صيرورته مسجوناً. أما قوله: لأجعلنك من المسجونين فمعناه أني أجعلك واحداً ممن عرفت حالهم في سجوني، وكان من عادته أن يأخذ من يريد أن يسجنه، فيطرحه في بئر عميقة، فرداً، لا يبصر فيها ولا يسمع، فكان ذلك أشد من القتل».

٥١٧١

﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٣٠]:

قال الطبري:

«وإنما قال ذلك له؛ لأن من أخلاق الناس السكون للإنصاف، والإجابة إلى الحق بعد البيان»، فمن لم يكن كذلك، لم يكن معدوداً من الناس.

٥١٧٢

﴿قَالَ أَوْلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٣٠]:

دليل على أن الله عرّف موسى قبل أن يُلقِي العصا بأنها تتحوّل ثعباناً، وكان قد أراه ذلك من قبل تدريباً له، فأيقن موسى بوعده ربه، ولولا ذلك لما قال ما قال.

٥١٧٣

﴿قَالَ فَاتِّبِعْ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [الشعراء: ٣١]:

قال الزمخشري:

«دليل على أنه لا يأتي بالمعجزة إلا الصادق في دعواه؛ لأن المعجزة تصديق من الله لمُدَّعي النبوة، والحكيم لا يصدّق الكاذب».

٥١٧٤

في قوله: ﴿إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ إشارة إلى أن فرض صدق موسى هو فرض ضعيف، كما دلّ عليه شرط ﴿إِنْ﴾.

﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: ٣٢-٣٣]

لِلنَّظِيرِينَ ﴿الشعراء: ٣٢-٣٣﴾

قال الألوسي: «روي أنه لما أبصر أمر العصا قال: هل لك غيرها؟ فأخرج عليه السلام يده، فقال: ما هذه؟! قال: يدي، فأدخلها في إبطه، ثم نزعها ولها شعاع يكاد يغشي الأبصار ويسد الأفق».

﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوَلَةُ إِنْ هَذَا لِسِحْرٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٤]

سرعان ما ينهار صاحب الباطل إذا رأى حجة أهل الحق، وينقلب غروره خوفاً، ويتحول كبره ذلاً.

﴿يُرِيدُ أَنْ يَمُخِّرَ جُحْمَ مَنْ أَرْضَكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥]

إشراك من حولك في الرأي، وإظهار أنك تنزل على ما يقترحون، له مفعول السحر في جذب القلوب، وتوحيدها نحو إصابة الهدف.

أصعب الأشياء على النفوس مفارقة الوطن لا سيما إذا كان ذلك قسراً، وهو السر في نسبة الإخراج والأرض إليهم.

﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٣٦]

كانت مشورتهم: لا تقتله، فإنك إن قتلته أدخلت الناس في دينه بعد أن رأوا عجب أمره، ولكن أخره لتهمزه بطريق آخر عن طريق السحرة، فلا تثبت له عليك حجة.

﴿يَأْتُواكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٣٧]

ما أضعف الباطل في مواجهة الحق! جاؤوا بصيغة المبالغة (سحّار) ليطمئنوا قلبه وينفّسوا كربته، ويسكنوا قلقه.

﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ٣٨]

أراد فرعون من الحشد العظيم إظهار فساد قول موسى، فكان هذا سبب ظهور حجته عند هذا الجمع العظيم، وهذا من لطف الله وتدبيره لأوليائه.

﴿وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٣٩]:

هذه الكلمة بمثابة دعوة للحشد، وحُضُّ على الحضور، وحثُّ على عدم تخلف أحد من الناس عن هذه المناسبة المهمة.

﴿لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٠]:

أكثر الناس يتبعون الغالب ولو كان على باطل، ويخذلون صاحب الحق لو كان ضعيفا، وهذا طبعٌ في النفس البشرية، ولا يختص بشعب دون شعب، ولكن الإسلام هذبهُ.

﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]:

القسم تعظيم، والتعظيم فيه تسوية بين المقسم به والله رب العالمين. قال البقاعي: «فكل من حلف بغير الله، كأن يقول: وحياة فلان، وحق رأسه، ونحو ذلك، فهو تابع لهذه الجاهلية».

﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: ٤٤]:

من الشُّرك الحلف بغير الله سبحانه كما رواه أحمد وأبو داود عنه رحمهما الله أنه قال: «من حلف بشيء دون الله فقد أشرك» مسند أحمد رقم: ٤٩٠٤.

﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ [الشعراء: ٤٤]:

ومن ذلك قول القائل للمخلوق: ما شاء الله وشئت. كما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال له رجل: ما شاء الله وشئت. قال: أجعلتني لله ندا؟ قل: ما شاء الله وحده» السلسلة الصحيحة رقم: ١٣٩.

﴿إِنَّهُمْ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [الشعراء: ٤٩]:

قال ابن كثير:

«وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر؟ هذا لا يقوله عاقل». لكنه نهج الطغاة في كل عصر.

﴿لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]:

لا يضرنا إذاؤكم لأن مرجعنا إلى الله، وهو سيجزينا على إيماننا أتم الجزء وأوسع العطاء.. لاحظوا أن هذا ثمرة إيمان ساعة!

﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥١]:

كانوا فجارًا كفارًا، فلما تابوا طمعوا في المغفرة، فكيف لا يطمع في المغفرة من أذنب ذنوبًا دون الكفر بكثير، وهو المؤمن الموحد؟!

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِيٰ إِنَّكَ مُتَّبَعُونَ﴾ [الشعراء: ٥٢]:

أوحى إلى موسى أن يسير ببني إسرائيل ليلاً من مصر إلى اتجاه البحر، وأخبر موسى أنهم سيُتَّبَعُونَ من فرعون وجنوده، فخرج في السَّحَر، في طريق غير معتاد، فسئل عن طريق الطريق المعتاد، فقال: هكذا أُمِرْتُ، فلما أصبح، علم فرعون بسير موسى ببني إسرائيل، فخرج في أثرهم، وبعث إلى مدائن مصر أن يلحقه العساكر.

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ [الشعراء: ٥٣]:

توهموا أنهم عن طريق التأخير، وحسن التدبير، وبذل الجهد والتشمير، سيغيرون شيئاً من قدر الله، ولم يعلموا أن القضاء غالب، وحكم الله سابق، وأن الله إنما يسوقهم إلى مصارعهم وهم لا يشعرون.

﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤]:

الاستهانة بخصمك أول طريق الهزيمة.

﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ [الشعراء: ٥٥]:

اللهم اجعلنا ممن يغيظ أعداء دينك، واجعل ذلك من أحب ما نتقرب به إليك.

﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ [الشعراء: ٥٦]:

لم كل هذا الحذر ما داموا شرذمة قليلين؟ هكذا يتناقض خصوم الحق.

٥/١٤٤

﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء: ٥٨-٥٧]

قال ابن القيم:

«فأخبر الله تعالى أنه لا يغيّر نعمه التي أنعم بها على أحدٍ حتّى يكون هو الذي يغيّر ما بنفسه؛ فيغيّر طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غيّر غير عليه، جزاءً وفاً، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾».

٥/١٤٥

﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩]:

قادر ربنا على أن يورث المظلومين أملاك الظالمين.

٥/١٤٦

المعنى أورثهم الله أرضاً مثلها، قد وعدهم بها في الشام.

قال ابن عاشور:

«أي أورثنا بني إسرائيل أرض الشام، وليس المراد أنه أعطى بني إسرائيل ما كان بيد فرعون وقومه من الجنات والعيون والكنوز؛ لأن بني إسرائيل فارقوا أرض مصر حينئذٍ، وما رجعوا إليها».

٥/١٤٧

﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُتَرْقِبِينَ﴾ [الشعراء: ٦٠]:

معناه:

قاصدين جهة الشرق، وهو صوب البحر الأحمر، أو يجوز أن يكون المعنى داخلين في وقت الشروق، بعد أن قضوا ليلة أو عدة ليالٍ سيرا.

٥/١٤٨

﴿فَلَمَّا تَرَأَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢]:

﴿مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦١-٦٢]:

كن حرباً على اليأس إن تسلل إلى قلوب أصحابك.

٥/١٤٩

تعلّق موسى بمعية الله، دون أن يعرف كيف ستكون النجاة، والرسالة: كن

مع الله، ولا تهتم بالطريقة التي سوف ينجيك بها.

٥/١٥٠

من كانت صلته بالله في الرخاء قوية، فسيرى في الشدائد أثر هذه المعية.

﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣]:

خرق الله لموسى قانون سيولة الماء، فتجمد الماء وصار كالجبل، وتحولت البحار إلى جدران، وانشق فيها اثنا عشر طريقاً، فعبر موسى وقومه إلى الشاطئ، ثم استرد عصاه، فعاد للماء سيولته، فأغرق فرعون ومن والاه.

﴿وَأَرْلَفْنَا نَمَّ الْأَخْرَيْنَ﴾ [الشعراء: ٦٤]:

يد الله تعمل! أي قربناهم من موسى وقومه، فدخلوا وراءهم في الطريق الذي سلكوه بين أمواج البحر، حتى أغرقناهم.

﴿وَأُنْجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ٦٥]:

كن مع الصالحين الناجين، ولا تكن مع المفسدين الهالكين.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٦٧]:

سنتي فيمن سلك سبيلهم أن يناله مثل عذابهم، فاعتبروا بمن سبقكم، بدلاً من أن يعتبر بكم غيركم.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٨]:

قال القرطبي: «العزیز معناه: المنیع الذي لا يُنال ولا يُغالب».

فلا أحد يستطيع أن يُغالب الله عز وجل، فعزَّ بمعنى: غلب، وفي المثل العربي: (من عزَّ بزَّ) أي: من غلب أخذ المتاع، فالعزة بمعنى: الغلبة.

عزة الله وقوته لا يقف في وجهها شيء، ولو كان مرضاً عضالاً. قال عثمان بن

أبي العاص ؓ يقص علينا خبره مع الله (العزیز)، فيقول:

أتيت النبي ﷺ وبني وَجَع قد كاد يُهلكني، فقال رسول الله ﷺ:

«ضَعُ يمينك على المكان الذي تشكي، فامسح بها سبع مرات، وقل: أعوذ بعزة الله وقدرته من شرِّ ما أجد، في كل مسحة».

قال: ففعلت ذلك، فأذهبَ الله ما كان بي، فلم أزل أمرُ به أهلي وغيرهم. سنن

أبي داود رقم: ٣٨٩١.

٥٩٠٧ من معاني اسم العزيز: المعز، أي مصدر العزة كما نقول: الأليم بمعنى المؤلم.
قال قتادة في تفسيرها: «من كان يريد العزة، فليتعزز بطاعة الله تعالى»

٥٩٠٨ ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩]:

اتل قصص الأنبياء والصالحين، وخذ منها العبرة والعظات، وعلمها أولادك
البنين والبنات، ولتعلق قلوبهم بهذه القدوات بدلا من أن يكونوا إمعات.

٥٩٠٩ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٧٠]:

أجمع تعريف للعبادة ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية: «العبادة اسم جامع
لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة».

٥٩١٠ وعرف ابن القيم العبادة، بأنها كمال المحبة مع كمال الذل، ومن هنا قال في
النونية:

وعبادة الرحمن غاية حُبِّه مع ذلِّ عابده هما قطبان

٥٩١١ ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَنكِفِينَ﴾ [الشعراء: ٧١]:

سألهم ماذا يعبدون، فلم يقتصروا على ذكره فقط، بل أسهبوا في الإجابة على
سبيل الابتهاج والافتخار، فقالوا: ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَنْظِلُ لَهَا عَنكِفِينَ﴾.

٥٩١٢ قالوا: ﴿فَنَنْظِلُ﴾؛ لأنهم كانوا يعبدون أصنامهم بالنهار دون الليل.

٥٩١٣ عكفوا على عبادة باطل، فكيف نكسل نحن على العكوف على عبادة الحق
سبحانه؟!

٥٩١٤ ﴿قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكَ إِذْ تَدْعُونَ ۖ أَوْ يَنْفَعُونَكَ أَوْ يُضُرُّونَ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٤]:

﴿وَجَدْنَا ءِآبَاءَنَا كَذَّالِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء: ٧٢-٧٤]:

التهرب من الجواب والتحول إلى شيء آخر، لم يسألهم عنه من علامات
انقطاع الحجة، وإقراراً بالعجز.

٥٩١٥ لو قالوا: يسمعوننا وينفعوننا ويضروننا، لفضحوا أنفسهم بالكذب الصراح،

ولو قالوا: يسمعوننا ولا ينفعوننا ولا يضروننا، لأقروا على أنفسهم بالخطأ

المحضر، فعدلوا إلى التصريح بتقليد آبائهم في عبادتها من غير برهان ولا حجة.

﴿فَلَيْسَ لَهُمْ عُدُوٌّ لِّيَ إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٧٧]:

إبراهيم عليه السلام يتحدى! فَإِنْ كَانُوا قَادِرِينَ عَلَى ضَرْيٍ فَلْيَفْعَلُوا، وبالطبع لم يصبه منها شيء، وبذا قويت حجته، ونجحت دعوته.

﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨]:

الهداية مطلب الجميع حتى الأنبياء.

استعمال (هو) فائدته حصر الهداية في منهج الحق، لا بقوانين الخلق، فلا سعادة إلا في الاهتداء بقوانين شرعه.

﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩]:

جاء هنا بضمير الفصل؛ لكي لا تظن أن الذي يطعمك ويسقيك أمك وأبوك، فما هما غير أسباب قدرها الوهاب، وقد يرزقك بها أو غيرها.

ذكر ﴿خَلَقَنِي﴾ بلفظ الماضي، وذكر ﴿يَهْدِينِ﴾ بلفظ المستقبل، والسبب أن خلق الذات لا يتجدد، وأما هدايته سبحانه فهي مما يتكرر كل حين، سواء كان ذلك هداية في المنافع الدنيوية لما فيه نفعك ومصلحتك، أو في المنافع الدينية، بأن يحكم العقل بتمييز الحق عن الباطل، والخير عن الشر.

﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]:

قال البغوي: «أضاف المرض إلى نفسه وإن كان المرض والشفاء كله من الله، استعمالاً لحسن الأدب كما قال الخضر: ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الكهف: ٧٩]، وقال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]».

﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٨١] وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي

وَيَسْقِينِ﴾ [الشعراء: ٧٩]:

سين: لماذا جاء بكلمة هُوَ في الثانية ولم يأت بها في الأولى؟

جيم: لتأكيد الفعل الإلهي وصرف ادعاء المدّعين أنهم سبب الإطعام، بينما في الأولى لن يدعي أحد أنه سبب خلق الإنسان وإماتته وإحيائه، فلم تكن ضرورة للتوكيد.

﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]:

قال أبو السعود: «ذكره عليه الصلاة والسلام هضمًا لنفسه، وتعليمًا للأمة أن يجتنبوا المعاصي، ويكونوا على حذر وطلب مغفرة؛ لما يفرط منهم، وتنبهًا لأبيه وقومه على أن يتأملوا في أمرهم، فيقفوا على أنهم من سوء الحال في درجة لا يقادر قدرها، فإن حاله عليه السلام مع كونه في طاعة الله تعالى وعبادته في الغاية القاصية، فما ظنك بحال أولئك المغمورين في الكفر، وفنون المعاصي والخطايا؟».

لم علّق المغفرة بيوم الدين مع أنها تحصل في الدنيا؟!

والجواب: لأن أثرها يتبيّن يوم القيامة؛ ولأن في ذلك تهويلًا للذنب وتخويفًا منه إن لم يُغفر.

هنا يحلو الطمع ويُستحبُّ، هنا فقط!

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]:

أي على نفسي، فإنّ من لا حكم له على نفسه، لا حكم له على غيره. ذكره القشيري

﴿وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [الشعراء: ٨٣]:

ما أجهل هذا الدعاء النبوي، وما أبعثه على التواضع: «اللهم توفنا مسلمين، وأحيينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا، ولا مفتونين». صحيح الأدب المفرد رقم: ٦٩٩.

﴿وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤]:

قال ابن عطية: «ولسان الصدق في الآخرين هو الثناء وخلد المكانة بإجماع من المفسرين».

كثيرون يمدحونك، المهم أن يكون هذا المدح صادقًا.

﴿وَأَجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ﴾ [الشعراء: ٨٥]:

هذا دعاء نبي بالجنة، وهو يرُدُّ قول بعضهم: لا أعبده طمعاً في جنته ولا خوفاً من ناره، وإنما أعبده لأنه هو الله.

الجنة هبة الرحمن لأهل الإيمان، وهي تفضَّلُ منه سبحانه، وليست مقابل عملهم؛ لذا سماها ميراثاً كما يصل الميراث لأهله دون تعب منهم. وهذا تصديق قوله ﷺ: «لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته».

﴿وَأَغْفِرْ لَأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ [الشعراء: ٨٦]:

في صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «إن إبراهيم يرى أباه يوم القيامة عليه الغبرة والقترة». والغبرة هي القترة. صحيح البخاري رقم: ٤٧٦٨. وقيل: القترة شدة الغبرة بحيث يسودُّ الوجه.

﴿وَلَا تَحْزَنْ يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء: ٨٧]:

النار هي العار الحقيقي، وسبب النار: الأوزار، فالأوزار هي ما ينبغي أن تهرب من خزيه وعاره اليوم.

﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [الشعراء: ٨٨]:

هذه العملات غير متداولة غداً في سوق الآخرة، العملة الوحيدة التي يُعتدُّ بها هناك: العمل الصالح.

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩]:

لم خصَّ الله القلب بالذكر؟ لأنه الملك الذي إذا سلم سلمت الجوارح، وإذا فسد فسدت سائر الجوارح.

قال ابن القيم: «وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم. والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله».

﴿وَأَزَلَفَتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠]:

قمة النعيم وغاية التنعيم أن تُقَرَّب الجنة نحوهم حتى لا يتكبدوا ولو مشقة المشي إليها!

﴿وَبُرَزَتْ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ [الشعراء: ٩١]:

يبدأ عذاب أهل النار قبل وصولهم إليها، فعذاب الرعب يبدأ في قلوب الغاوين بمجرد رؤية أبواب الجحيم.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٢-٩٣]:

كيف يدفع شركاؤكم العذاب عنكم، وهم لا يستطيعون دفعه عن أنفسهم؟! حقيقة يكشفونها حين يرون أنفسهم مع آلهتهم وقودا للنار.

﴿فَكَبِكُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٩٤]:

قال الزمخشري:

«الكبكة تكرير الكبِّ، وجعل التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى، كأنه: إذا أُلقي في جهنم ينكبُّ مرة بعد مرة حتى يستقرَّ في قعرها».

﴿وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ﴾ [الشعراء: ٩٥]:

اجتماع أخروي يجمع إبليس وجنوده على مدار الأجيال والأزمان من لدن آدم حتى قيام الساعة.

﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩٦]:

النار هي موطن الخصومات التي لا تنفض، والعداوات التي لا تهدأ.

﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧-٩٨]:

دخلوا النار حين سوَّوا بالله غيره، فالمطلوب منك حتى تدخل الجنة أن يكون الله أكبر وأعظم في صدرك من كل شيء.

﴿وَمَا أَصْلَنَّا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩٩]:

وظيفة المجرمين في الدنيا هي أن يوهنوا تعظيم أمر الله في قلب العبد؛ حتى يكون لتعظيم الخلق الغلبة عليه!

﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠-١٠١]:

قال قتادة:

«يعلمون - والله - أن الصديق إذا كان صالحاً نفع، وأن الحميم إذا كان صالحاً شفع». من أعظم الآيات التي تحت على الصحبة الصالحة!

﴿مَا أَقْلُ الْأَصْدِقَاءِ!﴾

قال الزمخشري: «وجمع الشافع لكثرة الشافعين، ووحد الصديق لقلته».

قال الحسن البصري: «استكثروا من الأصدقاء المؤمنين، فإن لهم شفاعاة يوم القيامة».

﴿وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٠١]:

كان علي عليه السلام يقول: «عليكم بالإخوان، فإنهم عدة الدنيا وعدة الآخرة، ألا تسمع إلى قول أهل النار: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ».

﴿فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتُخَدَّ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٢]:

عقارب الزمان لا تعود إلى الوراء، وكل من دخل النار سيتمنى الرجوع إلى الدنيا، والفرصة لا تزال في الإمكان، فأدرك نفسك قبل فوات الأوان.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٠٤]:

﴿الرَّحِيمُ﴾: القادر على استئصالهم، الذي آخر العقوبة عنهم بإمهمهم، ولم يقطع الرزق مع قبح أفعالهم.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجِرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٩]:

الداعية لا يطلب مقابلاً لجهده المبذول في دعوته، وهذا سر إخلاصه، وسبب وضع القبول له بين الخلق.

[الشعراء: ١٠٩]:

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾
الدعوة إلى الله عمل عظيم ثمين لا يستطيع دفع مقابله إلا رب العالمين، وكيف لا تكون غالية ثمينة، وكلمة واحدة قد تنقذ عبداً من الخلود في النار.

[الشعراء: ١١١]:

﴿قَالُوا أَنْتُمْ مِنْ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾
أتباع الرسل إنما هم الأضعفون، لكنهم عند الله هم المتقدمون الأكرمون. قال رسول الله ﷺ: «هل تُنصرون إلا بضغائكم؟ بدعوتهم وإخلاصهم». صحيح الجامع رقم: ٧٠٣٤.

[الشعراء: ١١٢]:

﴿قَالَ وَمَا عَلَّمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾
كانهم قالوا: إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعا في العزة والمال، فقال لهم نبيهم: لم أؤمر أن أفتش عن البواطن، وإنما حكمي على الظاهر.

عاملوا الناس بما ظهر من أفعالهم، لا بما خفي من نياتهم.

[الشعراء: ١١٣]:

﴿إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَو تَشْعُرُونَ﴾
أنتم دعاة وهداة ولستم قضاة.

[الشعراء: ١١٤]:

﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾
كانهم طلبوا من نوح طرد الضعفاء كما طلبت قريش، واستنتج من هذا تشابه قلوب الكفار: ﴿تَشَبَّهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

[الشعراء: ١١٥]:

﴿إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾
ليس عملي أن أقرب أناساً وأبعد أناساً، أو أرفع أقواماً وأضع أقواماً، ولكن عملي أن أنذر الجميع، فمن استجاب فله الجنة، ومن أبى دخل النار.

[الشعراء: ١١٦]:

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَنْبُوحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾
جُبِلت نفوس اللئام على الجحود والنكران، فلا يزيدها الإكرام إلا تمرداً. قال الأصمعي: «سمعت أعرابياً يقول: أسرع الذنوب عقوبة كفر المعروف».

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا﴾ [الشعراء: ١١٧-١١٨]:

قال أبو القاسم الأصبهاني:

«الفتح ضروب:

أحدها: ما يُدرَك بالبصر، كفتح الباب والقفل والمتاع.

والثاني: ما يدرَك بالبصيرة، كفتح الهمِّ وهو إزالة الغمِّ، وذلك ضربان: غمٌّ يُفَرِّج، وفقر يزال.

والثالث: فتح المستغلق من العلوم. قلت: وذلك على ضربين: الأوَّل بتوفيق الاستكثار من العلوم الظَّاهرة وتحقيق معانيها، والثاني بفتح باب القلب إلى العلم».

﴿وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٨]:

قلوب المصلحين تُشبه قلوب النبيين، تمتلئ شفقة على الغير، وتتمنى لهم دائماً الخير.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَكَ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١١٩-١٢٠]:

اعرف قيمة ما أنعم الله به عليك من نعمة التوحيد، فقد أغرق الله من في الأرض جميعاً من أجل فئة مستضعفة حملت بذرة الإيمان وعقيدة التوحيد.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنِ أَجْرِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٧]:

نزّه قلبك أخي الداعية في دعوتك عن المطامع الدنية والأغراض الدنيوية بالكلية.. كن مقتفياً آثار الخطى النبوية.

﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٨]:

ما هي نيتك في أي بناء تبنيه؟!

قال ابن باديس: «كل بناء شامخ لا يكون لغاية شريفة محمودة، فهو عبث وهو باطل».

كل عمل يحتاج منك إلى تحديد وتحديد نية، حتى البناء.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء: ١٢٩].

العلو في البنيان من أسباب طول الأمل ونسيان الموت والوقوف بين يدي الديان.

كتب المؤرخ ابن العماد في كتابة شذرات الذهب في أخبار من ذهب: أن الخليفة عبد الرحمن الناصر لما بنى قصر الزهراء المتناهي في الجلالة، اتفق الناس على أنه لم يبن مثله في الإسلام ألبتة، وانشغل الخليفة ببناء مدينة الزهراء، حتى تغيب عن حضور صلاة الجمعة لثلاث جمع، وفي الجمعة الرابعة خطب المنذر ابن سعيد، فبدأ خطبته بقول الله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وبدأ كلامه في الإشراف على البناء بكل قول شديد، وبكى الخليفة عبد الرحمن الناصر لأنه عرف أنه المقصود بالكلام، وندم على تفريطه.

وقال لابنه الحكم: لقد تعمّدني المنذر بخطبته، وما قصد بها غيري، وأقسم الخليفة ألا يصلي خلف المنذر بن سعيد مرة أخرى في صلاة جمعة، وعندما اقترحوا عليه عزل المنذر بن سعيد من خطبة الجمعة. ردّ الخليفة قائلاً:

«أمثل المنذر بن سعيد في فضله وعلمه وخيره يُعزّل لإرضاء نفس بعيدة عن الرشد؟! وإني أستحي من الله ألا أجعل بيني وبينه شفيعاً في صلاة الجمعة مثل المنذر في ورعه وصدقه، ولكنه أخرجني فأقسمت ألا أصلي خلفه، وودت لو أجد كفارة ليميني».

بعد موت الخليفة عبد الرحمن الناصر أعظم ملوك الأرض حينها، وجدوا رقعة في خزائنه، مكتوب عليها: «حكمتُ خمسين سنة، لم تصفُ لي منها سوى أربعة عشر يوماً».

﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]:

٥٤٦٩

البطش نوعان:

الأول: ما كان حقاً، بأن يكون انتصافاً وقصاصاً؛ لإقامة للعدل بين الناس.

والثاني: بطش الجبارين وهو بطش الظالمين.

فلم ينقم منهم البطش لأنه بطش، بل لأنه قام على الظلم.

﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ﴾ [الشعراء: ١٣٢]:

٥٤٧٠

كل علم وصلنا أمدنا الله به، ولولا ذلك لما خرجنا من ظلمات الجهل.

﴿قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَضْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٦]:

٥٤٧١

قال صاحب الكشاف:

«فإن قيل: (أوعظت أو لم تعظ) كان أخصر، والمعنى واحد.

قلت: ليس المعنى بواحد، وبينهما فرق؛ لأن المراد: سواء علينا أفعلت هذا الفعل الذي هو الوعظ، أم لم تكن أصلاً من أهله ومباشره، فهو أبلغ في قلة اعتدادهم بوعظه، من قولك: أم لم تعظ».

﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧]:

٥٤٧٢

قراءتان!

قرأ أكثر القراء: ﴿إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ﴾ - بضم الخاء واللام - أى: عادتهم ودينهم.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي: (إِلَّا خَلَقُ الْأَوَّلِينَ) - بفتح الخاء وإسكان اللام - أي اختلاق الأولين، والعرب تقول: حدثنا فلان بأحاديث الخلق، أي: بالخرافات والأحاديث المفتعلة.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٨]:

٥٤٧٣

غياب العذاب عن الأذهان هو ما يدفع صاحبه نحو الطغيان.

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء: ١٤٥]:

٥٤٧٤

لو أن داعية طلب من الناس أجرًا لكان هذا سببًا لنفور الناس منه؛ وقبول بعض كلامهم وردَّ بعضه؛ ولذا كان لكل نبي حرفة يأكل بها، ففي صحيح البخاري: «ما أكل أحد طعامًا قط، خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده».

﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء: ١٤٥]:

٥٤٧٥

كل الأنبياء في سورة الشعراء قالوا لقومهم: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ إلا موسى وإبراهيم عليهما السلام.. لماذا؟ لأن موسى تربى في قصر فرعون، وإبراهيم لم يقلها لقومه لأن فيهم أباه الذي رباه، فاستحيا أن يقول ذلك له.

﴿أَتَتَرَكُونَ فِي مَا هَنُتْنَا آمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٦]:

٥٤٧٦

في الآية حث على العمل لاستبقاء تلك النعم بأن يشكروا الله عليها كما قال صاحب الحكم العطائية: «من لم يشكر النعم فقد تعرَّض لزوالها، ومن شكرها فقد قيَّدها بعقلها»..

﴿وَتَنَحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَدَرِهِينَ﴾ [الشعراء: ١٤٩]:

٥٤٧٧

ليس النهي عن نحت الجبال بيوتا بهذه المهارة والبراعة، لكن النهي أن يتم ذلك بقصد الفخر والأشر والبطر.

﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ۝ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾

٥٤٧٨

[الشعراء: ١٥١-١٥٢]:

فمن أوجب طاعة المفسد، فقد عارض الله في أمره وحكمه وشرعه! فشرط طاعة الحاكم المسلم أن تكون في المعروف، فلا يفسد ولا يسرف، بل يعدل ويصلح.

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحُورِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣]:

٥٤٧٩

ما أسهل إلقاء التهم على الشرفاء، ولو سلم منه أحد لسلم منه السادة الأنبياء.

﴿فَأْتِ بِبَيِّنَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ﴾ [الشعراء: ١٥٤]:

من جميل أقوال الإمام الألباني: «طالب الحق يكفيه دليل، وصاحب الهوى لا يكفيه ألف دليل، الجاهل يُعَلِّم، وصاحب الهوى ليس لنا عليه سبيل».

﴿قَالَ هٰذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥]:

كان من عجائب الناقة أن تشرب يومًا ولا يشربون، وفي اليوم التالي تتحول كل المياه التي شربتها في ضرعها لبنًا، فيكفي القوم جميعًا.

﴿وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٦-١٥٧]:

قصة عقر الناقة كما يذكر المفسرون والمؤرخون: كانت فيهم عجوزٌ كافرةٌ، هي من أقبحهم وأشدّهم كُفْرًا وَعَدَاوَةً لِصَالِحٍ، وَتُسَمَّى: عُنِيزَةُ بِنْتُ غُثَمٍ، وكانت ذات بناتٍ حِسانٍ، وأنها جاءت للقيح قُدَارِ بْنِ سَالِفٍ، وجاء في الحديث وَصَفُهُ بأنه (عارمٌ عزيزٌ في قومه)، والعارمُ: شديد الشر، وقالت له: إن أنت عقرت هذه الناقة أعطيتك أيّ بناتي شئت، فانتدب واحدًا من قومه اسمه مصدع، وأن هذين الرجلين اتبعهما سبعة من قومهم فصاروا تسعة، ذهبوا لقتل الناقة، وهم المذكورون في سورة النمل: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨].

﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعٰلَمِیْنَ﴾ [الشعراء: ١٥٦]:

LGBT stands for lesbian, gay, bisexual, and transgender.

مصطلح ظهر في عام ١٩٩٠ ويهدف للتعبير عن حماية الشواذ بكافة أنواعهم، ومطلوب من جميع الدول أن توقع على احترام هذه الحقوق إن أرادت اللحاق بركب الحضارة الزائفة.

﴿وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ ۖ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦]:

ما أغلق الله بابًا من الحرام إلا وفتح للبعد مثله في الحلال.

٥٤٨٥

﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧]:

الإخراج - في هذه الحال - شرف لصاحبه إذ يعصمه من مخالطة هؤلاء الهالكين، والتعرض لعذابهم.

٥٤٨٦

تهديد الأبرار من سمات الفجار.

٥٤٨٧

﴿إِنِّي لَعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٨]:

قال ابن تيمية:

«والقلي بغضه وهجره، والأنبياء أولياء الله يحبون ما يحب الله، ويبغضون ما يبغض».

٥٤٨٨

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٩]:

قال الطبري: «من عقوبتك إياهم على ما يعملون»

نبي يخاف عقوبة ذنب لم يعمله، فكيف لا يخاف العقوبة أصحاب الذنوب الكثيرة؟!

٥٤٨٩

﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٩]:

قال أبو حيان:

«ويحتمل أن يكون دعاء لأهله بالعصمة من أن يقع واحد منهم في مثل فعل قومه».

٥٤٩٠

﴿فَنَجِّينُهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٠]:

الدعاء سبب النجاة من العقوبة والبلاء.

٥٤٩١

﴿إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧١]:

ظلت على الكفر رغم أنها عاشت في بيت نبي؛ لأن مفتاح الهداية بيد الله لا بيد النبي.

٥٤٩٢

﴿ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٢]:

أي أهلكناهم بكل من الخسف والحصب، قال مقاتل: «خسف الله بقوم لوط، وأرسل الحجارة على من كان خارجا من القرية».

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣]:

لعل حكمة إمطارهم بالحجارة لوجهين:

الأول: لوصول العذاب إلى الجميع كما يصل المطر.

الثاني: ما أوماً إليه بعض المفسرين كالقرطبي وغيره: أن في ذلك دليلاً على أن من فعل فعلهم حكمه الرجم.

﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٨١-١٨٣]:

﴿وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الشعراء: ١٨٣-١٨٤]:

قال الزمخشري: «وهو عام في كل حق ثبت لأحد، أن لا يُهْضم، وفي كل مُلك أن لا يغصب عليه مالكة، ولا يتحيف منه، ولا يتصرف فيه، إلا بإذنه تصرفاً شرعياً».

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٨٩]:

قال الضحاك: «هم قوم شعيب، حبس الله عنهم الظل والريح، فأصابهم حر شديد، ثم بعث الله لهم سحابة فيها العذاب، فلما رأوا سحابة انطلقوا يرمونها، زعموا يستظلون بها، فاضطربت عليهم فأهلكتهم».

﴿تَنَزَّلُ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤]:

لم يقل: على سمعك؛ إذ العلاقة مع القرآن علاقة مع قلب؛ لذا ينبغي أن تكون ممزوجة بعاطفة؛ لأنها (علاقة حب).

﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]:

قال السعدي:

«وتأمل كيف اجتمعت هذه الفضائل الفاخرة في هذا الكتاب الكريم، فإنه أفضل الكتب، نزل به أفضل الملائكة، على أفضل الخلق، على أفضل بضعة فيه وهي قلبه، على أفضل أمة أخرجت للناس، بأفضل الألسنة وأفصحها، وأوسعها، وهو: اللسان العربي المبين».

﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]:

دليل على أن ذكر القرآن جاء في كل الكتب السماوية السابقة؛ لذا وجب على جميع من يعتنقون الكتب السابقة أن يؤمنوا بالقرآن.

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُدُ عَلِمَتُوا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧]:

علمه بعض أهل الكتاب مثل عبد الله بن سلام فأخبر به، وعلمه كثيرون غيره من أهل الكتاب، لكن لم يُخبروا به.

﴿وَلَوْ تَرَزَّلْتُهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ

مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٨-١٩٩]:

قال محمد بن أبي موسى: كنت واقفاً إلى جنب عبد الله بن مطيع بعرفة، فتلا هذه الآية: ﴿وَلَوْ تَرَزَّلْتُهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ قال: «لو نزل على بعيري هذا، فتكلم به ما آمنوا به».

ليست مشكلة البعض في ضعف البيان وغياب البرهان، بل هو العناد والإصرار على البهتان.

﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْا

الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الشعراء: ٢٠٠-٢٠١]:

أراد به تمكن التكذيب من قلوبهم أشد التمكين، فجعله بمنزلة أمر جُبلوا عليه. قال ابن عطية: «أراد بهم مجرمي كل أمة، أي إن هذه عادة الله فيهم، أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب».

﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٢]:

نصر الله لأوليائه ومحقه لأعدائه لا يأتي إلا بغتة.

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٤﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٥﴾ مَا

أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧]:

عن الزهري أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته، ثم قرأ:

﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ ، ثم يبكي ويقول:

نهارك يا مغرور سهوً وغفلة وليك نومٌ والردى لك لازم
فلا أنت في الأيقاظ يقظان حازم ولا أنت في النوام ناج فسالم
تُسَرُّ بما يفنى وتفرح بالمنى كما سُرَّ باللذات في النوم حالم
وتسعى إلى ما سوف تكره غبه كذلك في الدنيا تعيش البهائم

﴿١٠٠﴾ إذا رأيتَ أحدًا سبقك بهال أو عيال أو جاه أو سلطان، فاسبقه أنت بالجنة.

﴿١٠١﴾ كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:
كأنك لم تؤثر من الدهر ليلة إذا أنت أدركت الذي كنت تطلب
يعني: الجنة.

﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾

[الشعراء: ٢٠٨-٢٠٩]:

علّمنا ربنا في هذه الآية ألا نوقع عقوبة إلا بعد إنذار.

﴿١٠٢﴾ الأنبياء والمرسلون عليهم السلام هم أصحاب هذا المقام الجليل: مقام التذكير، ثم من بعدهم ورثتهم من العلماء العاملين.

﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ﴾ [الشعراء: ٢١٠]:

كانوا يقولون: إن لكل شاعر شيطانًا يمليه الشعر، وعندهم وادي يُسمّى وادي «عبقر» هو وادي الجن، فيقولون: فلان عبقرى أي: موصول بالجن في هذا الوادي، وأن القرآن من قبيل ما يُلقيه الشيطانُ على الكُهان، فأبطل الله زعمهم.

﴿١٠٣﴾ ذكر الله أنه يمتنع على الشياطين أن تنزل بالقرآن من ثلاثة وجوه:

الأول: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ﴾.

أي: ليس هو من بغيتهم ولا من طلبهم؛ لأن من سجايهم الفساد وإضلال العباد لا إصلاحهم.

الثاني: ﴿وَمَا يَسْتَطِيعُونَ﴾.

أي: ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك.

الثالث: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمْعَزُولُونَ﴾

أي: ولو انبغى لهم واستطاعوه، لما وصلوا إليه؛ لأنهم بمعزل عن استماع القرآن عند نزوله؛ لأن السماء ملئت حرّاً شديداً وشهباً. وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعه، وتأنيده لكتابه ولرسوله.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]:

لا محابة في الشرع!

الله تعالى يخاطب أحب الخلق إليه: أنت أكرم الخلق علي، ولو اتخذت إلهاً غيري لعذبتك!

﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤]:

القرب في الأنساب لا ينفع مع العد في الأسباب.

﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٣]:

كيف خوطب النبي ﷺ بهذا وهذا مستحيل في حقه؟! قال الألوسي: «تهييجا وحثاً لازدياد الإخلاص، فهو كناية عن: أخلص في التوحيد حتى لا ترى معه عز وجل سواه».

﴿وَاحْفَظْ جَنَّا حَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]:

قال الرازي:

«واعلم أن الطائر إذا أراد أن ينحط للوقوع كسر جناحه وخفضه، وإذا أراد أن ينهض للطيران رفع جناحه، فجعل خفض جناحه عند الانحطاط مثلاً في التواضع ولين الجانب».

﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٌّ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦]:

لم يقل: إني بريء منكم، فتبرأ من الفعل ولم يتبرأ من الفاعل، وكره المعصية لا العاصي، فتعلم يا كل داعية.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ [الشعراء: ٢١٧]:

قال القشيري: «انقطع إلينا، واعتصم بنا، وتوسَّل إلينا بنا، وكن على الدوام بنا، فإذا قلت فقل بنا، وإذا صُلِّت فُصِّل بنا، واشهد بقلبك - وهو في قبضتنا - تتحقق بأنك بنا ولنا».

لكن لماذا العزيز والرحيم؟!

قال الآلوسي: «فهو سبحانه يقهر من يعصيك منهم ومن غيرهم بعزته، وينصرك برحمته».

وفيه لطف لسائر المكلفين ببيان أن الإشراف من القبح والسوء بحيث يُنهى عنه من لم يمكن صدوره عنه، فكيف بمن عداه؟!».

اقترن اسم (العزيز) باسم (الرحيم) ٩ مرات في سورة الشعراء؛ لأن الله بعزته قادرٌ على أن ينصرك على عدوك الأقوى منك، وأنه برحمته يعصمك منهم.

﴿الَّذِي يَرْنَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء: ٢١٨-٢١٩]:

من علم أنه بمشهد من الحقَّ زهد في شهود الخلق، ومن راقب الحق أصلح جميع أعماله، وراعى خفايا أحواله.

﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء: ٢٢٠]:

إحساسك بأن الذي ابتلاك يسمع شكواك، ويرى مصابك وما أعياك، هو من أعظم ما يهون عليك بلواك.

﴿يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٣]:

عن عائشة رضي الله عنها: سألت ناس رسول الله ﷺ عن الكُهان؟ فقال: «ليس بشيء». قالوا: يا رسول الله.. إنهم يحدثونا أحياناً بشيء فيكون حقاً، فقال رسول الله ﷺ: «تلك الكلمة من الحق، يخطئها الشيطان، فيقرِّره بأذني وليه كقرقرة الدجاجة، فيخلطون فيه بأكثر من مائة كذبة». صحيح الأدب المفرد رقم: ٨٨٢.

﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]:

قال عبد الرحمن بن زيد: قال رجل لأبي: يا أبا أسامة، أرايت قول الله جلّ ثناؤه: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾، فقال له أبي: إنما هذا لشعراء المشركين، وليس شعراء المؤمنين، ألا ترى أنه يقول: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، فقال: فَرَجَّتْ عَنِّي يَا أبا أسامة، فَرَجَّ اللهُ عَنْكَ. من هم شعراء الرسول ﷺ؟!

قال ابن كثير: «لما نزل قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ جاء حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهم سيكون وقالوا: قد علم الله تعالى أنا شعراء، فتلا عليهم النبي ﷺ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. قال أنتم. ﴿وَذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ قال: أنتم. ﴿وَأَنْتَصِرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمْتُمْ﴾. قال: أنتم».

﴿إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الشعراء: ٢٢٧]:

استثناء من الشعراء المذمومين! ومن أصحاب هذا الاستثناء: كعب بن مالك، واسمع منه حين قال: دخلت على رسول الله ﷺ، فقالوا: هذا كعب، فسأل عليه الصلاة والسلام: كعب الشاعر؟ يقول كعب: كلمة.. ما أحبُّ أن لي بها الدنيا.

﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]:

وأبهم المنقلب لتذهل نفوس الظالمين، وتذهب كل مذهب ممكن من هول ما يتظرها، وكان السلف يتواعظون بهذه الآية، وختم بها أبو بكر ﷺ وصيته حين عهد لعمر ﷺ.

لما ظلم أحمد بن طولون قبل أن يعدل استغاث الناس من ظلمه، وتوجهوا إلى السيدة نفيسة يشكونه إليها فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا: في غد، فكتبت

رقعة ووقفت بها في طريقه وقالت: يا أحمد يا ابن طولون، فلما رآها عرفها،
 فترجّل عن فرسه، وأخذ منها الرقعة وقرأها، فإذا فيها:
 ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم، وخوّلتهم فعسفتم، ورُدّت إليكم الأرزاق
 فقطعتم، هذا وقد علمتم أن سهام الأسحار نافذة غير مخطئة، لا سيما من
 قلوب أوجعتموها، وأكباد جوعتموها، وأجساد عريتموها، فمحال أن
 يموت المظلوم ويبقى الظالم، اعملوا ما شئتم فإننا صابرون، وجوروا فإننا بالله
 مستجيرون، واذلموا فإننا إلى الله متظلمون، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ
 مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾، فعدل لوقته.



سورة النمل

﴿طَسَّ تِلْكَ ءَايَتُ الْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ١]:

الكتاب المبين هو القرآن، ووضوح آياته لمن استقامت نفسه وصفت روحه، وأما صاحب الاعوجاج، فأعمى لا يرى آياته، ولا يهتدي بها.

﴿هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٢]:

يبشر القرآن المؤمنين بعز الدنيا والآخرة إن هم عملوا به، فهو في الدنيا عز وشرف وسؤدد وسيادة، وفي الآخرة سبب الرحمة والجنة.

﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زِينَتًا لَّهُمْ أَعْمَلُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]:

مددنا لهم في غيهم وضلالهم، وحببنا إليهم سوء أفعالهم، وذلك عقوبة لهم على تكذيبهم لأمر الآخرة، فالجزاء من جنس الأعمال.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخَسُونَ﴾ [النمل: ٥]:

غير المؤمن بالآخرة يخسر الدنيا والآخرة، والمؤمن يربحهما جميعاً.

﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْءَانَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦]:

هذا القرآن نزل من عند حكيم بتدبير خلقه، فحكمه هو العدل، وعليم بأحوالهم وما فيه الخير لهم، فخبره هو الصدق.

﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لَأَهْلِيهِ إِنِّي ءَافِسْتُ نَارًا سَفَاتِيكُمْ مِنْهَا يُخْرِ أَوْ ءَاتِيكُمْ

بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]:

قوله: ﴿بِقَبَسٍ﴾ دليل على شدة الظلام.

وقوله: ﴿تَصْطَلُونَ﴾ دليل على شدة البرد، وذلك قبل لحظات من تكليم

الله له، فلا تخنقك ساعة الشدة، فربما لا يفصلك عن بهجة الفرج سوى لحظات.

﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]:

نسي موسى نفسه فلم يقل: نصطلي، بل طلب الدفء من أجل غيره، فأكثر خطواتنا بركة ما كانت من أجل الآخرين.

﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨]:

المراد بمن في النار: من هو قريب منها، وهو موسى عليه السلام، ومن حولها هم الملائكة الذين شهدوا هذا المشهد العظيم، أو الأرض التي شهدت هذا المشهد.

﴿وَسُبَّحْنَ اللَّهَ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٨]:

المراد تنزيه الله عما قد يخطر بالبال أن ذاته محدودة في ذلك المكان أو أنه يتحيز في جهة من الجهات، فكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، وأجل من ذلك.

﴿يَمُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]:

في إثارة هذه الأسماء الجليلة سرٌّ بديع، أي: أنا العزيز الغالب القاهر لكل عاتٍ متمرد كفرعون وغيره، والحكيم في كل شيء، في بعثتك يا موسى وإرسالك، وحلمي على فرعون وإمهاله.

﴿إِنِّي لَا تَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ١٠-١١]:

﴿فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النمل: ١٠-١١]:

ما معنى الخوف بعد التوبة والمغفرة؟

قال القرطبي: «هذه سبيل العلماء بالله عز وجل أن يكونوا خائفين من معاصيهم وجلين، وهم أيضًا لا يأمنون أن يكون قد بقي من أشرار التوبة شيء لم يأتوا به، فهم يخافون من المطالبة به».

﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرِّجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل: ١٢]:

احرص على انتقاء كلماتك!

انظر جمال اختيار القرآن للألفاظ: قال من غير سوء بدلًا من البرص.

﴿فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [النمل: ١٢]:

وتحديد الآيات بالتسع، لا ينفي أن هناك معجزات أخرى أعطاها الله لموسى عليه السلام. قال ابن كثير:

«ولقد أوتي موسى عليه السلام آيات أخرى كثيرة، منها ضربه الحجر بالعصا، وخروج الماء منه.. وغير ذلك، ولكن ذكر هنا هذه الآيات التسع التي شاهدها فرعون وقومه، وكانت حجة عليهم فخالفوها وعاندوها كفرا وجحودا».

﴿فَالَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل: ١٣]:

تكاد الآيات من شدة الوضوح تُبصر نفسها فتتهدي، وهم لا يهتدون!

﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]:

كم من نفوس تعرف الحق، لكن عنادها وكبرها منعها من الانقياد إليه.

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦]:

ورثه في النبوة لا في المال، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم، فاحرص على توريث دينك لأولادك، فهو وحده ما ينفعهم في الآخرة.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: ١٥]:

إذا زادك الله علما، فازدد له شكرا، فلا تتضاعف النعم إلا بالشكر.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥]:

أوسع عطاء هو عطاء العلم، فإذا آتاك الله إياه، فأنفق منه على غيرك، فتكون متعلما ومعلما.

﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]:

قال السعدي: «عنوان سعادة العبد أن يكون شاكرا لله على نعمه الدنيوية والأخروية، وأن يرى جميع النعم من ربه، فلا يفخر بها، ولا يُعجب بها، بل يرى أنها تستحق عليه شكرا كثيرا».

﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦]:

قال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ أي: في الملك والنبوة، وليس المراد وراثته المال، إذ لو كان كذلك، لم يخص سليمان وحده من بين سائر أولاد داود، ولكن المراد بذلك وراثته الملك والنبوة، فإن الأنبياء لا تورث أموالهم، أخبر بذلك رسول الله ﷺ: «نحن معاشر الأنبياء لا نُورَث، ما تركناه صدقة».

﴿عَلِمْنَا مِنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦]:

لاحظ تواضعه، يقول: لولا أن الله علّمني ما علّمت.

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَنَ جُنُودُهُ مِنْ آلَيْنِ وَالْطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]:

الحشر هو الإحضار والجمع من الأماكن المختلفة، ولا يكون إلا مع العقل الذي يصح معه التكليف، وقد جعل الله الطير في أيام سليمان مما له عقل، وليس هذا حال الطيور في أيامنا، وإن كان فيها ما ألهمه الله بعض الأعمال التي تحصل بها منافع العباد مثل النحل. ذكره الإمام الرازي.

﴿يَأْتِيهَا النَّمْلُ آدْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ﴾ [النمل: ١٨]:

قال عنها السيوطي: «جمعت أحد عشر جنسا من الكلام: النداء، والكناية، والتنبيه، والتسمية، والأمر، والقصص، والتحذير، والتخصيص، والتعميم، والإشارة، والعذر، فأدّت خمسة حقوق: حق الله، وحق رسوله، وحقها، وحق رعيتهما، وحق نبيها، ورعيته».

﴿لَا تَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَنُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]:

اعتذرت هذه النملة عن الخطأ قبل وقوعه، فليتنا نتعلم منها حسن الظن والتماس الأعذار.

يقول أهل البلاغة: إن هذه النملة جمعت ثلاثة عشر أمراً:

أَحْسَتْ: أحست بوجود الخطر.

وبادرت: بادرت بإبلاغ النمل بما سيأتي.

ونادت: يا.

ونبهت: أيها.

وأمرت: ادخلوا.

ونمت: لا يحطمنكم.

وأكدت: نون التوكيد في يحطمنكم.

ونصحت: بنوع الفعل الواجب عمله.

وبالغت: يحطمنكم كلكم.

وبيّنت: من الذي أتى بالخطر.

وأنذرت: أنذرت النمل.

وأعذرت: وهم لا يشعرون.

ونفّت: لا يشعرون.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩]

قال الزجاج: «أكثر ضحك الأنبياء التبسم». اقتد بالأنبياء فأكثر من التبسم.

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ [النمل: ١٩]

التبسم ضحك أهل الوقار.

﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ﴾ [النمل: ٢٠]

قال القرطبي: «في هذه الآية دليل على تفقد الإمام لأحوال رعيته، والمحافظة عليهم، ويرحم الله عمر فإنه كان على سيرته، قال: لو أن بغلة على شاطئ الفرات أخذها الذئب لُيسأل عنها عمر، فما ظنك بوالٍ تذهب على يديه البلدان، وتضيع الرعية ويضيع الرعيان».

﴿لَأَعَذَّبَنَّكَ عَبْدًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْنَحَنَّكَ أَوْ لَيَأْتِيَنِي بِسُلْطَنٍ مُّبِينٍ﴾ [النمل: ٢١]

لم يُقسَم على تعذيبه أو قتله إلا إذا لم يقدم عذرًا مقبولًا لتخلفه، فهذا مقتضى العدل.

﴿أَحْطَتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢]:

في حضرة الأنبياء وهم أعظم العظماء تمتلك الطيور الجرأة على إبداء الرأي وقول الحق.. إنها الحرية!

﴿أَفَادَتْ أَنَّهُ قَدْ يَوْجَدُ مِنَ الْعِلْمِ عِنْدَ الْأَصَاغِرِ مَا لَا يَوْجَدُ عِنْدَ الْأَكْبَارِ، وَعِنْدَ الْمُتَأَخِّرِينَ مَا لَمْ يَكُنْ عِنْدَ الْمُتَقَدِّمِينَ!﴾

تعلموا الشجاعة في النطق بكلمة الحق من هذا الهدهد.

﴿عَجِيبُ أَمْرِكَ أَيُّهَا الدَّاعِيَةُ أَوْ الْأَمِيرُ أَوْ صَاحِبُ الْمَنْصِبِ الْكَبِيرِ.. تَأْنَفُ مِنْ نَصْحِ الْآخِرِينَ لَكَ، وَتَرَاهُ انْتِقَاصًا مِنْ مَقَامِكَ وَسَبِيًّا لِإِحْرَاجِكَ!﴾

﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل: ٢٣]:

أول ما أنكره هدهد سليمان عبودية البشر للبشر، فالحيوانات أعقل من بعض البشر.

﴿وَوَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤]:

غار الهدهد على محارم الله، فمتى نغار إذا انتهكت محارم الله!

﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ [النمل: ٢٥]:

طائر غير مكلف يُنكر المنكر، ويتعجب بفطرته السليمة من عدم القيام بأمر الله، فبعض الحيوانات أعقل من بعض البشر.. اللهم اجعل أفئدتنا كأفئدة الطير.

﴿أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ﴾ [النمل: ٢٥]:

كيف كافأ الله الهدهد! قال القرطبي: نهى عن قتل الهدهد؛ لأنه كان دليل سليمان على الماء ورسوله إلى بلقيس. عن ابن عباس أن النبي ﷺ: «نهى عن قتل أربع من الدواب النملة، والنحلة، والهدهد، والصَّرد».

﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦]:

أين يذهب عرش بلقيس أمام عرش الرحمن؟! عرشها عظيم، وعرش ربي عظيم، لكن شتان ما بين العظمتين.

﴿عَلَّمَ الْهَدَّهِدَ الْمَسْكِينَ عَنْ عِظَمَةِ عَرْشِ الرَّحْمَنِ مَا جَهِلَهُ بَعْضُ الْمُسْلِمِينَ!﴾

﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ [النمل: ٢٧]:

فتثبتوا! تثبت قبل أن تصدر أحكامك، واستمع قبل أن تتخذ قراراتك، فكم قطعت العجلة من حبال الود، وكم فرّق عدم التأني بين المتحابين.

﴿أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ [النمل: ٢٨]:

قال صاحب الكشف:

«فإن قلت: لم قال: فألقه إليهم. على لفظ الجمع؟ قلت: لأنه قال: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ﴾، فقال: فألقه إلى الذين هذا دينهم، اهتماما منه بأمر الدين، واشتغالا به عن غيره، وبنى الخطاب في الكتاب على لفظ الجمع لذلك».

﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩]:

النفوس الكريمة ترى الكرم في من حولها، والنفوس الجميلة مثلها، وكما قال إيليا أبو ماضي:

أيها الشاكي وما بك داء كن جميلاً تر الوجود جميلاً

﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ [النمل: ٣٠]:

عظمت الكتاب لأنه جاء من ملك عظيم، فكيف تعظيمنا نحن للكتاب الذي جاءنا من رب العالمين؟!

﴿أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣١]:

تركنا العزة في الدين، ففقدنا علونا، وضاعت هيبتنا بين العالمين.

﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ [النمل: ٣٢]:

قيل: إن بلقيس هي أول من سنّ سنة طلب المشورة.

﴿أَفْتُونِي فِي أَمْرِي﴾ [النمل: ٣٢]:

قال القشيري:

«أخذت في المشاورة كما تقتضيه الحال في الأمور العظام، فإن الملك لا ينبغي أن يكون مستبداً برأيه، ويجب أن يكون له قوم من أهل الرأي والبصيرة».

﴿قَالَتْ يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٌ فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [١٠٧٣]

[النمل: ٣٢]:

تعلموا السياسة ولباقة الحديث من بلقيس، حيث جمعت القادة واستشارتهم، وأعلمتهم أن هذه عادتها الراسخة، فطابت نفوسهم، وازدادت بها ثقتهم.

﴿مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ﴾ [النمل: ٣٢]:

هذا فن الحوار واستمالة القلوب لئلا يخالفوها في الرأي والتدبير.

﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسِ شَدِيدٍ﴾ [النمل: ٣٣]:

القوة مغرية والسلاح باطش!

أحسّت بلقيس من قادة الجيش الطيش والميل إلى الحرب والاستقواء بالسلاح، والميل عن الصواب، فشرعت في رد مقالتهم.

﴿قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً وَأَوْلُوا بِأَسِ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا

تَأْمُرِينَ﴾ [النمل: ٣٣]:

أرادوا نحن من أبناء الحرب لا من أبناء الرأي والمشورة، فميداننا ساحات القتال لا قاعات السياسة.

﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٣]:

تصديق لرأي بلقيس من جهة الله تبارك وتعالى، وهو كذلك إبراز لقيمة هذه المرأة ونضج رأيها.

﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤]:

لذا كان أول السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل.

و﴿كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]:

ما أعظم تكريم الله للمرأة!

قال القرطبي: فقال الله عز وجل تحقيقاً لقولها: ﴿وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥]:

قال قتادة: «رحمها الله ورضي عنها، ما كان أعقلها في إسلامها وفي شركها!! علمت أن الهدية تقع موقعا من الناس». تهادوا تحابوا!

﴿وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ﴾ [النمل: ٣٥]:

قد تمنع الهدية حرباً! قال ابن عباس: «قالت لقومها: إن قبل الهدية فهو ملكٌ فقاتلوه، وإن لم يقبلها فهو نبي فاتبعوه».

﴿فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَنَ قَالَ أْتِمِدُونَنِي بِمَالٍ فَمَّا أَتَيْنِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا أَتَيْتُكُمْ﴾

[النمل: ٣٦]:

إياك أن تقبل هدية تحاول إغراءك لتتنازل عن مبادئك.

﴿بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ﴾ [النمل: ٣٦]:

أي: أنتم تفرحون إن جاءتكم هدية من أحد، أو تفرحون لأنني سأردُّ إليكم هديتكم، أو تفرحون إن قبلتُ هديتكم، فهذه ثلاثة معانٍ للآية.

﴿أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ

صَغِيرُونَ﴾ [النمل: ٣٧]:

قاعدة في السياسة والترية نقلها الشيخ على الطنطاوى: «لا أستخدم سوطي ما دام يجدي صوتي، ولا أستخدم صوتي ما دام يجدي صمتي».

﴿قَالَ يَتَابِعُهَا أَلَمَلُوا أَيْكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشَهَا﴾ [النمل: ٣٨]:

لم خصَّ العرش بالذكر؟!

قال أبو جعفر الطبري: «وأولى الأقوال بالصواب في السبب الذي من أجله خصَّ سليمان بسؤاله الملأ من جنده بإحضاره عرش هذه المرأة دون سائر ملكها عندنا، ليجعل ذلك حجة عليها في نبوته، ويُعرفها بذلك قدرة الله وعظيم شأنه، أنها خلفته في بيت في جوف أبيات، بعضها في جوف بعض، مغلق مقفل عليها، فأخرجه الله من ذلك كله، بغير فتح أغلاق وأقفال، حتى أوصله إلى وليِّه من خلقه، وسلَّمه إليه، فكان لها في ذلك أعظم حجة، على حقيقة ما دعاها إليه سليمان، وعلى صدق سليمان فيما أعلمها من نبوته».

﴿أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩]:

القوة والأمانة ضرورة في كل المهام على مدى الأزمان.

﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ [النمل: ٣٩]:

لقادر على الإتيان به، وأمين لا أمسه بسوء، ولا أقتطع منه شيئاً لنفسى.

﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ

طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠]:

دليل على أنه يتأتى بالعلم ما لا يتأتى بالقوة، وأن الحكمة مكتسبة لقوله:

﴿عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ ، وأن الحكمة طريق امتلاك القوة.

﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَتْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]:

الفارق بين الملوك الجاهلين والملوك الشاكرين! قال السَّعْدِي: «أي ليختبرني

بذلك، فلم يغتر ^{الملك} بملكه وسلطانه وقدرته كما هو دأب الملوك الجاهلين،

بل علم أن ذلك اختبار من ربه، فخاف أن لا يقوم بشكر هذه النعمة».

﴿وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾ [النمل: ٤٠]:

لأن نفع الشكر يعود إليه دنيوياً بدوام العافية، وأخروياً بالأجر العظيم، وقد

قيل: الشكر قيد النعم الموجودة، وصيد النعم المفقودة.

﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَنْتَدِينِ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٤١]:

سليمان رغم مُلكه العظيم وتسخيره الجن، لا يعلم الغيب، ولا يستطيع هداية

أحد من الخلق.

﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا

وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٤٢]:

دقة جوابها دليل على جودة عقلها.

قال أبو حيان: «لم تجزم بأنه هو، ولا نفته النفي البالغ، بل أبرزت ذلك في

صورة تشبيهية فقالت: كأنه هو، وذلك من جودة ذهنها».

﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تُعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [النمل: ٤٣]:

في ذكر فعل الكون (كانت) مرتين إشارة إلى أن الكفر قد أحاط بها مرتين، مرة بتغلغله في نفسها، ومرة ثانية بنشأتها عليه بين قوم كافرين، فمن أين يتسلل إليها الإيمان؟! إلیها الإيمان؟!

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]:

أعظم الظلم ظلم النفس، وأعظم ظلم للنفس: أن تشرك بالله.

﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ [النمل: ٤٤]:

ولم تقل: (أسلمت لسليمان)، فعبوديتها هي وسليمان لله رب العالمين، وهكذا يحرر الإسلام أهله من عبودية البشر مهما كانت مكائدهم، بل ومهما كان قربهم من الله.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ آعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ﴾ [النمل: ٤٥]:

مُخْتَصِمُونَ

أصبحوا فريقين: فريق مؤمن، وفريق مشرك، فصاروا يختصمون: المؤمنون ينصرون دينهم الحق، وغيرهم ينصر دينه الباطل بالباطل، وهي سنة الله الماضية في كل زمان ومكان.

﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النمل: ٤٦]:

استنزلوا رحمت الله بالاستغفار، وإذا كان الخطاب هنا للكافر ليستغفر ويرجو الرحمة، فكيف بالمؤمن؟! ويرجو الرحمة، فكيف بالمؤمن؟!

﴿قَالُوا أَطِيرَنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ [النمل: ٤٧]:

أي تشاء منا، والشؤم: النحس.

قال القرطبي: «ولا شيء أضرَّ بالرأي ولا أفسد للتدبير من اعتقاد الطيرة، ومن ظنَّ أن خوار بقرة أو نعيق غراب يُردُّ قضاء، أو يدفع مقدورا فقد جهل».

﴿قَالُوا أَطِيرَنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ﴾ [النمل: ٤٧]:

في الحديث النبوي: «الطيرة شرك». صحيح الجامع رقم: ٣٩٥٥.

﴿قَالَ طَبِيرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧]:

استعير اسم الطائر للتعبير عما حلَّ بهم من مصائب للمشاكلة في قولهم (اطيرنا)، ومخاطبة لهم بما يفهمون لإصلاح ما يعتقدون.

﴿قَالَ طَبِيرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧]:

لما جاءهم صالح عارضوه، فأصابهم قحط شديد، وضئت السماء بالمطر، فقالوا: إن صالحًا سبب القحط لا الذنب، فكانت هذه فتنتهم.

﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [النمل: ٤٨]:

قال مالك بن دينار وقد تلا هذه الآية: «وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةٌ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ» [النمل: ٤٨]:
«فكم اليوم في كل قبيلة من الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون».

﴿تِسْعَةٌ رَهْطٍ﴾ [النمل: ٤٨]:

الرهط اسم للجماعة، فقد كان هؤلاء التسعة رؤساء، يتبع كل واحد منهم رهط، يجمعون الناس حولهم لإفسادهم، أفلا نجمع نحن الناس حولنا لهدايتهم؟!

الهدم دائمًا أسهل من البناء، فلا تحتقر المفسدين مهما قلَّ عددهم.

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩]:

تعاهد هؤلاء التسعة، وأقسموا بالأيمن المغلظة على أن يباغتوا صالحًا وأهله ليلا، فيقتلوهم جميعًا، ثم يقولون لأقارب صالح: ما حضرنا هلاك أهله ولا هلاك صالح معهم، ولا علم لنا بمن قتلهم، وإنا لصادقون في كل ما قلناه.

﴿١٠٦﴾ أسهل شيء على الفاجر أن يرتكب أبشع الجرائم، ثم يحلف كاذباً أنه بريء!

﴿١٠٧﴾ كثرة الحلف من أشهر علامات الكاذب.

﴿١٠٨﴾ **﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾** [النمل: ٥٠]:

قال ابن عاشور: «سمّى الله تأمرهم مكرًا لأنه كان تدبير ضُرّ في خفاء، وأكّد مكرهم بالمفعول المطلق للدلالة على قوته في جنس المكر، وتنوينه للتعظيم».

﴿١٠٩﴾ **﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** [النمل: ٥٠]:

قال سيد قطب: «وأيّن مكر من مكر؟ وأيّن تدبير من تدبير؟ وأيّن قوة من قوة؟ وكم ذا يخطئ الجبارون وينخدعون بما يملكون من قوة ومن حيلة، ويغفلون عن العين التي ترى ولا تغفل، والقوة التي تملك الأمر كله، وتباغتهم من حيث لا يشعرون».

﴿١١٠﴾ **﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَاقْتَرَبَ تَدْمِيرُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾** [النمل: ٥١]:

كلما عظم مكرهم اقترب تدمير الله لهم.

﴿١١١﴾ خَطَّطَ نفر منهم لقتل صالح وأهله، فدّمرهم الله وقومهم أجمعين؛ لأن الله يغضب ممن آذى أوليائه أشد الغضب، ويغضب على من سكت عمّن آذى أوليائه.

﴿١١٢﴾ **﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾** [النمل: ٥٢]:

قال الآلوسي: «وفي هذه الآية دلالة على أن الظلم يكون سبباً لخراب الدور، وروي عن ابن عباس أنه قال: أجد في كتاب الله تعالى أن الظلم يخرّب البيوت وتلا هذه الآية، وفي التوراة: ابن آدم.. لا تظلم يُخرّب بيتك، قيل: وهو إشارة إلى هلاك الظالم، إذ خراب بيته عقب هلاكه».

﴿١١٣﴾ **﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾**

[النمل: ٥٢]:

سمع ابن عباس كعب الأحبار يقول: من ظلم خرب بيته، فقال تصديقه في القرآن: **﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا﴾**.

﴿وَأُنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل: ٥٣]:

على قدر تقاتك تكون كفاءة طوق نجاتك.

﴿وَلَوْ طَآءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [النمل: ٥٤]:

قال الرازي:

«وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» فيه وجوه:

أحدها: أنهم كانوا لا يتحاشون من إظهار ذلك على وجه الخلاعة، ولا يتكاثمون. وثانيها: أن المراد بصر القلب، أي تعلمون أنها فاحشة لم تُسَبِّقُوا إليها، وأن الله تعالى لم يخلق الذكر للذكر، فهي مضادة لله في حكمته. وثالثها: تبصرون آثار العصاة قبلكم وما نزل بهم.

﴿أَيُنْكِمُ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل: ٥٥]:

فُسِّرَتْ ﴿تُبْصِرُونَ﴾ في الآية السابقة بالعلم، وفي هذه الآية: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾، فكيف يجتمع العلم مع الجهل؟ قيل: أراد تفعلون فعل الجاهلين بأنها فاحشة، مع علمكم بذلك، أو تجهلون العاقبة، أو أراد بالجهل السفاهة والمجانة التي كانوا عليها.



الجزء العشرون

سورة النمل ٥٦
إلى سورة العنكبوت ٤٥
عدد الفوائد: ٢٨٣

قال الإمام السيوطي:

«وإن كتابنا القرآن هو مفجّر العلوم ومنبعها، ودائرة
شمسها ومطلعها، أودع فيه سبحانه وتعالى علم كل
شيء، وأبان فيه كل هديٍّ وغيٍّ، فترى كل ذي فنٍّ منه
يُسْتَمَدُّ، وعليه يعتمد».

الإتقان ١ / ٣٩

الجزء العشرون سورة النمل ٥٦ إلى سورة العنكبوت ٤٥

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ^ط إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]:

هذا حين كثر الخبث، يصبح أهل الطُّهر مستنكرين.

﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ﴾ [النمل: ٥٧]:

الهداية توفيق إلهي قد تُحَرِّم منه زوجة نبي، وتهتدي إليه قبل موتها امرأة بغي!

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا^ط فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [النمل: ٥٨]:

الإنذار الرباني

(يأس بعد إطماع)، وهو أبلغ من العذاب والإيلام، حين تستشرف للخير فيفاجئك الشر،

فهو ليس مطر خير ورحمة، إنما مطر عذاب ونقمة.

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [النمل: ٥٩]:

في الحديث: «أفضل الذكر: لا إله إلا الله، وأفضل الدعاء: الحمد لله». صحيح الجامع رقم: ١١٠٤.

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]:

جاءت امرأة إلى الإمام الجنيد تشتكي أن ابنها ضاع، فقال لها: اذهبي واصبري، فعادت إليه ففعلت مثل ذلك مرات إلى أن قالت: عيل صبري (أي نفد صبري)، ولم يبق لي طاقة، فادعُ لي، فقال الجنيد: إن كان كما قلت،

فاذهبي، فقد رجع ابنك، فمضت ثم عادت تشكره، فقيل للجنيذ: كيف عرفت ذلك؟ فقال: قال الله تعالى: ﴿أَمِّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرُّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ

السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]

﴿أَمِّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرُّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]:

قال عبد الله بن أبي صالح المكي: دخل طاووس يعودني (أي في مرض)، فقلت: يا أبا عبد الرحمن.. ادعُ الله لي، فقال: ادع لنفسك، فإنه يجيب المضطر إذا دعاه.

﴿أَمِّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرُّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]:

قال ابن الجوزي:

«فإياك أن تستطيل مدة الإجابة، وكن ناظرًا إلى أنه المالك..

وإلى أنه الحكيم في التدبير، والعالم بالمصالح..

وإلى أنه يريد اختبارك، ليلو أسرارك..

وإلى أنه يريد أن يرى تضرعك..

وإلى أنه يريد أن يأجرك بصبرك إلى غير ذلك.

وإلى أنه يبتليك بالتأخير، لتحارب وسوسة إبليس.

وكل واحدة من هذه الأشياء تقوي الظن في فضله، وتوجب الشكر له، إذ

أهلك بالبلاء لتلتفت إلى سؤاله، وإن فقر المضطر إلى اللجوء إليه غنى كله».

﴿أَمِّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [النمل: ٦٣]:

يهديكم بما خلق من الدلائل السماوية والأرضية.

﴿وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّحَ بُثْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ أَلَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا

يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٦٣]:

هل سألت نفسك يومًا:

ما مصيرك لو توقفت الرياح، فانقطعت السُّحب، فانقطع المطر، فمات الزرع،

وهلك الضرع؟! ماذا يكون مصيرك؟!

﴿أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤]:

من الخالق؟ من المحيي؟! من الرازق؟! تعرفوا إلى الله من أسمائه وصفاته، وإلا فكيف تعبدون من لا تعرفون؟!

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]:

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في حديث لها في «الصحاحين»: «ومن حدثكم أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان يعلم ما في غد؛ فقد أعظم على الله الفرية».

﴿بَلْ آذَانُكَ عَمُّهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦]:
اضمحل علمهم بالآخرة لكفرهم بها في الدنيا، فإذا ما بُعِثوا يوم القيامة وشاهدوا العذاب، تكامل علمهم وصار عين يقين، وثبت ما كانوا ينكرونه في الدنيا.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَبْنَاءُ لَمْخَرَجُونَ﴾ [النمل: ٦٧]:
وينسون أنهم خلقوا أول مرة، ولم يكونوا من قبل شيئاً، ولا يدري أحد أين كانت الخلايا والذرات التي تكونت منها هياكلهم الأولى، فهؤلاء في خلقتهم أول مرة، فما العجب أن يكونوا كذلك أو على نحو آخر في المرة الآخرة!

﴿لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [النمل: ٦٨]:
قدّم ما وعدهم به: ﴿هَذَا﴾؛ لأن السياق يرد على إنكار البعث، فالتقديم يفيد التأكيد ومزيد الاعتناء.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَنَقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]:
التعميم مقصود.

لم لم يقل عاقبة الكافرين؟ قال الرازي: الغرض أن يحصل التخويف لكل العصاة.

﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٠]:

النهي عن الحزن لأنه خائف الإيثار وسبيل الشيطان.
حربهم مع الله وليست معك..

معاداتهم لدين الله وليست لشخصك؛ لذا فالأمر محسوم، والقضية منتهية.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٧١]:

وعد الله قد يتأخر لحكمة، لكنه أكيد.

﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾ [النمل: ٧٢]:

ليس أجمل من نفس تدمن الرجاء وتجعل حبله موصولاً نحو السماء، لا تقطعه مهما طال بها البلاء، حتى يأتي موعد الفرج والعطاء.
قال الزمخشري:

و(عسى) و(لعل) و(سوف) في وعد الملوك ووعدهم، يدل على صدق الأمر وجدّه، وما لا مجال للشك بعده.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [النمل: ٧٣]:

قليل من الناس من يعرف الفارق بين ما هو نعمة من الله وما هو محنة، فإذا تقاصر علم العبد عما فيه صلاحه، فعسى أن يجب شيئاً يظنه خيراً وبلاؤه فيه، ورُبَّ شيء يظنه العبد نعمة فيشكر عليها ويطلب دوامها، وهي محنة له يجب الصبر عليها والتضرع إلى الله في صرفها!

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [النمل: ٧٤]:

أنت أمام الله كتاب مفتوح، فمهما تزينت أمام الخلق لتخفي عنهم سيئاتك، فأنت عند الله مكشوف بحسناتك وسيئاتك.

﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل: ٧٥]:

أنت مراقب، لكن رقابة لطيفة، لا تشعر بها، ولو شعرت بها لاختنقت من ضيق المراقبة والملاحقة.

- ١- إثبات علم الله السابق على تلك الكتابة، وأنه علم لا يتبدل، ولا يتغير.
- ٢- تطمين العبد المسلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، ففيه التسليم لقضاء الله، والرضا بقدره.
- ٣- وفيه بيان لمشيئة الله النافذة التي لا راد لها، ولا مُعَقَّب لحكمه.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَفُصُّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦]:

كاختلافهم في عيسى وتباينهم فيه، فاليهود افتروا عليه، والنصارى غلّوا فيه.

﴿وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ٧٧]:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [النمل: ٧٨]:

بين الظالم والمظلوم.

والمحق والمبطل.

والمؤمن والكافر.

﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]:

لماذا التوكل؟!

لأنك على الحق، والله هو الحق، وناصر الحق، وخازن كل من خذل الحق.

﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْكَلِمَاتِ وَلَا تَسْمَعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ [النمل: ٨٠]:

الأموات لا يسكنون القبور فحسب، فكثير منهم يسكنون البيوت.

﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعَمَىٰ ۖ إِنَّ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [النمل: ٨١]:

أنت تهدي من حيث الدعوة والدلالة، لكنك لا تهدي أحداً من نزع الباطل من القلب وجذبه نحو الإيثار، إذ ليس هذا بمقدورك وأنت نبي، فكيف يظن ذلك في نفسه من هو دونك؟

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا

يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]:

مرض آخر الزمان هو ضعف اليقين؛ ولذا قال ﷺ: «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل». صحيح الجامع رقم: ٣٨٤٥.

﴿أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا

يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢]:

تنزل الدابة ناطقة كعلامة من علامات الساعة، ولا يُقبل عندها الإيمان. قال رسول الله ﷺ:

«ثلاث إذا خرجن لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً: طلوع الشمس من مغربها، والدجال، ودابة الأرض».

لم التعجب، أليس تكلم النمل وتكلم الطير وتكلم الجن، فسوف تتكلم الدابة.

﴿وَيَوْمَ نَخْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

[النمل: ٨٣]:

فوجٌ من كبار طُغاتهم، ليرى التابعون مصارع المتبوعين، ويشهد الضعفاء مصارع الأقوياء، فتقطع كل آمالهم في النجاة.

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ معناه يحبس أولهم على آخرهم حتى يجتمعوا فيكبكبوا في النار، وهذه عبارة عن كثرة العدد وتباعد أطرافه.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ إِذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [النمل: ٨٤، ٨٥]:

أي شيء اشتغلتم به من العمل للآخرة الخالدة؟! كأنه قال: كل عمل غير عمل الآخرة ليس بعمل.

﴿فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ أي ليس لهم عذر ولا حجة. وقيل: يختم على أفواههم فلا ينطقون، قاله أكثر المفسرين.

١١٤٩ ومن لطائف بعض أدباء العصر ما نظمه في الفونغراف، مستشهدا به في ذلك، فقال:

ينطق الفونغراف لنا دليل	على نطق الجوارح والجماد
وفيه لكل ذي نظر مثال	على بدء الخليفة والمعاد
يدير شؤونه فرد بصور	به الأصوات تجري كالمداد
فيثبت رسمها قلم بلوح	على وفق المشيئة والمراد
وبعد فراغها تمضي كبرق	ولا أثر لها في الكون بادى
تظن بأنها ذهبت جفاء	كما ذهبت بريح قوم عاد
وهذي آلة من صنع عبد	فكيف بصنع خلاق العباد؟
تبارك من يعيد الخلق طرا	بنفخة صورهِ يوم التناد

١١٥٠ ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِيلَ لِسَانِكُمْ فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٦]:

ليكون الليل وقت سكونهم، والنهار وقت طلب معاشهم، فلا تقلبوا سنن الله، فتضطرب حياتكم.

١١٥١ ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]:

في النفخ في الصور أنها نفختان، وأن نفخة الفزع إنما تكون راجعة إلى نفخة الصعق لأن الأمرين لازمان لهما، والمراد -هنا النفخة الثانية- أي: يحيون فزعين، يقولون: ﴿مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ ويعاينون من الأمر ما يهولهم ويفزعهم.

١١٥٢ ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ الذين لا يفزعون، قيل: الأنبياء، وقيل: الشهداء، وقيل: الملائكة.

ولعل الأنسب أن يكون المراد ما يعم هؤلاء السعداء وغيرهم، ممن رضي الله عنهم ورضوا عنه؛ لأنه لم يرد نص صحيح يحدددهم.

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنَعَ اللَّهُ الَّذِي اتَّقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٨٨]:

العلامة الثالثة لقيام القيامة هي تسيير الجبال.

في ذلك اليوم بعد أن تُنزع من الأرض وتُسير بين السماء والأرض.

ثم إنَّ رب السماوات والأرض يطحن تلك الجبال بقوته، فقساوة الجبال وشدتها عنده لا شيء لعظمته وكمال قدرته فيطحنها (جل وعلا) ويفتتها؛ وبعد تفتيتها مرّة شُبّهت بالبسيصة - والبسيصة: دقيق ملتوت بسمن - وهو قوله: ﴿وَدُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا﴾ [الواقعة: ٥] أي: فُتت حتى صارت كالبسيصة.

وتارة شَبَّهها في لينها وانتزاع القسوة منها بالعن المنفوش، كقوله: ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ [القارعة: ٥].

وتارة شَبَّهها بالرمل اللين المتهايل في قوله: ﴿وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَيْبًا مَّهِيلًا﴾.

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٩]:

قدم معروفًا واحدًا يأتك عشرة أمثاله.

الجزء على الحسنة خير من الحسنة؛ لأنك تفعل الحسنة فِعْلًا موقوتًا، أما خيرها والثواب عليها، فسيظل لك خالدًا بلا نهاية.

﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تَجْزُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠]:

قال ابن كثير:

«أي من لقي الله مسيئًا لا حسنة له، أو قد رجحت سيئاته على حسناته كل بحسبه».

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٩١]:

يعني مكة التي عظم الله حرمتها، فجعلها حرما آمنا، لا يُسَفَك فيها دم، ولا يُظلم فيها أحد، ولا يُقَطع فيها شجر.

﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمِنْ أَهْتَدَى﴾ [النمل: ٩٢]:

١١٥٨

تلاوة القرآن على الناس من أعظم أسباب الهداية، وكم من مهتدٍ في ليلة من ليالي رمضان، بعد أن سمع القرآن في خشوع بصلاة التهجد أو التراويح.

﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٩٢]:

١١٥٩

فيه المواظبة على قراءته على الناس للدعوة والإرشاد، أو المواظبة على قراءته لزيادة الإيمان والاسترشاد، وليكون نعم الزاد.

﴿وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ﴾ [النمل: ٩٢]:

١١٦٠

في كم تختم القرآن؟! في الحديث: «اقرأ القرآن في كل شهر، اقرأه في خمس وعشرين، اقرأه في خمس عشرة، اقرأه في عشر، اقرأه في سبع، لا يفقهه من يقرؤه في أقل من ثلاث». صحيح الجامع رقم: ١١٥٧.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رُبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

١١٦١

[النمل: ٩٣].

فطوبى لمن اعتبر بالآيات، فرجع إلى ربه قبل وفاته، وويل لمن رجع إليه بعد انقضاء العمر وفواته.



سورة القصص

﴿طسّم﴾ [القصص: ١]:

الأحرف المقطعة للتنبيه على المادة الأولية، التي تتألف منها السورة والقرآن الكريم، وهي متاحة لجميع الناطقين بالعربية، ومع هذا يعجزون أن يؤلفوا منها كتاباً كهذا القرآن.

﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ [القصص: ٢]:

مبين لكل شيء..

لما سبق وما هو قادم..

يرد على شبهات السابقين، والملحدين المعاصرين، وغير ذلك من الأمور التي يشملها هذا الكتاب العزيز، والذي لا تنقضي عجائبه إلى يوم القيامة.

﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبْلِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾

[القصص: ٣]:

وقد خصّ المؤمنين بالذكر دون غيرهم؛ لأنهم هم الذين يتفعلون بتلاوة القرآن دون غيرهم، فغيرهم يترنم به دون النظر في معانيه، وأما هم فيصدقون ما يتلى عليهم، وتطمئن به قلوبهم، ويوقنون أن سنة الله في المخالفين والمحاريين لمحمد ﷺ هي سنته في فرعون وزمرته، وأنه سينجي المؤمنين، كما أنجى المستضعفين من بني إسرائيل.

﴿وَجَعَلْ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: ٤]:

تكريس الفرقة وتقسيم الناس إلى طوائف منهج فرعوني قديم.

﴿يَسْتَضِعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ﴾ [القصص: ٤]:

لا بد لكل طاغية أن يتخذ جماعة أو طائفة من الناس يُعْمَلُ فيهم سيف بطشه وانتقامه، ليردع بهم بقية الشعب، ويضمن إسكاتهم وخضوعهم.

﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]:

وإذا أراد الله أمرا، فمن الذي يقف أمام إرادة الله؟! ولاحظ استخدام نون العظمة أربع مرات في آية واحدة!

﴿وَنُرِيدُ﴾ [القصص: ٥]:

كن فيكون، فمن العبودية إلى السيادة، ومن الخدمة إلى الرفعة، ومن الرعية إلى الملكية.

﴿وَنُرِيْ فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٦]:

أرى الله فرعون وقومه ما كانوا يخافون منه، وهو ما رآه فرعون في رؤياه أن هلاكه سيكون على يد رجل من بني إسرائيل.. بعض الرؤى تتحقق، ولو كانت من كافر!

﴿لَا يُغْنِي حَذْرَ مَنْ قَدَرَ، وَلَا يَوْقِفُ إِرَادَةَ اللَّهِ بَشَرٌ، فَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ، وَلَا مَعَارِضَ لِسُلْطَانِهِ.﴾

دوام الحال من المحال، والأيام دُول، فلا يئأس المستضعفون، ولا يغترّ المستكبرون.

﴿إِنَّا رَأَدُّوهُ إِلَىكَ﴾ [القصص: ٧]:

تنتهي مخاوف العبد على عتبة الثقة في وعد الله.

﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ﴾:

سبحان الله! التقطوه من البحر الذي أغرقهم الله فيه.

﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]:

اللام للتعليل، أي أن الله ألهم آل فرعون ليلتقطوه ليكون لهم عدواً وعقوبة على ظلمهم، أو هي لام العاقبة والصيرورة، أي أن الوليد الذي التقطوه سيكون سبب القضاء على ملكهم وسلطانهم.

١١٧٥

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨]:

الثلاثة في الخطأ سواء، فرعون الملك، وهامان الوزير، وسائر الجند، لعنة الظلم حين تحل على الجميع!

١١٧٦

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَنَّ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ﴾ [القصص: ٨]:

قال أبو حيان في البحر المحيط: «أضيف الجند إلى فرعون وهامان، وإن كان هامان لا جنود له؛ لأن أمر الجنود لا يستقيم إلا بالملك والوزير، إذ بالوزير تحصل الأموال، ولا يكون قوام الجند إلا بالأموال».

١١٧٧

﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩]:

قال الآلوسي: «وعدلت عن قولها (لنا) إلى قولها: ﴿عَمَلِي وَلَكُمْ﴾ لتفخيم شأن القُرَّة، وقدمت نفسها عليه لما تعلم من مزيد حب فرعون إياها، وأن مصلحتها أهم عنده من مصلحة نفسه، فيكون ذلك أبلغ في ترغيبه بترك قتله».

١١٧٨

﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩]:

مغاليق القلوب لا تنفتح إلا لمن أذن الله له، فيُلقي الله محبتك في قلوب الخلق إن أحببك وقرَّبَكَ.

١١٧٩

﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ [القصص: ٩]:

كم ستزن هذه الكلمة يوم القيامة في ميزان آسيا بنت مزاحم؟! لا تستهن أبداً بكلمة حق!

١١٨٠

﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]:

لولا أن الله ربط على قلبها لذهب عقلها، ولا سلطان لأحد على قلب أحد إلا الله.

١١٨١

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمِّ مُوسَىٰ فَرِحًا﴾ [القصص: ١٠]:

أصبح الآراء أي فارحاً من كل شيء إلا من موسى.. إنها عاطفة الأمومة.

﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١]:

ما الغرض من التعبير القرآني بلفظ (لأخته) دون أن يقال: (لبنتها)؟
قال أبو السعود:

«للتصريح بمدار المحبة الموجبة للامثال بالأمر».

﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص: ١١]:

قال المراغي:

«أي وهم لا شعور لهم بما خبأه لهم القدر، وبما يؤول إليه أمرهم معه من عظام الأمور التي تؤدي إلى هلاكهم، وإنما علم ذلك لدى علام الغيوب».

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ﴾ [القصص: ١٢]:

قال ابن عاشور:

«هو تحريم تكويني، أي: قدّرنا في نفس الطفل الامتناع من التقام أنداء المراضع وكرهيتها؛ ليضطر آل فرعون إلى البحث عن مريض يتقبل ثديها».

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصْحُونَ﴾

[القصص: ١٢]:

قال ابن عباس رضي الله عنهما:

«فأخذوها فقالوا: ما يدريك ما نصحهم له وشفقتهم عليه؟ هل تعرفونه؟ حتى شكوا في ذلك، فقالت: نصحهم له وشفقتهم عليه رغبتهم في صهر الملك رجاء منفعة، فأرسلوها».

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ﴾ [القصص: ١٣]:

قد يتأخر الفرج أو يتعجّل!

قال ابن كثير: «ولم يكن بين الشدة والفرج إلا القليل: يوم وليلة».

وقد يتأخر الفرج لعشرات السنين كما حدث في عودة يوسف لأبيه يعقوب عليهما السلام، وكما تأخر الفرج لأيوب بعد أن لازمه مرضه سنين عديدة.

1117

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣]:

لتعلم أم موسى ونعلم جميعاً!

قال ابن كثير:

«أي: في ما وعد من رده إليها، وجعله من المرسلين، فحينئذٍ تحققت برده إليها إنه كائن من المرسلين».

1118

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ [القصص: ١٤]:

اختلفوا في معنى بلوغ الأشد والاستواء. قال الألوسي:

«والذي أرى أنه الراجح، بأن البلوغ الأشد عبارة عن بلوغ القدر الذي يتقوى فيه بدنه وقوته الجسمية، وينتهي فيه نموه المعتد به. والاستواء: اعتدال عقله وكماله، ولا ينبغي تعيّن وقت (أي سنّ) لذلك في حق موسى ﷺ إلا بخبر يُعَوَّل عليه».

1119

قال الإمام الرازي:

«ويروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة، والحكمة فيه ظاهرة؛ لأن الإنسان يكون إلى رأس الأربعين قواه الجسمية من الشهوة والغضب والحس قوية مستكملة، فيكون الإنسان منجذباً إليها، فإذا انتهى إلى الأربعين أخذت القوى الجسمية في الانتقاص، والقوة العقلية في الازدياد، فهناك يكون الرجل أكمل ما يكون، فلهذا السر اختار الله تعالى هذه السن للوحي».

1120

﴿فَاسْتَفْتَاهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ١٥]:

كن ذا مروءة وأغث من استغاث بك، مقتدياً بموسى عليه السلام.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾

[القصص: ١٦]

ورغم أن الله غفر لموسى، لكن موسى عليه السلام لم ينس ذنبه؛ فإذا جاءه أهل الموقف يطلبون شفاعته اعتذر وقال: «إني لست هناكم، إني قتلت نفساً بغير نفس».

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]:

النعمة التي ترفل فيها ستزول إذا نصرت ظالماً أو مجرماً!!

﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧]:

أ يكون شكر نعمة الله عليك أن توالي مجرماً وتؤيد طاغية؟! لا تكن ممن بدلوا نعمة الله كفراً!

﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ

يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ﴾ [القصص: ١٨]:

الدنيا ممتلئة بأناس يعشقون المشكلات ويحبون الصراع، ابتعد عنهم.

﴿قَالَ يَمُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ

تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمَصْلُحِينَ﴾ [القصص: ١٩]:

قال أبو حيان: «وشأن الجبار أن يقتل بغير حق»، وقال الشعبي: «من قتل رجلين فهو جبار»، يعني بغير حق، ولما أثبت لموسى الجبروتية نفى عنه الصلاح.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمُوسَى ابْنَ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ

بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]:

لم يمنعه بعد المسافة ومشقة الطريق من السعي في الخير، فهنيئاً لمن غبرَّ قدمه ساعة في طريق الخير.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى﴾ [القصص: ٢٠]:

الناصح يسعى.. يبادر.. لا يتأخر.. لا يتكاسل.. يتتهدد الفرص.. يشب إلى مواطن الأجر.. يبحث عن طرق الخير.

﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ﴾ [١١٤]

بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ [القصص: ٢٠]:

فيه دليل على جواز النسيئة لمصلحة دينية.

﴿خَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٢١]:

الخوف الفطري من الظالم لا شيء فيه، فموسى بن عمران خاف، لكنه استعان على خوفه بربه فدعاه، فنجّاه.

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القصص: ٢٢]:

كان موسى وحيداً طريداً فقيراً ضعيفاً ولا يعلم الطريق إلى مدين، فاستغاث بالله فأغاثه، واستجاب دعاءه، فكلما ازداد فقر العبد، غمره غنى الرب.

﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ﴾ [القصص: ٢٣]:

العفيفات المؤمنات لا يزاحمن الرجال في الطرقات!

﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ [القصص: ٢٣]:

أصحاب الهمم العالية وحدهم من يسعون في قضاء حوائج الآخرين.

﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصَدِرَ الرِّعَاءُ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣]:

إجابة مختصرة في ثماني كلمات دون كلمة زائدة! فحشمة المرأة في كلامها كما في ثيابها.

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾ [القصص: ٢٤]:

لم ينتظر كلمة ثناء، فالصادق لا يبحث عن الأضواء، بل يؤثر الظل والخفاء!

﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ﴾ [القصص: ٢٤]:

قالوا في تعريف الجواد: إنه الذي يعطي قبل السؤال صيانة للأخذ من ذل الطلب، فإن تصدقت فأسرع بالانصراف قبل أن ترى ذل الطلب على وجه السائل.

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]:

دعاء عظيم يفيض بالافتقار، علّمنا الله أن ندعوه به كما دعا به موسى عليه السلام.

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤]:

تعلموا فنَّ الدعاء، لم يقل: أنا جائع فأطعمني، وعطشان فاسقني، بل قال: أنا فقير إلى الخير الذي عودّني إياه، فتوسّل إلى الله بأمرين: فقره وحاجته، وفضل الله عليه وكرمه.

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لقد قال موسى عليه السلام:

﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ وهو أكرم خلقه عليه، ولقد افتقر إلى شق تمرّة، ولقد لصق بطنه بظهره من شدة الجوع».

ليس الفقر إذن علامة هوان، ولا الغنى علامة إكرام.

﴿فَجَاءَتْهُ﴾ [القصص: ٢٥]:

الفاء تفيد الترتيب والتعقيب، أي: فأجاب الله دعاءه في الحال، فما أسرع لطف الله بمن افتقر إليه ورجاه.

﴿تَمْشِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ﴾ [القصص: ٢٥]:

الأنوثة حياء لا عرض أزياء!!

﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ﴾ [القصص: ٢٥]:

رغم ازدحام القصة بالأحداث إلا أن الله ذكر الحياء، ليدلنا على عظيم مكانته، وأنه أجمل زينة للمرأة.

﴿تَمْشِي عَلَى أَسْتَحْيَاءٍ﴾ [القصص: ٢٥]:

مشيتك أيتها الفتاة كلام يخبر عن كثير من خصالك وأحوالك.

﴿قَالَتْ ابْنُ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥]:

قال ابن كثير: «وهذا تأدب في العبارة، لم تطلبه طلبا مطلقا لئلا يوهم ريبة».

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَعَارَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]:

قال ابن جزي: «رُوي أن أباهما قال لها: من أين عرفت قوته وأمانته؟! قالت:

أما قوته ففي رفعه الحجر عن فم البئر، وأما أمانته فإنه لم ينظر إليّ».

﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَعْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]:

أصغ لأصوات الناصحين، فرب نصيحة أورثت خيرا كثيرا، والدليل في هذه الآية!

﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُشُقَّ عَلَيْكَ﴾ [القصص: ٢٧]:

انظر حسن معاملة الرجل الصالح، وهو عكس سلوك غير الصالح، ففي الحديث: «ومن شاق شقَّ الله عليه يوم القيامة» صحيح الجامع رقم: ٦٣٠٤.

﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلِينَ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَيَّ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [القصص: ٢٨]:

لا تكثر من الوعود، فقد تعجز عن الوفاء بها.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]:

عن أنس رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال: «عليكم بالدُّجَّة، فإن الأرض تطوى بالليل» صحيح الجامع رقم: ٤٠٦٤.

عن سعيد بن جبير، قال:

سألني يهودي من أهل الحيرة؛ أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري، حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت، فسألت ابن عباس رضي الله عنهما، فقال: «قضى أكثرهما، وأطيبهما إن رسول الله ﷺ إذا قال فعل».

﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ [القصص: ٢٩]:

ما أجمل غيرة الرجل على أهله!

﴿يَمُوسَىٰ إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]:

سر تقديم صنعة (رب العالمين) قبل إصدار الأمر لموسى بإلقاء العصا هو: تثبيت قلب موسى، لهول تلقي الرسالة، ثم مواجهة شر الخلق فرعون، فإن جميع الخلائق مسخرة لله.

﴿وَأَنْ أَلْقِي عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَمُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۚ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ﴾ [القصص: ٣١]:

هذه آية أراها الله لموسى قبل لقاء فرعون ليكون يقينه أقوى، ويصبح أجراً في مواجهته وأقوى وأصلب، ثم وعده بالأمن، فاندفع موسى غير خائف ولا وجل، مطمئناً واثقاً بوعد ربه.

ونقل الرازي عن الشيخ أبي القاسم الأنصاري: «وذلك الخوف من أقوى الدلائل على صدقه في النبوة؛ لأن الساحر يعلم أن الذي أتى به تمويه فلا يخافه البتة».

﴿أَسْأَلُكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢]:

قال ابن عباس رضي الله عنه: ليس من أحد يدخله رعب بعد موسى عليه السلام ثم يدخل يده فيضعها على صدره إلا ذهب عنه الرعب.

﴿فَذَانِكَ بُرْهَنَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِيقِينَ﴾ [القصص: ٣٣]:

الفاسيق لا تنفعه كثرة البراهين، لكنها إقامة الحجة عليه من رب العالمين.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]:
هنا تعلل موسى بعله، لا ليرك الرسالة، ولكن ليعينه الله سبحانه، ويشبته، فهو يعترف بالضعف وبالعجز، وأنه محتاج إلى الرب سبحانه ليعينه.

﴿وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]:
ما أجمل التجرد، والاعتراف بفضل الآخرين، والتكامل بين الإخوان، وغياب الحسد بين الأقران.

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٤]:
هذه وظيفة الأخ الصالح: أن يشد عضدك، و(إذا سألته أعطاك، وإن سكت ابتداك، وإن نزلت بك نازلة واساك).

﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعُلُ لَكُمَا سُلْطَنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ﴾ [١٢٢٩]

بِغَايَتِنَا أَنْتُمَا وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغُلَبُونَ﴾ [القصص: ٣٥]:

الأخ الصالح حاجة ملحة، في المهمات الصعبة.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِغَايَتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ۝﴾ [١٢٣٠]

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَنقَبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

الظَّالِمُونَ﴾ [القصص: ٣٦، ٣٧]:

لم يقل أنا جئت بالهدى، فالتواضع والبعد عن الذاتية من صفات المرسلين

مهما كانت الآيات بينات، فلا أمل في النجاة إذا كان القلب قد مات.

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [القصص: ٣٧]: دعوة المظلومين!! ستبقى تطارد

الظالم، وستقف حائلاً بينه وبين أي توفيق وفلاح، وأي توفيق أصلاً سيناله؟!!

﴿فَأَجْعَلْ لِّي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ﴾ [القصص: ٣٨]:

يبلغ الغرور بالمتجبرين أن يفقدوا عقولهم، ويطلبوا المحال، أعراض ما قبل النهاية!

﴿وَأَسْتَكَبَرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا

يُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٣٩]:

الجند يقلدون القادة.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ [القصص: ٤٠]:

(أنا عبدٌ مأمور).. كم أضاعت هذه الكلمة من رجال، وأهلكت من أجيال،

وجلبت لأصحابها النار والوبال.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَنقَبَةُ

الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٤٠]:

هي عاقبة كل ظالم في كل زمان، وما فرعون إلا مثال، فبشر بها المظلوم، وأنذر

بها كل ظالم.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤٠]:

فرعون وجنوده هم قدوة كل ظالم، وفي الآخرة سيرتفع لهم لواء ينضوي تحته كل المتجبرين الذين ساروا في ركبهم.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص: ٤٠]:

كم من مشهور كانت شهرته من متطلبات هذه الوظيفة غدا: إمامة الناس إلى النار أهل النار.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١]:

فرعون وجنوده كانوا قدوة لكل شر وجبروت، وكذلك في الآخرة سينتظم تحت لوائهم كل من شاكلهم.

﴿وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤٢]:

فكل مَنْ ذكرهم في الدنيا يقول: لعنهم الله، فعليهم لعنة دائمة باقية ما بقيت الدنيا، وهذا اللعن والطرْد من رحمة الله، إنما هو مقدمة لعذاب باقٍ وخالد في الآخرة.

والقبح هو الإبعاد، قال الليث: يقال قبحه الله، أي نحاه عن كل خير. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من المشؤمين بسواد الوجه وزرقة العين، وعلى الجملة فالأولون حملوا القبح على القبح الروحاني، وهو الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى، والباقون حملوه على القبح في الصور. وقيل فيه: إنه تعالى يقبح صورهم ويقبح عليهم عملهم ويجمع بين الفضيحتين.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٤٣]:

قال ابن تيمية: «إن الله كانت سنته قبل إنزال التوراة، إذا كُذِّبَ نبي من الأنبياء ينتقم الله من أعدائه بعذاب من عنده، كما أهلك قوم نوح بالغرق، وقوم هود

بالريح الصرصر، وقوم صالح بالصيحة، وقوم شعيب بالظلة، وقوم لوط بالحاصب، وقوم فرعون بالغرق».

﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ

الشَّاهِدِينَ﴾ [القصص: ٤٤]:

لأن المرء قد يكون موجوداً في المكان، ولا يشاهد ما يجري حوله فيه.

لم تشهد موقف نزول الوحي على موسى وتكليفه بالرسالة، لكنك شهادته، فأخبارنا يقوم مقام الشهادة بل هي أصدق شهادة، فإن العين قد تزيغ وقد تطغى، بعكس أخبار الوحي التي ليس إلى الشك فيها سبيل.

﴿وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ﴾ [القصص: ٤٥]:

طول الزمان ينسي صاحب العهد ما قطعه على نفسه في ظل غياب الإيوان، فقد أخذ موسى العهود على قومه بأن يؤمنوا برسالة محمد، فلما توالى القرون نسوا عهودهم ولم يوفوا بها.

﴿وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا

مُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٤٥]:

أما كان إخبار النبي ﷺ بدقائق الأمور التي لا يمكن أن يأتي أحد بمثلها، إلا إذا كان شاهداً وحاضراً في ذلك الزمان، ألم يكن دليلاً على صدق نبوته، وصحة رسالته؟!

﴿وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ [القصص: ٤٦]:

من رحمة الله بهذه الأمة إخبارها بأنباء الغيب وأخبار الأنبياء السابقين وما جرى لهم مع أمهم، لنأخذ منها العظة والعبرة.

﴿وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٤٦]:

أرسلناك بالقرآن، وفيه : كتاب الله فيه خبر ما قبلكم، ونبأ ما بعدكم، وحكم ما بينكم؛ لذا فهو أعظم رحمة.

﴿لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّنْ نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

١٢٤٩

[القصص: ٤٦]:

أي: لم يأتهم نذير لوقوعهم في فترة بينك وبين عيسى، وهي خمسمائة وخمسون سنة.

﴿وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [القصص: ٤٧]:

١٢٥٠

ما وقع بلاء إلا بذنب، ولا كُشِفَ إلا بتوبة.

قال ﷺ: «ما اختلج عرق ولا عين إلا بذنب، وما يدفع الله عنه أكثر». صحيح الجامع رقم: ٥٥٢١.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى﴾

١٢٥١

[القصص: ٤٨]:

اليهود سبب كل بلاء!

قال أبو حيان:

«وهذه المقالة التي قالوها هي من تعليم اليهود لقريش قالوا لهم: ألا يأتي بآية باهرة كآيات موسى؟».

﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا﴾

١٢٥٢

[القصص: ٤٨]:

قال اليهود ذلك عن التوراة التي كفروا بها من قبل، فكيف لا يكفرون بالقرآن؟! وقصدوا بالساحرين: موسى ومحمد عليهما السّلام، وأنها تعاونا على هذا السحر، وقيل: هذا قول كفار قريش فرارًا من الإيمان.

﴿وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ [القصص: ٤٨]:

١٢٥٣

الكفر موقف نفسي!

إعلان الموقف النهائي: هو الكفر سواء بالكتابين أو بالرسولين، فليس عندهم أدنى استعداد للإيمان.

﴿قُلْ فَأَتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِن كُنْتُمْ

صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩]:

تكذيب لطيف! قال أبو حيان: «تعليق إتيانهم بشرط الصدق أمر متحقق متيقن أنه لا يكون ولا يمكن صدقهم، كما أنه لا يمكن أن يأتوا بكتاب من عند الله يكون أهدى من الكتابين».

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠]:

إما الاستجابة للوحي أو اتباع الهوى، ولا احتمال ثالث.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]:

أشد عقوبات الظالم على الإطلاق هي حرمانه من الهداية، واستدراجه إلى الغواية، حتى يهلكه الله، وهو عقاب مستحق له على ظلمه وعدوانه.

﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١]:

وَصَلَّ اللهُ لَنَا الْقُرْآنَ، وعهد إلينا أن نوصله للعالم، فهل نفذنا وصيته؟ وهل وَصَلْنَا الْقُرْآنَ لَدُنْيَا النَّاسِ؟! هل وَصَلْنَا دُنْيَاهُمْ بِآخِرَتِهِمْ؟!

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص: ٥٢]:

اختلفوا في من نزلت، لكن ما تشير إليه الآيات أنها نزلت في أناس كانوا قبل بعثة النبي ﷺ على دين سماوي، ولما جاء النبي ﷺ آمنوا به، وأوذوا في سبيل الله أشد الأذى، فصبروا.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ

مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]:

ليس المهم في من نزلت، بل المهم فيم نزلت.

يقول صاحب الظلال:

«وأيًا من كان الذين نزلت في أمرهم هذه الآيات، فالقرآن يرد المشركين إلى حادث وقع، يعلمونه ولا ينكرونه؛ كي يقفهم وجهًا لوجه، أمام نموذج من

النفوس الخالصة، كيف تتلقى هذا القرآن وتطمئن إليه، وترى فيه الحق، وتعلم مطابقتها لما بين أيديها من الكتاب، ولا يصددها عنه صناد من هوى ولا من كبرياء، وتحتمل في سبيل الحق الذي آمنت به ما يصيبها من أذى وتطول من الجهلاء، وتصبر على الحق في وجه الأهواء ووجه الإيذاء.

﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٣]:

إشارة إلى أن إيمانهم به قديم، وذلك لما وجدوه في كتب الأنبياء عليهم السلام المتقدمين على بعثة النبي ﷺ من البشارة بمقدمه.

﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤]:

تمدح الآية قومًا من أهل الكتاب أسلموا، وذكروا أكثر من سبب في أنهم أوتوا أجرهم مرتين:

الأول: أنهم صبروا على الإيمان بمحمد ﷺ قبل أن يبعث، ثم على اتباعه حين بُعث.

الثاني: مرة بإيمانهم بأنبيائهم قبل محمد ﷺ، ومرة أخرى بإيمانهم به ﷺ.

الثالث: أن هؤلاء لما آمنوا بمحمد ﷺ شتمهم المشركون، فصفحوا عنهم، فلهم أجران: أجر الصفح، وأجر الإيمان.

﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤]:

في الحديث الصحيح: «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وأدركني فأمن بي واتبعتني وصدَّقني فله أجران، وعبدٌ مملوك أدى حق الله تعالى وحق سيده فله أجران، ورجل كانت له أمة فغذاها فأحسن غذاها، ثم أدبها فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها، فله أجران». صحيح الجامع رقم: ٣٠٧٣.

﴿وَيَذَرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ [القصص: ٥٤]:

اغمر ذنبك بكثير الحسنات، فهذا أفضل طريق لمكافحة السيئات.

﴿وَيَذَرُوكَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ﴾ [القصص: ٥٤]:

على قولين: الأول: يدفعون بالاحتمال والكلام الحسن الأذى، والثاني: يدفعون بالتوبة والاستغفار الذنوب.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ﴾ [القصص: ٥٥]:

اللغو: هو الكلام الذي لا فائدة منه، فلا ينفعك إن سمعته، ولا يضرك عدم سماعه، وسُمِّي لغوًا لأن حقه أن يُلغى ويترك، وواجب المؤمن أن يُعرض عنه، ويحتجب أهله.

اجتنب الدخول في مناقشات وجدال عقيم حول المسائل الخلافية الثانوية، واحرص دائمًا على الابتعاد عن مجادلة الجهلة؛ لأن الجدل مع أهل اللغو لغو.

﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ﴾ [القصص: ٥٥]:

ليس المراد من (سلام) التحية، لكن المعنى: سلمتم منا، لا نعارضكم بالشتيم.

﴿لَا تَبْتَغِ الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٥]:

لا نطلب صحبتهم، ولا نريد مخالطتهم.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]:

حتى نفسك التي بين جنبيك لا تملك هدايتها إلا أن يشاء الله، فأكثر من سؤال الله الهداية لك ولغيرك.

﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ تُخْطِفُ مِنَّا أَرْضَنَا﴾ [القصص: ٥٧]:

قاله الحارث بن نوفل بن عبد مناف، فإنه قال للنبي ﷺ: «إنا لنعلم أن قولك الحق، ولكن يمنعنا أن نتبع الهدى معك أن يتخطفنا العرب من أرضنا، ولا طاقة لنا بالعرب».

﴿أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧]:

قال الماوردي: «فيه وجهان:

أحدهما: إنه جعله آمنًا بما طبع النفوس عليه من السكون إليه، حتى لا ينفر منه الغزال والذئب والحمام والحدأة.

الثاني: إنه جعله آمنًا بالأمر الوارد من جهته بأمان من دخله ولاذبه».

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ تُمْسِكِنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۚ وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥٨]:

بطر النعمة وعدم شكرها، هو سبب الهلاك، وليس اتباع الهدى. قال القرطبي: «يُن سبحانه لمن توهم، أنه لو آمن لقاتلته العرب وتحطفته، أن الخوف في ترك الإيمان أكثر، فكم من قوم كفروا ثم حل بهم البوار، والبطر: الطغيان بالنعمة».

﴿فَتِلْكَ مَسَكِنُهُمْ لَمْ تُمْسِكِنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [القصص: ٥٨]:

هذا الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ يحتمل وجوهاً ثلاثة؛ لأن القرى المهلكة على مدار التاريخ كثيرة، فإما:

- لم يسكنها إلا المسافر، والمار بالطريق يوماً أو ساعة.
- أو شؤم المعاصي بقي أثره في ديار الظلمة، فكل من سكنها من بعدهم، لم يبق فيها إلا قليلاً.
- أو لم يسكنها أحد بعد خرابها، وعادت كما كانت قبل سكنائهم فيها.

﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]:

سبب هلاك المجتمعات الظلم، والظلم فقط، وطالعوا القرآن يا سادة قبل مطالعة كتب علم الاجتماع: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾

﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [القصص: ٦٠]:

قال سعيد بن المسيب: «كنا عند سعد بن أبي وقاص فسكت سكتة، فقال: إنه قد قلت في سكتتي هذه خير مما يسقي الفرات والنيل، فقيل له: وما هو؟ قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر».

﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَنَقِيهِ﴾ [القصص: ٦١]:

لا تستبطئ وعد الله!

قال الإمام الشافعي: «دهمني أمرٌ وآمني، ولم يطلع عليه غير الله، فلما كان الليل أتاني آتٍ في منامي فقال لي: (اللهم أني لا أملك لنفسي حولا ولا

طولا.. اللهم إني لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، ولا أستطيع أخذ إلا ما أعطيتني، ولا أتقي إلا ما وقيتني، فوقفتني لما تحب وترضى من القول والعمل في عافية».

قال الإمام الشافعي: «فما ترحل النهار حتى قضى مطلبي».

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢]:

سؤال تقريع وتيكيت وتأنيب، وهو لون من العذاب النفسي في النار الذي هو أشد من العذاب الحسي.

﴿قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ [القصص: ٦٣]:

الآن.. تقولون: ربنا! بدأ الشياطين وأئمة الكفر جوابهم بقولهم: ﴿رَبَّنَا﴾، اعترافا منهم بعبوديتهم لله، وتمهيدا للتبرؤ ممن أضلوهم، فالآن فقط يستعطفون ربهم، وقد كفروا به في الدنيا وقادوا الناس إلى الكفر به.

﴿وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ [القصص: ٦٤]:

غدا تحدث مواجهات، وتتلوها مخاصمات وملاسنات، قبل أن يساق الجميع إلى النار.

﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾ [القصص: ٦٤]:

تمنوا حين رأوا العذاب، لو كانوا مهتدين في الدنيا لطريق الحق، لكن ماذا تفيدهم اليوم (لو)؟!

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٤]:

ها قد عرف سؤال الامتحان الأعظم، فهتئى للسؤال جوابا، وللحساب إعدادا.

﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ [القصص: ٦٦]:

لا يسأل بعضهم بعضا، كما يتساءل الناس عن حلول المشكلات؛ لأنهم تساؤوا جميعا في العجز عن الحجة والجواب.

﴿فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ﴾

[القصص: ٦٧]:

لماذا (عسى)؟ قال الإمام البقاعي:

«وإنما لم يقطع له بالفلاح، وإن كان مثل ذلك في مجاري عادات الملوك قطعاً، إعلالاً بأنه لا يجب سبحانه شيء، ليدوم حذره، ويتقي قضاءه وقدره».

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨]:

يخلق من خلقه خلقاً كثيراً، ويختار منهم لدينه وحمل رسالته خيار خلقه ومن يحب، فاللهم اجعلنا من هذه الصفوة.

﴿مَا كَانَتْ لَهُمْ الْخَيْرَةُ﴾ [القصص: ٦٨]:

قال القرطبي: «لا ينبغي لأحد أن يقدر على أمر من أمور الدنيا حتى يسأل الله الخيرة في ذلك، بأن يصلي ركعتين صلاة الاستخارة».

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٩]:

ألا يخاف المنافقون ممن يعلم ما تُكِنُّ الضمائر؟ ألا يحذر المخادعون من الخبير بما تنطوي عليه السرائر؟!

كم نحن مكشوفون أمام الله!

قال سلمان الفارسي عليه السلام: «إن لكل امرئ جَوَانِيًّا [باطناً] وَبَرَانِيًّا [ظاهراً]، فمن أصلح جَوَانِيَّه أصلح الله بَرَانِيَّه، ومن أفسد جَوَانِيَّه أفسد الله بَرَانِيَّه».

﴿وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [القصص: ٧٠]:

إلى كل من قال: لا إله إلا الله!

قال الإمام عبد القادر الجيلاني:

«يا قوم..

أضنوا (أتعبوا) شياطينكم بالإخلاص في قول لا إله إلا الله، لا بمجرد اللفظ، التوحيد يُحْرِقُ شياطين الإنس والجن؛ لأنه نار للشيطان ونور للموحدين.

كيف تقول: لا إله إلا الله، وفي قلبك كم إله؟!

كل شيء تعتمد عليه وتثق به دون الله فهو صنمك.
لا ينفعك توحيد اللسان مع شرك القلب.
لا ينفعك طهارة القلب مع نجاسة القلب.
الموحّد يُضني شيطانه، والمشرِك يُضنيه شيطانه.
الإخلاص لب الأقوال والأفعال؛ لأنها إذا خلت منه كانت قشرا بلا لب.
والقشر لا يصلح إلا للنار».

﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]:

حمد الله في الآخرة!

في صحيح مسلم من حديث جابر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عن أهل الجنة: «يُلهِمون التسبيح والحمد كما يُلهَمون النفس»، أي: تسبيحهم وتحميدهم يجري مع أنفاسهم.

﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ [القصص: ٧٠]:

قال الرازي:

«أما قوله: ﴿وَلَهُ الْحُكْمُ﴾ فهو إما في الدنيا أو في الآخرة.

فأما في الدنيا، فحكم كل أحد سواه إنما نفذ بحكمه، فلولا حكمه لما نفذ على العبد حكم سيده، ولا على الزوجة حكم زوجها، ولا على الابن حكم أبيه، ولا على الرعية حكم سلطانهم، ولا على الأمة حكم الرسول، فهو الحاكم في الحقيقة.

وأما في الآخرة، فلا شك أنه هو الحاكم؛ لأنه الذي يتولى الحكم بين العباد في الآخرة، فينتصف للمظلومين من الظالمين».

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَآ تَسْمَعُونَ﴾ [القصص: ٧١]:

قال الزركشي: «اقتضت البلاغة أن يقول: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ لمناسبة ما بين السماع والظرف الليلي الذي يصلح للاستماع، ولا يصلح للإبصار».

١٢٤٢

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْفَيْتَمَةِ مَنْ إِلَهُ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيَكُمُ لَيْلٌ تُسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص: ٧٢]:

من الدقة والبلاغة القرآنية، أن جاء ختام كل آية متناسبا مع سياقها، فعندما ذكرنا بنعمة الليل، ختم الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾؛ لاعتماد الإنسان على السمع في الليل أكثر من البصر.

وعندما ذكرنا بنعمة النهار، ختم الآية بقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾؛ لاعتماد الإنسان على النظر في النهار أكثر من السمع.

١٢٤٣

﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧٣]:

لتعاقب الليل والنهار في الدنيا فوائد، منها: التقلب بين التعب في النهار التي تستدعي راحة أثناء الليل، وأما في جنة الآخرة؛ حيث لا نصب ولا تعب، فلا حاجة لهذا التقلب، حيث هناك اللذة الأبدية والمتعة الأزلية؛ لذا فلا ليل ولا نهار، ولا شمس ولا قمر.

١٢٤٤

حكمة تعاقب الليل والنهار ثلاثة:

الأول: السكون والراحة أثناء الليل.

الثاني: الانتشار وطلب الرزق أثناء النهار.

الثالث: إعانة من الله لنا على شكر هاتين النعمتين.

١٢٤٥

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٧٤]:

[القصص: ٧٤]:

ما سر هذا التكرار؟!

قال البيضاوي:

«تقرير بعد تقرير، للإشعار بأنه لا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك به،

أو الأول: لتقرير فساد رأيهم، والثاني: لبيان أنه لم يكن عن سند، وإنما كان

محض نَسْهَ وهوى».

﴿وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٥]:

عن أبي سعيد الخدري قال: «قال رسول الله ﷺ: «يُدْعَى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأُمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأُمته، فتشهدون أنه قد بلغ: ﴿وَيَكُونُ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]». صحيح البخاري رقم: ٤٤٨٧.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: ٧٦]:

قال مجاهد في معنى عدم الفرح: «لا تبغ» من البغي، وأما الفرح مع العدل والطاعة فلا شيء فيه.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]:

انظر كيف قدّم عمل الآخرة على الدنيا؛ لأن الآخرة فرض، والدنيا فضل!

﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]:

ما أجل أن يكون إحسانك من جنس إحسان الله إليك! إن أحسن الله إليك بالمال، تصدّق، وإن أحسن إليك بالعلم، فعلم غيرك، وإحسان بالجاء أن تشفع في من لجأ إليك.

لم يزل محسنا إلى الناس من طالع إحسان الله إليه.

﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٧]:

تعلم اللطف في النصيح! ساقوا نصيحهم على سبيل التعريض، فلم يقولوا: أنت مفسد ومتكبر، وذلك رجاء أن يتعظ ويتذكر، لكنه ما فعل.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]:

ما لاحظ أحد نفسه إلا هلك.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]:

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم:

«لولا رضا الله عني ومعرفته بفضلي ما أعطاني هذا المال، وهكذا يقول من قلَّ علمه إذا رأى من وسَّع الله عليه: لولا أن يستحق ذلك لما أُعطي».

﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ﴾ [القصص: ٧٩]:

هما كَفَّتَا ميزان في كل قلب! إذا خَفَّتْ في القلب كفة (إرادة) الآخرة، رجحت كَفَّة (إرادة) الدنيا وغلبت.

﴿يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ﴾ [القصص: ٧٩]:

كُلُّ من تسبَّب بهاله وثروته في فتنة غيره وزعزعة إيمانه بالآخرة، فهو من ورثة (قارون).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ [القصص: ٨٠]:

الفتنة إذا أقبلت لم يعرفها إلا العلماء، فإذا أدبرت عرفها كل الناس.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١]:

الاغترار بالنفس هو سبب الخسف، إن لم يكن خسف الأرض فخسف القلب.

﴿لَوْلَا أَن مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَّا﴾ [القصص: ٨٢]:

لو كان الله قد أجاب دعاءهم بإعطائهم مثل ما أُوتي قارون، لكانوا قد هلكوا معه، لكن عدم إجابتهم لما يحبون كان سبب نجاتهم مما يكرهون.

﴿وَالْعَقِيبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]:

قال أبو بكر الصديق:

ما دخل قلبي رعبٌ بعد ليلة الغار، فإن النبي ﷺ لما رأى حزني قال لي: «لا عليك.. فإن الله تكفل لهذا الأمر بالتمام».

﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [القصص: ٨٤]:

ثواب الحسنة بناؤه على التضعيف، فالحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.
وأما أمر السيئة فبناؤه على التخفيف، فالسيئة بمثلها.

﴿لَرَأَدُكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]:

أي إلى مكة، وسميت معاداً لأن العرب كانت تعود إليها كل عام لتزور البيت الحرام، وهذا وعد من الله لنبيه وهو بمكة، أنه ﷺ يهاجر منها مطارداً ويعود منتصراً، ووجه تنكير لفظ ﴿مَعَادٍ﴾ أنه ذلك اليوم له شأن عظيم، وهذا من دلائل نبوته؛ أنه أخبر عن الغيب، فوقع كما أخبر به تماماً.

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ﴾ [القصص: ٨٦]:

كل تشريف من ورائه تكليف، فإذا منحناك هذه النعمة العظيمة (القرآن)، فلا تكونن ظهيراً أي معيناً للكافرين.

آية دالة على صدق النبي ﷺ، فلو كان هذا القرآن من عنده ﷺ، لما خاطب نفسه هذه المخاطبة.

﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ [القصص: ٨٦]:

عطاء الله دائماً فوق توقعات البشر.

﴿وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [القصص: ٨٧]:

آيات موجهة إلى رسول الله ﷺ، لكنها تشمل كل من تصدى للدعوة إلى الله؛ لأن وظيفة الدعاة هي وظيفة الرسل والأنبياء.

﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [القصص: ٨٨]:

١٣١١

الخطاب له ﷺ والمراد أمته.

قال الإمام الرازي: «ويجوز أن يكون المعنى: لا تعتمد على غير الله، ولا تتخذ غيره وكيلا في أمورك، فإن من وثق بغير الله تعالى، فكأنه لم يكمل طريقه في التوحيد».

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]:

١٣١٧

كل أحد أو شيء تشبث به وتعلق به قلبك، عن قريب مفارقه (وأحب من شئت فإنك مفارقه)، الله وحده هو الذي يبقى.



سورة العنكبوت

﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]:
سُئِلَ الشَّافِعِيُّ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ.. أَيُّهَا أَفْضَلُ لِلرَّجُلِ: أَنْ يُمَكَّنَ أَوْ يُتَبَلَى؟ فَقَالَ:
لَا يُمَكَّنُ حَتَّى يُتَبَلَى.

﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]:
قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ: «فَلَا يَظُنُّ أَحَدٌ أَنَّهُ يَخْلُصُ مِنَ الْأَلَمِ الْبَتَّةِ، وَإِنَّمَا يَتَفَاوَتُ أَهْلُ
الْآلَامِ فِي الْعُقُولِ، فَأَعْقَلُهُمْ مَنْ بَاعَ أَلَمًا مُسْتَمَرًّا عَظِيمًا بِأَلَمٍ مُنْقَطِعٍ يَسِيرٍ،
وَأَشْقَاهُمْ مَنْ بَاعَ الْأَلَمَ الْمُنْقَطِعَ الْيَسِيرَ بِالْأَلَمِ الْعَظِيمِ الْمُسْتَمَرِّ».

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣]:
مِنْ دَلَائِلِ نِسْبَةِ الْفِتْنَةِ إِلَى اللَّهِ أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ وَتَعَالَى الْقَادِرُ وَحْدَهُ عَلَى صَرْفِ الْفِتَنِ
عَنْهُمْ، مِمَّا يَسْتَلْزِمُ مِنْهُمْ اللِّجُوءَ إِلَى اللَّهِ وَدَعَاءَهُ أَنْ يَقِيَهُمْ شَرَّ الْفِتَنِ.

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۖ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ
الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]:

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «كَانُوا يَتَسَاوَوْنَ فِي وَقْتِ النِّعَمِ، فَإِذَا نَزَلَ الْبَلَاءُ،
تَبَايَنُوا».

﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]:
قَالَ الْبَغَوِيُّ: «وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِهِمْ قَبْلَ الْإِخْتِبَارِ. وَمَعْنَى الْآيَةِ: فَلْيُظْهِرَنَّ اللَّهُ
الصَّادِقِينَ مِنَ الْكَاذِبِينَ حَتَّى يَوْجَدَ مَعْلُومُهُ، وَقَالَ مُقَاتِلٌ: فَلْيَرَيْنِ اللَّهُ».

﴿فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣]:
قَالَ ابْنُ عَطَاءٍ: «أَيُّ يَتَبَيَّنُ صَدَقَ الْعَبْدُ مِنْ كَذِبِهِ فِي أَوْقَاتِ الرِّخَاءِ وَالْبَلَاءِ،
فَمَنْ شَكَرَ فِي أَيَّامِ الرِّخَاءِ وَصَبَرَ فِي أَيَّامِ الْبَلَاءِ فَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ، وَمَنْ بَرَّ فِي
أَيَّامِ الرِّخَاءِ، وَجَزَعَ فِي أَيَّامِ الْبَلَاءِ فَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ».

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا﴾ [العنكبوت: ٤]:

البعض يرتكب السيئات، ثم يحكم لنفسه بالنجاة، وهؤلاء يحسبون أن يفوتوا الله، فلا يقدر على مجازاتهم على مساوئ أعمالهم.

﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤]:

كل من ظن أنه يعصي الله ويخالف أمره، ثم لن يعاقبه الله، فبئس ما حكم به بأن ربه مسبوق، والله هو القادر على كل شيء.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ﴾ [العنكبوت: ٥]:

قال ابن جزي:

«ومعنى الآية: من كان يرجو ثواب الله فليصبر في الدنيا على المجاهدة في طاعة الله حتى يلقي الله، فيجازيه، فإن لقاء الله قريب الإتيان، وكل ما هو آتٍ قريب».

﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ [العنكبوت: ٦]:

قال السعدي: «لأن نفعه راجع إليه، وثمرته عائدة إليه، والله غني عن العالمين، لم يأمرهم بما أمرهم به ليتنفع به، ولا نهاهم عما نهاهم عنه بخلا عليهم».

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٧]:

أي: أحسن ما كانوا يتوقعون، فقد توقّعوا من الله أن يعطيهم ثواباً معيناً، فأعطاهم ثواباً مضاعفاً، فوق ما كانوا يأملون.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨]:

ولم يقل إحساناً كما في سورة الأحقاف؟ الإحسان أكرم من الحُسن، فتعاملك بشكلٍ حسنٍ درجة، لكن الإحسان درجة أعلى، بل هو أعلى مراتب حسن التعامل واللين واللطف وخفض الجناح، فالحسن كان مع الوالدين الكافرين، والإحسان في سورة الأحقاف مع الوالدين المؤمنين.

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ

بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [العنكبوت: ٨]:

فتنة الأهل شديدة، وأمر الله المؤمن أن يواجهها بشيئين: الإحسان إليهما مع عدم الطاعة في المعصية.

﴿فَلَا تُطِعْهُمَا إِنْ مَرَجَعُكُمْ فَأُنتِبُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨]:

إن الله عز وجل لم يجعل الابن ندًا لوالده ولو كان كافرًا، فقال: ﴿إِنْ مَرَجَعُكُمْ فَأُنتِبُكُمْ﴾، ولم يقل: فأحكم بينكم؛ لأن التحاكم يقتضي النديّة والمساواة، وهذه لا تجوز بين الابن ووالده.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٩]:

هنا إشارة إلى أن المؤمن السالك لطريق الدعوة، يزيده الله إيمانًا بابتلائه، ويُدخله في سبيل الصالحين من قبله.

من الصالح؟!

قال الشيخ ابن باديس: «هو من استنار قلبه بالإيمان والعقائد الحقّة، وزكت نفسه بالفضيلة والأخلاق الحميدة، واستقامت أعماله وطابت أقواله، فكان مصدر خير ونفع لنفسه وللناس، استقام نظامه في عقده وخلقه وقوله وعمله، فعظمت وزكت منفعته، وهذا هو معنى الصالحين حيثما جاء».

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]:

أي يقول بلسانه دون أن يواطئ هذا القول قلبه.

سأل رجلُ الحسن: يا أبا سعيد، أمؤمن أنت؟! فقال له: «الإيمان إيمانان، فإن كنت تسألني عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله والجنة والنار والبعث والحساب فأنا به مؤمن. وإن كنت تسألني عن قول الله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾، فوالله ما أدري أنا منهم أم لا».

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠]:

قال مجاهد: «نزلت في ناس من المنافقين بمكة، كانوا يؤمنون، فإذا أُوذوا رجعوا إلى الشرك».

﴿وَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١]:

لا ذكر هنا للكفار، فليس أخطر على المسلمين من المنافقين.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلَ خَطِيئَتَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٢]:

قال الزمخشري: «ونرى في المتسمين بالإسلام من يستنّ بأولئك فيقول لصاحبه - إذا أراد أن يشجّعه على ارتكاب بعض العظائم -: افعل هذا وإثمه في عنقي، وكم من مغرور بمثل هذا الضمان من ضعفة العامة وجهلتهم».

﴿وَلْيَحْمِلْ أَثْقَاهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ [العنكبوت: ١٣]:

القاعدة المطردة ألا تزر وزر أخرى إلا هنا، فتضاف إليهم أثقال أخرى، ربما لم يعرفوا شيئاً عنها، وكأنهم نسوا أو تناسوا ما خاطبوا به غيرهم: ﴿اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [العنكبوت من الآية: ١٢].

﴿فَلَيْتَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]:

العام يطلق على الخصب والخير، والسنة تُطلق على الشدة والقحط، ٩٥٠ سنة قضاها نوح في شدة وقحط.

﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَبَ السَّفِينَةَ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]:

سفينة نوح سبب تفاؤل كل مؤمن! قال السعدي: «يعتبرون بها، على أن من كذب الرُّسل، آخر أمره الهلاك، وأن المؤمنين سيجعل الله لهم من كل هم فرجاً، ومن كل ضيق مخرجاً».

﴿وَابْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ﴾ [العنكبوت: ١٦]:

كل خير في الدنيا والآخرة هو من آثار عبادة الله وتقواه.

﴿وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ﴾ [العنكبوت: ١٦]:

التقوى لا تأتي إلا بخير.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ

تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ [العنكبوت: ١٧]:

ذكر بطلان مذهبهم بأبلغ وجه؛ وذلك لأن المعبود إنما لكونه مستحقاً للعبادة بذاته، أو كونه نافعاً في الحال أو المآل.

فنسف الحجة الأولى أنه مستحق للعبادة بذاته، بأنهم أوثان لا تنفع ولا تضر: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾.

ونسف الحجة الثانية من أن المعبود نافع في الحال أو المآل بأنهم لا يرزقون من يعبدونهم: ﴿لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾.

﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ [العنكبوت: ١٧]:

الرزق عند الله وحده، لا عند غيره، فلا تدلّ لغير الله.

﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ

الْمُيِّنُ﴾ [العنكبوت: ١٨]:

لا يكفي منك البلاغ، لكن لا بد من إتقان هذا البلاغ بالإبانة، والإبانة هي إقامة البرهان عليه.

﴿وَقَدْ بَلَغَ النَّبِيُّ ﷺ الْبَلَاغَ الْمُبِينُ، وَأَشْهَدُ اللَّهَ عَلَى أُمَّتِهِ كَمَا جَعَلَ فِي حُجَّةِ الْوَدَاعِ

يقول: «ألا هل بلغت؟» فيقولون: نعم، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد، اللهم اشهد» ثلاث مرات. رواه مسلم رقم: ١٢١٨.



يقدر على ضرب فلان المطيع، فلا يقدر عليّ أيضًا لكوني مثله؛ ولذا ربط الله التعذيب بالمشيئة: ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ ليفيد الخوف العام؛ لأن الأمن من الله يوجب الجرأة عليه، وانقلاب المطيع عاصيًا.

﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [العنكبوت: ٢٢]:

أي ما أنتم بقادرين على أن تفلتوا من لقاء الله وحسابه، سواء كنتم في الأرض أو في السماء، وقال الفراء: ولا مَنْ في السماء بمعجزين الله فيها.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَكُونُ مِنْ رَحْمَتِي﴾

[العنكبوت: ٢٣]:

لا يجوز الترحم على الكافرين؛ لأن الله صرّح أنهم لا يدخلون في رحمته، فكيف نترحم على من صرّح الله بأنهم يئسوا من رحمته؟!

﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ﴾ [العنكبوت: ٢٤]:

متى يلجأ الظلمة إلى استعمال القوة؟! قال ابن كثير: «قام عليهم البرهان، وتوجّهت عليهم الحجة، فعدلوا إلى استعمال جاههم وقوة ملكهم».

﴿وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥]:

ذكر ابن العربي أن لعن العاصي المعين لا يجوز اتفاقًا، وأما لعن العاصي مطلقًا فيجوز إجماعًا.

﴿فَقَامَنْ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ [العنكبوت: ٢٦]:

هذه أول هجرة في الدين، ويُستفاد منها أن الإنسان إذا لم يجد في بلده سبيلًا لإقامة دين الله وعبادته، فالأولى له أن يهاجر.

﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]:

قال القرطبي: «الصالح في الآخرة هو الفائز».

قال معاوية بن قرة: «اللهم إن الصالحين أنت أصلحتهم ورزقتهم أن عملوا بطاعتك فرضيت عنهم، اللهم كما أصلحتهم فأصلحنا، وكما رزقتهم أن عملوا بطاعتك فرضيت عنهم، فارزقنا أن نعمل بطاعتك، وارض عنا».

﴿وَلَوْ طَآٓءَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ آلَفَحِشَّةً مَّا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ

مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٨]:

تأمل ترويج وسائل الإعلام اليوم لعمل قوم لوط، وكيف تباروا في ترويج هذا الباطل من خلال الأفلام والروايات، لتعلم إلى أي منحدر انتكست فطرة القوم.

﴿أَنتُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]:

مع فداحة جريمة قوم لوط ذكر قطع الطريق معها؛ لأن إيذاء الناس كبيرة من الكبائر.

﴿قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾

[العنكبوت: ٣١]:

الظلم = الهلاك، إن لم يكن في الدنيا، ففي الآخرة.

﴿قَالَ إِنِّ فِيهَا لُوطًا﴾ [العنكبوت: ٣٢]:

المؤمن رحيم بالمؤمن!

قال قتادة: «لا يلقي المؤمن إلا يرحم المؤمن، ويحوطه حيثما كان».

﴿قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا﴾ [العنكبوت: ٣٢]:

أيها أفضل؟!

قال ابن عاشور: «لا يقتضي كونهم أعلم بهذا منه أن يكونوا أفضل من إبراهيم، فإن قول أهل الحق: إن الرسل أفضل من الملائكة، والمزية لا تقتضي الأفضلية، ولكل فريق علم أطلعه الله عليه وخصّه به».

﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٢]:

لماذا امرأته؟! قال جمال الدين القاسمي:

«ومن رضي عمل قوم حُشر معهم. كما حُشرت امرأة لوط معهم، ولم تكن تفعل فاحشة اللواط؛ فإنه لا يقع من المرأة، ولكن لما رضيت فعلهم، عمّها معهم العذاب».

﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَهُمْ﴾ [العنكبوت: ٣٣]:

كيف يسوؤه حضور الملائكة؟! والجواب: كان هذا قبل أن يعلم لوط أنهم ملائكة لأنهم جاءوا في صورة رجال، فاعتزته المساء والأحزان لخوفه من اعتداء قومه عليهم.

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [العنكبوت: ٣٣]:

من الذَّرْع، وأصله أن يذرع البعير يديه في سيره ذرعًا، على قدر سعة خطوته، فإذا حُمِّلَ عليه أكثر من طاقته ضاق ذرعه، أي ضعف عن ذلك، وهو تعبير عن نفاد حيلته، وعجزه عن أن يجد مخرجًا للمكروه الذي حل به.

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [العنكبوت: ٣٣]:

قال القشيري: «أقرب ما يكون العبد في البلاء من الفرج إذا اشتدَّ عليه البلاء، فعند ذلك يكون زوال البلاء؛ لأنه يصير مضطَّرًّا، ووعد الله للمضطرين وشيك الإجابة، كذلك كان لوط في تلك الليلة، فقد ضاق بهم ذرعًا ثم لم يلبث أن وجد الخلاص من ضيقه».

﴿وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ [العنكبوت: ٣٣]:

تعلم من الملائكة أن تكون دائمًا مصدر تفاؤل لمن حولك، تنهاهم دائمًا عن الخوف والحزن.

﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا

يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤]:

لا بد للفاسق من عقوبة، دنيوية أو أخروية.

قال صاحب الكشاف: «الرَّجْز والرَّجْس: العذاب، من قولهم: ارتجز وارتجس إذا اضطرب، لما يلحق المَعْدَّب من القلق والاضطراب».

﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِثْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٥]:

آيات الله في إهلاك الظالمين حاضرة، لكن عقول البعض غائبة!

﴿وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ

الْآخِرَ﴾ [العنكبوت: ٣٦]:

الرجاء هنا بمعنى الخوف أي خافوا يوم القيامة أو بمعنى: افعلوا ما ترجون به ثوابه، فلا قيمة لرجاء ولا خوف من غير عمل.

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ﴾

[العنكبوت: ٣٧]:

قال الإمام الرازي:

«قال ها هنا وفي الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ﴾، وقال في هود: ﴿وَأَخَذَتْ

الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ﴾، والحكاية واحدة!

نقول: لا تعارض بينهما، فإن الصيحة كانت سبباً للرجفة، إما لرجفة الأرض، إذ قيل إن جبريل صاح فتزلزلت الأرض من صيحته، وإما لرجفة الأفئدة، فإن قلوبهم ارتجفت منها».

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسْكِنِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣٨]:

قال ابن كثير:

«فعاد قوم هود عليه السلام كانوا يسكنون الأحقاف، وهي قرية من حضرموت بلاد اليمن، وثمود قوم صالح كانوا يسكنون الحجر قريباً من وادي القرى، وكانت العرب تعرف مساكنهما جيداً، وتمر عليها كثيراً».

وكان الله تعالى يقول: لن أحكي كثيراً من تفاصيل ما حاق بهم؛ بل سأترككم تشاهدون من ديارهم وآثار دمارهم بما يردعكم عن السير في مثل طريقهم، ومع الثورة العلمية اليوم نستطيع جميعاً أن نشاهد أفلاماً كثيرة على اليوتيوب تعرض لآثار هذه القرى المدمرة.

﴿وَرَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ [العنكبوت: ٣٨]:

التزيين من أسلحة الشيطان الخطيرة، يزِين الحرام القبيح في أعين ضحاياه، حتى يحبوه ويؤثروه ويدعوا غيرهم إليه.

﴿وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨]:

سلوا الله العافية! كانوا ذوي عقل وذكاء وأفهام، لكن ما نفعتهم مع غياب الإيمان، فكانوا كما قال ابن تيمية:
 «أُوتُوا ذِكَاءً وَمَا أُوتُوا زَكَاءً، وَأُعْطُوا فَهُومًا وَمَا أُعْطُوا عِلْمًا، وَأُعْطُوا سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً» ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾.

﴿وَقُرُونًا وَفِرْعَوْنَ وَهَمَانَ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ

فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَاقِيْنَ﴾ [العنكبوت: ٣٩]:

قال الألوسي:

«وتقديم قارون؛ لأن المقصود تسليية النبي ﷺ في ما لقي من قومه لحسدهم له، وقارون كان من قوم موسى ﷺ وقد لقي منه ما لقي.
 أو لأن حال قارون أوفق بحال عاد وثمود، فإنه كان من أبصر الناس وأعلمهم بالتوراة، ولكنه لم يفده الاستبصار شيئًا، كما لم يفدهم كونهم مستبصرين شيئًا».

﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٣٩]:

لماذا تخصيص: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾؟ قال الرازي:

«إشارة إلى ما يوضح قلة عقلهم في استكبارهم؛ وذلك لأن من في الأرض أضعف أقسام المكلفين، ومن في الساء أقواهم، ثم إن من في الساء لا يستكبر على الله وعن عبادته، فكيف يستكبر من في الأرض».

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾

[العنكبوت: ٤٠]:

ما كان الله ليظلمهم بالإهلاك، لكنهم ظلموا أنفسهم بالإشراك.

ظلموا أنفسهم بمنعها من حقها، وسر راحتها في الدنيا والآخرة، وذلك بطاعة ربها، وعذبوها بشهواتها ومعصيتها، فأضرروها من حيث ظنوا أنهم ينفعونها.

﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠]:

الذنوب سبب الإهلاك، ولا عقوبة بغير سبب.

لن يؤاخذك الله بذنب غيرك، فاشتغل بذنوبك عن ذنوب غيرك.

قال ابن تيمية: «ومن ظن أن الذنوب لا تضره - لكون الله يحبه - مع إصراره

عليها كان بمنزلة من زعم أن تناول السم لا يضره مع مداومته عليه!
ولو تدبر الأحمق ما قصَّ الله في كتابه من قصص أنبيائه، وما جرى لهم من
التوبة والاستغفار، وما أصيبوا به من أنواع البلاء الذي فيه تمحيص لهم،
وتطهير؛ علم بعض ضرر الذنوب بأصحابها، ولو كان أرفع الناس مقامًا».

﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنْ ذُنُوبِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ

بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١]:

قال صاحب الكشاف: «الغرض تشبيه ما اتخذوه متكلاً ومعتمداً في دينهم،
بما هو مثلاً عند الناس في الوهن وضعف القوة، وهو نسج العنكبوت، فإن
قلت: ما معنى قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، وكلُّ أحد يعلم وهن بيت
العنكبوت؟ قلت: معناه: لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم، وأن أمر دينهم بالغ
هذه الغاية من الوهن».

﴿كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١]:

علاقة هذا المثل بموضوع السورة أن الإنسان عند الفتن عليه ألا يلجأ إلى القوى
الضعيفة الواهنة كالتجاء العنكبوت لبيت العنكبوت، بل يلجأ إلى الله القوي المتين،
وكما تتشابك خيوط العنكبوت وتتعدد، فكذلك فتن الحياة متشابكة ومتعددة، لكن
استعانة العبد بربه تبدد هذه الفتن، فتصبح واهية كبيت العنكبوت.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

[العنكبوت: ٤٢]:

ما أجهل من عبد ما لا يملك من القدرة والحكمة شيئاً، وترك عبادة القادر
على كل شيء، والحكيم الذي لا يفعل شيئاً إلا بحكمة وتدبير.

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]:

في القرآن ثلاثة وأربعون مثلاً، لا يتدبرها إلا العالم، فمن العالم؟! تلا جابر بن عبد الله هذه الآية، ثم قال: «العالم الذي عقل عن الله أمره، فعمل بطاعة الله، واجتنب سخطه».

قال عمرو بن مَرْة: «أكره أن أُمَرَّ بمثل في القرآن فلا أعرفه؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾».

﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [العنكبوت: ٤٤]:

لذا لا يساوي بين المحسن والمسيء! قال الطبري: «ومن الحق أن نخالف بين حكم المسيء والمحسن، في العاجل والآجل».

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]:

لو صلينا بحق، لا خفت كثير من المنكرات من حياتنا.

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]:

قال الحسن:

«يا ابن آدم.. إنما الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، فإن لم تنهك صلاتك عن الفحشاء والمنكر، فإنَّك لست تصلي».

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]:

عن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله.. إن فلاناً يصلي الليل كله، فإذا أصبح سرق! قال: «سينهاه ما تقول». السلسلة الصحيحة رقم: ٣٤٨٢.

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]:

يقول ابن القيم:

«إنَّ أفضل أهل كلِّ عمل أكثرهم فيه ذكراً لله عز وجل، فأفضل الصَّوَّام أكثرهم ذكراً لله عز وجل في صومهم، وأفضل المتصدِّقين أكثرهم ذكراً لله عز وجل، وأفضل الحجَّاج أكثرهم ذكراً لله عز وجل، وهكذا في سائر الأعمال».

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]:

١٣٩٧

قال ابن عباس وابن مسعود:

«ذِكْرُ اللَّهِ لَكُمْ أَكْبَرُ مِنْ ذِكْرِكُمْ لَهُ فِي عِبَادَتِكُمْ وَصَلَوَاتِكُمْ، وَهُوَ ذَاكِرٌ مَنْ ذَكَرَهُ».

﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]:

١٣٩٨

قيل لسلمان الفارسي: أي الأعمال أفضل؟ فقال: ألا تقرأ القرآن؟! ألم تقرأ: ﴿وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾؟

﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]:

١٣٩٩

قال ابن تيمية: «الصحيح في معنى الآية أن الصلاة فيها مقصودان عظيمان، وأحدهما أعظم من الآخر، فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي مشتملة على ذكر الله تعالى، ولما فيها من ذكر الله أعظم من نهيها عن الفحشاء والمنكر».

﴿آتِلْ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥]:

١٤٠٠

في هذه الآية بيان زاد الاتقياء في طريق المحن والابتلاء، وهي تلاوة القرآن والصلاة وذكر الله.

